

# فِضَائِلُ الْقُرْلَى

## مَجْمُوعَةُ خُطَابَاتٍ

لِسَيِّدِنَا مَرْزَا بَشِيرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ أَحْمَدِ  
الْخَلِيفَةِ الثَّانِيِّ لِلْمَسِيحِ الْمُوعُودِ

تَعْرِيبٌ: عَبْدُ الْمُجِيدِ عَامِرٍ



اسم الكتاب: فضائل القرآن

الطبعة الأولى: ١٤٤٦ هـ الموافق لـ ٢٠٢٤ م

An Arabic rendering of  
Fazaa'ilul-Quran (Urdu)  
(Excellences of the Holy Quran)

Lectures by:

Hazrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad  
(may Allah be pleased with him)

Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

First Published in UK in 2024

© Islam International Publications Ltd.

Published by:  
Islam International Publications Ltd.  
Unit 3, Bourne Mill Business Park,  
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS  
United Kingdom

Printed in Turkey by Elma Basim

For further information please contact:

Phone: +44 1252 891330

Fax: +44 1252821796

[www.islamahmadiyya.net](http://www.islamahmadiyya.net)

ISBN:978- 1-84880-391-6

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



# فهرس المحتويات

	أ	مقدمة الناشر
١	فضائل القرآن (١)	
١	أفضلية القرآن الكريم على الكتب الإلحادية السابقة والرد على اعتراضات المستشرقين	
٢	بعض الأمور المبدئية لتدبر معاني القرآن	
٢	ضرورة القرآن	
٣	كيف نزل وحي القرآن	
٤	البحث في جمع القرآن	
٤	حفظ القرآن الكريم	
٤	علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة	
٥	هل تصدق الكتب السابقة القرآن الكريم	
٥	محاسن القرآن الكريم الإضافية مقارنة مع الكتب السابقة	
٥	ترتيب القرآن	
٦	بحث الناسخ والمنسوخ	
٦	الهدف من نزول القرآن وتحقيقه	
٦	تعليم يطابق الفطرة البشرية	
٦	مبادئ فهم القرآن	
٧	بأيّ معنى يصدق القرآن الكريم الكتب السابقة؟	
٧	الهدف من بيان الأحداث الماضية	
٧	حقيقة الأقسام	

٧	بحث المعجزات
٨	لا تعارض بين قول الله و فعله
٨	كمالات القرآن الكريم الروحانية
٨	الكلام المشعر الأخير
٨	السبب في اختيار اللغة العربية
٨	الرد المبدئي على عيوب التعاليم السابقة وبيان المبدأ السليم
٨	الأدلة على صدق القرآن الكريم
٩	تأثيرات القرآن الكريم
٩	حل المتشابهات
٩	حل المقطّعات
٩	ما المراد من القراءات السبع
٩	مسألة خلق القرآن
٩	القرآن الكريم كتاب حي
١٠	ما هي العلوم التي ذكرها القرآن الكريم
١٠	القرآن ذو المعرف
١٠	القرآن كتاب كامل
١٠	فصاحة القرآن الكريم
١٠	مقارنة القرآن الكريم مع الكتب الأخرى الإلهامية
١٠	قانون روحي و مادي و حضاري وسياسي لا نظير له
١٠	الاستعارات في القرآن الكريم
١١	ضرورة ترجم معايي القرآن
١١	وسائل حفظ القرآن

١١	لماذا سُمِّي القرآن شرعا
١١	لماذا نزل القرآن على مكث
١١	لا يمكن لترجمةٍ لمعاني القرآن أن تحيط بجميع مضامينه
١١	كلمات القرآن كلها موحى بها
١٢	القرآن منزه تماماً عن كلام الشيطان
١٢	من خاطبهم القرآن
١٢	هل ينبغي ترجمة معاني القرآن حرفيأً أم بлагاغياً
١٣	هجوم المستشرقين على القرآن الكريم
١٤	دجل المسيحيين
١٥	نزول القرآن الكريم منجماً
١٨	الاعتراضات على جمع القرآن
١٩	الرد على اعتراضات المعارضين
٢٣	الحكام والمتشبهات
٢٦	لماذا سُمِّي القرآن كله مُحكماً ومتشاجهاً في الوقت نفسه؟
٢٩	فضائل القرآن (٢)
٢٩	الأدلة العقلية والنقلية على أفضلية القرآن الكريم على الكتب السابقة
٣٠	مغزى الإسلام وروحه
٣٠	أفضلية القرآن الكريم على الأديان والكتب الإلهامية كلها
٣١	القرآن الكريم كنز روحي
٣٢	الكتاب الكامل من أوجه الكمال كلها
٣٢	منجم الجواهر

٣٣	ستة وعشرون وجهاً لأفضلية القرآن
٣٣	أفضلية المصدر
٣٤	الأفضلية من حيث المؤهلات الذاتية
٣٤	الأفضلية من حيث النتائج
٣٤	الأفضلية من حيث عظمة الفائدة
٣٤	الأفضلية من حيث كثرة الفوائد
٣٥	الأفضلية من حيث سعة المنفعة
٣٥	الأفضلية من حيث مدة النفع
٣٥	الأفضلية من منطلق مكانة المستفيدين
٣٥	الأفضلية من حيث أنواع المستفيدين
٣٦	الأفضلية من حيث النزاهة عن الزيف
٣٦	الأفضلية من حيث الفوائد اليقينية
٣٦	الأفضلية من حيث الجمال الظاهري
٣٦	عدم الإضرار بالأمور الضرورية
٣٦	الأفضلية من حيث كون الفوائد سهلة المنال
٣٧	الأفضلية من حيث كونه فريداً في سد الحاجات
٣٧	الأفضلية من حيث سد الحاجات الضرورية
٣٧	الأفضلية من حيث السهولة في الحفاظ عليه
٣٧	الأفضلية من حيث المنفعة
٣٧	الأفضلية من حيث كونه بريئاً من الخسارة
٣٨	الأفضلية من حيث الدعوة العامة
٣٨	الأفضلية من حيث علاج الأمراض

٣٨	الأفضلية من حيث المنافع الإضافية
٣٨	الأفضلية من حيث سعة وجهة النظر
٣٩	الأفضلية من حيث الإغناء عن الكتب الأخرى
٣٩	الأفضلية من حيث الإرشاد إلى العلوم الصحيحة
٣٩	الأفضلية من حيث سد الحاجات الذاتية
٣٩	ادعاء القرآن وأفضليته
٤١	نبوءة في التوراة عن نزول شرع جديد
٤١	ادعاء النبي ﷺ أنه مصدق نبوة موسى عليه السلام
٤٢	الدليل على أفضلية القرآن من حيث المصدر
٤٤	ثلاثة أدلة على كون القرآن من الله
٤٤	الفرق بين الآية والبيبة
٤٤	الدليل على كون القرآن "البيبة"
٤٥	نبوءة القرآن الكريم العظيمة
٤٧	إظهار كل نوع من العلوم بواسطة القلم
٤٨	ترويج العلوم المتجددة
٤٩	شهادة أخرى على أفضلية القرآن الكريم
٥٠	حل مشكل القرآن بواسطة العلماء الروحانيين
٥١	كشف ابن عربى رحمة الله عن خلق العالم
٥١	تحدي المسيح الموعود عليه السلام
٥٢	القرآن الكريم يقدم الدليل على ما يدعى به
٥٢	تعليم القرآن عديم النظير عن الأخلاق
٥٣	إثبات حقيقة النبوة

٥٣	الترتيب العظيم في القرآن الكريم
٥٣	النبؤات عن المستقبل في القصص القرآني
٥٤	المعنى الصحيح لنبوءة تتحدث عن قرب القيامة
٥٤	دحض الأديان الباطلة كلها
٥٤	الكتاب الكامل بحد ذاته
٥٥	كتاب يهب مراتب عليا للتقدم الروحاني
٥٥	حقيقة البعث بعد الموت
٥٥	تعريف المطهّر
٥٥	السؤال والرد عليه
٥٧	صفات الله ومظاهرها
٥٧	الأفضلية من حيث الجمال الظاهري
٥٨	أربعة اعترافات للمسيحيين
٥٨	فصاحة لغة القرآن الكريم
٦٠	كلمات أجنبية في القرآن
٦١	حقيقة كلمة "رحمن"
٦١	استخدام كلمة "رحمن" عند العرب
٦٢	ترتيب القرآن الكريم هو الأعلى
٦٢	بعض المزايا في ترتيب القرآن
٦٤	كثرة المعارف والحقائق في آيات وجيزة
٦٤	تفسير رائع لـ «اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»
٦٦	السجع في القرآن الكريم
٦٦	تفسير الآيات الأولى من سورة الجمعة

٦٨	التوازن الدقيق في الآيات القرآنية
٦٩	كثرة ذكر الله في القرآن الكريم
٦٩	كتاب بريء من قسوة الكلام
٧٠	كتاب بريء من فحش الكلام وسوء الخلق
٧١	الكلام الدال من الظاهر إلى الباطن
٧٢	الاعتراض بوجود التكرار في القرآن
٧٣	فلسفة الموت
٧٤	السبب الثالث للأفضلية
٧٤	ال حاجات الخمس للدين
٧٥	الدليل على صفات الله المتعلقة بالعباد
٧٦	بعض صفات الله أزواج
٧٧	الدليل المادي على صفة الله: (رَبُّ الْعَالَمِينَ)
٧٨	الدليل الروحاني على كون الله رب العالمين
٧٩	معنى وجود القرآن الكريم في الكتب السابقة
٧٩	يجب أن يكون شرح صفات الله بكلماته
٨١	بيان قوى الإنسان الروحانية
٨١	تفسير رائع لـ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)
٨٤	التحدي لأتباع مذهب التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح
٨٦	لا يمكن ظهور القوى الروحانية للفطرة البشرية دون كلام الله
٨٧	حادث وقع في أثناء السفر إلى بريطانيا
٨٧	اتحاد الكتاب المبين والكتاب المكتوب
٩٠	التعليم الكامل لإكمال القوى الروحانية

٩١	إظهار النتائج الروحانية
٩٢	عدم التزام الأديان الأخرى بالمبادئ
٩٢	دليل قاطع على كمال تعليم الإسلام
٩٣	تعليم الإسلام الجامع عن علم المعاد
٩٤	دين يوصل إلى الله تعالى ويكمل القوى الروحانية
٩٥	النداء من العالم الآخروي
٩٦	الدليل على الإيفاء بالعهد
٩٧	الفئة الناجحة في الحصول على رضا الله تعالى
٩٨	علاقة المؤمنين بالملائكة
٩٨	أفضلية القرآن الكريم من حيث كثرة الفائدة
٩٩	معنى معية الأنبياء والصديقين
١٠٠	الكلام البريء من كل شائبة
١٠١	الفكرة السامية عن ربوبية العالمين
١٠٢	يجب على الإخوة أن يتخذوا القرآن الكريم دستور عمل لهم
١٠٣	فضائل القرآن (٣)
١٠٣	الكتاب الفريد في كل مزية وفي كل صفة
	تعليم الإسلام الجامع عن الصدقات وال العلاقات بين الرجل والمرأة
١٠٤	الرد على بعض الأسئلة من أحد الإخوة:
١٠٥	هل يمكن لمسلم أن يكون محكوماً أم لا؟
١٠٦	لماذا نال المسيحيون الحكومة؟
١٠٦	أية قوة حازها المسلمون ببعثة المسيح الموعود عليه السلام؟
١٠٧	أمثال علي وخالد رضي الله عنهمَا

١٠٨	لم تبلغ دعوة الأحمدية إلى العالم كله إلى الآن
١٠٩	الوصايا
١١٠	ضرورة التعاون مع التجار الأحمديين في كل الأحوال
١١٢	اقتراح تشكيل شركة بحسب مبدأ التعاون المتبادل
١١٢	أهمية موضوع فضائل القرآن
١١٣	السعي للإيفاء بعهد قطعه المسيح الموعود <small>الصلوة</small>
١١٤	خمسون وجهاً للأفضلية
١١٤	القرآن الكريم هو الأفضل في كل ما قاله
١١٥	شموليّة تعليم القرآن الكريم في الصدقات
١١٥	تعليم الإنجيل عن الصدقة
١١٧	تعليم التوراة عن الصدقات
١١٨	تعليم الفيدات عن الصدقة
١١٩	قول معلّمي الأخلاق: ي يجب كسب الحسنة من أجل الحسنة
١١٩	الإسلام يلقي الضوء على جوانب الصدقة المختلفة
١٢٠	مقدار الصدقة
١٢٣	النصيحة لاجتناب التبذير والبخل
١٢٤	التعليم عن توزيع الصدقات
١٢٥	الحكمة في القول: <b>«إحوان الشياطين»</b>
١٢٥	الأسلوب الأنسب للتصدق
١٢٧	أنواع الصدقة
١٢٩	الصدقة - بتعبير آخر - تسدِّدُ قرض
١٣٠	الدّوافع وراء الصدقات

١٣٢	الهدف من الصدقة
١٣٢	مواطن الامتناع عن دفع الصدقة
١٣٣	أسلوب رفض التصدق
١٣٣	ماذا يجب أن يعطى في الصدقات
١٣٥	يجب أن يتصدق كل من الفقراء والأغنياء
١٣٦	من يستحقون الصدقة
١٣٩	مبادئ توزيع الصدقات
١٤٠	طبيعة العلاقات بين معطى الصدقات ومتلقيها
١٤٠	التركيز على الصدقات والمنع من السؤال
١٤١	البحث في العلاقات بين الرجل والمرأة
١٤٤	الإسلام يُعد الزواج ضروريا
١٤٤	لم تُخلق حواء من ضلع آدم
١٤٧	لماذا أبقى الله تعالى عاطفة حبه خافية في فطرة الإنسان؟
١٤٨	الرجل والمرأة يسببان السكينة لبعضهما
١٤٩	علاقة القوى الروحانية مع القوى الجسدية
١٥٠	علاقة قوى الرجلة والأنوثة مع الروح
١٥٢	في الروحانية أيضا تكمن صفات الرجلة والأنوثة
١٥٥	صفة المودة في الرجل والمرأة
١٥٥	العلاقة بين الرجل والمرأة مدرسة رحمة
١٥٦	الحكمة في عِدِّ المرأة حرثا
١٥٩	علاقة الزواج بِأكمل الروحانية
١٦٠	الوجه السابع لأفضلية القرآن الكريم

١٦١	وسائل حفظ القرآن الكريم
١٦٦	أساس السماء الروحانية على صفاتي الله "الحي والقيوم"
١٦٧	التحريف في الكتب السابقة
١٦٩	حفظ القرآن الكريم والمستشرقون
١٧١	الوسائل الظاهرة لحفظ القرآن الكريم
١٧٥	الوعد الدائم بحفظ القرآن الكريم
١٧٥	نصيحة للأحجة
١٧٧	فضائل القرآن (٤)
١٧٧	القرآن الكريم وحده حائز على شرف كونه كلام الله من بين جميع الكتب الإلهامية
١٧٨	مقدمة تفسير القرآن الكريم
١٧٨	البقية من الدليل السابع
١٧٩	الكتب الإلهامية السابقة لم تكن كلام الله
١٨٢	أنواع الوحي
١٨٥	السبب وراء فساد الكتب السابقة
١٨٧	القرآن الكريم وحده تفرد بكونه "كلام الله"
١٨٨	الدليل الثامن على أفضلية القرآن الكريم
١٩١	حياة النبي ﷺ الظاهرة قبل النبوة
١٩١	قرب الله نتيجة اتباع رسول الله ﷺ
١٩٢	دحض اعترافات معارضي الإسلام
١٩٣	الاعتراض الأول
١٩٤	الاعتراض الثاني

١٩٥	الاعتراض الثالث
١٩٦	الاعتراض الرابع
١٩٨	الاعتراض الخامس
٢٠١	الاعتراض السادس
٢٠٢	الاعتراض السابع
٢١٢	الاعتراض الثامن
٢١٥	الاعتراض التاسع
٢١٥	خمسة ادعاءات عن القرآن الكريم
٢١٦	علم الغيب
٢١٨	كتاب يحقق نبوءات الكتب السابقة
٢٢٠	تفصيل الكتب السماوية
٢٢١	الكلام المزين بالأدلة والبراهين
٢٢٢	ظهور صفة الله "رب العالمين" بواسطة القرآن الكريم
٢٢٣	المفترى يفشل دائمًا
٢٢٣	معنى الصحيح لـ «وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَى»
٢٢٨	حقيقة الذنب والاستغفار
٢٣٠	المكانة الأسمى لرسول الله ﷺ
٢٣٣	فضائل القرآن (٥)
٢٣٣	نبوءات الأنبياء السابقين عن بعثة رسول الله ﷺ وخمسة إصلاحات قام بها القرآن الكريم
٢٣٤	أهمية المجالس الدينية
٢٣٦	الفائدة من المحاضرات العلمية

٢٣٩	الدليل التاسع على أفضلية القرآن الكريم
٢٤٠	إعلانات القرآن الكريم الستة
٢٤٢	القرآن الكريم هو الفرقان
٢٤٢	براءة أقوام العالم من الشرك
٢٤٥	التحدي للعلم
٢٤٧	الإصلاح المبدئي الأول الذي قام به القرآن عن وجود الله تعالى
٢٤٨	دعاة إبراهيم ﷺ لبعثة محمد ﷺ
٢٥٠	نبوءة موسى ﷺ
٢٥٢	نبوءة سليمان ﷺ
٢٥٤	نبوءة النبي إشعيا
٢٦٠	نبوءة النبي حقوق
٢٦٨	النبوءة عن قتل أبي جهل تتحقق بعظمة خارقة
٢٧١	نبوءة المسيح الناصري ﷺ
٢٧٩	التوافق الغريب بين قانون الشريعة وقانون الطبيعة
٢٨١	حكم الله الواحد على قانون الطبيعة
٢٨٤	إصلاح القرآن المبدئي الثاني عن صفات الله
٢٩٢	الإصلاح المبدئي الثالث عن التوحيد
٢٩٥	الإصلاح المبدئي الرابع عن العلاقة بين الله وعبده
٢٩٨	الإصلاح المبدئي الخامس عن صفة الله "الخالق"
٢٩٩	الإصلاح المبدئي السادس عن مالكية الله
٣٠٢	الإصلاح المبدئي السابع عن صفة الله "رب العالمين"
٣٠٣	الإصلاح المبدئي الثامن عن صفة الله "الحكيم"

٣٠٥	فضائل القرآن (٦)
٣٠٥	ترتيب القرآن وحقيقة الاستعارات وطرق إزالة سوء الفهم الناتج عن الاستعارات والتشبيهات
٣٠٦	لم يدع كتاب سوى القرآن الكريم كونه أفضل الكتب
٣٠٨	"البراهين الأحمدية" والشيخ جراغ علي الحيدرآبادي
٣٠٩	المشكلة في فهم الكتاب الإلهامي
٣١٠	نتيجة اعتبار الاستعارات حقيقة
٣١٢	الاستدلال الخاطئ من الخطأ الأبيض والخطأ الأسود
٣١٢	الاستعارات في نبوءات الأنبياء
٣١٣	طُرفة
٣١٤	عقلية الذين لا يفهمون الاستعارات
٣١٥	صعوبة فهم المضامين العلمية لدى عامة الناس
٣١٥	حكمة اختلاف الترتيب في الكتب الإلهامية
٣١٧	مثالان للحالات القليلة
٣١٩	مبدأ الاستفادة من علوم القرآن
٣٢٠	استخدام التشبيه والاستعارة في كل لغة
٣٢١	مشاكل الناس بشأن الكتب الإلهامية
٣٢٢	في ثورة العشق .. يزول الحرج
٣٢٢	تجاوز الحدود من قبل أناس ذوي طبائع فلسفية
٣٢٣	حالة المسيحيين الدينية
٣٢٤	ضرورة الاستعارات
٣٢٨	استحالة أداء بعض المفاهيم بغير الاستعارة

٣٢٩	وسائل إزالة سوء الفهم
٣٣٢	القرآن الكريم بنفسه يشرح الاستعارات الواردة فيه
٣٣٣	معجزة عيسى عليه السلام لإحياء الموتى
٣٣٤	قول رسول الله ﷺ عن المجاز والاستعارة
٣٣٤	مثال الاستعارات المستخدمة في القرآن
٣٣٦	أقوال المفسرين الغربية
٣٣٧	المراد من تسخير الجبال
٣٣٨	معنى تسبيح الجبال والطيور
٣٣٩	يُراد بالجبال زعماء القوم أيضاً
٣٤٠	لم يُذكر في القرآن تسبيح الطيور
٣٤١	ذكر الجنة
٣٤١	مجيء الجن إلى رسول الله ﷺ
٣٤٣	دليل الذين لا يحملون هذه الكلمات محملاً بالاستعارة
٣٤٣	لقد بعث النبي ﷺ إلى الناس لا إلى الجن
٣٤٤	بعض الأدلة على كون الجن أنساناً
٣٤٥	الدليل من القرآن على أن الجن حزب من الناس
٣٤٥	لماذا لم ينصر الجن المؤمنون رسول الله ﷺ؟
٣٤٦	الإنسان هو المخلوق الوحيد المكلَّف بالإيمان بالشريعة
٣٤٨	يُطلق الجن على الأقوام المتكبرة والزعماء أيضاً
٣٤٩	ما المراد من النملة؟
٣٥١	البحث حول وادي النمل
٣٥٢	مسألة خلق الطير

٣٥٣	معنى "كھیئۃ الطیر"
٣٥٤	طُرفة
٣٥٤	التأمل من منطلق ترتيب المضمون
٣٥٦	معنى خلق الطير وإحياء الموتى بحسب الترتيب القرآني
٣٥٧	المدهد لم يكن طيرا بل كان إنسانا
٣٥٩	لم يكُلَّف بالشريعة إلا الإنسان
٣٦٠	أنواع الطير المختلفة
٣٦١	لماذا أطلق "الطير" على المؤمنين
٣٦٥	البحث عن المدهد من منطلق التاريخ
٣٦٨	التضرع في حضرة الله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَحْمَدُهُ وَنُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ

## مقدمة الناشر

نضع بين يدي القارئ العربي الكريم ترجمة كتاب "فضائل القرآن"، وهو درة يتيمة في بيان مزايا القرآن قلما تجود بمثلها الأفهام، وقد بينها سيدنا المصلح الموعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حضرة مرتضى بشير الدين محمود أحمد، نجل المسيح الموعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخليفة الثاني. وما يجدر بالذكر أن هذا التأليف الجليل في بيان محسن الكتاب الكريم، هو في أصله مجموعة خطابات ألقاها حضرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجلسات السنوية للجامعة الإسلامية الأحمدية في قاديان دار الأمان، وبلغ عددها ستة خطابات أُلْقِيَتْ تِبَاعًا في ست جلسات سنوية في قاديان بالهند، منها خمسة خطابات على التوالي خلال الفترة من ١٩٢٨-١٩٣٢م، ثم الخطاب السادس في عام ١٩٣٦م.

أُلْقِيَ أول تلك الخطابات في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٩٢٨م، وأُصَلِّي فيه سيدنا المصلح الموعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفضل القرآن الكريم على سائر الكتب الموجة من الله عَجَلَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ والتي سبقته نزولاً، وضمّن خطابه ردوداً مُفْحِمة على اعترافات المستشرقين المغرضين الذين لم يدخلوا وسعاً للنيل من صدق الإسلام وصدق النبي العدنان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو على الأقل الطعن في مبدأ كون القرآن الكريم نصاً قطعياً الثبوت، وأنه محفوظ حفظاً تاماً لا تشوبه شائبة نقص أو اختلاف أو إهمال. كما وتحدث حضرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الخطاب عن عدم اكتراش المسلمين بما يشيره المستشرقون المسيحيون من شبهات ضد القرآن الكريم، فبلور في خطابه هذا مجموعة من النقاط التي ينبغي أن يضعها كل مسلم في حسابه حال تدبر القرآن. وسيتضح للقارئ الليب أن هذا الفصل يجبر على تساءلات عفوية طالما عنت وتعن لقارئ القرآن ومتذمبه، نحو: أي ضرورة دعت لنزول القرآن؟! وكيف نزل؟! وإذا كان قد

نزل ودوِّن كلَّه على عهْد النَّبِيِّ ﷺ، فما قصَّة جمعه وحفظه؟! ثُمَّ ما علاقته بما سبقه من كتب موحَّاة من الله تعالى؟! وما معنى تصدِيقه إياها؟! وغير ذلك من التساؤلات التي لا تزال مثار جدل بين المسلمين وغير المسلمين إلى هذه الساعَة.

والخطاب الثاني ألقاه حضرته ﷺ في العام التالي، بتاريخ التاسع والعشرين من ديسمبر من عام ١٩٢٩م، وضمَّنه حضرته ﷺ المسوغات والإثباتات العقلية والنقلية التي تثبت أفضليَّة القرآن الكريم على الكتب السابقة، كما ضمَّن حضرته ﷺ هذا الخطاب دقائق تفسيريَّة عديدة، نحو معنى التعليم بالقلم، وقصة ذي النون، وغير ذلك.

أما الخطاب الثالث على التوالي، فألقاه المصلح الموعود ﷺ في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٠م، وتناول فيه حضرته ﷺ قضية فضل القرآن وكمال تعاليمه من منظور اقتصادي واجتماعي. وأفرد حضرته ﷺ في الجانب الاقتصادي صفحات عديدة للحديث عن الصدقات، عقد خلاها مقارنة بين التعاليم القرآنية عن الصدقة وتعاليم التوراة والإنجيل حتى الفيدا أيضًا. وضمَّنت في هذه الصفحات دقائق تفسيريَّة كثيرة وردت في ثنايا الخطاب، فأضافت عليه رونقًا، وجمالًا فوق جمال!

وفي هذا الخطاب نفسه تطرَّق حضرته ﷺ لقضية العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة، أي الزواج، فصحح سوء الفهم الناشئ عن قول الكتاب المقدَّس بخلق حواء من ضلع آدم، وتحدَّث عن إحدى غايات الدين، ألا وهي تكميل الإنسانية، الأمر الذي لا يتأتى إلَّا بمجتمع عنصريها، وهو الرجل والمرأة، فالدين الذي يُعِيَّ كلاًّ منهما بعزل عن الآخر هو في الواقع دين يقطع دابر الإنسانية.

أما الخطاب الرابع، والذي ألقى في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣١م، فقد ناقش فيه حضرته ﷺ الدليل على كون القرآن الكريم أعظم الكتب الإلهامية قاطبةً، وتطرق خلال هذا الخطاب إلى الحديث عن كتاب سيدنا المسيح الموعود

اللَّهُمَّ ذَائِعُ الصَّيْتِ، أَيْ "الْبَرَاهِينُ الْأَحْمَدِيَّةُ" عَلَى حَقِيقَةِ كِتَابِ اللَّهِ الْقُرْآنِ وَالنَّبُوَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ" ، بِوَصْفِهِ مُقْدِمَةٌ لَا بُدُّ مِنْهَا لِفَهْمِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . كَمَا أَتَبَعَ الْمُؤْلِفُ فِي هَذَا الْخُطَابِ حَدِيثَهُ عَنْ تَفْوُقِ الْقُرْآنِ عَلَى مَا سَوَاهُ مِنْ كُتُبِ مُوْحَاتَةٍ بِحَدِيثِ مَاتَعَ عَنْ سِيرَةِ سَيِّدِنَا خَاتَمِ النَّبِيِّنَ ﷺ ، بِوَصْفِهَا تَحْسِيدًا لِعَظَمَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، بِخَلْلِ فِي جَمَالِ سِيرَةِ إِنْسَانِ الَّذِي تَلَقَّاهُ وَحْيًا ، مَفْنِدًا بِذَلِكَ اعْتِرَاضَاتِ تَسْعَةِ يَثِيرِهَا خَصُومُ الْإِسْلَامِ بَغْيَةً تَشْوِيهً صُورَةَ وَسِيرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ الظَّاهِرَةِ .

وَالْخُطَابُ الْخَامِسُ عَلَى التَّوَالِي ، أَلْقَاهُ حَضُورُهُ ﷺ فِي الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ دِيَسْمَبِرِ عَامِ ١٩٣٢م ، وَوَاصَلَ فِيهِ الْحَدِيثَ عَنْ أَفْضَلِيَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْكِتَابِ السَّابِقِ ، وَضَمَّنَهُ نَبَوَّاتٍ مِنْ خَلْوَاتِ النَّبِيِّنَ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) عَنْ بَعْثَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ حُرْمَةً مِنِ الإِصْلَاحَاتِ الْعَقَائِدِيَّةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْذُ نَزُولِهِ .

أَمَّا الْخُطَابُ السَّادِسُ وَالْأَخِيرُ ، فَقَدْ أَلْقَاهُ سَيِّدُنَا الْمُصْلِحُ الْمَوْعُودُ ﷺ بَعْدَ اِنْقِطَاعِ دَامَ قَرَبَةً أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ ، إِذْ أَلْقَاهُ حَضُورُهُ فِي الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ دِيَسْمَبِرِ عَامِ ١٩٣٦م ، مَضَمِّنًا إِيَّاهُ الْحَدِيثَ عَنْ مَجِيَّءِ مَعَانِي الْكَلَامِ الإِلَهَامِيِّ عُمُومًا ، وَالْقُرْآنِ خَصْوَصًا ، فِي خَلْلِ الْمَجَازِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ ، الْأَمْرِ الَّذِي تَلَقَّتْهُ الْأَفْهَامُ غَيْرُ النَّاضِجَةِ عَلَى حِرْفِيَّتِهِ ، فَضَلَّتْ سَوَاءُ السَّبِيلِ . فَفِي هَذَا الْخُطَابِ يَرْسِمُ حَضُورُهُ ﷺ خَرِيطَةَ الْخُرُوفِ مِنْ مَتَاهَةِ سَوَاءِ الاعْتِقَادِ النَّاشِئِ عَنِ الْفَهْمِ الْحَرْفِيِّ لِلْكَلَامِ الإِلَهَامِيِّ السَّامِيِّ ، وَهَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ إِصْلَاحٌ عَقَائِدِيٌّ هَامٌ مِنِ الإِصْلَاحَاتِ الَّتِي اِنْفَرَدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِإِجْرَائِهَا .

وَمَا يَجُدُّرُ بِالْتَّكْرِيرِ لِلتَّذَكِيرِ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَخَصَائِصِهِ كَانَتْ مَشْرُوِّعًا بِدَأِهِ الْمَسِيحِ الْمَوْعُودِ ﷺ فِي "الْبَرَاهِينُ الْأَحْمَدِيَّةِ" ، إِذْ ذَكَرَ أَنَّهُ سَيُشَرِّعُ فِي بَيَانِ ثَلَاثَةِ دَلِيلٍ عَلَى حَقِيقَةِ كِتَابِ اللَّهِ الْقُرْآنِ وَالنَّبُوَّةِ الْأَحْمَدِيَّةِ ، وَبِتَأْمُلِ الْمُصْلِحِ الْمَوْعُودِ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ تَوَصَّلَ إِلَى إِمْكَانِيَّةِ بَيَانِ تَلْكَ الأَدْلَةِ الْثَّلَاثَةِ فَعَلًا ، وَأَنَّهُ بِإِمْكَانِ كُلِّ اِمْرِئٍ أَنْ يَشَرِّحَ الْبَرَاهِينَ الْأَحْمَدِيَّةَ بِقَدْرِ مَا يَؤْتِيهِ اللَّهُ عَجَلَ مِنْ فَهْمٍ وَاسْتِفَاضَةِ مَعَارِفٍ

المسيح الموعود العلیٰ الروحانیة، فمن ثم يمكن عدّ كتاب "فضائل القرآن" للمصلح الموعود عليه تتمة مسيرة البراهین الأحمدیة التي بدأها سيدنا المسيح الموعود العلیٰ، حتى إنه كان في نية سيدنا المصلح الموعود عليه أن يجعل حديثه عن "فضائل القرآن" مقدمة لترجمة معانی القرآن الكريم.

لقد حظي بشرف نقل هذه الدرة الثمينة إلى العربية الأستاذ عبد المجيد عامر، فجزاه الله عن جميع الناطقين بالضاد خيراً. وشارك في مراجعة الترجمة وإخراجها الإخوة من المكتب العربي والإخوة العرب ولاسيما السادة الأفضل المهندي خالد عزام، وغسان النقيب، والدكتور وسام البراقی، وجمال أغزول، وحلمي مرمر، وسامح مصطفى، وأمة الخير لبني الجابي. ندعو الله تعالى أن يجزيهم ويجزى كل من اشترك بسهم في إخراج هذا الجلد خير ما يجزي به عباده الصالحين.

نسأل الله المولى الكريم عَزَّلَهُ أن يجد كل راغب في تدبر القرآن الكريم في هذا السِّفِر العظيم ضالته التي تسعد بها روحه في الدارين، آمين.

الناشر

# فضائل القرآن (١)

## أفضلية القرآن الكريم على الكتب الإلهامية السابقة والرد على اعتراضات المستشرقين

(خطاب ألقى في ٢٨/١٢/١٩٢٨ م)

(بمناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد التشهيد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة:

إن تأثير قانون الله الجاري في الطبيعة ضمن حدود، أو السعي لتحديد يفوق قدرة البشر وينافي الأدب. عندما تراكمت السحب اليوم قرب صلاة الجمعة وبعد المطر يهطل بغزارة وددت مع شعوري بالضعف واعتلال الصحة أن تنتهي الجلسة بالدعاء مع الإخوة جميعا على الأقل. الحق أن قدرات الله واسعة جدا ولكن الإنسان يضطرب ويقلق بسرعة. فعندما لم يتوقف المطر عن الهطول كتبت عبارة وقلت للإخوة أن يجعلوا منها نسخا كثيرة ويوصلوها إلى مساكن الضيوف فورا. كانت العبارة تتلخص في: ما دام مستحيلا لجميع الإخوة أن يجتمعوا في مكان واحد

بسبب المطر لذا سأدعو في الساعة الخامسة والربع، وعلى الإخوة أن يشاركوني في الدعاء وهم في أماكنهم. ولكن كان من فضل الله تعالى أن توقف المطر حين كانت العبارة قيد النسخ، فقلت للناسخين إن الله تعالى قد أحدث أمراً آخر فلا حاجة لنسخها الآن.

### بعض الأمور المبدئية لتدبر معاني القرآن

إنني متأسف لعدم قدرتي على بيان الموضوع الذي اخترته ليكون موضوع خطابي في هذه الجلسة. والسبب وراء ذلك هو أنه حتى لو لحّصته في أقصر وقت ممكن لاستغرق خمس أو ست ساعات على الأقل، ولا يمكن إطالة الخطاب الآن بهذا القدر بسبب سوء حالة الطقس وبسبب ضعفي بشكل عام. كنت قد اخترته لهذا الموضوع للجلسة لأنه يتعلق بالقرآن الكريم، وكان في بالي، إذا حالفتني رحمة الله تعالى، أن يجعل مقدمة لترجمة معاني القرآن الكريم التي نشرها في المستقبل، وكنت أتمنى أن أبين جزءاً من هذه المضامين في الخطاب بمناسبة الجلسة وأحرّر البقية بنفسى. ولأن بيان هذا الموضوع بالتفصيل مستحيل الآن لذا سأبين اليوم بإيجاز ما هي المضامين التي يجب التأمل فيها عند تدبر القرآن الكريم وتقديمه أمام العالم، وما هو حجم مساعي يبذلها النصارى وغير المسلمين الآخرين ضد الإسلام والقرآن الكريم، وأن أبين مدى إهمال المسلمين لهذا الموضوع وعدم مبالاتهم به! فأرى أنه يجب التأمل في الأمور التالية عند تدبر القرآن.

#### (١) ضرورة القرآن

عندما نزل القرآن الكريم هل كان العالم حينئذ بحاجة إلى كتاب موحى به أم لا؟ لأنه ما لم يثبت بأن شيئاً نزل بحسب مقتضى الأمر لا يمكن نسبته إلى الله تعالى. يقول كثير من الناس إنه عندما نزل القرآن الكريم كانت حالة الناس سيئة جداً. ولكن سوء حالة الناس لا يوجب نزول كتاب من الله حتماً. فترون أن المسيح الموعود جاء حين كانت حالة الناس العملية فاسدة جداً، ولكن هل جاء الله بكتاب؟

كلا! إذن، إن سوء حالة الناس وانتشار الفساد والفتنة لا يكفي دليلاً على حاجة ذلك العصر إلى القرآن الكريم، ولا يكفي القول بأن عادات سيئة كانت قد تطرق إلى العرب مثل وآدمهم البنات وزواجهم من زوجة الأب. إن أكثر ما يثبت من ذلك هو أن العرب كانوا بحاجة إلى كتاب، ولا يثبت أن العالم كله كان بحاجة إليه. كما أن حالة بني إسرائيل كانت متدهورة جداً في زمن موسى وعيسى عليهما السلام ولكن هذا لا يعني أنهما جاءا إلى العالم كله. ما يجب علينا إثباته هو أن الكتب الدينية كلها كانت قد فسّرت للدرجة لم تُعد كافية في حد ذاتها لإنقاذ العالم. لذا فلا بد لإثبات ضرورة نزول القرآن الكريم من إثباتات الفساد في الكتب السابقة.

## (٢) كيف نزل وحي القرآن

لا بد من إلقاء الضوء على كيفية نزول وحي القرآن الكريم لأن كيفية نزول الوحي أيضاً تبيّن صدقه إلى حدّ كبير. فمثلاً عند البحث في هذا الموضوع سوف ينشأ سؤال: هل توحّي ماهية الذي نزل عليه هذا الوحي بخلل ما في ذهنه -والعياذ بالله- عند نزول الوحي عليه؟ هناك عشرات الناس الذين يقولون بأنّهم تلقّوا إلهاماً كذا وكذا، وهم لا يكذبون بل يكون هناك خلل في دماغهم. ذات مرة جاء إلى المسيح الموعود ﷺ شخص وقال بأنه يتلقى الإلهام. لرم المسيح الموعود ﷺ الصمت بسماع كلامه. قال الرجل: عندما أُسجد يقول الله لي: أُسجد على العرش، ويقول أيضاً: أنت محمد، أنت عيسى وموسى. فقال ﷺ: عندما يقول الله لك بأنك محمد فهل تُعطي أيضاً جمالاً مثل جمال محمد ﷺ وجلاً مثل جلاله؟ وهل تُكشف عليك علوم القرآن الكريم أيضاً؟ قال الرجل: لا. قال ﷺ: إذن، لا يرفعك الله إلى العرش بل الشيطان يغويك. فلو كان الله قد رفعك إلى السماء وجعلك ممدوحاً لأعطيك قدرات أيضاً مثل قدراته في اتّباعه.

إذن، عند البحث في نزول وحي القرآن الكريم سوف ينشأ سؤال: هل الذي نزل عليه الكلام مجنون أو هل في عقله خلل؟

### (٣) البحث في جمع القرآن

السؤال الثالث الذي يواجهنا عند تدبر القرآن الكريم هو: كيف جُمِع القرآن؟ السؤال الذي ينشأ بصورة طبيعية هو أن الكتاب الذي قِدِّم أمام العالم، هل هو كما أراده منزله؟ فإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تكشف مشيئة منزله بصورة صحيحة عند التأمل فيه. أما إذا تطرق إليه خلل أو عيب فهذا يعني أن هدف منزله قد حبط، لذا لا حاجة للتوجه إليه. لقد بذل الأوروبيون قصارى جهودهم لإثبات أن القرآن الكريم لم يُجمع على وجه صحيح، فيقولون بأنه لا ترتيب في عباراته بل جُمعت الأمور المختلفة عشوائياً.

### (٤) حفظ القرآن الكريم

الأمر الرابع الذي يجب إثباته هو أن القرآن ما زال محفوظاً إلى يومنا هذا. فلو أثبتنا أنه قد جُمع كما شاء مقلِّده، ثم إذا قيل إلى جانب ذلك إنه قد تطرق إليه بعض الأشياء الإضافية أو حُذفت منه أشياء، سيكون معنى ذلك أن الكتاب لم يُعد في حالته الأصلية فلا يمكنه أن يعطي الفائدة المتواخة، ولا يمكن أن يكون هدياً كاملاً للعالم. لقد أخرج المؤرخون النصارى كل ما كان في جعبتهم في هذا المجال وسعوا جاهدين ليبثوا أن القرآن ليس محفوظاً.

### (٥) علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة

السؤال الخامس الذي يجب إمعان النظر فيه هو: ما علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة؟ هل يصدقها أم لا؟ وإذا كان يصدقها فكيف؟ هل يقبل صدقها بصورتها الحالية أو يقول بأنها نزلت صحيحة بداية ولكنها فسدت الآن؟ لقد حاول المستشرقون كثيراً للإثبات أن القرآن الكريم يقبل صحتها بصورتها الحالية، ويقصدون من ذلك أنه ما دام القرآن الكريم يقبلها صحيحة بصورتها الحالية لذا فإن اختلاف القرآن معها لن يكون في محله. لقد أَلْفَ السير ولIAM ميور كتاباً حول هذا الموضوع واستنتج فيه أن القرآن الكريم يقبل صحة الكتب السابقة.

## (٦) هل تصدق الكتب السابقة القرآن الكريم

السؤال السادس هو أن هذا الكتاب العظيم الذي يدّعى أنه جاء للعالم كله، هل تصدقه الكتب السابقة أم لا؟ وهل ورد ذكر القرآن الكريم في الكتب السابقة أم لا؟ ليعلم الناس أنه جاء بحسبما أُخبر عنه في الكتب السابقة.

## (٧) محسن القرآن الكريم الإضافية مقارنة مع الكتب السابقة

السؤال السابع الذي سينشأ مع السؤال السابق فورا هو: ما الذي جاء به القرآن الكريم أكثر من الكتب السابقة؟ فإذاً يجب أن يقول بأن الكتب السابقة كلها كاذبة لذا أُنزلت، ولكن إن قال بصحتها أيضا ففي هذه الحالة يجب الإثبات أن القرآن يقدم مزايا إضافية، وإنما لن تتحقق ضرورة نزوله. إذن، لا بد من الإثبات أيضا أن القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى كلها.

## (٨) ترتيب القرآن

ثم ينشأ سؤال: هل رُوعي ترتيب معين في القرآن الكريم؟ أي هل يحتوي على ترتيب معين من حيث المعاني؟ يقول المستشركون إنه لا ترتيب فيه بل هو كلام غير متربط تماما. والغريب في الأمر أن العلماء المسلمين أيضا قبلوا عدم وجود الترتيب في القرآن، والعياذ بالله. ولكن ثبوت عدم الترتيب في كتاب هجوم شديد عليه. وإذا كان فيه ترتيب فينشأ اعتراض أن ترتيبه الحالي ليس بحسب ترتيب نزوله إذ قد أُخرجت الآيات السابقة نزولا وقدّمت المتأخرة منها نزولا. فمثلا نزلت سورة العلق في البداية ولكنها وُضعت في أواخر القرآن، ونزلت سورة الفاتحة متأخرة بينما وُضعت في بدايتها. كذلك قدّمت بعض الآيات وأُخرجت غيرها. نزلت بعض الآيات في مكة ولكنها وُضعت في السور المدنية، والعكس صحيح. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كان ترتيب القرآن مطلوبا فلماذا لم يُجمع بحسب ترتيبه النزولي؟ وإذا كان الترتيب الحالي صحيحا فلماذا لم ينزل بحسبه؟

هذا سؤال مهم أثاره المستشركون، وقد حلّلُه مبدئياً بفضل الله تعالى بأسلوب سيفهمه كل عاقل.

### (٩) بحث الناسخ والمنسوخ

ثم هناك قضية النسخ في القرآن، وهي ما أثاره المسلمون أنفسهم لأنهم يعتقدون أن بعض آيات القرآن الكريم منسوبة وقد نسختها بعض الآيات الأخرى أو الأحاديث بمعنى أنها تُقرأ ولكن لا يُعمل بها. يقول المستشركون حول هذا الموضوع بأن قضية الناسخ والمنسوخ اخترعَت بسبب وجود تعارض صريح في القرآن، ولما لم يجد المسلمون تبريراً لإزالة التعارض عدُوا بعض الآيات المتعارضة فيما بينها ناسخة والأخرى منسوبة.

### (١٠) الهدف من نزول القرآن وتحقيقه

ثم هناك سؤال آخر: هل حق القرآن الكريم هدفاً ينزل الدين من أجله؟ لا يمكن لكتاب ديني أن يكون مفيداً إلا إذا حقق هدفاً يجب عليه تحقيقه. الكتب التي يحبسها الناس موحى بها يُثبتون ضرورتها أيضاً، ويقولون إنه كان هناك ضرورة كذلك لنزول الكتاب من الله. والسؤال هو: هل يتحقق القرآن الكريم أم لا الضرورة التي نزل من أجلها؟ وإذا كان يتحققها فهو كتاب الله وإلا فلا.

### (١١) تعليم يطابق الفطرة البشرية

يدعى القرآن الكريم أنه يطابق فطرة كل شريحة وفئة من الناس. والسؤال الذي ينشأ هنا هو: هل يتحلى تعليم القرآن بمزية أن أمّياً أيضاً يستطيع الاستفادة منه حقيقة، وإذا قرأه عالم فهو أيضاً يستطيع الاستفادة منه؟ إذا كان الأمر كذلك فيمكن أن يُعدّ هذا الكتاب من الله تعالى.

### (١٢) مبادئ فهم القرآن

ثم هناك سؤال آخر يواجهنا وهو: ما هي المبادئ لفهم القرآن الكريم؟ لا شك أن هناك مفتاحاً لفهم كل كتاب والاستفادة منه، فما هي المبادئ لفهم القرآن

الكريم؟ بمعنى أن على القرآن الكريم أن يبيّن مبادئ التفسير أيضاً ليفهمه كل إنسان بقدر عقله وفهمه.

### (١٣) بأيّ معنى يصدق القرآن الكريم الكتب السابقة؟

ثم هناك سؤال آخر وهو: يقول بعض الناس بأن القرآن الكريم يصدق الكتب السابقة لأنّه نقل منها، لذا فقد قيل إنه مصدّقها لتفادي تحمة النقل منها. نقول: لا شك إن القرآن يصدقها ولكنه يقول ما يتنافى معها أيضاً. لذا يجب علينا أن نثبت ماذا نقل القرآن من الكتب السابقة وما أهمله. وهل أضاف شيئاً عند النقل منها أم اختلف معها؟ فلماذا نقبل صحة ما يقوله القرآن الكريم والحالة هذه؟

### (١٤) الهدف من بيان الأحداث الماضية

ثم هناك سؤال ينشأ عن الأحداث الماضية وهو: ما الهدف من بيانها؟ هل القرآن كتاب القصص والأساطير؟ قال الكفار في عهد رسول الله ﷺ: «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (الأنعام: ٢٦).

### (١٥) حقيقة الأقسام

إن السؤال: لماذا أُقسم في القرآن الكريم؟ هذا السؤال أيضاً يثير الشبهات، إذ ييدو من الأقسام أن محمداً ﷺ اخترق الكلام بنفسه ولكنه نسي أنه يُعدّه كلام الله فبدأ يُقسم. فلإزالته الشبهات من هذا القبيل لا بد من البيان أن الأقسام ترد في كلام الله أيضاً، كما لا بد من بيان الهدف منها.

### (١٦) بحث المعجزات

ويقال أيضاً بأن القرآن الكريم يشدد مراراً على أن إظهار المعجزة ليس بيد الرسول بل الله يُريها متى ما يشاء، والسبب وراء هذا القول هو عدم إخراج محمد ﷺ نفسه. ففي هذا الشأن يجب الإثبات أن القرآن الكريم كله مجموعة من المعجزات.

### (١٧) لا تعارض بين قول الله وفعله

كذلك يقال عن القرآن الكريم بأنه يبيّن ما يخالف العلوم العلمانية والطبيعية. ولما لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين قول الله وفعله فلا بد من الإثبات أن كلامه لا يعارض أيّ فعل من أفعاله، وفيه حقائق لم يعلّمها الذين خلوا لذا كانت تُعدّ منافية للعلوم الطبيعية، أما الآن فقد اعترف بصحتها.

### (١٨) كمالات القرآن الكريم الروحانية

ينبغي الإثبات أيضاً ما هي الكمالات في القرآن الكريم، وما هي المدارج الروحانية العليا التي جاء القرآن الكريم ليوصل الإنسان إليها؟

### (١٩) الكلام المشرع الآخر

يجب الإثبات أيضاً أن القرآن الكريم هو الكلام المشرع الآخر. يقول الناس بأنكم ما دمتم تؤمنون بأن الكلام ظلّ ينزل من الله دائماً فلماذا انقطع الكلام المشرع الآن؟ لذا لا بد من الإثبات أنه لا حاجة الآن إلى أيّ كلام مشرع.

### (٢٠) السبب في اختيار اللغة العربية

كذلك لا بد من البحث: لماذا اختيرت اللغة العربية للقرآن الكريم؟ ولماذا لم تختار الفارسية أو السنسكريتية أو أي لغة أخرى؟

### (٢١) الرد المبدئي على عيوب التعاليم السابقة وبيان المبدأ السليم

ما دام القرآن الكريم قد جاء للعالم كله وهو ينوب مناب التعاليم الدينية السابقة كلها فلا بد من الإثبات أيضاً أنه قد عدّل عيوب التعاليم السابقة مبدئياً وأحلّ محلها مبادئ صحيحة.

### (٢٢) الأدلة على صدق القرآن الكريم

كذلك يجب تقديم الأدلة على صدق القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى.

## (٢٣) تأثيرات القرآن الكريم

يجب مناقشة تأثيرات القرآن الكريم أيضاً.

## (٢٤) حل المتشابهات

كذلك لا بد من حل المتشابهات. يقول القرآن إن فيه آيات متشابهات، ولكنه لم يحددما، وما لم نعلمه بالتحديد فإننا مضطرون لنعد القرآن كله متشابهاً. لقد أكرمني الله بهذا الشأن بعلم، بحيث لا يصعب على من كان يملك قليلاً من العلم أن يطلع على المتشابهات، وأن الآيات المتشابهات تشكل دليلاً قوياً على صدق القرآن الكريم.

## (٢٥) حل المقطّعات

لا بد من مناقشة الحروف المقطّعات أيضاً وبيان هدفها والغرض منها.

## (٢٦) ما المراد من القراءات السبع

ما المراد مما يقال بأن للقرآن سبع قراءات؟ هذا البحث أيضاً ضروري.

## (٢٧) مسألة خلق القرآن

ما نسبة كلام الله بعلمه؟ لقد أجريت في هذا الموضوع بحوث طويلة وقد عُذِّب بعض من العلماء الكبار بسبب مسألة "خلق القرآن"، وقد أنهك الخليفة العباسي الإمام أحمد بن حنبل بالضرب والتعذيب حتى لفظ أنفاسه. إذن، إن البحث في قضية خلق القرآن ضروري للعثور على طبيعة علاقة كلام الله به.

## (٢٨) القرآن الكريم كتاب حيٌّ

لا بد من البحث أيضاً أن القرآن الكريم كتاب حيٌّ. البيان عن تحقق نبوءات وردت في كتاب معين لا يكفي دليلاً على كونه حياً. إن بعضها من نبوءات التوراة والإنجيل أيضاً لا تزال تتحقق، ولكن هذين الكتابين لا يتحققان الهدف الذي نزلَا من أجله. ولكن الهدف الذي نزل القرآن الكريم من أجله لا يزال يتحقق اليوم أيضاً.

### (٢٩) ما هي العلوم التي ذكرها القرآن الكريم

لا بد أيضاً من بيان العلوم التي ذكرها القرآن الكريم. أي السؤال هو: ما مدى علاقة الدين مع البحوث الأخرى؟ وهل الدين يشمل الأخلاق والسياسة والتمدن وما شابهها من الأمور أم لا؟

### (٣٠) القرآن ذو المعرف

لا بد من البحث أيضاً أن القرآن الكريم ذو المعرف، وهذه مزيته وليس عيبه أن تكون الآية واحدة عدة معانٍ.

### (٣١) القرآن كتاب كامل

ينبغي البحث في أن القرآن الكريم كتاب كامل، ولا حاجة الآن إلى أي كتاب سماوي آخر، ولكن مع ذلك هناك حاجة إلى السنة وال الحديث، وهذا لا يعيب كتاب القرآن الكريم شيئاً.

### (٣٢) فصاحة القرآن الكريم

ما معنى ادعاء القرآن الفصاحة، وما معنى كونه عديم النظير، ولماذا لا يمكن لأحد أن يأتي بنظيره؟

### (٣٣) مقارنة القرآن الكريم مع الكتب الأخرى الإلهامية

لا بد من مقارنة القرآن الكريم مع الكتب الإلهامية الأخرى.

### (٣٤) قانون روحي ومادي وحضاري وسياسي لا نظير له

يجب البحث أيضاً إجمالاً أن القرآن الكريم قانون روحي ومادي وحضاري وسياسي لا نظير له.

### (٣٥) الاستعارات في القرآن الكريم

لماذا وردت في القرآن الكريم استعارات؟ وما حاجتها؟ هذا السؤال أيضاً يقتضي حلاً.

**(٣٦) ضرورة ترجم معاني القرآن**

يجب البحث لماذا يجب نشر القرآن الكريم مع ترجمة معانيه؟

**(٣٧) وسائل حفظ القرآن**

يجب النقاش حول ادعاء حفظ القرآن الكريم، وما هي الوسائل التي اختيرت لهذا الغرض؟

**(٣٨) لماذا سُمِّي القرآن شعراً**

قال الناس في ذلك العصر إن القرآن كلام شاعر، وقد فند القرآن<sup>١</sup> قولهم هذا، فما معنى ذلك؟ أي ما هو مفهوم الشعر بحسب القرآن؟ وعندما يقول الله تعالى بأن القرآن ليس بقول شاعر، فما معنى ذلك؟

**(٣٩) لماذا نزل القرآن على مكث**

لا بد من البحث أيضاً لماذا نزل القرآن رويداً رويداً، ولماذا لم يُنَزَّل جملة واحدة؟

**(٤٠) لا يمكن لترجمة معاني القرآن أن تحيط بجميع مضامينه**

يجب الإثبات أيضاً أن ترجمة معاني القرآن لا يمكن أن تحيط بكافة مضامينه.

**(٤١) كلمات القرآن كلها موحى بها**

ينبغي البحث أيضاً هل كلمات القرآن الحالية هي الكلمات نفسها التي أنزلها الله تعالى أم أملاه محمد رسول الله ﷺ بالكلمات التي خطرت بيده؟ يبذل المستشرفون أقصى جهودهم لإثبات الحالة الثانية. والسبب في ذلك عائد إلى أنه ما دام هناك اختلاف في نسخ الإنجيل المختلفة فيقولون بأن الكلمات ليست موحى بها بل المفهوم مبني على الوحي، فلا ضير إذا كان هناك اختلاف في الكلمات. يُروى أن ذئب قد قطع فجمع القرد المقطوع الذئب القرود كلها واقتصر عليها أنه ينبغي أن يقطع ذئب كل واحد، ثم سرد عدة مضارات للذئب. فاستعدت كثير من القرود

لقطع أذيالها. ولكن قام قرد عجوز وقال: الذي يحث على قطع الذئب يجب أن يُرinya أولاً هل له ذئب أم لا. فإذا كان ذئبه مقطوعاً سلفاً فهذا يعني أنه يريد أن يصبح كل واحد منا مثله. هذا هو حال المستشرقين. فما دام الاختلاف موجوداً في أناجيلهم يريدون أن يثبتوا عن القرآن أن كلماته ليست موحى بها.

#### (٤٢) القرآن منزه تماماً عن كلام الشيطان

هذا السؤال أيضاً مهم جداً، هل يمكن أن تشوب القرآن شائبة كلام الشيطان أم لا؟ لقد فسح المسلمون بأنفسهم مجالاً لهذا الاعتراض لأنهم يقولون بأنه قد جرت على لسان النبي ﷺ -والعياذ بالله- بعض الجمل الشيطانية وأخبره جبريل أنها ليست من الله. يقول المستشرقون بأنه ﷺ قال بعض الكلمات لإرضاء معارضيه ولكنه ندم عليها فيما بعد فقال بأنها قد نُسخت. فلا بد من إبطال هذا الاعتراض أيضاً.

#### (٤٣) من خاطبهم القرآن

هناك سؤال آخر أيضاً: من هم المخاطبون بالقرآن؟ هل العرب وحدهم أو الناس في العالم كله؟ وهل خطوب العرب وحدهم في البداية ثم خطوب غيرهم لاحقاً أم خطوب الجميع منذ البداية؟

#### (٤٤) هل ينبغي ترجمة معاني القرآن حرفيًا أم بلاغياً

يحب الناس عادة الترجمة الحرافية ولكن في هذه الحالة يمكن أن تُفهم العربية كلغة ولا يُفهم المعنى. وذلك لأن الترجمة تُكتب تحت الكلمة العربية فيعلم أن الكلمة تحت الكلمة العربية إنما هي ترجمة للكلمة العربية التي فوقها، ولكن لا يُفهم معنى الجملة الكاملة لأن هناك فرقاً بين استخدام التعبير في لغتين. فمثلاً هناك تعبير بالأرديّة يقول: "جلست عينه" ومعناه ذهب بصره. ولكن لو ترجم أحد بالإنجليزية مثلاً وقال: His eye had sat لكان واضحاً أن الترجمة الحرافية على هذا النحو للتعبير المذكور لن يعطي المعنى المطلوب. الهدف من الترجمة هو إيصال المعنى المراد لذا يجب أن تتحقق الترجمة هذا المهدّف ولو اضطر المترجم إلى أن يغيّر التعبير في اللغة التي يترجم إليها.

فيجب مناقشة هذه الأسئلة في مقدمة القرآن الكريم وأنوي مناقشتها كلها بإذن الله.

### هجوم المستشرقين على القرآن الكريم

والآن أريد أن أوجه أنظار الجماعة بأن خدمة القرآن الكريم خدمة مهمة جدا. إن أكثر ما ترکز عليه الأقوام الأوروبية هو أن يقللوا من أهمية القرآن الكريم. يقول "نولدكه" - كاتب ألماني معروف وعدو لدود للإسلام ويعتقد عالما كبيرا بالعربية في أوروبا - في الموسوعة البريطانية ما مفاده: لقد بذل الكتاب الأوروبيون قصارى جهودهم للعثور على الأخطاء والعيوب في القرآن الكريم ولكنهم فشلوا في سعيهم هذا.<sup>١</sup> وبذلك اعترف أن الكتاب الأوروبيون قد أخرجوا كل ما كان في جعبتهم ضد القرآن الكريم. ولكن أخطر محاولة ضده تلاحظ في كتاب هو في يدي الآن وعنوانه: "صفحات ثلاثة نسخ قديمة للقرآن"، ألفته امرأة حائزة على شهادة الدكتوراه، قالت فيه بأنها سافرت إلى مصر واشترت هناك كتاباً كانت عباراته منقولة عن كتب المسيحيين. ثم تقول بأنه عندما طلبت صفحات الكتاب ببعض المواد ظهرت من تحتها كلمات أخرى. تقول الدكتورة "منغاننا" عن تلك الأوراق إنه القرآن قديم، ويتبيّن من معاينته أن هناك فرقاً بينه وبين القرآن الموجود حالياً، وهذا يعني بكل صراحة أن القرآن قد حُرف.

وتدلل على ذلك بأنه عندما كتب عثمان <sup>رضي الله عنه</sup> القرآن أحرق نسخه الأخرى كلها. ولما لم يكن أحد قادراً على نسخ ما ورد فيها، ألف المسيحيون كتاباً عن دينهم في الظاهر ولكنهم نسخوا فيه سرّاً قرآنًا كان قد أمر بحرقه. وقد ظهر الآن ذلك القرآن المكتوب سرّاً بوضع بعض المواد عليه.

هذه مكيدة خطيرة جداً إذ يُروون ورقة قديمة لذلك الكتاب ويرُون فيها عبارات قديمة وبواسطتها يخلقون شبهات مختلفة.

<sup>1</sup>The Encyclopaedia Britannica Vol 15 P 905 Published 1911

## دجل المسيحيين

لقد أجريت بمنفسي حول هذا الموضوع بحثاً مفصلاً كنت أتمنى بيانه اليوم ولكن لا أجد وقتاً كافياً لبيانه كما أن الفرصة أيضاً ليست مواتية إذ إن السحب متراكمة ولكنني أسرد لكم طرفة حول هذا الموضوع، وهي أن الأوراق التي نُشرت في ذلك الكتاب باعتبارها أوراق القرآن القديم تُظهر خطأها بنفسها. فمثلاً جاء في القرآن الكريم: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمَّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩)، أما القرآن الذي كتبه المسيحيون فقد جاء فيه: "فَآمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمَّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ" ... ويقولون بأن المراد من "الكلمة" هو عيسى عليه السلام، ويستنتجون أن رسول الله عليه السلام كان تابعاً لعيسى.

إذن، فقد نسجوا في الكتاب المذكور خططاً زائفةً كهذه. ولكن على الرغم من خططهم المذكورة فإن هذه الأمور تُظهر كذبهم. أولاً: القرآن الذي يقدّمه المسيحيون ترتيبه مثل ترتيب القرآن الموجود حالياً تماماً. إذن، فإن قولهم بأن ترتيب القرآن قد تغيّر في عهد عثمان عليه السلام قد بطل بالقرآن نفسه الذي يقدّمونه.

هذا، وقد وردت في قرآنهم كلمات ليست عربية أصلاً، فمثلاً ورد فيه: "إيلم بدلاً من "العلم". وفي مكان آخر وقع خطأ يذكرني بقصة معروفة عن سارق جاء فيها أن شخصاً كان حديث العهد بالسرقة. وما لبث أن قام بالسرقة حتى وصلت الشرطة مكان السرقة للتحقيق في الموضوع فذهب السارق أيضاً إلى ذلك المكان وبدأ يساعد الشرطة في التحقيق وقال: يبدو أن السارق جاء من هذا الجانب ثم تسوّر من هنا وذهب إلى هناك. ففهم رجال الشرطة أن له دخلاً حتماً في السرقة فبدأوا يسألونه عن التفاصيل وساروا معه حيثما سار. وصل السارق بهم إلى باب في نهاية المطاف وقال: يبدو أن السارق خرج من هذا الباب وتعثر هنالك، فسقطت الصرة داخل الغرفة وبقيت أنا خارجها. ففي أثناء الكلام خرجت من لسانه بغير قصد منه كلمة "أنا"، فقبضت عليه الشرطة فوراً.

الحال نفسه ينطبق على هؤلاء القوم. لقد وردت في القرآن الكريم آية: ﴿وَأَنْزَلْ جُنُودًا لَمْ تَرُوهَا﴾ (التوبه: ٢٦). وضمير "ها" يعود هنا إلى الجنود، أما في قرآن المسيحيين فقد وردت كلمة "جُنداً" بدلاً من الجنود ولكن بقي ضمير "ها" على حاله ولم يغيروه. باختصار، هناك شهادات داخلية عديدة من هذا القبيل تفضح أخطاءهم ويبدو منها أن أحداً كتبه لخداع المسلمين وظل يرتكب فيه أخطاء مثل كتابة: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى﴾ باستبدال الحرف "ق" بـ"ك"، و: ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ بصورة "هُسْفَهَا". كذلك كتب كلمات كثيرة خاطئة مثل: "إِنَّا إِلَّا نَاسِي" بدلاً من ﴿إِنَّا النَّسِيَءُ﴾ مع أن "ناسِي" لا يعطي أيّ معنى قط. فيتبين من كل ذلك أن مسيحياناً جاهلاً لا يعرف العربية جلس لكتابه القرآن وراح يخطئ ويختلط على هذا النحو.

والآن أتناول بعضاً من اعترافات المستشرقين على القرآن الكريم.

### نزول القرآن الكريم منجماً

يقول المستشرقون بأنه يبدو ما يقال إن القرآن نزل منجماً وأنه ليس كلام الله، إذ لم تكن الله حاجة إلى إِنزاله منجماً لأنَّه يعلم الماضي والمستقبل كلَّه. ولكن لما لا يكون الإنسان عالماً بالظروف المستقبلية فلا يسعه أن يقول شيئاً عن الأحداث المستقبلية. فكان رسول الله ﷺ يسرد في القرآن كلَّ ما كان يواجهه من الظروف، لذا فهو كلامه وليس كلام الله.

لقد تناول القرآن الكريم هذه القضية فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٣)، يتبيَّن من ذلك بجلاء أنَّ السؤال الذي خطر ببال النصارى الآن، قد أثاره الكفار في عهد رسول الله ﷺ وقالوا لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة. وقد ردَّ الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كان من الحكمة أن ينزل كما نزل فعلاً، ﴿لِتُنَبَّهَ إِلَيْهِ فُؤَادُكُمْ﴾ أي أن نزول القرآن منجماً ليس سببه ضعف في الله بل يُظهر عظمته وَيَكْتُلُ. ولكن السؤال الآن هو: كيف يثبت القلبُ نتيجة نزول القرآن منجماً؟ فأذكُر بضعة أمور بهذا الشأن:

(١) لو نزل القرآن جملة واحدة وظل النبي ﷺ يستدل به باستمرار لما تقوى القلب بقدر ما يتقوى بنزول كلام الله عن أمر ما فورا. انظروا مثلاً كم يكون النبي ﷺ يستمتع حين كان يقوم بعمل ثم ينزل الوحي عنه وكان الله يُظهر رضاه ومشيئته عن ذلك العمل! وأتى لنا أن نتال تلك المتعة والله بالاجتهاد؟ كذلك كلما حدث حادث ونزل عنه على النبي ﷺ كلام الله الذي يتبيّن بواسطته أن هذا هو المراد من هذا الكلام. فلو طبق النبي ﷺ تلك الآيات على حادث ما باجتهاده لما استمتع بقدر ما كان يستمتع ﷺ في حال نزول القرآن عنه.

(٢) القرآن الكريم مصدق: ﴿إِنَّتِبَتِ بِهِ فُؤَادُكُمْ﴾ بمعنى أن الكتاب الذي جاء للعالم كله كان حفظه أيضا ضروريا. فلو نزل القرآن الكريم كله جملة واحدة لما استطاع أن يحفظه إلا من نذر حياته كلها لهذا الغرض. ولكن بسبب نزوله رويدا رويدا استطاع كثير من الناس حفظه، وظلوا يحفظونه عن ظهر قلب إلى جانب أشغالهم الأخرى. وبذلك ثبت قلب النبي ﷺ على أن هذا الكتاب لن يضيع أبدا بل سيظل محفوظا. لهذا السبب وُجد في عهد النبي ﷺ أناس كثيرون حفظوا القرآن الكريم عن ظهر قلب، غير أن عدد الحفاظ حاليا قليل جدا مقارنة مع ذلك الوقت. والسبب في ذلك أن كثيرا من الناس كانوا يحفظون القرآن الكريم - بسبب نزوله منجما - عن ظهر غيب بقدر ما كان ينزل.

(٣) الحكمة الثالثة في نزوله منجما هي أنه لو نزل جملة واحدة لاستحال أن يتسرّخ في قلوب الناس. عندما يُسلم هندوسي مثلاً يرى المسلمين عاملين بأحكام الإسلام فلا يقلق ولا يرى العمل بما عيّنا عليه. أما لو كتبنا لأحد كتاباً وطلبنا منه أن يعمل به دون أن يكون أمامه نموذج لما تعلّم الناس العمل به ولو إلى مئة عام. فكان ضرورياً لترسيخ تعليم القرآن أن يُرَدَّ منجماً، ليتعلم الناس العمل بأمر ثم ينزل أمراً ثالثاً ثم ثالثاً، وعلى هذا النحو يُطلب منهم العمل بالأوامر كلها.

(٤) لو نزل القرآن جملة واحدة لكان مع ذلك ضرورياً أن يدوّن بحسب ترتيبه الحالي. ولكن تدوينه بحسب الترتيب الحالي في ذلك الوقت كان خطيراً كخطورته لنا الآن لو دُوّن بحسب ترتيبه النزولي. لو جاءت الأحكام عن الصلوات والصيام في البداية قبل رسوخ النبوة لاستحال كلها فهُم الأوامر التي سبقت النبوة. إذن، كانت هناك حاجة إلى إثبات النبوة أولاً وأن يُثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي صادق، ثم تأتي مرحلة الدعوة إلى العمل، وتعليم الأحكام من أجل العمل. ولكن هذا ليس ضرورياً الآن إذ توجد الآن جماعة تؤمن بصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فالذى يدخل الإسلام الآن يدخله بعد الاقتناع بصدق محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاطلاع على مزايا الإسلام. فإن ترتيب القرآن الكريم الحالي هو الضروري. ولو أنزل القرآن جملة واحدة لظهر العيب المذكور للعيان.

(٥) لو نزل القرآن جملة واحدة لما أمكنت الإشارة في آية إلى مضمون آية أخرى. فمثلاً وردت في القرآن الكريم نبوءة أن الله تعالى سينقذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مخالب الأعداء وسيوصله إلى غايتها المتواخة سالماً غانماً. فلو نزل القرآن جملة واحدة لما أمكن القول حين أوصله الله إلى المدينة: انظروا فقد أوصلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هنا منقذاً إياه من براثن الأعداء، بل لأمكن قول ذلك فقط إذا كان جزء من القرآن قد نزل سلفاً ووردت فيه نبوءة بإخراجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة بسلام، ثم ينزل الجزء الذي أُشير فيه إلى تحقق تلك النبوءة.

(٦) هناك أمرٌ هام آخر فيرأى، وهو أنه كان مقدراً أن يُعترض على القرآن الكريم أن قوماً آخرين ساعدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على اختلاقه، فقد ورد ذكر هذا الاعتراض في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْلُكٌ افْتَرَاهُ وَأَعْنَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٥). فلو نزل القرآن جملة واحدة لأمكن للمعارضين القول بأن أحدها اختلق للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الكتاب. ولكن قدر الله أن ينزل جزءٌ منه في مكة وجزءٌ في المدينة. وإذا قال أهل مكة إن شخصاً آخر يختلق له، فمن

كان يختلقه في المدينة؟ من المعلوم أن القرآن كان ينزل في المجلس أيضا، فمن كان يعلمه هنالك؟ كذلك كان ينزل في السفر، فمن كان يصحبه في كل غزوة؟ لم يكن هناك أحد! باختصار، لقد نزل القرآن في الليل والترحال، وليلا ونهارا، وفي مكة وفي المدينة، وفي المجلس والعزلة، وهذا يكفي ردا على المعارضين أنه ما كان أحد من الناس يختلق القرآن للنبي ﷺ. أما لو نزل جملة واحدة بصورة كتاب قبل بأن شخصا آخر دون كتابا وأعطاه النبي ﷺ فيقرأه على الناس. ولكن لما كانت الآيات تنزل بحسب مقتضى المثل والمناسبة دائما فلم يكن لأحد أن يقول إن أحدا يفترتها بمقتضى كل مناسبة ومحل. إذن، إن نزول القرآن الكريم منجما يثبت مبدأ: ﴿يُثْبِتَ بِهِ فُؤَادُكُم﴾.

### الاعتراضات على جمع القرآن

هناك اعتراض يوجه إلى جمع القرآن. والذين يقولون إن القرآن ليس محفوظا في حالته الأولية يقدمون تأييدا لادعائهم ما يلي:

(١) أتى كان لحمد ﷺ أن يحفظ القرآن عن ظهر غيب بصورة صحيحة نظر إلى كثرة انشغاله وخوضه في الحروب والمساجلات؟

(٢) يقال بأن ذاكرة العرب كانت جيدة جدا ولكن هذا ليس صحيحا بل الصحيح هو أن ذاكرتهم لم تكن جيدة، وهذا واضح من الاختلاف في قصائد الشعراء السابقين. فهناك من يذكر أمرا بطريقة، والآخر يسرده بطريقة أخرى. فتبين من ذلك أن ذاكرة العرب لم تكن جيدة وإنما حدث الاختلاف.

(٣) لم يكتب القرآن بكتابته في عهد الرسول ﷺ. لو كان مكتوبا لما أبدى القلق عن ضياعه على إثر قتل الحفاظ.

(٤) لقد جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِّيًّا﴾ (الحجر: ٩٢). يقول المعارضون إن هذا يوحي بأن جاعلي القرآن عصيًّا كانوا موجودين في حياة

الرسول ﷺ.

(٥) لما لم يكن رسول الله ﷺ متعلماً فكلف الكتابة لكتابة القرآن، وكانوا يكتبون ما يحلو لهم.

(٦) رُوي أن اختلافاً كبيراً في قراءة القرآن الكريم حدث في عهد عثمان رضي الله عنه، وهذا يثبت وجود الخلاف بين المسلمين بشأن القرآن الكريم.

(٧) لقد أحرق عثمان رضي الله عنه نسخ القرآن الكريم كلها التي كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه. وهذا يعني أنها كانت مختلفة عن القرآن الذي أملأه عثمان، وإلا لما أحرقت.

(٨) الشاهد الوحيد على أصالة القرآن هو "زيد" الذي كان مكلفاً بكتابته، فكيف يمكن الثقة به؟

(٩) إذا كانت نسخة القرآن الموجودة في عهد أبي بكر رضي الله عنه صحيحة فماذا كانت الحاجة إلى إعادة كتابته في زمن عثمان رضي الله عنه؟ وهذا دليل على أن النسخ المتداولة في عهد أبي بكر رضي الله عنه عدّت غير صحيحة.

(١٠) لقد أثّم عثمان رضي الله عنه أنه عندما تولى الخلافة كانت عدة نسخ من القرآن موجودة ولكن عندما توفي ترك خلفه نسخة واحدة فقط. فتبين من ذلك أن النسخ التي كان فيها اختلاف قد أحرقت.

### الرد على اعترافات المعارضين

والآن أردّ على تلك الاعترافات.

الاعراض الأول هو: ألم لرسول الله ﷺ أن يحفظ القرآن مع مشاغله الكثيرة والمساجلات؟ الجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن تكذيب واقع الحال ليس ممكناً بأيّ حال. ما دام واقع الحال أنه رضي الله عنه كان حافظ القرآن وظل يقرأه على الناس في الصلوات ليل نهار فكيف يمكن إنكاره؟ أذكر أن البروفيسور مارغوليث أثار ذات مرة هذا الاعراض أمامي وقال: كيف استطاع - النبي ﷺ - أن يحفظ القرآن الكريم مع حجمه الكبير؟ قلت: لقد نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ، وكان مكلفاً بإصلاح العالم كله، فكيف يعقل ألا يحفظه، وقد حفظه ابني حين كان عمره أحد عشر عاماً؟

وأضف إلى ذلك أن هناك مئاتآلاف الناس الذين يحفظون القرآن كله عن ظهر غيب. فما دام هؤلاء الناس كلهم يستطيعون أن يحفظوه عن ظهر غيب فهل الذي نزل عليه القرآن هو الوحيد الذي لا يستطيع حفظه؟

يقول الاعتراض الثاني: إن ذاكرة العرب لم تكن جيدة لأنهم كانوا مختلفين فيما بينهم في القصائد القديمة. فأقول بهذا الشأن أولا إن الذين يثرون هذا الاعتراض ينطبق عليهم مثل النعامة، أي أنهم من ناحية يقولون بأن العرب كانوا يحفظون قصائد قديمة ولكن كانوا يختلفون فيها، ومن ناحية ثانية يقول مارغوليث أن القصائد لم تكن موجودة أصلا في الأزمة الحالية بل قد اختلقت فيما بعد ونسبت إلى القدامى. أي اعترض المعترضون على الإسلام كيما اتفق لهم وكما يحلو لهم. الحق أن ذاكرة العرب كانت جيدة، وقد رُوي بهذا الشأن أن ملكاً أعلن ألا يأتي أمامه شاعر لا يحفظ مئة ألف بيت من الشعر. فجاء شاعر وقال: لقد جئت لمقابلة الملك، فقيل له بأنه يجب على كل من يريد مقابلته أن يكون حافظ مئة ألف بيت من الشعر. فقال: اسألوا الملك: هل يريد أن يسمع مئة ألف بيت من شعر الجاهليه أو من زمن الإسلام؟ وهل يريد أن يسمع أبيات النساء أو الرجال؟ فأنا جاهز لأنسحه الأبيات من كل الأنواع المذكورة. سمع الملك ذلك وخرج فورا وقال: هل أنت الشاعر الفلاني؟ قال: نعم. قال الملك: لقد أعلنت ذلك لعلمي أنك لا تأتيني فدخلت لعلك ستأتي متھمساً بسماع هذا الإعلان. باختصار، لا يصح القول بأن ذاكرة العرب لم تكن جيدة. أما الاختلاف في القصائد فيجب التذكير بهذا الشأن أن الأبيات التي كانوا يحفظونها ما كانوا يحفظونها حاسبين إياها من كتاب موحى به بل كانوا يستبطون معانيها فقط، بينما كانوا يحفظون القرآن واثقين من أنه كلام الله فلم يقدّموا حرفا منه ولم يؤخروه. هذا، والأبيات التي كانوا يحفظونها لم يحفظوها بالتلتمذ على أيدي الأساتذة بل إذا سمعوها من أحد حفظوها. وأضف إلى ذلك أن ليس كل شخص يقدر على أن يعلم كلمات صحيحة تماما. ولكن يتبيّن من

تاريخ الإسلام أن قواعد معينة كانت محددة عن كتابة القرآن وحفظه، وكان هناك أربعة أشخاص مكلفين بحفظ القرآن. وكان يؤخذ الحذر والحيطة بعين الاعتبار بوجه خاص، لدرجة أن علياً رضي الله عنه صَحَّحَ ذات مرة لِإِمَامٍ كان يقرأ القرآن في الصلاة ولكنه رضي الله عنه منع من ذلك وقيل له بأنك لست مكلفاً بهذا الأمر. باختصار، لقد رُوعي الحذر والحيطة بهذا الأمر لدرجة أن كلف به أربعة أشخاص مع أن آلاف الناس كانوا يحفظون القرآن، بينما لم يكن أحد مكلفاً من قبل الشعراً ليعلمهم الأيات. من كلفه أمرؤ القيس ليعلم الناس قصائده؟ أما فيما يتعلق بالقرآن فلا يزال الأمر ينتقل من أستاذ إلى أستاذ كابراً عن كابر.

ثالثاً: الاعتراض الثالث الذي يثار هو أن القرآن لم يُكتب بكماله في عهد النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجوابه أن هذا ليس صحيحاً. لقد كُتب القرآن كله في زمن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتماً، كما جاء في رواية عثمان رضي الله عنه أنه كلما كان ينزل شيء من القرآن كان النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوا الكتاب ويمليه عليهم ويأمرهم أن يضعوه في مكانه وكذا. فما دام ذلك ثابتاً تاريخياً كان القول بأن القرآن لم يُكتب كاملاً في زمن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس إلا حماً وغباءً. أما السؤال: لماذا كُتب في عهد أبي بكر رضي الله عنه? فجوابه أن القرآن لم يكن في دفَّةٍ واحدةٍ في زمن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو الآن، فخطر ببال عمر رضي الله عنه أن الناس قد يحسبون أن القرآن غير محفوظ فقال لأبي بكر رضي الله عنه: "إِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ جَمْعَ الْقُرْآنِ"؟ ولم يقل: أن تأمر بكتابته. فدعا أبو بكر زيداً رضي الله عنهما وقال له: "اجْعَهُ" ولم يقل أكتبه. باختصار، التعابير المذكورة توضح بحد ذاتها أن السؤال المطروح حينذاك كان عن جمع القرآن لا عن كتابته.

رابعاً: الاعتراض الرابع هو أنه قد ورد في القرآن عن بعض الناس: ﴿الَّذِينَ حَجَّلُوا الْقُرْآنَ عِصِّيَنَ﴾. فليكن معلوماً بهذا الشأن أن هذا التعبير لا يعني أنهم كانوا يجتازون القرآن أجزاءً بل معناه أن الله تعالى سينزل على الكافرين عذاباً مثلما أنزله على الذين يعملون ببعض أجزاء القرآن ولا يعملون ببعضها الآخر. يتبيَّن من هذه الآية

بوضوح أن المذكورين في الآية هم الكفار والمنافقون. ولو استُنبط منه معنى أنهم يجتَّونه أجزاءً لكان هذا المعنى أيضاً مفيدة لنا لأن مفاده أن القرآن كان مجموعاً سلفاً لذلِكَ كان الأعداء يسعون لجعله أجزاءً. أي كان محفوظاً عند المسلمين ولكن المنافقين كانوا يجدونه مجزأً.

خامساً: أما ما يقال بأن رسول الله ﷺ كان غير متعلم فكان الكتاب يكتبون ما يحلو لهم، فجوابه أن الرسول ﷺ كان قد تنبأ لهذا الأمر سلفاً وبيان ذلك أنه كلما نزل الوحي كان ﷺ يلقي على الكاتب ويأمر أربعة أشخاص أن يحفظوه عن ظهر غيب، وبذلك كان بإمكان الحفاظ أن يصححوا خطأ الكاتب والعكس صحيح. لنفترض أن كاتباً كتب كلمة بصورة خاطئة، ولكن كيف كان ممكناً أن يتفق الحافظ مع ذلك الخطأ؟ فهكذا كان يُعثر على الخطأ فوراً.

سادساً: وما يقال إن اختلافاً كبيراً حدث في قراءة القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، فجوابه: لا يثبت من أي روایة صحيحة أن اختلافاً قد حدث عن القرآن في عهد عثمان. بل قد ورد بكل وضوح أن الاختلاف كان في القراءة. وثبتت من الأحاديث أن النبي ﷺ قرأ القرآن على سبع قراءات. لما كان لفظ بعض الكلمات صعباً على بعض الأقوام لذا كان رسول الله ﷺ يخَّبِرُ وحياً أن قراءة تلك الكلمات بطريقة كذا وكذا أيضاً ممكناً. فقد جاء في الروايات بهذا الشأن عن عليٍّ أن عثمان رضي الله عنهما دعاه وقال بأن الناس من قبائل مختلفة يقولون بأن قراءة هم هي الصحيحة وهذا الأمر مدعوة للنزاع لذا يجب البتُّ في الموضوع، فقال عليٌّ رضي الله عنه: لك أن تحكم في ذلك، فحكم عثمان رضي الله عنه وقال: ما دام الناس قد اتحدوا بعد انتظامهم إلى الإسلام فيجب أن تكون هناك قراءة موحدة وهي قراءة قريش.

سابعاً: إن لم يكن هناك اختلاف في القراءات فلماذا أُحرقت نسخ القرآن التي كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه؟ وجوابه أن هذا باطل كلياً. بل ورد بهذا الشأن أنه كانت عند حفصة رضي الله عنها نسخة القرآن التي يعود تاريخها إلى زمن أبي بكر

فطلبت منها وأمر بإعادتها إليها بعد النسخ، فأعيدت. وأحرقت نسخ ذات قراءات مختلفة كيلا يبقى اختلاف القراءات قائما.

ثامنا: أما ما قيل بأن زيدا هو الشاهد الوحيد على أصالة القرآن أيضا فهذا أيضا باطل. الحق أن أبا بكر كلف عمر مع زيد رض وأجلسهما على باب المسجد وأمر ألا تعرض عليهما عبارة لم يُملها رسول الله صل، ولم يشهد عليها شاهدان أن النبي صل أملأها بحضورهما.

تاسعا: يشار اعتراض آخر أنه إن لم يكن هناك اختلاف فأي حاجة اقتضت التحقيق مرة أخرى؟ وجوابه أنه قد تم التحقيق في القراءات وليس في العبارات والسور.

عاشرًا: لقد قيل بأنه إن لم يكن هناك اختلاف فلماذا أحرقت كل النسخ ما عدا نسخة واحدة؟ جوابه أيضا الجواب السابق نفسه أنه قد أحرقت النسخ المحتوية على قراءات مختلفة. إذن، ما يقال إنه كانت هناك نسخ مختلفة عندما تولى عثمان رض الخلافة ولكن بقيت بعد ذلك نسخة واحدة، فهذا يعني أنه قد شطب القراءات المختلفة فأثار هذا الاعتراض القبائل التي سُطبت قراءتهم.

فالنتيجة النهائية هي أن القرآن الموجود حاليا هو القرآن نفسه الذي كان في زمن رسول الله صل ولا اختلاف فيه قط.

### المحكمات والمتشابهات

والآن أتناول المتتشابهات باختصار. يُعرض أن في القرآن محكمات ومتتشابهات أيضا، فكيف يمكن الثقة به؟

الحق أن المعترضين لم يتأنلوا في متتشابهات القرآن الكريم. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحَكَّمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٨)، يقول الناس إننا لا نعلم أي آية مُحَكَّمة وأيها

متتشابهة. فقد ورد مقابل ذلك في سورة هود: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ (هود: ٢)، أي أن جميع الآيات في هذا الكتاب مُحكمة. وهذا القول يُبطل في بادئ الرأي ما قيل قبل قليل بأن بعض آياته مُحكمة وبعضها متتشابهة. وقد جاء في آية ثالثة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ (الزمر: ٤). يبدو من هذا الكلام أن آيات القرآن كلها متتشابهة مع أنه قد عدّت من قبل كل الآيات مُحكمة.

تبين من ذلك بكل جلاء أن للمُحكم والمتتشابه معنى آخر لم يفهم. والغريب في الأمر أنه يُستنبط من المتتشابه معنى يثير الشكوك مع أن القرآن يفسر المتتشابه قائلًا: ﴿مَثَانِي تَقْسَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٤)، أي أن مضمونه سامية جدا، والذين يقرؤون هذا الكتاب ويفهمونه ويخشون ربهم تقشعر جلودهم... أي تتفجر من قلوبهم ينابيع حب الله تعالى. قولوا الآن بالله عليكم، هل يمكن أن يحدث ذلك مما فيه شك؟ يبدو من هنا جليا أن للمتتشابه معنى آخر وهو ما يُشبه شيئا آخر. أي المتتشابه تعلیم يشبه تعالیم أخرى. خذوا الصوم مثلا، فهذا الأمر متتشابه بحد ذاته لأن هذا التعليم كان موجودا من قبل كما يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٤) إذن، إن أمر الصوم وحده متتشابه. كذلك يقول الله تعالى عن القرابين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ (الحج: ٣٥). إذن، إن الأمر بالقربان أيضا متتشابه. الحق أن الله تعالى قد رد هنا على الذين قالوا بأن القرآن قدّم كل شيء بالسرقة من كتب أخرى. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. هذا كتاب بعض تعاليمه جديدة وبعضها يجب أن تشبه التعاليم السابقة. فمثلا أمر

الأنبياءُ السابقون بصدق المقال، فهل كان للقرآن أن يأمر بـألا تصدقوا المقال بل يجب أن تقولوا قول الزور؟ فيقول الله تعالى بأن بعضًا من تعاليم القرآن تشبه التعاليم الموجودة في الكتب السابقة. ثم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ فَيَتَّسِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: ٨)، أي أن السفهاء من الناس لا ينظرون إلى التعاليم الجديدة بل يقولون بالنظر إلى تعاليم تشبه التعاليم السابقة إن القرآن نقل منها، ويفعلون ذلك ليعيثوا الفتنة ولি�صرفوا هذا الكتاب عن حقيقته، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يعلم حقيقته إلا الله، وهو أعلم بقدر التعليم الذي كان إنزاله مرة أخرى ضروريًا، ولم يفوت هذا الأمر إلى الناس، لأن الله وحده دون غيره قادر على أن يقرر مقدار ضرورة ذلك التعليم في المستقبل، وإن كان قد نزل من قبل، أو يمكن أن يدرك - بعد تعليم الله أولئك الذين لديهم علم حقيقي بكتاب الله - بقدر ما كان إثبات التعليم ضروريًا ولماذا غير أمر ما<sup>١</sup>.

يمكن أن يكون لهذا الموضوع شروح صحيحة أخرى أيضًا ولكن لا يمكن تحديد المحكمات والمتشابهات فيها. فآية واحدة يمكن أن تكون مُحْكَمَةً ومتتشابهة في الوقت نفسه، بمعنى أنه إذا فهم المرء آية صارت مُحْكَمَةً له وإن لم يفهمها كانت الآية نفسها متتشابهة بالنسبة له. كذلك يمكن أن يحدث اختلاف أيضًا بين الناس إذ يمكن أن يُعَدّ شخص آيةً معينة مُحْكَمَةً من منطلق معنى معين ولا يرى شخص آخر ذلك المعنى صحيحاً فيحسب الآية نفسها متتشابهة. ولكن الآيات المحكمات تكون واضحة من منطلق أن تعاليم القرآن الكريم التي هي إضافة على الكتب السابقة هي مُحْكَمَةً كلها، وأما ما عداها فهي متتشابهة.

<sup>١</sup> إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِحُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٨)

## لماذا سُمِّي القرآن كله مُحْكماً ومتشابها في الوقت نفسه؟

أما السؤال: لماذا سُمِّي القرآن كله مُحْكماً في آية وسُمِّي متتشابها في آية أخرى؟ فليكن معلوماً بهذا الشأن، كما قلت من قبل، إن التعليم المُحْكَم بحسب مصطلح القرآن هو ذلك الذي جدّده القرآن، وما يماثل فيه القرآن كتبًا سابقة هو متتشابه. ومن ناحية فإن القرآن الكريم كله مُحْكَم لأنّه عندما نريد أن نحكم في تعليم مبدئياً فلا نبحث في جزء معين منه بل ننظر إلى مجموعته. وإذا أمعنا النظر في أنواع الأحكام المختلفة إجمالاً وجدنا تعليم الإسلام فريداً من نوعه، إذ لم يهمل الإصلاح في أيّ جزء من التعليم، فهو لا يشبه الكتب السابقة قط لذا فهو مُحْكَم كله. كذلك لما كان ضرورياً أن تنزل مبادئ الشريعة في الكتب السابقة بحسب درجات الناس في تلك الأزمنة لكي يبلغوا الكمال في دائرتهم لذا فإن جميع الأحكام الواردة في القرآن الكريم متضمنة في الكتب السابقة أيضاً بشكل من الأشكال، فمن هذه الناحية يصبح القرآن الكريم كله متتشابهاً. فمثلاً إن الصلاة موجودة في الأديان السابقة، كذلك الصيامُ والحجُّ والزكاة، فينخدع بعض الناس نظراً إلى هذا التشابه ويقولون: ما فائدة نزول القرآن إذن؟ إن مؤلف كتاب: "مصادر الإسلام" وغيره من المسيحيين يندرجون تحت قائمة الذين حاولوا أن يثبتوا تشابه القرآن مع كتب أخرى وبذلك كذبوا القرآن مع أن القرآن الكريم قد ردّ سلفاً على هذا الاعتراض بكل وضوح وجلاء. الحق أن القرآن قد بينَ حقيقة عظيمة أنه لا بد للسِّفر السماوي أن يتضمن في طياته بعض المُحْكَمات وبعض المتشابهات. أما المتشابهات فلأن السِّفر الذي يكون بعيداً كل البُعد عن التعليم السابقة لا يمكن أن يكون من الله لأن ذلك يعني أنه لم يكن أيّ إنسان من أصناف إنسان من قبل قط ولم يهدِ الله أحداً قط، وهذا باطل بالبداهة. وأما المُحْكَمات فلأنه إن لم يقدّم أمّا العالَم ميزة جديدة فلا معنى لمجيئه أصلاً إذ كان التعليم السابق موجوداً. ومن يستطيع أن ينكر مزايا ذلك الأصل أو يرفض صدقه؟

لقد بذل المفسرون جهوداً مضنية في تفسير المُحْكَم والمتَشَابَه ولكنهم ارتكبوا أخطاء كثيرة لعدم معرفتهم الحقيقة.

ما دام البرد قد ازداد الآن وترامت السحب لذا أنفي خطابي هنا وأدعوا الله تعالى أن يوفقكم لفهم القرآن الكريم والعمل به. آمين.

(بعد الخطاب دعا حضرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الحضور جميعاً ثم سجد شكرًا على أن الله تعالى وفقه لإلقاء الخطاب في الجلسة والدعاء مع الجميع على الرغم من اعتلال صحته، فالحمد لله على ذلك)





## فضائل القرآن (٢)

### الأدلة العقلية والنقلية على أفضلية القرآن الكريم على الكتب السابقة

(خطاب ألقى في ٢٩/١٢/١٩٢٩  
 المناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ ﴿فَتَبَّعَهُ الْآيَاتُ التَّالِيَةُ مِنْ سُورَةِ النُّورِ﴾ من سورة النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الرُّجَاجَةُ كَأَهْمَا كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ رَيْتُوْنَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ مَمْتَسَسُهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْنَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ \* رِجَالٌ لَا ثُلُبِّيهِمْ بِتَحَارَةٍ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْرِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِعَيْرٍ حِسَابٍ﴾ (النور: ٣٦-٣٩)

## مغزى الإسلام وروحه

الموضوع الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم هام جداً بل الحق أنه مغزى الإسلام وروحه، ويجب على الإخوة أن يسمعوه بإصغاء وانتباه كاملين، ويسعوا جاهدين للاستفادة منه. هذا الموضوع يتعلق بفضائل القرآن أي ما هي المحسن في القرآن التي بسببها يمكن تفضيله بما على كتب الأديان الأخرى. مما لا شك فيه أن مدار ديننا هو على القرآن الكريم، فلو ثبت في القرآن عيب، لا سمح الله، أو لو لم تثبت فيه مزايا غير عادية فلا يبقى من الإسلام شيء. فهذه قضية حساسة جداً من شأن الهجوم عليها أن يلحق أكبر ضرر بالإسلام.

أنا لا أرى الرسول ﷺ خارجاً عن القرآن بل آراه جزءاً من القرآن نفسه كما يقول الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥). إذن، هناك قرآن نزل بصورة الكلمات، وقرآن آخر نزل على قلب رسول الله ﷺ الظاهر. لذا فإن الهجوم على رسول الله ﷺ سيكون هجوماً على القرآن في الحقيقة.

## أفضلية القرآن الكريم على الأديان والكتب الإلهامية كلها

نحن ندعى أن القرآن الكريم جاء للعالم كله وللأزمنة كلها. فإذا كان القرآن الكريم للعالم كله وللأزمنة كلها فإن مسؤوليتنا تجاهه تتعاظم أكثر مما لو كان للعرب فقط أو جاء لإصلاح مفاسد زمِنٍ واحد فقط. لم تكن عند العرب شريعة ولا كتاب ديني وكانوا يعملون بالأوهام أو التقاليد والعادات القومية. يكفيانا القول بأنهم كانوا يعبدون الأوثان وبالتالي كانوا متورطين في أصناف السيئات، فمنعهم القرآن منها، لذا كان هناك حاجة ماسة إليه. فلو كان القرآن للعرب فقط لما كانت هناك مشكلة في إثبات أفضليته وتفوّقه. ولكننا نقول بأنه جاء للعالم كله، ويخاطب اليهود والنصارى والهندوس والمجوس وغيرهم جميعاً وهو أفضل من جميع الكتب الأخرى.

التي تُعدّ إلهامياً أو الكتب التي عُثر عليها بواسطة الآثار القديمة. لذا يجب علينا الإثبات أن في القرآن الكريم مزايا تجعله أفضل وأعلى من الكتب السابقة كلها. في القرآن مزايا ليست في التوراة، ولا في الأسفار القديمة، وفيه محسن لا أثر لها في الأنجليل ولا في الفيدات ولا في كتب الزرادشتية وغيرها.

### القرآن الكريم كنزر روحاني

كذلك علينا أن ثُبّت، بُغية إثبات أفضلية القرآن الكريم، أنه كنزر روحاني لا يستطيع العيش بدونه في الدنيا. فإثبات الزيادة على الكتب السابقة لا يكفي، بل يجب الإثبات أيضاً أن ما قدّمه القرآن الكريم قد هياً بواسطته مرافق جديدة لم تكن مهيئة من قبل. إذا كان شيئاً متساوياً في صفاتهما يمكن أن تُعدّ مزية أحدهما الظاهرة أيضاً وجهاً للأفضلية على غيره. فمثلاً إذا كانت حبات من المانجو حلواتن بالمستوى نفسه ولكن كانت إحداها أكبر حجماً من الأخرى فللذكرى أفضلية على الصغرى من حيث كبر الحجم. نحن ندعى أن القرآن الكريم جاء للعالم كله وللأزمنة كلها ولن يأتي بعده كتاب مشرع، لذا علينا أن ثبت أفضلية القرآن على الأقوام والأديان والعلوم كلها. والكتاب الذي يدعى أنه الكتاب الإلهامي الأخير، كما يقول القرآن الكريم، تقع عليه مسؤولية أن يقدم مزايا أعلى من الكتب السابقة كلها. الكتاب الذي يدعى نسخ الكتب السابقة ليس عليه إلا أن يثبت أن فيه مزايا أكثر من الكتب السابقة. أما الكتاب الذي يقول بأنه لن يأتي بعده كتاب مشرع وهو الكتاب الكامل إلى الأبد فلا يكفيه أن يثبت في نفسه مزايا أكثر من الكتب السابقة بل لا بد له من الإثبات أيضاً أنه ما من أمر يتعلق بالروحانية في المستقبل إلا ويوجد فيه. فالكتاب الذي لا يكتفي بالقول بأنه نسخ الكتب السابقة بل يقول أيضاً بأنه أغلق باب مجيء الكتب الإلهامية في المستقبل، فيتحتم عليه أن يقدم أدلة قطعية على أنه لا يمكن أن ينزل في المستقبل كتاب من هذا القبيل.

فهذا معيار مهم جدا لإثبات أفضلية القرآن الكريم. غير أنه يمكن النقاش بالتفصيل -إضافة إلى النقاش المبدئي- أن مزية كذا وكذا موجودة في القرآن الكريم ولا توجد في كتاب سواه. ولكن لا بد من النقاش المبدئي أيضا.

إذا ثبّتنا كثرة المزايا في القرآن الكريم وقلنا مثلاً إن كذا وكذا من المزايا توجد في الفيدات والكتاب المقدس والزند أفتا، ولكن بضعاً أو عشرة أو عشرين مزية كذا وكذا توجد في القرآن فقط، فهذا أيضاً يثبت أفضلية القرآن الكريم ولكن لا يثبت كونه الأكمل ولن يثبت أنه لن يأتي في المستقبل كتاب تشرعي. ففي هذه الحالة تثبت أفضلية القرآن الكريم مقابل الكتب الموجودة حالياً فقط.

### الكتاب الكامل من أوجه الكمال كلها

باختصار، الكتاب الذي يدّعى أنه الكتاب الأخير والأفضل من غيره لا يكفيه أن يثبت فقط أنه يشمل ما لا يوجد في كتب أخرى بل يتحتم عليه أن يثبت أيضاً أن ما يوجد فيه لا يمكن أن يوجد في كتب أخرى أبداً. وما لم يثبت ذلك لا تتحقق أفضليته بذكر الأمور الحسنة فقط. صحيح أنه ما دامت الأفضلية لا تقتصر على المزايا العليا فقط بل تثبت بكثراً أيضاً لذا يمكن تقديم كثرة المزايا لتحقيق هدف أن كتاباً كذا أفضل من حيث كثرة المزايا فيه وإن كانت بعضها موجودة في كتاب آخر أيضاً. غير أن الكتاب الأفضل بصورةه الكاملة هو الذي تثبت أفضليته من كافة وجوه الكمال. وهذا ما أدعوه عن القرآن الكريم.

### منجم الجوادر

قد يقول قائل: ألم يعلم الناس الأوائل هذه الفضائل للقرآن الكريم؟ فليكن معلوماً بهذا الشأن أنهم كانوا يعلمونها، ولكن العلوم الروحانية تزداد وتتقدم كل يوم بفضل الله تعالى. وما دمنا نعلم أن لدينا القرآن الكريم الذي هو منجم الجوادر الذي تخرج منه الجوادر الجديدة باستمرار فلماذا نكتفي بالجوادر التي حازها الأوائل؟ ولماذا لا

نُخرج من منجم القرآن الأحجار الثمينة والجواهر الجديدة؟ فدخلت كنز القرآن الكريم لأنني كنت قد أخرجت منه الجواهر والأحجار الثمينة عدة مرات من قبل أيضا، وجيئت مالئاً أكياسي. عندما دخلت هذا المنجم للاطلاع على محاسن القرآن الكريم خطر بيالي أمر غريب وهو أنه يجب عليـــ بدلاً من أن أجث فيه عشوائياـــ وآخذ كل ما تقع عليه يدي، مع أنه يمكن أن تكون فيه أشياء أفضل مما آخذـــ أن أفكـــر مبدئياً ماذا يجب أن آخذـــ. عندها خطر بياليـــ أنه ليس من المستحسن إثبات أفضلية كتاب أو كماله أن نتدير مضامينه ونعتـــر على مزية من مزاياهـــ بل يجب أن نفـــكر لماذا تحصل لشيـــء ما أفضلية علىـــ غيرهـــ.

ثم يجب أن نرى أيضاًكم من الأسباب والمعايير- التي يسببها يفضل شيء على غيره- توجد في القرآن الكريم؟

ستة وعشرون وجاً لـأفضلية القرآن

حينما تدبرت من هذا المنطلق مثل أئمَّا عينيَّ بحر القرآن وعلمتُ أنَّ كلَّ وجه من وجوه الأفضلية الذي يوجد في العالم والذِّي بسبِّبه يُفضَّل شيء على آخر موجود في القرآن الكريم بصورة أَتمَّ، وتوجد فيه أسباب الأفضلية كلُّها. عندها أقيمت نظرة عابرة وخاطر بيالي ٢٦ وجهاً من وجوه أفضليَّة القرآن ومن الممكِّن جداً أن تكون الأوجه أكثر منها بكثير، وأنَّ تمثيل للعيان أو وجه آخر كثيرة إذا تأمَّلتُ أكثر أو تدبرتُ أحدَ غيري. ولكن بقدر ما خطر بيالي من المزايا في الوقت الحالي فقد وجدتُ القرآن الكريم من منطلقها أفضلاً من الكتب كلُّها.

## ١- أفضله المصد

الوجه الأول لأفضلية شيء هو أفضلية مصدره، كما لو كان أب أحد خدم في وظيفة حكومية فيؤخذ ذلك بعين الاعتبار ويُرجح ابنه على شخص آخر يساويه من حيث الثقافة والمؤهلات. وهذه أفضلية من حيث المصدر. كذلك الذي يولد

في بيتٍ ثريٍ يأتي بالشراء معه وهذه ميزة يتحلى بها من حيث المصدر. فقد وجدتُ القرآن الكريم أفضل من الكتب السابقة من هذا المنطلق أيضاً.

## ٢- الأفضلية من حيث المؤهلات الذاتية

وجه الأفضلية الثاني الذي ذهب إليه وهلي هو أن شيئاً يحوز الأفضلية على أشياء أخرى من حيث المؤهلات والقدرات الذاتية أيضاً، مثل فاعلية الأدوية. فمن هذا المنطلق أيضاً وجدتُ القرآن الكريم أفضل من الكتب كلها.

## ٣- الأفضلية من حيث النتائج

وجه الأفضلية الثالث هو من حيث النتائج، فمن هذا المنطلق أيضاً نفضل شيئاً على شيء آخر. بعض الأشياء تكون جيدة بحد ذاتها ولكنها لا تسفر عن نتيجة حسنة باختلاطها مع أشياء أخرى. كما يقال عن الجراثيم أنها تملأ نتيجة الحقنة. أي إذا احتلست المادّة في الحقنة مع الجراثيم في جسم الإنسان أسفرت عن نتيجة معاكسة. إذن، ينال الشيءُ الأفضلية أحياناً من حيث النتائج، وما سبق غيره في هذا المجال يُعترف بأفضليته. كذلك تبدو بعض التعاليم جيدة ومفيدة جداً ولكن لا تؤدي إلى نتائج حسنة، ولكنني وجدتُ من هذا المنطلق أيضاً أن القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى.

## ٤- الأفضلية من حيث عظمة الفائدة

وجه الأفضلية الرابع هو من منطلق عظمة الفائدة. لا شك أن الفوائد تكون موجودة في شيء ولكن بعضها أكثر فائدة من غيرها. فالقرآن الكريم أفضل من حيث عظمة الفوائد أيضاً.

## ٥- الأفضلية من حيث كثرة الفوائد

نفضل شيئاً على آخر من حيث كثرة الفوائد أيضاً. فمثلاً يفيد دواء أكثر في مرض معين، ولا يفيد دواء آخر بالقدر نفسه في ذلك المرض ولكنه يفيد في خمسين

مريضا آخر. فالدواء الأخير يكون أفضل من سابقه من حيث فوائده. فوجدت القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضا.

#### ٦- الأفضلية من حيث سعة المنفعة

يفضّل شيء على آخر من حيث سعة المنفعة أيضا. فمثلا لا ننظر إلى دواء من منظوركم من الأمراض يفيد فيها هذا الدواء بل نرىكم من طبائع يؤثر فيها وكم من الناس يمكن أن يستفيدوا منه. فوجدت القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا.

#### ٧- الأفضلية من حيث مدة النفع

نفضّل شيئاً أحياناً على غيره من منطلق مدة نفعه. فمثلاً إذا كان أمام المرء نوعان من القماش فنهم مدة الاستفادة من هذا القماش مقارنة مع القماش الآخر. فإذا كان هناك قماش يمكن استخدامه إلى عام وقماش يمكن الاستفادة منه إلى ستة أشهر فسيفضّل الأول على الثاني. فقد وجدت القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضا.

#### ٨- الأفضلية من منطلق مكانة المستفیدین

ثم هناك وجه الأفضلية من حيث عظمة الذين يفیدهم ذلك الشيء. فالأشياء التي يعلم أنها تفید عظماء الناس تفضّل على غيرها. وقد رأيْتُ أن القرآن الكريم أفضل في هذا المجال أيضا.

#### ٩- الأفضلية من حيث أنواع المستفیدین

ينظر الناس أيضاً إلى أنواع الأشياء التي يفیدها شيء معين، لأن لأنواع أيضاً درجة إلى جانب الأفراد. فهناك شيء يفید عشرة ملايين من الناس، وشيء آخر أيضاً يفید عشرة ملايين من الناس ولكن قد يكون الفرق بينهما بحيث أن أحدهما ينفع نوعاً معيناً من الناس، أي ينفع المسيحيين أو الهندوس وحدهم، أما الآخر فهو أيضاً يفید عشرة ملايين ولكنه يفید الهندوس واليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم جميعاً

فيعد هو الأفضل. إذن، يمكن أن يفضل شيء من منطلق كثرة أنواع الأفراد أيضا، فمن هذا المنطلق أيضا وجدت القرآن الكريم مفضلا على الكتب الأخرى كلها.

#### ١٠ - الأفضلية من حيث النزاهة عن الزيف

يمكن أن يفضل شيء من منطلق: هل تشوّبه شائبة من الريف أم لا؟ فما لا زيف فيه يفضل على أشياء أخرى. ففي هذا المجال أيضا وجدت القرآن الكريم أفضل من كتب الله كلها.

#### ١١ - الأفضلية من حيث الفوائد اليقينية

هناك أشياء تكون نزية عن الريف ولكن لا يكون المرء متأكدا من منافعها. بل تكون هناك إمكانية خطأ المرء في استخدامها فيتضرر بسبب ذلك. وما لم يكن هناك شك بحدوث الخطأ في استخدامه أو في فوائده يختار ذلك الشيء ويعترف بأفضليته. فالقرآن الكريم حائز على الأفضلية من هذه الناحية أيضا.

#### ١٢ - الأفضلية من حيث الجمال الظاهري

يفضل شيء على أشياء أخرى من منطلق الجمال الظاهري أيضا. وقد وجد القرآن أفضل من الكتب الأخرى من حيث جماله الظاهري أيضا.

#### ١٣ - عدم الإضرار بالأمور الضرورية

يُفضل شيء على غيره نظرا إلى أن استخدامه لن يضر بالأشياء الأخرى. فمثلا إذا كان أحد مصابا بمرضين ويتوفر لأحد مرضيه دواء يفيده كثيرا ولكن في الوقت نفسه يؤدي إلى تفاقم المرض الآخر، فيستخدم دواء يفيده قليلا ولكن لا يؤدي إلى تفاقم مرض آخر. فأفضلية القرآن الكريم ثابتة من هذا المنطلق أيضا.

#### ١٤ - الأفضلية من حيث كون الفوائد سهلة المنال

يُفضل أيضا شيء على آخر من منطلق أن فوائده تكون سهلة المنال. والقرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا.

## ١٥ - الأفضلية من حيث كونه فريداً في سد الحاجات

يفضّل شيء على آخر من منطلق أنه يسد حاجة لا يسدّها شيء آخر قط. والقرآن الكريم حائز على هذه الأفضلية على الكتب الأخرى لأنّه يسد حاجات لا يسدّها أيّ كتاب آخر.

## ١٦ - الأفضلية من حيث سد الحاجات الضرورية

يُقدّم شيء على أشياء أخرى من منطلق أنه يسد حاجة لا يمكننا أن نغضّ الطرف عنها. تكون هناك حاجات يتعرض المرء للخسارة نتيجة إهمالها ومع ذلك يكون إهمالها ممكناً. ولكن هناك حاجات أخرى يؤدي إهمالها إلى هلاكنا. فالقرآن يسد تلك الحاجات أيضاً، لذلك هو أفضل من الكتب الأخرى.

## ١٧ - الأفضلية من حيث السهولة في الحفاظ عليه

ينال الشيء أفضلية على غيره نظراً إلى مدى ما يُبذل من مساعٍ للحفظ عليه. بمعنى أنه يكون هناك شيء يمكننا الاحتفاظ به عندنا بكل سهولة ويسراً، فنقدّمه على ما يكون الحفاظ عليه صعباً. فرأيت القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضاً.

## ١٨ - الأفضلية من حيث المنفعة

للعثور على أفضلية شيء يُنظر أيضاً إلى مدى المسؤوليات التي يلقاها علينا استخدامه، وإلى مدى المنفعة مقابلها. فرأيت أن القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضاً لأنّ النفع فيه أكثر من بذل المساعي.

## ١٩ - الأفضلية من حيث كونه بريئاً من الخسارة

يفضّل أيضاً شيء على غيره من منطلق أن استخدامه لا يسفر عن ضرر أو خسارة، فيُستخدم في حال عدم الخسارة. فمثلاً إذا كان هناك دواءً، أحدهما أقلّ نفعاً ولا ضرر فيه فتناوله، أما ما كان أكثر نفعاً ولكن يُخشى ضرره أيضاً فلا نتناوله. وإنّ أفضلية القرآن الكريم ثابتة من هذا المنطلق أيضاً.

## ٢٠ - الأفضلية من حيث الدعوة العامة

يُفضل أيضاً شيء من منطلق أنه يكون ملك لنا. فلماً أمعنتُ النظر في القرآن الكريم من هذا المنطلق تبين لي أن القرآن وحده ملكنا، أما الكتب الأخرى فقد وجدت فيها المغایرة. لقد رأيت القرآن الكريم بنظر هنودسي وبنظر مسيحي، ومجوسى وبنظر بوذى أيضاً. ثم ذهبت إليه بصفتي فرداً من عائلة السادات تارة ومن المغول تارة أخرى، وبصفتي فرداً من عائلة شيخ مرة ومن عائلة راجبوت مرة أخرى. ثم زرته بصفتي عالماً حيناً وكجاهل حيناً آخر، فقال لي كل مرة: تعالَ فأنت لي وأنا لك. ولكن كلما ذهبت إلى كتب أخرى وبأية حالة طردني دائماً ولم تسمح لي بالاقتراب منها.

## ١١ - الأفضلية من حيث علاج الأمراض

نفضل أحياناً شيئاً على غيره لكونه يعالج الأقسام التي نحن مصابون بها. فقد وجدت هذه الأفضلية أيضاً في القرآن الكريم.

## ١٢ - الأفضلية من حيث المنافع الإضافية

نقدم شيئاً على غيره من منطلق أنه ينفعنا منافع إضافية، فوُجدت القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضاً.

## ١٣ - الأفضلية من حيث سعة وجهة النظر

من علامات أفضلية دينٍ أن يخلق أمل الترقيات العليا ويوسّع وجهة نظر الإنسان ويرفع هم أتباعه ولا يدع اليأس والقنوط يتطرقان إليهم بل يبقي أماناتهم قائمة. وقد رأيت أن القرآن الكريم يفتح علينا باب الترقيات العليا والصلة بالله تعالى على مصراعيه. وبذلك لا يُبقي أمانينا حية فقط بل يوسعها ويرفع همتنا. ولا شك أن تقدم الإنسان يكمن في حلمه عن المستقبل. فمن هذه الناحية أيضاً وجدت القرآن الكريم وحده الأفضل.

## ٤- الأفضلية من حيث الإغناء عن الكتب الأخرى

يفضّل أيضاً شيء على أشياء أخرى من منطلق مدى إغناهه إياناً عن الأشياء الأخرى. والناس يقدّرون أشياء من هذا القبيل أكثر لأنّهم في هذه الحالة لا يحتاجون إلى التفكير في أشياء أخرى. فرأيت أن القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضاً.

## ٥- الأفضلية من حيث الإرشاد إلى العلوم الصحيحة

هناك سبب آخر أيضاً لنيل الشيء أفضلية على غيره وهو إرشاده الناس إلى علوم صحيحة وإنقاذهم من الخوض في اللغو. فلما يكون كتاب الله منزلة معلم فيكون من واجبه أن يوجه الناس إلى طريق صائب، وينعهم من اللغو ويرشدهم إلى العلوم الصحيحة. وقد وجدت القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضاً.

## ٦- الأفضلية من حيث سد الحاجات الذاتية

ينال شيء أفضلية على شيء آخر أيضاً نظراً إلى مدى قصائه حاجة اقتني من أجلها؟ فإذا كان الشيء لا يقضى غايتها المتواخة فيفضل عليه حتماً شيء آخر يقضي تلك الحاجة. فوجدت أن القرآن الكريم حائز على الأفضلية على الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضاً.

لقد خطرت بيالي هذه الأوجه الستة والعشرون عند التأمل، وكما قلت من قبل فقد يعبر المرء على عدة أوجه أخرى عند إمعان النظر أكثر. باختصار، عندما فحصت القرآن على محك هذه الأشياء وجدتُه أفضل من الكتب الأخرى في كل شيء.

### ادعاء القرآن وأفضليته

قبل الخوض في النقاش حول الأمور المذكورة آنفاً، إن السؤال الأول الذي يمثل للعيان هو: هل أعلن القرآن الكريم أيضاً أمّاً العالم أنه أفضل من جميع الكتب الإلهية أم لا؟ فإذا كان القرآن قد ادعى بذلك فيمكن البحث في وجوده وأفضليته وتفوّقه وإلا لانطبق على تقديم أوجه الأفضلية المثل الأردي القائل: المدعى صامت والشهود

يقولونه. فحين نتدبر القرآن من هذا المنطلق يتبيّن لنا أنه قد ادعى أفضليته بكلمات صريحة وواضحة تماماً، فيقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَاءِمًا مَثَانِيَ تَفْسِيرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَكْحُشُونَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٤)، أي قد أنزل الله تعالى هذا الكتاب بكل قوّة وشدة وتأكيد، وهو "أحسن الحديث" أي أفضلي من جميع الكتب الإلهامية. ولكن كيف قيل إنه أفضلي من الكتب الإلهامية كلها؟ أولاً: ما دام القرآن كتاب الله فلا يمكن القول بأنه أفضلي من كتب الناس الآخرين. يمكننا القول عند الاعتراض أن كتاباً كذا ليس إلهامياً بل صار دريجة تحريف الناس، ولكن اعتبارها كتب الناس مبدئياً ثم تقديم القرآن الكريم مقابلها حُمق. فهذا مثلك كمثل بطل يقول: انظروا أنا أقوى من ذلك الطفل. أما إذا قال الطفل للبطل: سأصرعك فتعال وبارزني. عندئذ يمكن للبطل أن يقول له: إليك عني وإلا ستموت ببلطمة واحدة مني.

كلمة "الحديث" الواردة في هذه الآية تشير إلى كتب موحى بها سابقاً، وقد استُخدمت هذه الكلمة في المعنى نفسه في آيات أخرى أيضاً. فيقول الله تعالى في آية: ﴿فَدَرِنْيٌ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (القلم: ٤٥). وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذَكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (الشعراء: ٦)، فما دام كلام الأنبياء يأتي بشيء جديد حتماً، أي يأتي بحسب مقتضى الضرورة سواء جاء بشرعية جديدة أو بفهم جديد أو بأسباب تحدد الإيمان، لذا يُسمى حديثاً. والمعلوم أن القرآن الكريم أحسن الحديث، أي هو أحسن في جنس الحديث، أو قولوا إن شئتم بتعبير آخر إنه الأفضل من بين كلام الله كله. إذن، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي أن هذا الكتاب الذي أنزل الآن يفوق جميع الكتب التي أنزلت قبله. باختصار، نجد في القرآن نفسه ادعاء أفضليته.

ثم نجد ادعاء أفضلية القرآن في الآية: ﴿مَا نَسْخَحُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُسْبِهَا ثَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٧) أي نأتي بخيار

ما ننسخ، وأما ما يكون منسياً ولكنه يكون قابلاً للعمل فنأتي به منه. ﴿أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي لماذا تستغرب من ذلك أيها المخاطب، فالله قادر على أن يفعل ما يريد، فهو على كل شيء قادر.

### نبوءة في التوراة عن نزول شرع جديد

فلما كان القرآن ينسخ الشرائع السابقة كان ضرورياً أن يأتي بتعليم أفضل من التعاليم السابقة، وأيّي أيضاً بشيء مما اندرس. فلما تأملت من هذا المنطلق وجدت أن الكتب السابقة تصدق هذا الأمر. فقد ورد في الكتاب المقدس: "أَقِيمُ لَهُمْ نَيَّاً مِنْ وَسْطِ إِحْوَاهِمْ مِثْلَكُ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ". (التثنية ١٨ : ١٨). لقد أُنبئ هنا أنه سيأتي زمان سيُبعث فيه النبي مثل موسى. ولما كان موسى قد جاء بشرعية فكان ضرورياً أن يكون المراد من مجيء النبي مثله أن ذلك النبي أيضاً سيأتي بشرعية. ولأن ذلك النبي سيأتي بعد موسى الظليلة فتبين أن الكتاب الذي سيأتي به ذلك النبي سيشمل بعض الأمور الإضافية التي ليست موجودة في الكتاب المقدس وإنما فلا حاجة إلى مجيء شرعة جديدة، ولا معنى لنسخ شرعة موسى. ولكن حين نُسخ شرعة موسى صار ضرورياً أن تكون الشريعة القادمة أفضل منها. إذن، إن أفضلية القرآن الكريم ثابتة من مقتبس الكتاب المقدس المذكور أيضاً لأن الشريعة الجديدة الناسخة يجب أن تكون -بحسب مقتضى العقل- أفضل حقيقةً أو نسبياً من الشريعة المنسوخة.

### ادعاء النبي ﷺ أنه مصدق نبوة موسى الظليلة

قد يقول قائل: متى قال القرآن إنه هو الكتاب الذي وعد به موسى الظليلة؟ فإن جوابه موجود في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمول: ١٦).

لقد قيل في هذه الآية إن النبي هو مصدق النبوة الواردة في سفر التثنية ١٨: ١٨. إضافة إلى ذلك يتبيّن من ذلك منطلق آخر أيضاً وهو أن عبارة سفر

الثانية ١٨: لا تنطبق على المسيح الناصري الغطّالة بأي حال بل يقول بنفسه أنه ليس مصداقا لها فيقول: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لَا أُقُولَ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَسْتَطِعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الْآنَ. \* وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْسِلُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لَأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتَيْتُهُ". (إنجيل يوحنا ١٦: ١٢-١٣)

إذن، يتبيّن من الإنجيل أيضا أن النبوة الواردة في كتاب موسى عن مجيء شخص لا تنطبق على المسيح الغطّالة بل تنطبق على غيره. وأضف إلى ذلك أن المسيح الناصري كان قد جاء إلى بني إسرائيل فقط، أما الذي أنشأ به موسى الغطّالة فقد جاء إلى العالم كله. هذا ما يعلنه القرآن الكريم فيقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَمْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ (المائدة: ٤)، أي السلسلة التي كانت ناقصة منذ آدم الغطّالة قد أكملت اليوم بواسطة القرآن الكريم، وقد أتمت عليكم نعمتي. بمعنى أنني مررتُ الإنسان بمراحل مختلفة حتى أوصلته إلى درجة صار فيها مظهرا لله، وقد رضيَت لكم الإسلام دينا.

يتبيّن من هذه الآية أن القرآن لا يعطي أمل شريعةٍ جديدة وكتاب جديد بعده، بل يكتفي بالقول إن عليكم أن تناولوا علمًا جديدا وفهمًا جديدا يمكن نواهتما بواسطة القرآن الكريم.

بعد هذا الإعلان الذي قام به القرآن الكريم، أريد أن أبين الآن أن أوجه الأفضلية كلها التي ذكرُتها آنفا توجد في القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم أفضل وأعلى من جميع الكتب الإلهامية من حيث كل مبدأ من مبادئ الأفضلية.

### الدليل على أفضلية القرآن من حيث المصدر

الأمر الأول الذي يبيّنه كأفضلية هو أفضلية شيء من حيث المصدر، بمعنى أن كون منبع شيء ومصدره أعلى سبب لأفضليته، كما يقدم كلام الملك على كلام

الناس الآخرين. فمثلاً إذا كان هناك شخصان يتكلمان، أحدهما ملك فلا شك أن المستمعين سيصغون إلى كلامه أكثر من غيره، وسيظنون -بغير أن يحكموا فيمن كان كلامه أفضل- أن كلام الملك سيكون أهم من كلام غيره. كذلك يرجح كلام أديب كبير على كلام الآخرين. فمثلاً إذا كان عدة شعراء جالسين في مكان ثم جاءهم شاعر أردي معروف اسمه: "غالب"، سيقال إن أبياته ستكون أفضل، وذلك دون الاستماع إلى أبياته. فمثلاً يُدلي الطبيب برأيه عن مريض، وقد يخطئ في ذلك أحياناً، بل تتفق الوصفات الشعبية التي تصفها النساء أكثر أحياناً. ولكن لا يقول عاقل برفض رأي الطبيب والعمل برأي امرأة، بل سوف يُهتمُ برأي الطبيب حتماً. أما من لم ينفعه أي دواء فسيتناول ما وصفته امرأة لأنه سيجربه من باب أن الغريق يتعلق بقشة.

باختصار، إن للنفوذ بحد ذاته أهمية. السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنه يغلب على الناس الظنّ نظراً إلى النفوذ أن كلام صاحبه يكون صحيحاً، فيتوجهون إليه أولاً. على أية حال، ما ثبتت أفضليته من حيث المنبع والمقام يتوجّه إليه أكثر من غيره ويُفضّل على غيره. ولكن إذا لم تكن هناك إمكانية صدور أي خطأ من المصدر، فهذا نور على نور.

عندما ننظر إلى القرآن من هذا المنظور يتبيّن لنا أنه يدعى مجئه من الله الذي هو جامع المزايا كلها. وعندما نقرأ هذا الادعاء يشهد قلباً أنه إذا كان قد جاء من الله فلا بد أن يكون أفضل من كلام الناس قاطبة، وسنُهمل مقابله كلام الناس كله.

لقد ذكرتُ ادعاءً أن القرآن جاء من الله تعالى وقد جاء ذلك الادعاء في الآية: ﴿اللَّهُ نَرِئُ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَاءِكًا مُتَنَاهِيًّا﴾، فإذا كان هذا الادعاء صحيحاً، فتحصل للقرآن أفضليّة من حيث المصدر على كلام الناس قاطبة.

## ثلاثة أدلة على كون القرآن من الله

من الواضح أن الادعاء وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون عليه دليل يثبت أن القرآن الكريم نزل من الله تعالى فعلا. فيقدم القرآن الكريم دليلا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ  
بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَيَتَّلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ  
وَمَنْ يَكُفِّرُ بِهِ مِنَ الْأَكْحَرِ أَبَدًا فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود: ١٨). هذه الآية تتضمن ثلاثة أدلة على كون القرآن من الله. الدليل الأول هو: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ  
بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ أي الذي يكون على بيضة من ربها هل يمكن أن يكون كاذباً أو هل يمكن أن يهلك؟ ففي حرف "مِنْ" هنا ذُكر رسول الله ﷺ والصحابة ﷺ كما جاء بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ  
بِهِ﴾ أي هل سيهلكون ويُبادون كما تزعمون أو يواجهون خسارة؟ إنهم يؤمنون بكتاب صفتة "بيضة"، أي فيه أدلة إلهامية تدل على صحة ادعاء المدلول عليه.

## الفرق بين الآية والبيضة

الفرق بين الآية والبيضة هو أن الآية هي ما نستنتج منه بأنفسنا، أما البيضة فما يقدم دليلاً بنفسه، كما نرى شجرة ونقول أن غارساً غرسها فهذه آية. ولكن يأتي نبي ويقول بأنه جاء من الله، فهذه بيضة. باختصار، إن كلمة "الآية" كلمة عامة والبيضة كلمة خاصة، والمراد من البيضة دليل يشهد لنفسه بنفسه.

## الدليل على كون القرآن "البيضة"

السؤال الآن هو: كيف صار القرآن "بيضة"؟ هذا أيضاً ادعاء، ولا يحتاج إلى الذهاب بعيداً لإثبات ذلك بل إثباته موجود في أول وحي نزل على النبي ﷺ. الكتب الأخرى تحتاج إلى أدلة غيرها ولكن القرآن الكريم بنفسه يقدم دليلاً على ادعائه. والدليل على كونه "بيضة" مذكور في الآيات الثلاثة الأولى التي نزلت في البداية. لقد اخترَّ لبيان كمال القرآن هذا أول وحي نزل فيه. لقد نزل أول وحي

في غار حراء حيث رأى النبي ﷺ جبريل الذي قال له: ﴿أَفَرَأَ﴾ فقال ﷺ في الجواب: "ما أنا بقارئ"، أي أرجو ألا أحمل هذا الحِمل لأنَّه لم يكن أمامه حينذاك كتاب كان عليه أن يقرأه بل كان عليه أن يعيد ما كان يقول له جبريل. وكان النبي ﷺ قادراً على ذلك ولكنَّه أبدى التواضع. ولكنَّ ما كان الله تعالى قد اصطفاه لهذا العمل لذا طلب منه ماراً أن يقرأ حتى قرأه أخيراً عندما طلب منه ذلك في المرة الثالثة. فكان ما قرأه: ﴿أَفَرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَفَرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنِ عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٦-٢).

ما أوجز هذه العبارة وما أقصرها! ولكنَّ دُرْكَت فيها الحقائق والمعارف كلُّها التي لم ترد في كتب أخرى قط. عندما تقرؤون كتاباً آخر ترون الفيدا يبدأ بما تعرييه: "النار سيدتنا". ثم انظروا إلى الكتاب المقدس فقد ورد فيه ذكر خلق الأرض والسماء كما يلي: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ \* وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعَمَرِ ظُلْمَةً، وَرُوْحُ اللَّهِ يَرْفُعُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ". (سفر التَّكْوِين ١: ٢-١) ويببدأ الإنجيل كما يلي: في الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. (إنْجِيلُ يُوحَنَّا ١: ٢-١)

ولكنَّ القرآن الكريم يبدأ كلامه بدليل ويقول: ﴿أَفَرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي يا محمد كُنْ معلم هؤلاء الناس، واقرأ باسم الله الذي خلق العالم ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَفَرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.. أي أقرأ يا محمد وفي أثناء قراءتك ستترسخ عزة الله في العالم.

### نبوءة القرآن الكريم العظيمة

هذه أول نبوءة قُدِّمت دليلاً على كون القرآن الكريم "بيتنة". فقال ﷺ إنَّ الدليل على كون القرآن بيته هو أنَّ هذا الكتاب سيقيم عظمة الله وشوكته في العالم. لقد اعترض معارضو المسيح الناصري اللَّهُمَّ وقالوا بأنَّ الشيطان يعلّمه، فقال في الجواب ما مفاده: هل الشيطان يعلّم ضد نفسه؟ فقال: فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدْ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبِتُ مَلَكَتَهُ؟ (إنْجِيلُ مَتَّى ١٢: ٢٦)

كذلك يمكن القول بأن الكتاب الذي جاء لاستعادة عظمة الله الغابرة لا يمكن نسبته إلى الشيطان. والحق أن الكتاب الذي ليس من الله أتى له أن يقول بأن عزة الله وعظمته ستقوم بواسطته؟ يؤلف كثير من الناس كتاباً ويقولون بأن كتبهم سوف تغير خريطة العالم كله، ثم تروّهم يتسلّون إلى الناس ليقرّظوا كتبهم. لقد أخبرني أحد الإخوة أن شخصاً يدعى النبوة ويشكّو: لماذا لا تكتب جريدة "الفصل" ضده شيئاً. كتب إلى شخص آخر يدعى النبوة وقال: أرسل إليك كتابي فأرجو أن تعلّق عليه وإن كان تعليقك ضد ما ورد فيه. إذن، تكون هناك عشرات الكتب التي لا تسفر عن أية نتيجة. فهل يُعدّ أمراً عادياً أن يقال في منطقة لا يوجد فيها إلا الشرك: أقرأ وستقام عزة ربك بواسطة هذا الكلام، وسيظهر ربك أكرمًّا بواسطة هذا الكلام.

في ذلك الوقت لم يكن الشرك منتشرًا في بلاد العرب فقط بل في جميع أنحاء العالم بل قد آلت الحالة إلى أن أتباع الدين الأخير أي المسيحيين قالوا بأنفسهم بأن الإسلام قد انتشر بهذه السرعة والسرعة لأن الشرك قد تطرق إلى المسيحية. اقرؤوا كتب الهندوس فستعلمون أن الشرك كان منتشرًا فيهم بكثرة. يعترف الزرادشتيون أيضاً أن الشرك في ذلك الزمان كان ملحوظاً في كل حدب وصوب. باختصار، كان أتباع كل دين يقولون بكل افتخار أن السبب وراء انتشار الإسلام هو الشرك الذي كان منتشرًا في ذلك الوقت في كل دين. نقول بأن هذا صحيح، وقد أنبأ القرآن في ذلك أن الشرك سينمحى ويقوم في الدنيا ملوكوت الله الواحد الأحد.

عندما أنبأ القرآن الكريم بذلك، وقد ذكر القرآن حالة أهل مكة حينذاك قائلاً: **﴿أَجَعَلَ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾** (ص: ٦). يقولون إنه جعل الآلة إلهاً واحداً ولكنهم لا يدركون أنهم ليسوا آلة أصلاً، فكانوا يزعمون أنه قد جعل الآلة كلها إلهاً واحداً. فنزلت هذه الآية عنهم في سورة ص، ولكن بدأت حالتهم تتغيّر فجأةً وحدث فيهم تغييرٌ لدرجة أنهم استسلموا للتوحيد الإسلامي وقالوا: **﴿مَا**

تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفَى ﴿الزمر: ٤﴾، أي كأنهم يعتذرون ويقولون: متى نقول بأن الأوثان آلة بل نقول بأنها وسيلة للتقرب إلى الله.

ما أعظم هذا التغير الذي حدث فيهم! وكيف ثبت كون الله "أكرم". يقول الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ هذا الكتاب، وب مجرد قراءته سيشرع التوحيد بالانتشار وسيؤمن الناس بالله وسيقوم جلاله في العالم. وهذا ما حدث بالضبط. ولكن هذه كانت حالة زمن نزل فيه القرآن. أما الآن فترون كيف تتلاشى أفكار الشرك من العالم. كان هناك ٣٣٠ مليون وثنا يعبد في الهند، ولكن خرج من الهندوس أنفسهم فغة الآرين الذين يقولون بأنهم وحدهم يؤمنون بالتوحيد الحقيقي. وإذا نظرتم إلى النصارى تجدونهم يقولون بأنهم متمسكون بالتوحيد الحقيقي. لقد قرأت كتب النصارى التي يقولون فيها بأن الإسلام قد أخطأ إذ اعترض علينا بأننا متورطون في الشرك، مع أنه يوجد إلى الآن من يعبدون مريم والمسيح عليهما السلام.

ما أعظم التغير الذي حدث إذ ظل التوحيد يتربخ حياما فرئ القرآن الكريم، وببدأ العالم يقرّ بأن الله وحده هو "أكرم". ما أعظم هذه النبوة التي جاءت بحق القرآن الكريم، وقد جاءت في وحي نزل في اليوم الأول وفي البداية تماما.

### إظهار كل نوع من العلوم بواسطة القلم

في الوحي نفسه وردت نبوة أخرى عن القرآن الكريم، وهي: ﴿الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَ﴾ أي لن يثبت فقط بهذا الكتاب أن ربك أعلى من الجميع، والكائنات الأخرى كلها تابعة له، بل سيثبت أيضاً أن: ﴿الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَ﴾ هو ربك، وأن الكتابة سوف تنتشر على نطاق واسع. كان في مكة سبعة أشخاص فقط مثقفين وقارئين عند بعثة النبي ﷺ، حيث كان كبار الناس يرون التعلم عارا عليهم. كان الشعرا يجعلون الناس يحفظون أبياتهم عن ظهر غيب فقط. وإذا قيل لهم أن يملوها فكانوا يرون في ذلك إساءة إليهم، وكانوا يعتزون على أن قصائدهم تحفظ عن ظهر

غيب. عندما نزل القرآن الكريم حدث فيهم تغير عظيم حتى لم يوجد في الصحابة أحد غير مثقف بل كانوا مثقفين مئة بالمئة. فقال تعالى: ﴿الَّذِي عَلِمَ بِالْقُلُم﴾، أي أن التغير العظيم الثاني الذي سيحدث بواسطة هذا الكتاب هو أن انتباه الناس سيصرف إلى العلوم، فراجت الكتابة بعد بعثة النبي ﷺ فوراً، وبدأ الصحابة بالكتابة والقراءة. لقد أمر النبي ﷺ بتدريس الأطفال كلهم في المدينة حتى تعلم كل طفل من أطفال العرب، بل قد حفظت الكتب اليونانية بواسطة الإسلام. باختصار، كثرة استخدام القلم لدرجة لا نظير لها في الأزمنة الخالية.

قد يقول قائل هنا: ما علاقة ذلك بأفضلية القرآن؟ فليكن معلوماً أنه من الضروري لإثبات كمال القرآن وأفضليته أن يكون مخاطبوا علماء لا الجهل. يقول الله تعالى إنه سيحلّ زمن العلم بعد نزول القرآن، وسيصبح الناس خبراء في العلوم المختلفة، ومع ذلك سيجيئ هذا الكتاب موجوداً في العالم ويقرأ ولن يغله أحد. وبعد هذه النبوة راجت تلك العلوم في بلاد العرب وغيرها لدرجة لا نظير لها في أي زمان خلا.

### ترويج العلوم المتعددة

النبوة الثانية هي: ﴿عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ أي اقرأ هذا الكتاب باسم الله الذي علّم ما لم يعلّمه من قبل قط. ومن المعروف أنه حيّثما تکثر الكتابة تکثر معها العلوم ويبين الناسُ أموراً جديدة. ولكن يمكن أن تكون هناك كتابات عبّشية أيضاً. يقول الله تعالى: سأعلّم الناسَ الآنَ أموراً -دينية أو دنيوية- لم يعرّفها العالم من قبل. فقد جاء القرآن الكريم بعلوم ليست في التوراة ولا في الإنجيل ولا في أيّ كتاب آخر. ثم بدأت العلوم الأخرى أيضاً تُنكشف بواسطة القرآن الكريم. إن قواعد الشعر وعلم المعاني والبيان وقوانين الصرف والتحوّل وغيرها لم تكن موجودة في العرب، فروّجها المسلمون. كان شغل العرب الجهل الشاغل هو النهب والسرقة. ولكنهم

اطّلعوا بعد نزول القرآن الكريم على علوم لم يعرفوها منذ آلاف السنين وصاروا حملة علوم العالم كله. فقد قاموا بترجمة كتب العلوم الإغريقية ثم تُرجمت منها في أوروبا. عندما وصل المسلمون إلى إسبانيا ترجموا تلك الكتب ثم استفاد أهل أوروبا من هذه الترجم.

باختصار، بدأت بعد: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سلسلة التغيير حتى انتشر في العالم ما لم يكن يعلم من قبل، وقد اخترع الناس علوما لم تكن موجودة من قبل، وأوجدوا مبادئ جديدة لكل العلوم مثل علم الأخلاق، علم النفس، العلوم، علم القضاء. كذلك اخترع المسلمون علم الرواية، وعلم الكلام، ودوّنوا قوانين الحكومة. كان القانون الروماني سائدا من قبل ولكن المفكرين الأوروبيين اعترفوا بأنفسهم أن القانون الإسلامي أفضل منه. اكتشف المسلمون علم الصحة، وعلم التصوف وعلم الرياضيات. باختصار، من ناحية بين القرآن الكريم أمورا لم يعرفها العالم من قبل، ومن ناحية ثانية ظهرت علوم دنيوية لا يمكن للعلوم القديمة أن تواجهها لحظة واحدة. هذه الأنبياء الثلاثة تكفي دليلا على كون القرآن الكريم كتاب الله.

### شهادة أخرى على أفضلية القرآن الكريم

إضافة إلى النبوءات المذكورة آنفا يقدم القرآن الكريم شهادة رابعة على أفضليته فيقول: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، أي أن معارف هذا الكتاب وحقائقه تنكشف فقط على الذين هم مقربون عند الله والذين طهّرهم الله بنفسه. لقد نزل القرآن في لغة كان الناس يعلمونها، إن كلماته هي نفسها التي يستخدمها الناس عادة. إن علماء اللغة العربية موجودون في العالم، ولكن معارف القرآن لا تنكشف عليهم، وإنما تنكشف على الذين يؤمنون بكونه كلام الله، ويُيشّعون في أنفسهم الطهارة والنزاهة. هل لإنسان أن يضع عن تأليفه شرطا أنه لن يفهم معانيه إلا من كان مقربا إلى الله؟ لا يسع أحدا أن يضع شرطا مثله عن تأليفه. فالكتاب الذي كان في لغة معروفة

ولكن انكشاف معانيه لا يكون مرتبطا بالقوى الدماغية والعلوم الظاهرية بل هو منوط بالعلاقة بالله، فلا بد من الاعتراف بأنه من الله حتما وإلا كيف لا يكون انكشاف علومه منوطا بالعلوم والتدبیر الظاهري؟ الغريب في الأمر أن مطالب جميع الكتب الإلهامية سوى القرآن الكريم تنكشف على الذين يعرفون لغة ذلك الكتاب. ولكن هناك شرط عن القرآن الكريم أن علومه تنكشف على من كان على صلة صادقة بالله تعالى وإن لم يكن عالما كبيرا ظاهريا. فمثلا إن علوم التوراة والإنجيل والزند أفستا<sup>١</sup> في أيدي العلماء بالعلوم الظاهرية ولكن علوم القرآن الكريم ظلت تنكشف دائمًا على أيدي العلماء الروحانيين والأولياء فقط مثل السيد عبد القادر الجيلاني ومحبي الدين ابن عربى ومولانا الرومي، والإمام الغزالى والسيد أحمد السرهندي، وشهاب الدين السهروردي، والشاه ولی الله وغيرهم. فهؤلاء هم الذين قدروا على فهم علوم القرآن وتفهيمها الآخرين. لا شك أن بعض العلماء بالعلوم الظاهرية أيضا ألغوا تفاسير للقرآن ولكنهم أخطأوا أخطاء كبيرة أدت إلى إضلال الناس. ولكن الصوفية الذين كانوا على صلة بالله تعالى أصلحوا تلك الأخطاء على خير ما يرام.

### حل مشكل القرآن بواسطة العلماء الروحانيين

فمثلا ورد في القرآن عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٨)... أي كان موقفنا أننا لن نعرضه للعسر. يقول بعض المفسرين عن تعبير: ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن يونس زعم أن الله لا يستطيع أن يطش به. ولكن يقول محبي الدين بن عربى رحمة الله أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو: "لن نضيق عليه"<sup>٢</sup>. أي كان يونس عليه السلام موقفنا أن الله تعالى لن يوقعه في عسرة بل سيكون معه في كل مشكلة ومصيبة.

<sup>١</sup> النزد أفستا كتاب مقدس للزرادشيين. (المترجم).

<sup>٢</sup> تفسير القرآن الكريم؛ محبي الدين بن عربى.

باختصار، قد تعذر علماء الظاهر كثيراً في موضوع عصمة الأنبياء، ولكن الصوفية عصموا من ذلك بل قاموا ببحوث شديدة جداً لإثبات عصمة الأنبياء.

### كشف ابن عربي رحمة الله عن خلق العالم

يقول محيي الدين ابن عربي عن خلق العالم أنه قد علم في الكشف أن العالم أكتمل في عدة مئات من آلاف السنين، وبعد اكتماله بسبعة عشرة ألف عام ولد الإنسان. يقول الناس اليوم بأن هذا ثبت بواسطة علم طبقات الأرض، بينما قال محيي الدين بن عربي عن الإنسان في الفصل السابع من المجلد الأول في تأليفه الفتوحات المكية: هو آخر جنس موجود من العالم الكبير، وآخر صنف من المولّدات<sup>١</sup>. المراد من المولدات الثلاثة هو الجمادات والنباتات والحيوانات. ويقول إن زمن المولدات الثلاثة هو واحد وسبعون ألف سنة.

كذلك قال بعض الصوفية مستدلين بالقرآن الكريم إن الأرض كروية. فمثلاً يقال عن "كولومبوس" إن فكرة السفر إلى أميركا خطرت بباله لسبب وحيد هو أنه كان قد سمع من مسلمي إسبانيا أن الأرض كروية. إذن، كتب الصوفية أن الأرض كروية ولكن أصحاب العلوم الظاهرية لم يفهموا ذلك. كذلك كتب الصوفية والأولياء عن بقاء النبوة أنه يمكن أن يأتي الأنبياء خادمين لرسول الله ﷺ كما أن محيي الدين ابن عربي يُعدّ المسيح المُقْبَل فرداً من الأمة ونبياً أيضاً. ولكن علماء الظاهر أنكروا ذلك.

### تحدي المسيح الموعود الظاهر

انظروا في العصر الراهن مثلاً أن أصحاب العلوم الظاهرية لم يفهموا من القرآن شيئاً، فأرادوا أن يحتموا تحت مظلة المعدنة وقالوا بأنه قد وردت في القرآن عدة أمور آمن بها الآخرون، وهذا لا يعني أن القرآن الكريم أيضاً يصدقها. ولكن المسيح

<sup>١</sup> الفتوحات المكية؛ لمحيي الدين بن عربي، المجلد ١، ص: ١٢١، طبعة مصر.

الموعود الظاهر دحض هذا الأمر وأثبت صدق القرآن الكريم، وأعلن إلى جانب ذلك وقال: دلُّوني على شيء يتعلُّق بالروحانية وليس مذكورة في القرآن الكريم، أو قدّموا اعترافات تقع على ما قاله القرآن الكريم. واستنبط من القرآن الكريم معارف يُعجب بها قرأوها بشدة متناهية، ويُيدوون أسفهم على غفلة الناس وغباوَّهم الذين جعلوا القرآن الكريم عرضة للاعترافات لعدم فهمهم إياه. ولقد منَّ الله تعالى على جماعة المسيح الموعود الظاهر أيضاً أن أفراد جماعته قادرون على بيان معارف القرآن التي هي خافية على الآخرين في العالم.

### القرآن الكريم يقدم الدليل على ما يدعى

إن أهم نقطة من العلوم والمعارف القرآنية التي كشفت بواسطة المسيح الموعود الظاهر هي أن ما يدعى القرآن الكريم يقدم عليه دليلاً بنفسه ولا يمد يده أمام الناس للعون. وإلا ما فائدة كتابٍ يدعى ولا يقدم دليلاً؟ يقول المسيح الموعود الظاهر بأن الكتاب الذي لا يحتاج إلى عون الآخرين هو وحده يمكن أن يكون من الله، وليس الذي يدعى ويترك الأمر الأصعب أي تقديم الدليل على الآخرين، لأن كل إنسان يستطيع أن يدعى ولكن إثبات دعواه بدليل صعب.

### تعليم القرآن عديم النظير عن الأخلاق

الأمر الثاني الذي يبيّنه المسيح الموعود الظاهر هو أن تعليم الأخلاق الذي قدّمه القرآن الكريم لا يمكن لأيّ دين في العالم أن يأتي بنظيره. فقد قدم الظاهر في ضوء علوم القرآن مبادئ الأخلاق التي لا يستطيع الخبراء البارعون في علم النفس المعاصرون أيضاً أن ينبعوا ضدها ببنت شفة. بل قد عُلم أن كثيراً من الأمور التي كان المعارضون يعارضونها من قبل بدأوا الآن يؤيدونها بعد بيان المسيح الموعود الظاهر. لقد استنبط المسيح الموعود الظاهر تعليم الأخلاق من القرآن الكريم نفسه وألقى ضوءاً على أسئلة مثل: كيف تتوالد الأخلاق الفاضلة، وما هي

العرacيل في سبيل الحصول عليها؟ وما هي وسائل التحليل بالأخلاق الفاضلة؟ فقد قدم الله كل هذه الأشياء مستنبطاً من القرآن الكريم وبذلك أثبتت للعالم أفضلية الإسلام.

### إثبات حقيقة النبوة

ثالثاً: لقد أثبت الله حقيقة النبوة من القرآن الكريم. الكتب السابقة كلها ساكنة حول هذا الموضوع. فقد بعثت رسائل إلى كثير من القساوسة الكبار طالباً منهم أن يعرّفوا النبوة بحسب الكتاب المقدس. فقال كبار القسّس بأنّهم لا يعرفون، حتى قال أحدهم: أكتب تعريف النبوة ولكن لا أدرى أصحّح هو أم خطأ. أما المسيح الموعود الله فقد أثبت حقيقة النبوة من القرآن الكريم وقال بأنه إذا نزل الوحي على أحد بشرطه كذا يمكن أن نسميه نبياً وإلا فلا. والقسّس الذين كتبوا شيئاً عن النبوة فقد اكتفوا بالقول بأنّ النبي هو الذي يدلّي بالنبؤات، وقالوا إلى جانب ذلك إنه قد ورد في الكتاب المقدس ذكر الذين أدلوا بالنبؤات ولكنهم ما كانوا أنبياء، فلم يتمكّنوا من بيان الفرق بينهم وبين الأنبياء الصادقين. ولكن المسيح الموعود الله ألقى الضوء في كتبه على هذا الفرق أيضاً.

### الترتيب العظيم في القرآن الكريم

الأمر الرابع الذي يبيّنه المسيح الموعود الله هو أن في القرآن الكريم ترتيباً عظيماً، ثم أثبت ذلك بينما كان الذين يسمون أنفسهم مسلّمين ينكرون ذلك ويقولون بأنه لا علاقة لآيات القرآن الكريم مع بعضها.

### النبؤات عن المستقبل في القصص القرآني

الأمر الخامس الذي ذكره المسيح الموعود الله هو: ليست في القرآن قصة. وهذا أمر عظيم قلب التفاسير القديمة رأساً على عقب. لقد أوردت التفاسير القديمة قصصاً على كل صغيرة وكبيرة وسردت أموراً مضحكة لا يمكن أن يقبلها العقل

البشري بآية حال. أما المسيح الموعود ﷺ فقال بأن الواقع المذكورة في القرآن الكريم كلها نبوءات وليس قصصا بل هي وقائع كان مقدرا لها أن تتحقق في المستقبل وقد تحققت.

### المعنى الصحيح لنبوءة تتحدث عن قرب القيامة

سادسا: بين ﷺ المفهوم الصحيح للنباءات التي تتحدث عن قرب القيامة وفند ما كان شائعا من الأقوال اللاحقة.

### دحض الأديان الباطلة كلها

الأمر السابع الذي قدمه المسيح الموعود ﷺ أمر عظيم جدا ويستطيع كل إنسان أن يفهمه، وهو أن في القرآن الكريم دحض الأديان السابقة واللاحقة كلها. ما أسهل هذا الأمر الذي يبين أفضلية القرآن الكريم. كان بإمكان أتباع "برهموساج" أن يقولوا: أين تفنيذ مذهبنا في القرآن؟ وكان بإمكان البروتستانت أن يقولوا: أي دليل يقدمه القرآن الكريم ضدنا؟ بل كان بإمكان أتباع كل دين ومنذهب أن يطالعوا بذلك. ولكن لم يقبل أحدهم تحدي المسيح الموعود ﷺ. وهذا التحدي قائم على حاله الآن أيضا. وإذا طالب شخص منطقي بذلك عن دينه سوف ثبت تفنيذ دينه من القرآن الكريم فورا.

### الكتاب الكامل بحد ذاته

الأمر الثامن الذي بيّنه المسيح الموعود ﷺ هو أن القرآن الكريم ليس محتاجا إلى أي كتاب آخر بل هو كامل بحد ذاته ويشمل جميع العلوم الضرورية. ولا يكتفي بدحض الأديان الباطلة فقط بل يقدم أيضا كل ما هو ضروري. كان بإمكان الناس أن يختبروا هذا الادعاء أيضا لأنه قد تم الاطلاع على بعض الأخلاق والمواهب الجديدة فكان بإمكانهم أن يسألوا: أين ورد ذكرها في القرآن، ولكن لم ينهض أحد للمبارزة.

## كتاب يهب مراتب عليا للتقدم الروحاني

الأمر التاسع الذي قدمه العليّة هو أن القرآن الكريم يتضمن مبادئ عليا لترقيات الإنسان الروحانية وقد فُتحت له أبواب قرب الله تعالى وأُخبر بكلفة الخطط التي بواسطتها يمكنه نوال تلك الترقيات كلها.

## حقيقة البعث بعد الموت

عاشرًا: أثبتت العليّة حقيقة البعث بعد الموت، وما هي كيفية الجحيم ومن سيدخلونها وما هي أنواع المعاناة فيها؟ وبين أيضًا: من الذين يكونون في الجنة؟ وما هي ملذاتها؟ وهل الجنة دائمة أم لا؟ باختصار، بين كل شيء يتعلق بهذا الموضوع ولكنني لا أستطيع أن أقدم هنا أمثلة على تلك الانكشافات بل يمكن الرجوع إلى كتب المسيح الموعود العليّة ولا سيما إلى كتابه العليّة: "فلسفة تعاليم الإسلام" وتألifi: "الأحمدية" إذ قد ذُكر فيهما هذا الموضوع.

## تعريف المطهّر

يجب التذكّر أن الكلمة المستخدمة في: **﴿لَا يَمْسُתُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾**، هي "المطهّر" وليس "الطاهر". والسبب في ذلك أن الطاهر هو الذي يجوز الطهارة نتيجة الزهد والورع، أما المطهّر هو الذي يجذب إلى الله تعالى بسبب صلة داخلية. ويمكن الاطلاع على المطهّر بواسطة قول الله تعالى أو فعله، وليس نتيجة عمل أحد أو بقول الناس. فانظروا مثلاً أن الذين فسروا القرآن تفسيراً صحيحاً كانوا حسراً أو لئك الذين أُكروا بولي الله وقربه وحالفتهم نصرته بِسْمِ اللَّهِ.

## السؤال والرد عليه

هنا يمكن أن ينشأ سؤال وهو أنه قد ثبت بالأدلة أن القرآن الكريم أفضل من كتب الناس الأخرى من حيث المصدر، ولكن كيف يثبت أنه أفضل من الكتب الأخرى الإلهامية أيضًا؟ وجوابه أنه أفضل من الكتب الإلهامية أيضاً لأنه وإن كانت

تلك الكتب من الله ولكن بعض الصفات لم تظهر في عصرها. فمثلاً إذا كانت الخيانة منتشرة على نطاق واسع في زمن من الأزمنة ظهرت علىنبي ذلك العصر صفة إزالة هذه السيئة. وإذا كثرت الخشونة والقسوة في الناس ظهرت علىنبي ذلك العصر صفة الرحمة والحب واللين واللطف. ولكن ليس هناك كتاب من الكتب السابقة أظهر صفة "رب العالمين". فكان كتاب مثلاً مُظہر صفتين أو أربع صفات أو خمس صفات، ولكن لم يسبق كتاب كان مظہر صفة رب العالمين. كذلك لم يكن هناك كتاب مظہر الكمال مثل القرآن الكريم، أو مظہر صفة الله "القيوم" لأنه كان مقدراً لكتاب قبل القرآن الكريم أن يُنسَخ. ولكن لما كان القرآن الكريم سيقى إلى الأبد لذا ظهر فيه كُلُّ من هذه الصفات الثلاث. والصفات التي ظهرت في الكتب السابقة أيضاً لم تظهر كالماء في الكتب كلها، بل ظهرت في بعضها صفة واحدة وذُكرت بعضها في بعض الكتب الأخرى، ولكنها جُمعت كلها في القرآن الكريم. إذن، القرآن الكريم أفضل من حيث المصدر أيضاً.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا الموضوع قائلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِنَّا جِنْحَةً مَئْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَرِيدُونَ فِي الْحَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ٢).

أي الحمد والشكر لله مُظہر كمالات السماء والأرض، وهو يرسل لإظهار الكمالات ملائكته الذين لهم عدة أجنبية أي يأتون معهم بالملاذ من عدة أنواع. من معاني الجناح: الملاذ والحماية أيضاً. والملائكة التي تنزل تكون ذات أجنبية مثنى وثلاث ورباع، ويزيد الله في خلقه بقدر ما يشاء، أي يزيد في أجنبتها بحسب مقتضى الأمر.

لقد قيل هنا إن الحمد كله لله خالق الأرض والسماء. وفي ذلك إشارة إلى أن في نزول القرآن أسباب ظهور كمالات السماء والأرض، وبحسب ذلك ينزل

الملائكة. إذن، إن نزول القرآن الكريم يشمل جميع الصفات التي يرتبط بها هذا العالم، وب بواسطته ظهرت صفة: **﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**. الحق أنه ما لم يجتمع العالم كله على مركز واحد لا يمكن حمد الله من كل النواحي. لا يمكن القول: "الحمد لله" ما لم تظهر صفة "رب العالمين" من حيث العالم كله. لذلك قال تعالى أن التعليم الذي جاء الآن قد جاء بحسب: **﴿بَرِزَّدٌ فِي الْحَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾**. وكان قد أتى من قبل لإظهار كمالين أو ثلات أو أربع كمالات، أما نزول القرآن الكريم فقد وُضعت فيه أسباب ظهور كمالات الأرض والسماء.

### صفات الله ومظاهرها

هنا يجب التذكّر أيضاً أن ذكر صفة في كتاب أمرٌ وكونه مظهراً لتلك الصفة أمر آخر. لقد ورد ذكر صفة رب العالمين في كتب أخرى أيضاً ولكنها لا تدعى كونها مظهراً لتلك الصفة. أما عن القرآن الكريم فيقول الله تعالى بكل وضوح: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (الشعراء: ١٩٣)، أي قد نزل هذا الكتاب بناء على صفة "رب العالمين". وما دام هذا الكتاب يخاطب العالمين كلها لذا ذُكرت فيه الصفات كلها. فالقرآن الكريم مظهر صفات الله كلها.

### الأفضلية من حيث الجمال الظاهري

هناك وجه آخر للأفضلية (وقد سبق أن بيّنته تحت رقم ١٢) هو تفوقه على الأشياء الأخرى من حيث الجمال الظاهري لأن الإنسان بطبيعته يختار ما كان يفوق من حيث الجمال الظاهري من بين الأشياء المماثلة. بل الشيء الأفضل من حيث الجمال الظاهري هو الذي يجذب الإنسان إلى نفسه قبل كل شيء. عندما تدبرت القرآن من هذا المنطلق وجدتُه جميلاً جمالاً ظاهرياً أيضاً. بل وجدته جميلاً لدرجة أن سعى أهل أوروبا إلى محو جماله بكل ما كان في وسعهم ولكنهم خابوا وخسروا. لقد اختار أهل أوروبا أربعة طرق لمحو هذا الجمال:

## أربعة اعترافات للمسيحيين

**الأول:** قالوا بأن أسلوب القرآن الكريم سخيف جداً، والعياذ بالله.

**الثاني:** قالوا بأن فيه كلمات غير عربية كثيرة.

**الثالث:** قالوا بأن فيه تكراراً غير مبرر إذ يكرر الكلام بلا جدوى.

**الرابع:** قالوا بأنه لا ترتيب في مضمانيه، إذ يبدأ بإيراد الأحكام ثم يتطرق في المكان نفسه إلى الموعظ، ثم تذكر الحروب، ثم ينهر المنافقون في الوقت نفسه.

ولكن هذه الاعترافات ليست صحيحة كما سأبين لاحقاً بل إن حسن القرآن الكريم الظاهري أيضاً يجعله أفضل من كتب العالم كلها، وهذه الأفضلية ثابتة من عشر مزايا.

## فصاحة لغة القرآن الكريم

إن مزية القرآن هذه كبيرة لدرجة أن اعترف بها أولد أعدائه أيضاً. أما العرب فقد استسلموا أمامها وعجز أمامها كبار الأدباء. وأسرد لكم حادثاً حول هذا الموضوع. كان ليدي<sup>١</sup> من فحول الشعراء العرب السبعة المعروفيين جداً. كان يعارض الإسلام في البداية ثم آمن بعد ذلك، بعد إسلامه كان يقرأ القرآن بكثرة وترك نظم الأشعار. ذات مرة كتب عمر رضي الله عنه في عهد خلافته رسالة إلى المغيرة بن شعبة (والي الكوفة) أن يرسل إليه أجمل أشعاره وليجمعها شعراء معروفون في منطقته. اختار المغيرة بن شعبة شاعرين هما الأغلب<sup>٢</sup> ولبيد وقال لهما بأن الخليفة أمر أن تكتبا له بعض الأبيات. فنظم الأغلب قصيدة وقال ليدي بأنني تركت نظم الأبيات منذ أن آمنت. وعندما ألح عليه بذلك كتب بضع آيات من سورة البقرة وقال: لا أعلم شيئاً سواها.

<sup>١</sup> الشاعر ليدي بن ربيعة العامري، وهو من شعراء المعلقات، وقد أسلم وكان من الصحابة. (المترجم)

<sup>٢</sup> الأغلب بن عمرو العجلي، من الشعراء المخضرمين؛ وكان معروفاً بنظميه الأرجاز الطويلة. (المترجم)

وقال: لا أعلم شيئاً سواها. لقد عاقب المغيرةُ لبيدا وشفع للأغلب عند عمر رضي الله عنه، ولكن عمر رضي الله عنه استمتع بقول لبيد كثيراً وقال ما مفاده: ما قاله لبيد يدل على إيمانه بأنه مع كونه شاعراً كبيراً وقديراً يستحبّي أن يتغافل بكلمة سوى القرآن الكريم.

يعترض النصارى على ذلك ويقولون: ألم يسمع لبيد القرآن من قبل حين كان يعارض الإسلام؟ والحق أنه قال ذلك مدفوعاً بالطمع. ولكن دليلاً لهم هذا يعرض المسيحية نفسها للاعتراض لأن الناس يقرؤون الإنجيل ماراً ويسمعون مواعظ المسيحيين كثيراً ولا يؤمنون بال المسيحية، ثم يؤمنون بها في وقت من الأوقات، فهل يؤمنون بها بداعي الطمع؟ بل من الطبيعي جداً أن ينكر المرء أمراً ثم عندما ينكشف عليه صدقه يؤمن به. هذا يحدث في كل دين. إن كثيراً من الناس ينضمون إلى الهندوسية، فهل يقال لهم بأنكم سمعتم عن الهندوسية إلى مدة طويلة ولم تنتصروا إليها، فهل انضمتم إليها الآن نتيجة الطمع؟ هذا دليل واهٍ بكل معنى الكلمة ولا يمكن أن يقدمه أحد إلا إذا كان هو طاماً بنفسه.

تؤلّف في العالم كتبٌ جيدةً بشكل عام وتنال القبول أيضاً، ولكن يجب الانتباه هل من كتاب أعلن مؤلفه سلفاً أنه سيكون أعلى وأفضل من الكتب كلها وسينال قبولاً واسعاً؟ يقول أهل أوروبا إنه ليس لأحد أن يكتب كلاماً مثل شكسبير. من غرائب قدرة الله أنه منذ أن بدأ الأوروبيون يوجهون الاعتراضات إلى القرآن الكريم تشكّلت مؤسسات تعترض على عبارات شكسبير. ولكن لو قبلنا جدلاً أنه كان كاتباً بارعاً فيجب أن نرى هل قال عند الكتابة أن كلامه سيكون أفضل وأعلى من غيره؟ كلاً، لم يقل هذا مطلقاً، بينما قال القرآن الكريم من البداية أن العالم سيعجز عن منافسته. لقد قرأْت كتاباً ألفه "بينيت" يقول فيه بأنه عندما ألفه حسب في نفسه أنه سينال قبولاً واسعاً، ولكن بدأ ناشروه يتلّكون ولم يقدّره عامة الناس أيضاً. إذن، لا يعرف أحد هل سينال تأليفه قبولاً أم لا. ولكن القرآن الكريم قال سلفاً أن هذا الكتاب أفضل الكتب وسيبقى الأفضل إلى الأبد.

كان مدار كمال بلاد العرب على البراعة في اللغة. وقد نزل القرآن فيها وفي لغة أهلها، وأحدث تغييراً بحيث غير مجرى كلام العرب كلياً فاختاروا أسلوب القرآن. وتغيير أسلوب كتابتهم أيضاً بحيث تلاشى الأسلوب القديم وسار الجميع على أسلوب القرآن الكريم.

يقول البعض عن هذا الوضع أن هذا ما كان متوقعاً أن يفعله المؤمنون بالقرآن. ولكنني أقول: لماذا لم يفعل ذلك المؤمنون بالكتاب المقدس والإنجيل والفيديات، إذ كان هؤلاء أيضاً يحسبون تلك الكتب من الله تعالى؟

### كلمات أجنبية في القرآن

الاعتراض بورود كلمات من لغات أجنبية في القرآن أيضاً ليس صحيحاً. لا تسلم لغة -سواء أكانت جديدة أم قديمة- من كلمات من لغات أخرى. كان الاعتراض في محله إن لم تكن تلك الكلمات مستخدمة في العربية وقال العرب بأنهم لا يفهمونها. فلما كان العرب يفهمون تلك الكلمات وكانت متداولة بينهم وصارت جزءاً من العربية فلا اعتراض عليها وإن كانت من لغة أجنبية. بل أقول بأنه وإن كان القرآن وحده أدخل تلك الكلمات في العربية فإن هذه الظاهرة تدل على قوة القرآن الكبيرة أن تلك الكلمات راجت بين العرب لأن الذي لا يتسم كلامه بالقوة والقدرة لا يتبين كلامه. لذلك يقال بأنه لو أخطأ ضليع في اللغة في كلامه لقبه الناس كاختراع ولن يحسبوه خطأً، لأنه يتقن اللغة إتقاناً كاملاً. إذن، لو وردت في القرآن الكريم كلمات جديدة وصارت جزءاً من العربية فهذه معجزة أخرى للقرآن الكريم. ولكن ليس صحيحاً أن في القرآن كلمات أجنبية. الحق أن منشأ هذا الخطأ هو أن بعض الكلمات في العربية والعبرية متماثلة، بل بعض التغيرات أيضاً اختلطت مع بعضها. وبالتالي فهم خطأً أن في القرآن كلمات أجنبية. فمثلاً هناك كلمة "فرنان" ومشتقاتها كلها موجودة في العربية، فمن الخطأ القول إن القرآن أخذها من لغة أخرى. كذلك يعتضون على كلمة "رحمن" مع أنها كلمة عربية.

## حقيقة كلمة "رحمٌ"

الحق أن الباحثين الأوروبيين ارتكبوا هذا الخطأ نتيجة سوء فهم آية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِرَحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٦١)، فيقول المعارضون بأن هذه الآية شهادة على أن كلمات أجنبية وردت في القرآن فعلا لأن العرب قالوا: لا ندري ما الرحمن. لو لم تكن هذه الكلمة غير عربية لما قالوا ذلك. ولكن الحق أن المعارضين لم يفهموا معنى هذه الآية. الكفار لم يعتضوا على كلمة "رحمٌ" بل على مصطلح قدّمه القرآن الكريم من خلال كلمة رحمٌ. لقد قدّم القرآن الكريم هذا المصطلح الجديد الذي لم يكن متداولا في العرب، كما أن "الصلاحة" كلمة عربية ولكن القرآن الكريم قدّم صلاحة اصطلاحية فكان بإمكان الكفار أن يقولوا بأنهم لا يعرفون ما هي الصلاة.

إذن، اعتضد هؤلاء الناس على مصطلح إسلامي في الحقيقة، وقالوا بأنهم لا يعرفون معناه الذي يبيّنه القرآن. والمعلوم أن المصطلح الجديد يكون ضروريا للعلم الجديد، ومثال ذلك كما ورد في القرآن الكريم من ناحية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٥)، وورد في سورة هود أن معارضي شعيب قالوا له: ﴿يَا شَعِيبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩٢). ولكن هذا لا يعني أن شعيب العلييلة كان يتكلم بلغة ما كانوا يفهمونها بل المراد أنهم لم يفهموا ما كان يبيّنه شعيب العلييلة من أمور دينية وما يقدمه من المسائل.

## استخدام كلمة "رحمٌ" عند العرب

الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم كانت متداولة بينهم من قبل بما فيها كلمة "رحمٌ" أيضا. لقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا هُمْ﴾ (الزخرف: ٢١)، باختصار كانوا يستخدمون كلمة "رحمٌ" ولكن القرآن وصف الرحمن بأنه من يُنعم بغير جُهد. وهذا ما لم يقبله هؤلاء الناس لأن قوله كان يُبطل

شركهم. إذن، إن التعبير: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ لا يعني أن العرب لم يعرفوا كلمة "الرحمن"، بل المراد من ذلك أنهم ما كانوا يقبلون المصطلح الذي قدمه القرآن الكريم. إذن، إن فصاحة القرآن الكريم دليل بين على حسنها. وإن فصاحة القرآن الكريم هذه متقدمة لدرجة أن تأثيرها لا يزال موجوداً إلى اليوم على علم الأدب، وقد وضعت تقدماً اللغة العربية على طريق معين حتى كان المؤلفون المسيحيون أيضاً يمدحون القرآن الكريم وأدخلت أجزاء القرآن الكريم كنماذج أدبية في مناهج مدارسهم. إن جعل الناس في بلد جاهل مشغوفين في كتاب وعشاقاً له وتحويل الجهال إلى العلماء ليس أمراً عادياً.

### ترتيب القرآن الكريم هو الأعلى

إن مزية القرآن الكريم الثانية الظاهرة هي ترتيبه الأعلى. إن الترتيب الأعلى لا يتعلق بمحض ذاته بالروحانية، لأن الترتيب وحده يوجد في كلام الإنسان أيضاً. ولكن لا يمكن الإنكار أن الترتيب مزية ظاهرية تجعل الكلام جميلاً. والقرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى كلها من منطلق هذه المزية أيضاً. يبدو في الظاهر أنه كلام يعزوه الترتيب ولكن إذا أمعن المرء النظر فيه لوجد أنه يتحلى بترتيب من الدرجة العليا. بل حيالاً يتراءى عدم الترتيب في بادئ الرأي يوجد في المكان نفسه الترتيب من الدرجة العليا. وهذه هي المزية الكبرى للقرآن الكريم. لا يمكن لأحد في العالم أن يؤلف كتاباً يبدو عديم الترتيب في الظاهر ولكن يظهر للعيان فيه الترتيب الأعلى عند التأمل والتدبر. فمن منطلق هذا الحسن أيضاً ليس القرآن مماثلاً لكتبٍ أخرى بل هو أفضلها لأن اتباع الترتيب المعروف أمر عادي وكل عاقل يستطيع أن يفعل ذلك. أما القرآن الكريم ففي ترتيبه بعض المزايا التي لا توجد في كتب أخرى، وتلك المزايا هي:

### بعض المزايا في ترتيب القرآن

(١) إن ترتيبه مخفى عن الأعين في الظاهر ولكن بالتأمل والتدبر يظهر للعيان ترتيب دقيق جداً ولا نظير له في أي كتاب بشري، بمعنى ألا يكون فيه ترتيب في

الظاهر ولكن بالتدبر والتأمل يلاحظ الترتيب المبني على التسلسل والدقة الكبيرة والفلسفة.

لا أستطيع في الوقت الحالي أن أضرب أمثلة على الترتيب القرآني لأن كل مكان يبنت ترتيبه يمكن أن يقال بأني اخترته بوجه خاص. قلْتُ لبعض الإخوة أن يستخرجو لي أيّ مقطع لا يعرف عامة الناس الترتيب فيه بل تبدو لهم الجمل غير مترابطة في الظاهر ولكن من المؤسف أن مطالعتهم لم تكن واسعة فلم يقدروا على تقديم أيّ مثال على ذلك. أما أنا فلم أستطع أن أستخرج مقطعاً مثلك بسبب إصابتي بالصداع وإلا لبنت مدي دقة الترتيب في القرآن.

(٢) القرآن الكريم يبيّن معانيه بحسب علم النفس دون أن يشير إلى ترتيبه. والسؤال أو الحاجة التي تُقدّم بمناسبة يردّ عليها في الآيات التالية، بمعنى أن كل آية تالية تمثّل جواباً على أسئلة تنشأ من الآيات السابقة. ولا يوجد هذا الترتيب الدقيق في أي كتاب آخر. يقول لوثر عن الكتاب المقدس:

The Gospels do not keep order in their account of miracles and deeds of Jesus. This is of small moment. When there is a dispute about Holy Writ and no comparison is possible let the matter drop.

Emil Ludwidg in his book "Son of Man" says: Almost all the contradictions arise out of the disorderly nature of the reports.

These Gospels, the four main sources of the knowledge, contradict one another in many respects and are upon some points contradicted by the scanty non-Christians Authorities.

Moreover, there is confusion in serial arrangement, a confusion, which has been deplored through-out centuries.<sup>1</sup>

أي لم يتم الاهتمام بترتيب الأحداث في الأناجيل، فكلما يحدث شجار بشأن بياناته ولم يتمكن المرء من حلها وجب تركه.

<sup>1</sup> *The Son of Man*, Emil Ludwidge, Garden City Publishing, 1928. p. xi-xii

لقد أَلْفَ إِمِيلْ لودفيغ (Emil Ludwidg) كتاباً وقال فيه إن الإنجيل الحالي نجده بلا ترتيب تماماً. وقال معلقاً على ذلك في كتابه: "ابن آدم" إن التعارض الذي نجده في الأنجليل إنما سببه هو عدم الترتيب في الأحداث. فالأنجليل التي هي المصادر الأربع الكبيرة لعلمنا، تتعارض بيانات بعضها مع بعض في عدة أمور، وقد عدّها المؤلفون غير المسيحيين أيضاً متعارضة فيما بينها. وإضافة إلى ذلك هناك مشاكل كثيرة في ترتيبها أيضاً لدرجة أنّ المسيحيين أيضاً لا يزالون يتّأسفون عليها منذ قرون. كذلك إذا قرأنا الفيدات لا نجد فيها أيّ ترتيب فقط ولا تُعلم طبيعة العلاقة بين حادث وآخر.

### كثرة المعارف والحقائق في آيات وجيزة

(٣) الميزة الثالثة التي تُبرّز حسن القرآن الكريم الظاهري هي كون مضامينه مفصّلة مع الإيجاز. فآية واحدة تبيّن معارف ومعاني كثيرة. ويعمل فيها علم الكلام وعلم التاريخ وعلم الأوامر والنواهي عمله في آن معاً، وفيها النبوءات عن المستقبل. فبسبب هذه الميزة فإن القرآن الكريم موجز جداً من ناحية، ومن ناحية ثانية إن المعرف العظيمة التي ذُكرت فيه لا توجد في الكتاب المقدس ولا في كتب إلهامية أخرى. لقد ذكرت مثلاً واحداً آنفاً أن آية وجيزة تشمل ثلاثة نبوءات عظيمة، ولكن خذوا أي آية قرآنية سوف يتضح لكم هذا الأمر. ولمزيد من الشرح والتفصيل آخذ الآية الأولى نزولاً.

### تفسير رائع لـ «اقرأ باسم ربِّكَ الَّذِي خَلَقَ»

يقول الله تعالى: «اقرأ باسم ربِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرُأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمِ \* عَلِمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». في هذه الآيات القليلة أُشير أولاً إلى التاريخ، بحيث قال تعالى: «اقرأ باسم ربِّكَ الَّذِي خَلَقَ» أي إذا بدأت بالقراءة سِمِّ بالله أولاً. وفي ذلك إشارة إلى ما ورد في سِفر التثنية: أُقيِّمُ

لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِحْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ  
بِهِ. \* وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْفِي أَنَا أَطَائِلُهُ.

(الثَّسْنَيْة ١٨ : ١٨-١٩)

ففي: **﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾** أُشير إلى النبوة المذكورة وأعلن كونه بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ مثيل موسى، وذُكر استمرار النبوة. وفي كلمة: **﴿أَقْرَأً﴾** وُجِّه إلى وجوب تبليغ الدعوة. هناك كلام لقراءة المرء بنفسه ولا يكون لقراءة على الآخرين، ولكن الله تعالى يقول عن هذا الكلام بأنه موجه إلى العالم كله، فاذهب واقرأه على الناس كلهم. ففي ذلك أُشير إلى تبليغ دعوة الإسلام.

والأمر الثالث المذكور في: **﴿رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** هو أنك ستواجه مشاكل جمة في سبيل تبليغ هذا الكلام ولكن عليك أن تقرأه باسم ربك الذي خلق الإنسان. وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الكلام ليس لبني إسرائيل أو أهل الهند، بل هو لـ "الإنسان". ولكن ما دام أولئك الذين خطبوا قوماً واحداً واجهوا مصائب ومصاعب كبيرة فكم من المصائب ستواجهها أنت الذي تخاطب العالم كله، ولكن عليك ألا تخاف شيئاً لأن هذا الكلام نزل من ربك. فمع أن هذا الكلام موجه إلى العالم كله وسيعارضك العالم كله ولكن ربك سيكون معلمك. وإضافة إلى ذلك تذكر أيضاً أنك ستثال التقدّم رويداً رويداً وتدرّيجاً.

والأمر الرابع المذكور هو: **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ﴾**، وفي ذلك وجّه أنظار الإنسان إلى أن ولادته ضعيفة جداً فلماً له أن يكتشف وسائل تقدّمه بنفسه؟ وثانياً: لفت أنظار النبي بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ إلى أن الإنسان خلق من علّق، أي أودع عنصر العلاقة بالله تلقائياً، وهذا الأمر سيساعدك فعليك ألا تقلق ولا تفقط أبداً.

باختصار، في آية وجيزة ذُكر التاريخُ وعلم الكلام وواجبُ التبليغ وخلق الإنسان وقواه الخفية. ولم ينته الأمر هنا بل ذُكرت علوم كثيرة أخرى.

## السجع في القرآن الكريم

(٤) السجع ملحوظ في عبارات القرآن الكريم. وإذا احتل المضمون نتيجة السجع لا يكون السجع محموداً، ولكن عبارات القرآن الكريم تتسم بصفة أنها لا تحافظ على عظمة المضمون فقط مع كونها مبنية على السجع بل تنكشف معارف جديدة أيضاً. ومثلاً على ذلك أقدم سورة الجمعة حيث يقول الله تعالى: ﴿يُسَيِّخُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَّيَّنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرِكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفْيِ ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة ٤-٢).

انظروا كيف حُفظت على الاعتدال في هذه الآيات. معلوم أن هذا الكلام نثر ولكنه يبدو كأنه منظوم، ومع ذلك ليس فيه حرف زائد. الشاعر يضطر إلى تقديم الكلمات أو تأخيرها نظراً إلى الوزن، ولكن هذا لم يحدث في القرآن.

الآيات المذكورة تتحدث عن ذلك الزمن ويبدو كأنها شعر، وقد تم الاهتمام بالاعتدال فيها للحفظ على الوزن، وجيء بعبارة ذات السجع ولكن لم يحدث الخلل في الترتيب، وليس فيها حرف زائد بل كل شيء جاء في محله المناسب.

### تفسير الآيات الأولى من سورة الجمعة

يقول الله تعالى: ﴿يُسَيِّخُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كل شيء يثبت أن الله بريء من كل عيب. ثم يقول: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، هنا جاءت كلمة "الحكيم" في الأخير بمقتضى السجع، ولو ورد "الملك" في الأخير لما استقام الوزن، لأن المضمون التالي جار على هذا النحو. صفة الله الأولى التي ذكرت هنا هي "الملك"، ومهمة الملك أن يصدر أوامر لرفاهية الرعية وبجبوحتهم. لذلك قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَّيَّنَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، فما دام الله ملك العالم كله،

لذلك بعث لتبلیغ الأحكام إلى رعيته في الأميين رسولاً وعیین نائباً له. ولكن لم يعین هذا النائب من الخارج بل منكم حسراً.

الصفة الثانية المذكورة هي: "القدوس"، فقال عنها: ﴿يَتَّلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّكُهُمْ﴾، فهو يريد أن يكون كل ما يتعلق به زكياً وطاهراً لذا أرسل رسوله بآياته ليتلوها على الناس، ويخلق فيهم طهارة ذهنية وروحانية. أي يطهّر ذهن الناس أولاً بتعليمهم آيات الله ثم يزكيهم أي يطهّر أعمالهم.

الصفة الثالثة المذكورة هي: "العزيز"، فقال عنها: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَاب﴾. من الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يعلم ما لم يكن له تلاميذ. لأن معنى "العزيز" الغالب لذا فقد قال الله مقابل ذلك بأننا سوف نعطيه جماعة سيعلّمهم ويهبه الغلبة على العالم لأنه أرسله بمقتضى صفتة "العزيز".

ثم ذكر **عَبْدُهُمْ "الحكيم"** كصفة رابعة، وقال عنها: ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ أي سيعلّمهم الحكمة. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفَيْ ضَلَالٌ مُّبِينٌ﴾ صحيح أن هؤلاء الناس كانوا في ضلال من قبل ولكن هذا الرسول سيجعلهم يؤمنون بهذا الكتاب.

ثم قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هذا الرسول سيعلّم بعض الناس الآخرين أيضاً الذين لم يلحقوا بهم إلى الآن. قد يقول أحد: يقال إن في عبارة القرآن الكريم سجع ولكن ما هذا الترتيب؟ إذ قد أعيدت الكلمات نفسها التي وردت من قبل، وقد جاء بها من أجل السجع فقط. ولكن لو تأملنا فيها لتبيّن أنه كان من المفروض أن ترد هذه الكلمات نفسها. والسبب في ذلك أنه عندما قيل: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أن هذا الرسول سيعلّم قوماً آخرين أيضاً لما يلحقوا بهم، وبذلك قد أخبر أنه سيكون بين الموجودين الآن وبين "الآخرين" فاصل زمني وسيأتي الآخرون بعد فترة من الزمن. كان المراد من ذلك أن القرآن الكريم سوف يُرفع من بين المسلمين بعد فترة من الزمن ثم يعلّم

للآخرين. ولو لم يكن الفاصل الزمني مقدّراً لما كانت هناك حاجة لبيان ذلك، إذ من المعلوم أن الأولين يعلمون الآخرين بطبيعة الحال. بل السبب وراء هذا الذكر هو أنه كان مقدراً أن يأتي زمان يتلاشى فيه علم القرآن وسيعلم العالم فيه القرآن مجدداً بواسطة محمد رسول الله ﷺ.

من الواضح تماماً أن الفاصل الزمني بين الأولين والآخرين سيتتج عن نقص ما، وإن إقامة الأمر لا يمكن بدون إزالة ذلك النقص. فقد بين الله تعالى بقوله: ﴿الْعَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أن هذا الفاصل سيحلّ بسبب غلبة أعداء الإسلام الظاهرية وتقديمهم العلمي وفي مجال الفلسفة والعلوم، وسيترك المسلمون القرآن الكريم متاثرين بهم، ولكن الله تعالى سيهب المسلمين غلبة مرة أخرى لأنّه عزيز. ولما كان مقدراً أن ينال الآخرون أيضاً الحكم وكان ربّهم سيستولي على المسلمين وستُكتشف العلوم التي بواسطتها سُتشنّ الهجمات على الإسلام، لذا يقول الله تعالى بأنه يُظهر عندئذ صفتّه العزيز والحكيم ويهب المسلمين غلبة على غيرهم وسيدّحض العلوم المناهضة للقرآن الكريم لأنّ الغلبة الحقيقة إنما هي لله تعالى وهو المصدر للعلوم كلّها، فسيقيّم تعليم رسول الله ﷺ في العالم مرة أخرى على الرغم من وجود تلك الفتن.

باختصار، إن تكرار الكلمات ليس من أجل السجع فقط بل سببه هو الترتيب الذي كان مطلوباً هنا.

### التوازن الدقيق في الآيات القرآنية

(٥) الميزة الظاهرية الخامسة في القرآن الكريم هي التوازن الدقيق في كلماته بحيث أنها تشبه النظم مع كونها نثراً في بادئ الرأي. وهذا الأمر يجعل عباراته جميلة لدرجة لم يقدر أيّ كتاب على تقليله إلى يومنا هذا، وإن كان هناك تقليد فهو ناقص. ولما كان القرآن الكريم سُيحفظ عن ظهر غيب لذا كان ضرورياً أن يكون إما بصورة الشعر أو ماثلاً له. لقد أنزله الله تعالى بحيث يمكن حفظه سريعاً ولا يمكن حفظه

أيّ كتاب آخر بالسرعة نفسها. وسبب ذلك يعود إلى توازن كلماته لدرجة أنْ يُخلب لُبّ الإنسان عند قراءتها.

### كثرة ذكر الله في القرآن الكريم

(٦) الميزة السادسة للقرآن الكريم هي كثرة ذكر الله فيه لدرجة أنه عندما يفتح الإنسان القرآن الكريم، يبدو له كأنه مليء بكله بذكر الله. لذا فإنّ كثيراً من المعارضين في مكة الذين كانوا ألد الأعداء عندما كانوا يجلسون في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يقولون: يجري فيها ذكر الله فقط باستمرار. باختصار، لقد ذكر القرآن الكريم عظمة الله تعالى بالذكر لدرجة لا يسع الإنسان عندها إلا أن يشعر به حتماً، وكل من يحب الله تعالى يسعد كثيراً بالنظر إلى هذه الكثرة. يقول أحد المؤلفين الفرنسيين ما مفاده: قولوا عن محمد ما يحلو لكم ولكن كلامه زاخر بذكر الله، وكلما يذكر شيئاً يأتي فيه بذكر الله حتماً، ويبدو كأنه عاشق الله. هذه هي شهادة المعارضين عن القرآن الكريم أنه زاخر بذكر الله. والمعلوم أن ذكر الله روح الدين، ولكن الكتب الأخرى خالية منه وتضييع الوقت في القيل والقال، بل يمكن القول بأنّها تحتوي على قصص الناس وحكاياتهم أكثر من ذكر الله.

### كتاب بريء من قسوة الكلام

(٧) الميزة السابعة للقرآن الكريم هي أنه بريء من قسوة الكلام، وهذا أيضاً نوع من جمال الكلام. ليس لأحد أن يقول إن فيه شتائم. وهو ليس بريءاً من كلام قاسٍ فحسب بل ينصح بأسلوب لطيف وخلاب: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُبُوا اللَّهَ عَنْهُوا بِعَيْرٍ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٩) ... أي فيسبوا الله دون الانتباه إلى أن الله مشترك بين الجميع.

ثم يقول: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، أي لا تظنووا أنه ما دامت آهتمهم باطلة فلا ضير في شتمها. بل الحق أن هؤلاء الناس أصبحوا الآن

مدمنين على الخمر وبدؤوا يرون الأعمال الطالحة صالحةً، فلو شتمتم آهتمم التي يعبدوها من دون الله لحدثت الفتنة ولسيروا الله.

ما أجمل هذه النقطة لترسيخ دعائم الأمان، ألا يُساء إلى كبار قوم والذين هم محل احترام عنده، وهذا سيوقف كثيراً من النزاعات والخصومات المتبادلة، ويؤدي إلى توطيد علاقات جيدة.

### كتاب بريء من فحش الكلام وسوء الخلق

(٨) الميزة الظاهرية الثامنة في القرآن الكريم هي أنه منزهٌ عن فحش الكلام ومن تعليم سوء الخلق أياً كان نوعه، أي ليس فيه ما تعمّر دراسته صفو الإنسان أو يخجله بسيبه أو ما يبدو سوء الأخلاق. القرآن الكريم كتاب الشريعة لذا يبحث في أمور حساسة جداً ولكنه يبيّنها بأسلوب يعرفها المطلع على تلك الأمور، ويرجع بها مَرِّ الكرام من لم يبلغ عمراً يؤهّله فهُم تلك الأمور. فمثلاً ذُكرت العلاقات بين الرجل والمرأة، وذُكرت الأحكام عن الطهارة، ولكنها ذُكرت بأسلوب جميل للغاية وبدون استخدام كلمات فاحشة. أما الكتب الأخرى فيخجل الإنسان عند قراءتها كما ورد في سِفر التكوين ٢٩ : ٣١-٣٨ حادث بذيء عن لوط السَّلْكَةِ. وما دامت النساء جالسات هنا لذا لا أريد أن أقرأ هذا المقتبس ولكم أن تقرؤوه من الكتاب المقدس بنفسكم. أما الإنجيل فليس فيه فحش الكلام ولكن فيه ما يؤثر سلباً على أخلاق الصغار. فقد جاء في إنجيل: "وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُ الْجُمُوعَ إِذَا أُمِّهُ وَإِحْوَتُهُ قَدْ وَقَفُوا حَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ \* فَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ: هُوَدًا أُمِّكَ وَإِحْوَتُكَ وَاقْهُونَ حَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ \* فَأَجَابَ وَقَالَ لِلْقَائِلِ لَهُ: مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِحْوَتِي؟ \* ثُمَّ مَدَ يَدَهُ تَحْوَ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ: هَا أُمِّي وَإِحْوَتِي \* لَأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَسِيَّةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأَخْتِي وَأُمِّي". (إنجيل متى ١٢ : ٤٦-٥٠)

كانت مريم عليها السلام مؤمنة باليسوع السَّلْكَةِ ولم تكن من المعارضين ولكنه مع ذلك لم يأبه بها بحسب بيان الإنجيل. ولكن القرآن يأمر باحترام الوالدين وإن كانوا من المعارضين.

لقد ورد ذكر ولادة الإله "إندر" في ريع فيدا مجلد ١، فصل ١٤، دعاء: ١٨ كما يلي:

Not this way go I forth: hard is the passage. Forth from the side obliquely will I issue. Much that is yet undone must I accomplish.<sup>١</sup>

أي قال إندر عند ولادته أنه سيخرج من أضلاع الأم. كذلك ذكر عمل الحب في أهترو فيدا مجلد ١، الفصل ٣، دعاء ٢٥ وقيل: يا امرأة، اخرجي من بيت والديك سرّاً واهري. وفي أهترو فيدا مجلد ١، الفصل ٥، دعاء ٢٥ ص: ٢٣ جاء دعاء بذيء جداً بمناسبة ولادة الصبي، ثم رسمت علاقات الرجل والمرأة بطريقة سيئة جداً بحيث لا يمكن للوالدين أن يعطيها لأولادهما للقراءة.

أما القرآن الكريم فقد نزل بلسان طاهر من البداية إلى النهاية فلا يسع أحد الأعداء أيضاً أن يعترض عليه.

### الكلام الدال من الظاهر إلى الباطن

(٩) الميزة التاسعة للقرآن الكريم هي أنه يقود من الظاهر إلى الباطن. فمرة يوجه إلى الله تعالى بذكر المياه الجارية وبذكر السحاب الماطر مرة أخرى. وتارة صور الله تعالى بواسطة البرق والرعد وتارة أخرى أشير إليه يَعْلَمُهُ بذكر الأموات المدفونين. في حين أُشير إلى قدرة الله بذكر الصبيان حديثي الولادة وفي حين آخر ذُكرت الضرورة إلى التوجيه إلى الله بذكر النجاسة والقذارة. وفي بعض الأماكن تم التوجيه إلى الله بالترغيب والتحريض في الطهارة. باختصار، بقراءة القرآن الكريم يصعد من الفطرة صوت تلقائياً أن ما يقوله القرآن إنما يرسم صورة قلب الإنسان، بينما لم يتم التوجيه إلى قانون الطبيعة في الكتب الأخرى على هذا النحو.

(١٠) ميزة القرآن العاشرة هي أنه يطابق عواطف الإنسان السامية، فيذكر مزايا حلق الإنسان وقواه وقدراته، ويرغب في استخدامها لنيل التقدم. وإلى جانب ذلك

<sup>١</sup> The Hymns of the Rigveda Vol 1, Book 4 Hymn 18, P 416, Benares, 1920.

يرشد أيضاً إلى أن يجتنبوا كذا وكذا وإن لا يستحرمون من التقدم. هذه كلها أمور يتأثر بها كل ذي فطرة سليمة.

باختصار، القرآن الكريم كتاب أفضل من حيث الجمال الظاهري أيضاً، بحيث لا يسع الإنسان إلا أن يتأثر بقراءة ما جاء فيه. أما الذين يرغبون في القصص فتشق عليهم عباراته دون شك.

### الاعتراض بوجود التكرار في القرآن

لقد ردت على الاعتراضات التي توجه إلى مزايا القرآن الكريم الظاهرية، وبقى الآن اعتراض واحد وهو أن القرآن يكرر جملة واحدة مراراً. الرد الأول على هذا السؤال هو أن هذا الاعتراض يوجهه إلى القرآن الكريم النصاري والهندوس ولكن كتبهم الإلهامية بنفسها عرضة لهذا الاعتراض. فقد كررت أمور كثيرة في الكتاب المقدس، ويلاحظ التكرار في الأنجليل الأربع، فما ي قوله إنجليل متى قد أعاده أناجيل مرقس ولوقا ويوحنا. كذلك هناك تكرار في كتب الهندوس. فمثلاً يلاحظ التكرار في "اتهرو فيدا" مجلد ١، كتاب ٢، دعاء ٢٧، وكذلك في "ريغ فيدا" مجلد ١، كتاب ١، دعاء ٩٦. إذا كان التكرار مدعاه للاعتراض فلماذا لا يُعترض على ما سبق ذكره.

إن منشأ هذا الاعتراض على القرآن الكريم هو قلة الفهم والعقل. لإيضاح هذا الأمر سوف أخذ آية واحدة وأشرحها. يقال بأن الآية: **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ثُكَدِّبَانِ﴾** كررت في سورة الرحمن كثيراً، وأنها وردت في مواضع لا تنسجم معها بل العكس صحيح، فمثلاً قد جاء **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ثُكَدِّبَانِ﴾** إلى جانب: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ﴾** \* **﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ دُوَّالِجَلَالِ وَالْإِكْرَام﴾** (الرحمن: ٢٧-٢٨)، وقد اعترض القسيس "أكبر مسيح" على ذلك وقال بأن **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ﴾** يعني أن كل شخص في العالم هالك، وأن: **﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ دُوَّالِجَلَالِ وَالْإِكْرَام﴾** يعني أن الله وحده باقٍ. ثم ورد بعد ذلك: **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ثُكَدِّبَانِ﴾**، مما هي المناسبة لذكر **النِّعَمْ** هنا؟ فهل الموت والفناء نعمة؟

## فلسفة الموت

ليكن معلوماً بهذا الشأن أن الفناء إنعام للإنسان. لقد عدّت الأديان الأخرى الفناء عقوبة ولكن القرآن الكريم يعده إنعاماً فيقول في آية أخرى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ (الملك: ٣-٢). والسبب في ذلك هو ليمتحن أعمال الإنسان الصالحة ويخرج نتائجها الحسنة...

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات السبب وراء الموت والحياة فائلاً: ﴿لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، إذن، الموت ضروري لأنه من المستحيل أن تظهر نتائج أعمال الإنسان بدونه لأنه إذا نال الإنسان في هذا العالم جزاء أعماله الصالحة التي كسبها في حياته وكذلك لو عوقب في هذا العالم على سيئاته، فإن لأحد أن ينكر الأنبياء بل لا بد أن يؤمن بهم الجميع نظراً إلى الجزاء الفوري. ولكن الإنسان ينال الإنعام بعد الجهد والمشقة. إذا كان موسى وعيسى عليهما السلام موجودين في هذا العالم وو جداً في هذه الدنيا درجات أعطاهم الله تعالى بعد وفاتهما لما أنكراهما أحد. أو إذا كان فرعون وأبو جهل يحترقان في النار في هذا العالم لما أنكرا الأنبياء أحد. وبذلك لما كان للمؤمنين أن يجتهدوا أو يعملوا شيئاً. بينما من المعلوم أن الإنعام يناله المرء بعد الجهد والمشقة. إذن، كان ضرورياً أن يكون هناك للجزاء عالم آخر مختلف عن الأنظار وبسببه يضطر الناس إلى الإيمان. فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. الهدف من الحياة هو أن يعمل الإنسان في أثنيها، والمهدف من الموت أن ينال بعده جزاء ما عمل به في الحياة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ أي هو القادر على الإنعام والغفور عن التقصيرات.

ما دام قد قيل ذكر الموت في هذه الآية لذا قد ذكر "العزيز" أولاً. ولما كانت الأخطاء تصدر من الإنسان في الحياة لذا ذكر صفة "الغفور" للبيان أن أخطاء ستتصدر من الإنسان وسيغفرها الله تعالى. فهذا ليس تكراراً بل وردت تلك الكلمات بناءً على حكمة عظيمة.

### السبب الثالث للأفضلية

(٣) الوجه الثالث للأفضلية كتاب موحى به هو أن يتحقق الحاجات التي يختار من أجلها. فمثلاً يشرب المرء شراباً لإحتماد الظماء، فمهمته إحتماد الظماء. ولكن لما كان الكتاب منزلة معلمٍ دينٍ لذا سيكون للحاجات الدينية جزءاً.

الأول: يجب أن يشرح الدين حاجات يدعى تحقيقها لأنها يهتم بالحاجة أيضاً بنفسه.

الثاني: يهتمُّ أسباباً لسد تلك الحاجات.

### ال حاجات الخمس للدين

ليكن معلوماً أن هناك خمس حاجات من الدين ثابتة من القرآن الكريم.

الأولى: إثبات وجود الله، والعلم بصفاته.

الثانية: بيان قوى الإنسان الروحانية وإثباتها.

الثالثة: بيان أمور ضرورية لإكمال القوى الروحانية وإمدادها.

الرابعة: بيان مآل حياة البشر والدليل عليه.

الخامسة: عدم الاكتفاء بإلقاء الضوء على الأمور المذكورة علمياً فقط بل الإيصال إلى الله تعالى فعلاً، وإكمال القوى الروحانية والتزويد بفوائد الحياة الآخرة.

هذه الحاجات التي بينها الإسلام وتفق معه الأديان الأخرى أيضاً على أن

القرآن فريد في تحقيق هذا الهدف ولا يباريه أي كتاب ديني في هذا المجال. اقرؤوا

الكتاب المقدس من البداية إلى النهاية، واقرؤوا الإنجيل والفيديات؛ لا يتضح من تلك

الكتب إلا أنه قد افترض أن العالم كله يؤمن بالله ولا مجال للشك في وجوده، ولكنها

لا تقدم أي دليل على وجوده. كذلك تلقي ضوءاً قليلاً جداً على صفاته لدرجة لا

يطمئن به الإنسان قطعاً. فكانت هناك ضرورة إلى أن يعطي العلم بوجود الله وتقدّم

الأدلة عليه. إن أكثر ما قدّمه الكتب الأخرى من الأدلة بهذا الشأن هي من خلال

المعجزات. لا شك أن وجود الله يثبت بواسطتها ولكن لا تثبت كل صفة من صفاته. إذا كان كتاب يصف الله غفورا فلا بد أن يقدم دليلاً أيضاً على كونه غفوراً. وإذا وصفه رحيمًا، فعليه أن يقدم دليلاً أيضاً على كونه رحيمًا. باختصار، إن الأديان الأخرى أهملت هذا الأصل الذي هو أساس الدين في الحقيقة. ثم انظروا مقابله القرآن الكريم فهو لا يقدم وجود الله فقط بل يقدم عليه الأدلة أيضاً، ولا يكتفي بالأدلة فقط بل يثبت جميع صفاتاته. وبذلك يقدم مبدأ جديداً وهو أنه لا بد من إثبات كافة الصفات التي لها علاقة بالعبد وإنما يمكن أن يثبت وجود الله ولكن لن ثبت صفاتاته.

### الدليل على صفات الله المتعلقة بالعبد

أضرب حالياً مثلاً واحداً على ذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ﴾ لا تدركه الأ بصار وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الأنعام: ١٠٣-١٠٤). أي لا يمكن لعيونكم وعقولكم أن تحيط بالله تعالى غير أن الله تعالى يهمني أسباباً يأتي العباد بواسطتها، أي نتيجة ظهور صفاته لأنها لطيف وخبر. إذن، لقد قدّمت هاتان الصفتان لإثبات وجود الله، وقيل لإثبات: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ إنه هو اللطيف الخبر. فالذين يقولون بأنه إذا كان الله موجوداً فلماذا لا يُرى بالعيون، إنهم مخطئون لأن ما كان لطيفاً لا يُرى بالعيون. بل إن تعريف اللطيف هو ما لا يُرى، وما يُرى بالعيون لا يمكن أن يسمى لطيفاً، فكيف يمكن رؤية الله بالعيون؟ ما يجب الاهتمام به هو: هل الله موجود أم لا؟ فهذا يثبت من خلال صفتة "الخبر"، فهو يربّي العباد ويسد كافة حاجاتهم الروحانية والمادية. ما هو الدليل على كون أحد خبراء؟ إنما الدليل هو أن يدبر سدّ جميع الحاجات التي يواجهها. فمثلاً ينزل أحد ضيفاً عند شخص فإذا كان المبيت والفراش وما إلى ذلك مهياً له في منزله فلا يمكن القول بأن

الفراش وُجد تلقائياً بل سيقال بأنّ المضيف متنبّه جيداً وقد دبر الفراش سلفاً. كذلك يوضع أمّا الضيف طعام، ولو لم نر المضيف عندئذ فهل يمكن القول بأنّ الطعام حضر تلقائياً؟ فإذا سُدّت كافة حاجات الضيف فهذا يعني بكلّ وضوح أنّ هناك من يسدّ تلك الحاجات سواء رأيناه أم لم نره. فالحاجات الروحانية والمادية التي يسدّها الله تعالى دليل على وجوده. ولكنه لا يتراءى أمّا الأعين على الرغم من سدّه تلك الحاجات فهذا دليل على أنه لطيف.

### بعض صفات الله أزواج

لقد ذُكرت هنا نقطة غريبة جداً أن بعض صفات الله أزواج، وكما يولد الولد نتيجة اجتماع الرجل والمرأة كذلك تظهر النتيجة بالتقاء هاتين الصفتين. فمثلاً الانتباه جيداً وعدم إهمال أدنى تغيير لا يمكن بغير وجود لطيف، أي من كان على اتصال كامل مع كل ذرة من الموجودات، وكونه لطيفاً شرط لهذا الاتصال. إذن، إن صفة "الخبير" بمنزلة الزوج لصفة "اللطيف"، وتتجلى أيضاً بواسطتها. أو يمكن القول بأنّ العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسم بمعنى إن لم توجد إحداهما لا تتحقق الأخرى. فلو لم تثبت صفة "الخبير" بواسطة: **﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾** لما ثبتت صفة: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾** أيضاً بل ثبت عدمها. ومقابل ذلك إن لم تثبت صفة: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾** أي لو لم يثبت كونه ~~عَيْنَكَ~~ لطيفاً، لما ثبتت صفة "الخبير" أيضاً لأنّ الذي لا يقدر على الاتصال الكامل، لا يمكن أن يكون خبيراً. باختصار، اللطيف هو من كان موجوداً في أدق الذرات أيضاً. ومن كان لطيفاً إلى هذا الحدّ فلا يمكن رؤيته أبداً ولا بد أن يكون خفيّاً عن الأنظار.

وإن كونه لطيفاً دليل على كونه خبيراً أيضاً لأنّه إذا ثبت أن هناك وجوداً يتعلّق بكل ذرة لكونه لطيفاً، فلا بد من القبول أيضاً أنه خبير. باختصار، إن صفة الله "اللطيف" شاهدة على كونه خبيراً، وصفته "الخبير" تشهد على كونه لطيفاً.

## الدليل المادي على صفة الله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

هناك صفة أخرى وهي أن الله ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد قدِّم عليها دليلاً، الروحاني والمادي. الدليل المادي هو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٥)، أي الأرض والسماء والإنسان وقواه (أي موهب الإنسان للتقدم التي بها يحكم في الأرض والسماء، والتي تدل على "رب العالمين" الذي هو مصدر كافة أنواع التقدم) وكذلك الأغذية وغيرها التي تساعد على بقاء تلك القوى على حالها، كلها تدل على وجود الله وكونه رب العالمين.

عندما سافرت إلى كشمير هذا العام جاء مقابلتي شخص حائز على شهادة ماجستير وقال: لا أؤمن بالله، وإذا كان هناك إله فقد دفعنا إلى دوامة المصائب دون مبرر بخلقنا في هذه الدنيا. متى طلبنا منه أن يخلقنا ويرسلنا إلى الدنيا؟ قلت: إذا كانت الحياة الدنيوية مصيبة وتريد الخلاص منها فهذا ليس صعباً، إذ يمكنك أن تتناول السم وتموت. قال: هذا أيضاً مستحيل لأنني لا أريد أن أموت. قلت: هذا يعني أنك تستحسن الحياة الدنيوية ولكن تعن فيها باللسان فقط.

باختصار، فقد جعل الله الأرض قراراً للناس. يقول الهندوس بأن الدنيا مكان الآلام ولكن عندما يمرضون يدفعون للأطباء مبالغ أعلى من غيرهم. يقول الله تعالى ما مفاده إنه يمكنك أن تقولوا كما يحلو لكم بسانكم أن الدنيا مكان المصائب ولكنكم لا تريدون أن ترحلوا منها لأن الله جعل لكم الأرض قراراً.

ثم يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي السماء أيضاً وسيلة حمايتك. ما لا يمكن تحييته من الأرض ننزله لكم من السماء لأن السماء بناء. ﴿وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي خلقكم بالقوى العليا والموهاب الكاملة. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إذا كانت تلك الأشياء غير صالحة لما كانت موهبكم أيضاً من الدرجة العليا. ولكن الله تعالى

خلق رزقا طيبا لإنقاذ تلك المواهب من الفساد. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. لو لم يكن الله رب العالمين ولو خلق الشمس أحد آخر وخلق الأرض غيره لما كانت بين الشمس والأرض أدنى علاقة. ولكن انظروا الآن أن الشمس تحافظ على الأرض، والأرض تحافظ على الشمس. وكل هذا يؤكد أن الله الذي خلق كل هذه الأشياء هو إله واحد وهو رب العالمين.

لقد بين في ﴿صَوَرُكُم﴾ أن الإنسان خلق بحيث يحكم المخلوقات الأخرى كلها، وهذا دليل مادي على كون الله رب العالمين.

### الدليل الروحاني على كون الله رب العالمين

لقد قدم الله تعالى الدليل الروحاني في سورة الشعرا ف قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ \* بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُبِينٍ \* وَإِنَّهُ لَفِي رُبِّ الْأَوَّلِينَ \* أَوَمْ يَكُنْ هُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعرا: ١٩٣-١٩٨)، أي أن القرآن الكريم منزَّل من الله رب العالمين، والدليل الروحاني على ذلك هو أنه نزل مخاطبا العالم كله بينما كان كل كلام فيما سبق خاصا بقوم واحد وبزمن واحد، وكان كل كلام سابق يثبت صفة ربوبية الله فقط، بينما يثبت هذا الكلام صفة ربوبيته العالمين.

باختصار، لم يأت القرآن الكريم لقمع معين لأنَّه أُنْزَل تحت صفة الله "رب العالمين"، وهو يخاطب العالم كله، وقد نزل به الروح الأمين. بمعنى أن أنواع الخلل قد تطرق إلى كلام الأنبياء السابقين لأن الناس لم يحافظوا عليه. فقد أُنْزَل الله عليك الكلام السابق بصورة محفوظة بواسطة الروح الأمين، ولما كان فهم الكلام ضروريا لتبلیغه حتى لا يحدث نقص في التبليغ لذا أُنْزَل هذا الكلام على قلبك.

باختصار، كان الكتاب المقدس والفيديات وما شابهها من الكتب قد فسّدت ولكن التعليم الأصلي كان موجودا عند الله، فأُنْزَل عَجَلَّ هذا الكلام على قلبك

بواسطة الروح الأمين لتمكن من مقاومة الناس بشجاعة. هذا الكلام جاء في اللغة العربية التي تفصح المضامين كلها. والدليل على كونه من رب العالمين هو أنه مذكور في الكتب السابقة أيضاً، بأسلوب أنه يتضمن أصوتها، وكذلك كل ما جاء في الكتب السابقة قد جُمع في هذا الكلام. إذن، فقد تم الاهتمام فيه بعقلية جميع الأقوام غير المسلمة، وهذا دليل على أنه من رب العالمين. لو لم يكن من رب العالمين لما اهتم بأقوام العالم كلها.

### معنى وجود القرآن الكريم في الكتب السابقة

ولكن هذا لا يعني أن تعليم القرآن الكريم كله ليس إلا ما كان في الكتب السابقة، بل المراد من ذلك أن القرآن يشمل تعليماً صحيحاً من الكتب السابقة وزيادة. كذلك المراد من وجود هذا الكلام في الكتب السابقة هو أن فيها نبوءة عن كتاب. كذلك في القرآن بيان مفصل عن صفات الله تعالى كلها، ولم تُذكر على هذا النحو في الكتب الأخرى. لقد ذُكرت في الإنجيل بضع صفات فقط، وقد ذُكرت في التوراة أكثر نسبياً ولكن لم ترد فيها أيضاً بقدر ما ذكره القرآن الكريم. ولا تقدم الكتب السابقة هذه الصفات دليلاً بل تذكرها ضمن الأدعية فقط، مع أنه من الضروري ألا تُذكر صفات الله بالاستيعاب فقط بل يجب أن تُذكر مهامها منفصلة والأدلة عليها أيضاً. ولكن هذه المهمة قد أداها القرآن الكريم وحده.

### يجب أن يكون شرح صفات الله بكلماته عَكْل

ول يكن معلوماً أيضاً أنه لا يكفي ذكر أسماء الصفات فقط ما لم تُبيّن معانيها الصحيحة، لأنه يمكن أن يُجمع الأسماء فقط لإظهار شدة الحب أيضاً وإن لم يكن من يذكرها مطلعاً على حقيقتها. كما يذكر الإنسان أسماء كثيرة على سبيل التعبير دون أن يعلم حقيقتها. إذن، لا يكفي ذكر صفة فقط بل ينبغي أن تُذكر صفة ثم يأتي شرحها وتوضيحها أيضاً بكلمات الله. كما تسنّ الحكومة مثلاً قانوناً وتشريع

بعضاً من كلماته فوراً لثلا يحدث فيه اختلاف. كذلك من واجب كلام الله أن يذكر صفات الله تعالى ويشرّحها بنفسه. خذوا مثلاً كلمة "رحمن" التي كانت معروفة بين العرب وكانوا يستخدمونها، وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَا هُنَّ﴾ (الزخرف: ٢١) أي ما عبدنا آلهة أخرى سواه. كان مسليمة الكذاب أيضاً يسمّي "رحمن اليمامة". ولكن عندما بين القرآن الكريم معنى الرحمن استغروا بشدة. ولما كان هذا المعنى يمس بدينهم فقالوا فوراً: لا نعرف ما الرحمن. فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَرَأَدُهُمْ نُفُورًا﴾ (الفرقان: ٦١)، ماداً كان السبب وراء ازديادهم نفوراً؟ كان السبب أنهم كانوا يستنبطون من الرحمن معنى آخر. فقد بين الله تعالى معناه وقال بأننا نستخدم "الرحمن" بهذا المعنى، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا \* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢-٦٣) فقد شرح الله كلمة "رحمن" بأن المراد من الرحمن هو صفة الله التي تعمل قبل أن يقوم الإنسان بعمل. فقال: انظروا أننا خلقنا الشمس والقمر قبل ولادة الإنسان. ثم بين ضرورتها أيضاً وهي أن الإنسان بحاجة إلى الأسباب للعمل، وإن لم تتيسر له الأسباب أتى له أن يعمل. فمثلاً إن لم يتيسر الخشب للنجار فماذا عساه أن يعمل. فكان ضرورياً أن يعطي الإنسان نعمة قبل أن يبدأ بالأعمال، وكيلاً له الأسباب إنعاماً له ويعطي الأسباب ليتمكن من العمل. فمن الخطأ القول بأن كل شيء في العالم جاء إلى حيز الوجود نتيجة عمل الإنسان لأن العمل مستحيل ما لم يكن هناك إنعام قبله. ثم ذكر السبب أن الإنسان بحاجة إلى الرحمن ليكون شكوراً. وهناك شرط العمل ليكون الإنسان شكوراً، والعمل لا يمكن بغير الرحمانية. لولا صفة الله هذه، ولو لم يجز الله الإنسان دون عمل ومقابل لما استطاع أن يشكر خالقه، بل بقي كياناً بلا عمل.

وفي كلمة "شكور" وجه الأنظار إلى أن نشوء عواطف الشكر في القلب ضروري للتجهيز إلى الله، وهذه العواطف لا يمكن أن تنشأ بدون صفة الرحمانية. كذلك فيها إشارة إلى أنه من المستحيل أن ينشأ الدافع الأعلى على العمل المنزه عن الأنانية بغير الرحمانية. لو أعطى الإنسان كل شيء نتيجة العمل فقط ل كانت الأفعال كلها نتيجة الطمع. ولكن ما دام الإحسان موجوداً، وقد أنزل الله نعمه على كل إنسان قبل أن يكون قادراً على العمل، لذا يجعل الإنسان الأرقى أعماله تابعة للشكير على ما مضى بدلأ من جعلها تابعة لطلب الجزاء، فيشكير الله تعالى ويكسب الأفعال ولكن ليس طمعاً في نيل شيء بل ليشكير الله تعالى أولاً على منه السابقة. وبذلك جعل قلب المؤمن نزيهاً عن الطمع والجشع، وخلق فيه عاطفة شكر الله تعالى.

باختصار، القرآن الكريم وحده أكمل الصفات وقدم الأدلة. أما الكتب الأخرى فتستخدم أسماء الله في الدعاء على سبيل التمييم فقط ولا تلقي ضوءاً قط على الفرق بين الصفات المتشابهة وعلى أدتها.

### بيان قوى الإنسان الروحانية

الأمر الثاني الذي لا بد للكتاب الإلهامي من بيانه هو ذكر قوى الإنسان الروحانية. وقد ذكرها القرآن، بل الحق أن القرآن الكريم وحده بيّنها ولا يوجد هذا الذكر في الكتب الأخرى، إما لأنها نزلت في وقت لم يكن الارتفاع الروحاني فيه حاصلاً، أو ضاع في زمن فسادها كل ما كان فيها من التعليم. ولكن انظروا إلى القرآن الكريم الذي ذُكرت فيه تلك الأمور على أحسن وجه.

### تفسير رائع لـ **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح﴾**

يقول الله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فِي الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا \* وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَدْهَبَنَّ بِاللَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا \***

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا \* قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَنُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا  
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُّ طَهِيرًا \* وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي  
هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿الإِسْرَاء: ٨٦-٩٠﴾

لقد ورد ذكر القرآن الكريم قبل هذه الآيات، ثم يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي يسألونك: لماذا لا نعرف بأن الروح تملك في حد ذاتها قدرة على أن يخرج منها كلام من الدرجة العليا. لم يُنقل هنا سؤال محدد لذا تحوز كافة جوانب السؤال بحسب مقتضى الحال. فمثلاً يمكن أن ينشأ سؤال: كيف خلقت الروح؟ ويمكن أن يكون السؤال الثاني: ما هي القوى المودعة في الروح؟ وقد يكون السؤال الثالث: ماذا ستكون عاقبة الروح؟ فيقول الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أي أن الروح تفوق الأمور المادية، لذا لا يمكن أن تخضع لسيطرتكم بل إن خلقها وقيامها وعاقبتها بيد الله تعالى لأنه هو خالقها. وفي ذلك دحض للذين يقولون بأن الروح يمكن أن تناول الكمال بنفسها. فيقول الله تعالى بأنه لا يمكن للروح أن تُظهر أي كمال ما لم يرافقها كلام الله. ثم هناك من يقول: لماذا لا تفني الروح؟ فقال ﷺ رَدًا عليهم: ما دام المحيي موجوداً فلماذا تفني؟ كما أن النار لا تطفئ ما برح مُشعّلها يلقي فيها الحطب. إذن، لا يصح السؤال: كيف تبقى الروح إلى الأبد؟ ولا يصح القول بأنها إذا بقيت حية فهذا يعني أنها ليست حادثة، وذلك لأنها من أمر الله ولم تأت إلى حيز الوجود من تلقاءها. باختصار، إن الروح جاءت إلى حيز الوجود بالأمر أي بـ "كُنْ"، وإن تطورها منوط بالأمر أي بكلام الله، وقيامها إلى الأبد أيضاً منوط بالأمر أي بقدر الله وقضائه.

ثم يقول الله ﷺ: يقولون عن روح الإنسان إنها قادرة على نيل الكمال بحد ذاتها وقدرة على أن تبيّن التعليم بنفسها، ولكن هذا خطأ، ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أن معلومات البشر عن الروح ناقصة وغير مكتملة تماماً كنقصتها عن

أشياء غير مادية أخرى مثل ذات البارئ تعالى والملائكة، لذا فلا بد من وحي الله تعالى الذي بأمره يوجد كل شيء. كذلك إن تطوير قوى الروح الخفية أيضاً منوط بالأمر. ولا يمكنكم أن تنجحوا في ذلك بأنفسكم.

يقال في الزمن الراهن بقوه إن الإنسان إما يستطيع أن يخلق تعليماً روحانياً بنيل الكمال في الروحانية بنفسه، أو يمكنه أن ينشئ علاقة بالأرواح الأخرى ويوجد تعليماً كهذا بالاستعانة بها. نرى كثيراً من الناس الكبار قائلين بـ«وهم» أن الأرواح ترشد الإنسان إلى طريق أعلى من الروحانية. يزعم هؤلاء الناس أن أرواح الأموات تسد النقص الذي يبقى في روح الإنسان. يقول الله تعالى مخاطباً هؤلاء الناس بأنكم تظنون أنكم قادرون على خلق التعليم الروحاني من الدرجة العليا بتطوير القوى الروحانية بأنفسكم، كذلك تظنون أن محمد ﷺ خلق هذا الكتاب من عنده ولم ينزل عليه وحي من الله بل تطورت قوته الروحانية إلى درجة حتى صدرت منه هذه الأمور تلقائياً. ولكن هذا ليس صحيحاً لأن القوى البشرية لم تبلغ مبلغاً حتى تخلق هذا النوع من الكلام. **﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾**، أي لو حجبنا هذا القرآن -النازل سلفاً- عن أعينكم لما قدرتم على خلق كتاب مثله نتيجة تطوير قواكم الروحانية، دعك عن إيجاد العقل الإنساني طريقاً روحانياً بنفسه. أي لو حجبنا هذا التعليم الموجود عن العالم لما قدر الناس على خلق تعليم مثله.

قد يقول قائل إن هذا ادعاء مُحض قام به القرآن الكريم، أنه إذا اخْتَفَى تعليمه لن يقدر الإنسان على الإتيان بمثله، ولكن ما الدليل على ذلك؟ الحق أن الله تعالى قد قدّم هذا الدليل أيضاً، فقد جاء في الأحاديث أنه سيأتي زمان حين سيرتفع القرآن من العالم، سيكون رسمه موجوداً ولكن لن يكون هناك من يعمل به. وحين جاء هذا الزمن تُسبّب إلى الإسلام والقرآن أمور لاغية وع比ّة كثيرة وحجب تعليمه الروحاني والأخلاقي الذي لا نظير له.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي لا مجال لعودة هذا التعليم إلى العالم من جديد إلا إذا أعادته رحمة الله الخاصة. فقد مدد الله يد رحمته إلى الناس مرة أخرى في الزمن الأخير بحسب نبوءات النبي ﷺ ونزل القرآن الكريم إلى العالم من جديد بواسطة المسيح الموعود ﷺ. انظروا الآن أن القرآن هُوَ، ولكن كم من معارفه وحقائقه ظهرت للعيان بواسطة المسيح الموعود ﷺ، وكيف يتغلب القرآن على العالم كله. الحق أن في هذه الآية أُنبئ عن زمان المسيح الموعود ﷺ وقيل بأن القرآن سوف يُرفع من العالم في ذلك الزمان، ولكنه يقام على الأرض من جديد بواسطة مبعثه من الله تعالى.

## التحدي لأتباع مذهب التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح

### Hypnotism و Spiritualism

ثم يقول الله تعالى: ﴿فُلِّئَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِ ظَهِيرًا﴾، أي سيعجزون عن الإتيان بتعليم يرشد إلى سبل الارتقاء الروحاني. ليس المراد من الجن هنا الجن الذين يقال بأنهم يتلبسون الناس، لأن القول بضم الجن مثلهم إليكم قول لغو. ومثله كمثل قول إنكم لا تستطيعون أن تنظموا شعراً كمثل الشاعر فلان ولو استعنتم بشجرة كذا، أو استعنتم بشاة كذا. إذن، إن القول بالاستعانة بالجن سخيف كسخافة هذا القول المذكور آنفاً. إذن، ليس المراد من الجن هنا كيان آخر بل المراد هي الكائنات الخفية التي يسميها أصحاب مذهب Spiritualism أرواحاً ويسميها أصحاب Hypnotism قوى روحانية. لقد سُمُّوا جنًا لكونهم مستورين عن العيون.

لا بد من التذكرة أنه لم يدع أي عاقل أنه يستطيع أن يأتي بتعليم روحاني من الدرجة العليا بالاستعانة بالجن، لذا إن التحدي بما لم يتم ادعاؤه وما لم يكن اجتماعه ممكنًا يخالف العقل أصلًا. إذن، المراد من الجن هنا هي الأفعال الروحانية التي تظهر

للعيان من العقل الشخصي (subjective mind)، أو المراد هو الاجتماع الذي يحدث بحسب قول البعض بين الأرواح غير المرئية والبشر، ويتلقون منها بعض العلوم الروحانية.

يقول الله تعالى: استعينوا بهم وليعينوكم ومع ذلك لا يمكنكم أن تأتوا بمثل هذا القرآن. فالمراد من الجن هنا هي الأرواح التي يدعى هؤلاء الناس مستعينين بها أئم يستطيعون أن يطلعوا على علوم روحانية. فيقول الله تعالى: استعينوا بها ثم أتوا بمثل هذا القرآن وستعلمون هل بالإمكان أن تسير الأمور بغير كلام الله أم لا؟  
فانظروا ما أعظم معجزة القرآن الكريم، فإن الزمن الذي يثبت من أحاديث النبي ﷺ أن القرآن سيرتفع فيه، والذي ذُكر بعودة القرآن فيه نتيجة **﴿رَحْمَةً مِّنْ رَّبِّكَ﴾** يوجد فيه أناس يدعون اكتشاف الحقائق الروحانية بالاستعانة بالأرواح، فيقول الله تعالى بأننا نقبل هذا التحدي. فإذا كانت الأرواح تملك قدرة على اكتشاف العلوم نتيجة تقدّمها الشخصي فلتقدّم تعليمياً مثل القرآن.

السؤال الذي ينشأ هنا هو: ما هي الأمور التي يجب وجودها في "المثل". يقول الله تعالى بهذا الشأن: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾** (الإسراء: ٩٠)، لقد أودعنا القرآن ميزتين، فليأت مثيلهما أصحاب العلاقة بالأرواح ومن يدعون التقدم في أمور روحانية بأنفسهم. الميزة الأولى هي أن كل ما تحتاج إليه الروح مذكور في القرآن الكريم. والثانية: قد ذُكر فيه كل جزئية هامة من كل أمر ضروري، أي قد رُوعيت فيه الطبائع المتفاوتة كلها جيداً، وذكر فيه كل أمر بأسلوب يفيد الجميع. هنا قدم التحدي لأصحاب مذهب Spiritualism والفلسفه أن يأتوا بكتاب يتضمن تعليمات وردت فيه جميع الأمور الضرورية لتكامل الروحانة، روعيت فيه الطبائع كلها. ولكنهم لا يقدرون على أن يأتوا بمثل هذه الأمور. هناك أناس كثيرون يبذلون قصارى جهودهم في هذا المجال منذ مدة مديدة ولكن لم يقدروا على فعل شيء إلى الآن ولن يقدروا في المستقبل.

أولاً، لا يقدرون على أن يأتوا بتعليم جامع مثل القرآن، ولو افترضنا جدلاً أئم  
سيأتون به فسيكون إما مطابقاً للقرآن أو مخالفًا له. فإذا كان مطابقاً للقرآن فلا  
حاجة إليه أصلاً لأن القرآن الكريم موجود سلفاً، أما إذا كان مخالفًا للقرآن فسيكون  
الرد عليه موجوداً في القرآن. إذن، لا يمكن أن يكون هناك كتاب يعارض القرآن. هل  
في العالم من كتاب يسعه أن يدعى على هذا النحو عن الأمور الروحانية؟

**لا يمكن ظهور القوى الروحانية للفطرة البشرية دون كلام الله**

هنا يمكن أن ينشأ سؤال آخر وهو أنه إذا أعطيت الروح علماً قليلاً فائضاً لها أن  
تفهم تعليم القرآن الكريم؟ هذه القضية تنحل بآية أخرى ويتبين من ذلك أن الله تعالى  
قد أناط القوى الروحانية مع الفطرة البشرية أيضاً وأقرَّ أن كلام الله موجود في الروح  
أيضاً ولكن بصورة خفية، وظهوره يكون محتاجاً إلى كلام الله الخارجي. فليس المراد من  
العلم القليل أنه لا علاقة للفطرة البشرية بالقوى الروحانية. العلاقة موجودة ولكن لا  
يمكن ظهور تلك القوى بغير كلام الله. فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لِقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ في كتابٍ  
مَكْتُوبٍ (الواقعة: ٧٨-٧٩)، أي أن التعاليم الواردة في القرآن الكريم مودعة في الفطرة  
البشرية التي هي مظهر الروح لأنها لا يسع الإنسان الاستفادة إلا مما كان موجوداً في  
أيضاً، إذ لا ينفعه جنس آخر. ومثال ذلك أنه لو لا الأذن لاستحال السمع، ولو لا  
العين لاستحال الرؤية. أو مثل ذلك كمثل ماء عندما ينزل من السماء تتفجر اليابس  
أيضاً، وإن لم ينزل الماء من السماء تجف اليابس أيضاً. كذلك عندما ينزل ماء وحي  
الله يتدفق الماء الروحاني من روح البشر أيضاً لأن كلام الله والفطرة البشرية مثل الزوج  
لبعضهما. إذن هناك كتاب الله المكون من الكلمات، وكتاب آخر متسرخ في الفطرة.  
والكتاب الذي يكون مطابقاً للفطرة هو الذي يمكن أن يكون كتاباً موحى به. إذن،  
يكون كلام الله في فطرة الإنسان أيضاً ولكن هناك حاجة إلى الإلهام لتنشيطه. لقد  
وضع الله تعالى جزءاً من كلامه في ذهن الإنسان وأعطى الجزء الثاني بإرسال نبيه.  
وعندما يتصل هذان الجزءان مع بعضهما يُفهم أنَّهما من الله تعالى.

## حادث وقع في أثناء السفر إلى بريطانيا

أسرد لكم بهذه المناسبة طرفة. عندما عدت من بريطانيا أخذني المهندس الأعلى للسفينة التي كانت تقلنا ليريني آلية السفينة. وبعد أن أرانيها قال: أرجوك أن تصرف صاحبيك لأنني أريد أن أتحدث معك في موضوع خاص. قلت: حسنا. فصرفت مصاحيي، فقال بعد انصرافهما: لعلك تستلم الرسائل من بلاد مختلفة فلو أرسلت إلى الطوابع التي عليها لكنت لك من الشاكرين. قلت: حسنا، إذا رأيت طابعا غير عادي سأرسله لك. ثم قال المهندس: سأخدمك أنا أيضا مقابل ذلك وعليك أن تثق بي وتأخذ الخدمة مني. أنا أعلم الهدف الذي من أجله ذهبت إلى بريطانيا، وذلك الهدف هو أنك عينت هنالك دعاة ضد الحكومة وذهبت لتعطيهما تعليمات سرّا. والآن كلما أردت أن ترسل لهم كتابة سرية سأخذها. وما عليك إلا أن تعطي دعاتك جزءا من بطاقة وأرسل جزءها الثاني بواسطتي. وعندما يتواافق كلا الجزأين مع بعض سوف يدرك دعاتك أن التعليمات التي أرسلتها لهم هي حقيقة وأصلية وبذلك سوف يعرفون تعليماتك. كان ظنه هذا خاطئا على أية حال، ودحضته فكرته وبيّنت أنا مخلصون لحكومتنا، ولكن كما قال لي أن أعطي دعاتي جزءا من البطاقة وأعطيه الجزء الثاني منها، وعندما يتواافق كلا الجزأين معا سيعلم الداعية أن التعليمات التي أرسلتها هي أصلية. الحال نفسه ينطبق على الإنسان فيما يتعلق بالروحانية، إذ يكون جزء من كلام الله في ذهن الإنسان ويكون الجزء الثاني عند النبي. وعندما يتواافق كلا الجزأين يعلم أنه من الله وإلا يتبيّن أن مقدم هذا الكلام مخادع.

## اتحاد الكتاب المبين والكتاب المكنون

باختصار، لا بد للارتفاع الروحاني من أن ينزل تعليم يشبه المواهب الروحانية. فعلى ذلك يكون كلام الله موجودا في ذهن الإنسان نوعا ما ولكنه يكون مخفيا، وتنشيطه يتعلق بكتاب واضح. فمن هذا المنطلق سمي القرآن "كتاب مبين" حيث

يقول الله تعالى: ﴿فَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٦)، فاستفيدوا من هذا الكتاب الواضح أيها الناس.

فالمواهب الروحانية إنما هي بمنزلة ماء الأرض الذي يرتفع نتيجة نزول الماء السماوي. وكما تجف الآبار عند شح الأمطار، كذلك يبدأ ينبوء الفطرة بالجفاف عند انقطاع الإلهام. فمع أن الكلام يكون مخفيا في الفطرة ولكنه يصبح كدراً وفاسداً في حال شح الماء السماوي ولا يكفي الاعتماد عليه. غير أنه عندما ينزل الماء السماوي يشهد كلاهما لبعضهما بعضاً. الماء السماوي ينفي ماء الفطرة، أما ماء الفطرة فيشهد على نقاوة الماء السماوي، وكأنهما جزآن لشيء واحد بحيث يكتمل الوجود باجتماعهما. وقد أودع الله جزءاً في ذهن الإنسان لتكون الفطرة الصحيحة شاهدة للماء السماوي عند نزوله. إذن، إن اتحاد الكتاب المبين والكتاب المكتون يشهد على صدقهما وينفذ من خداع المخادعين. وهناك ترابط بين الكتابين المذكورين بحيث إذا اقترب أحدهما يبدأ الثاني بالاقتراب تلقائياً. عند نزول الإلهام تتنشط الفطرة تلقائياً كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام ضارباً مثل الكلام الإلهي: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٠٠)، أي أن مثل الكلام الإلهي كمثل ماء، فكما تنبت الحضرة نتيجة نزول الماء كذلك تتنشط جميع أنواع المواهب وتُظهر قدراتها نتيجة نزول الكلام الإلهي. كذلك ينجدب الكلام الإلهي نتيجة نشاط الفطرة. كما يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثُلُ نُورِهِ كَمِشْكَأَ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي رُجَاحَةِ الرُّجَاحَةِ كَأَهْمَّ كَوْكَبٍ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ رَبِّتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْثُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسَّسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِنَنَسِي وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٦)، لقد قيل في هذه الآية إن الله تعالى نور

السماءات والأرض: ﴿مَثُلُّ نُورٍ كَمِشْكَاءِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُبْجَاجَةِ الرُّبْجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... يَكَادُ رَيْشُهَا يُضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يمكن أن يُضيئ هذا الزيت من تلقاءه بغير النار، وذلك بسبب نقاوته من الدرجة العليا. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، لأنه عندما تنشأ النقاوة في ذلك الزيت أي الفطرة الصحيحة، ينزل نور الله الذي يشبه النار بسبب إنارة ذلك النور الفطري، ويجتمع النور السماوي مع النور الأرضي.

انظروا كيف بين الله تعالى في هذه الآية بكل وضوح أنه عندما يصبح نور الفطرة نورانياً بصورة كاملة ويصبح نقياً كأنه قادر على الاشتعال بنفسه، عندئذ يجذب النور السماوي، أي يصبح مهبط الإلهام. فلا يصح القول بأن الدماغ الكامل والنقي سوف يطّلع على التعليم من تلقاءه. فإذا كان كاملاً سينزل الإلهام عليه تلقائياً، وإن كان ناقصاً استحال عليه صنْع التعليم من عنده.

باختصار، هذه الآية تتضمن بحثاً مستفيضاً حول قضية القوى الروحانية وارتقائها، ويشهد عليه كلُّ من العقل والمشاهدة، ولا يمكن العثور على هذا البحث في أي كتاب آخر في العالم.

ثم بين الله تعالى: أين يوجد ذلك النور؟ فيقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَيِّدُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَابِ﴾ (النور: ٣٧)، أي يوجد هذا النور في بيوت قرر الله أنها سترفع وسيعطي أصحابها حكمةً. فلمراد من النور هو محمد رسول الله ﷺ الذي تقرر بحقه أنه سيجعل ملِكَ العالم.

فلا شك أن النور موجود في فطرة الإنسان وهو يشبه نور الله ولكن القانون هو أنه عندما تستثير فطرة - أي تناول كمala لدرجة تولد فيها قدرة على تلقي الإلهام - ينزل عليها إلهام من السماء، وهذا يعني أن فطرة الإنسان الصحيحة لا تبقى بغير تلقي الإلهام، أي عندما تكتمل الفطرة ينزل عليها الإلهام حتماً، وإنما ليست كاملة. ولا تستقيم الأمور بغير الإلهام من الله.

## التعليم الكامل لإكمال القوى الروحانية

الأمر الثالث الذي يتحتم على الدين بيانه هو بيان الأمور الضرورية لإكمال القوى الروحانية وتنشيطها. هذا الموضوع واسع لدرجة أنه يمكن أن يشمل أحکام الشريعة كلها ويمكن البحث فيه حول أصول الدين وجزئياته كلها لأن الهدف منها هو ارتقاء القوى الروحانية. ولكن ما دام هذا الموضوع لا يطابق محاضري هذه لذا سوف أعلق عليه تعليقاً واحداً بإيجاز وهو أنه ما دام الإسلام يعترف: (١) بأن الروح تتولد نتيجة التغيرات في جسد الإنسان لذا لا بد وأن تتأثر من التغيرات الجسدية كما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّوا مِنَ الطَّيَّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥٢)، أي بأكل الطيبات يوفق الإنسان لكسب الأعمال الصالحة، لذا قدّر الله أنه يتحتم على الدين أن يضع حلوداً – إلى حد ما – على أغذية الإنسان وعلى أذنيه وعينيه وحواسه لئلا تصل إلى الدماغ والقلب تأثيرات سيئة بواسطة المعدة والحواس، وكيلا تموت روحه. وقد وضع ﷺ لهذا الغرض مبدئين اثنين.

الأول: لقد بين بنفسه الأمور الضرورية والمبدئية، وأعطى تعليمات مفصلة عن كل قضية ولكن مع ذلك، (٢) أقرّ بأنه ستكون هناك حاجة إلى قوانين متبدلة نظراً إلى حاجات الناس المتغيرة في بعض الأمور أو لأناس في بعض البلاد، لأنه يمكن أن تطرأ مثل هذه الحاجات بسبب ظروف العصر المتغيرة التي يكون الإنسان بحاجة إلى سن القوانين عنها. فقد وضع لهذا الغرض قانوناً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءِ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠٢)؛ أي لا تسألوا كيف نعمل هذا العمل وذاك العمل لأن الله تعالى قد ترك ذكر بعض الأمور عمداً ولحكمة، ولو أبديت تلك الأشياء كلها لفترضت عليكم بصورة دائمة، لذا فقد أهمل الله تعالى ذكر بعض الأشياء لعلمه أنه ستكون هناك حاجة إلى التغيير فيها في المستقبل. فالمبدأ الثاني الذي ذكره القرآن الكريم هو أنه تكون

هناك حاجة إلى التغيير مؤقتاً في بعض التعاليم بعد التعليم الكامل أيضاً، وقد تركها القرآن للإنسان أن يُبْتَ فيها بعقله. غير أنه بين طريق الحكم فيها قائلاً: ﴿أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٩). أي أن من شيمة المؤمنين أنهم يحكمون في الأمور القومية بالتشاور. إذن، لا يقول الإسلام أن يتبع كل شخص رأيه الشخصي بل يجب أن يتبع ما يتقرر بعد التشاور. ولكن لما كانت هناك إمكانية وقوع الإنسان في الخطأ على الرغم من كل ذلك لذا هيأ الله تعالى أسباباً من الغيب لحمايته أيضاً، وهي أنه ﴿يَعْلَمُ خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ مَهْمَتْهُمْ أَنْ يَسِيرُوا إِلَيْهِ﴾ إلى طريق الحسنة دائماً. فيقول الله تعالى مبيناً هذا الأمر: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١٢).

باختصار، أنزل الله شريعة هداية البشر وأعطائهم تعليمات مفصلة. ولكن لما كانت هناك مع ذلك إمكانية لصدور الخطأ من الإنسان لذا سحر ﴿يَعْلَمُ﴾ الملائكة لحمايته. الكتب الأخرى ساكتة عن أعمال الملائكة من هذا النوع بل الحق أن الكتب الأخرى لم تتحدث أصلاً بالتفصيل عن الملائكة بل تحدثت بصورة جعلت شريحة من أتباعها تتخذه بناةً لله. الناس يسخرون من هذا الأمر ولكن الخبراء يعرفون أن وجود الملائكة منة من منن الله العظيمة، ولكن هذه ليست بمناسبة الحديث المفصل حول هذا الموضوع.

### ٣- إظهار النتائج الروحانية

المبدأ الثالث الذي ذكره ﴿يَعْلَمُ﴾ هو أنه لو ظل الإنسان يعمل على المنوال نفسه ولم ير نتائج عمله لثبتت همه لذا لا بد أن يكون هناك سبيل لإظهار النتائج أيضاً. فالهدف من امتحان الطلاب في المدارس هو أن يزدادوا همة وعزيمة برؤية النتائج وينطربوا في دراستهم. فعلى هذا النحو بين الله تعالى طريقة لإظهار النتائج الروحانية فقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦١).

## عدم التزام الأديان الأخرى بالمبادئ

هذه الأمور الثلاثة تلاحظ لدى الأديان الأخرى غير الإسلام أيضاً ولكن بغير التزام بالمبادئ، مثلاً: (١) الأديان التي تعطي الأحكام ولا تبين حكمتها. (٢) تعطي أحكاماً تقضي على حرية الإنسان. (٣) تبيّن الكتب الأخرى بعض الأحكام ولكن بصورة عشوائية، بمعنى أنها لا تبين السبب وراء أحكام تُدلي بها ولا تبين السبب وراء ترکها بعضها الأخرى، هل أهملتها قصدأً أو بغير قصد. خذوا الفيديات مثلاً فلم تبين شيئاً عن الأمور العظام لدرجة أنها لم يرد فيها حُكْم حتى عن القصاص أو العفو أو الحرمات. والإنجيل أسوأ منها حالاً إذ يُعدّ الشريعة لعنة من ناحية، ومن ناحية ثانية يعطي الأحكام أيضاً، مع أنه إن كان صحيحاً أن الشريعة لعنة كان من المحتوم ألا يكون في الإنجيل أي حُكْم قط، ولكن الأحكام موجودة كما جاء في إنجيل متى: "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعَلَّةَ الرِّبْنَى يَجْعَلُهَا تَرْبَى، وَمَنْ يَتَرَوَّجُ مُطْلَقَةً فَإِنَّهُ يَرِنِي". (إنجيل متى : ٣٢). إذن، إذا كانت الشريعة لعنة فلا أدرى لماذا أعطي الناسُ نصيباً من هذه اللعنة؟ وإذا قلتم إنها ليست لعنة بل هي رحمة فلماذا إذن أهملت الأمور المهمة الأخرى؟ إذ كان لا بد من ذكرها. باختصار، قالت تلك الأديان كلاماً جزافاً بحيث أهملت بعض الأشياء أحياناً ولم تذكر السبب وراء السكوت عن تلك الأحكام، وبيّنت أحياناً أخرى أشياء ولكن لم تذكر الحكمة وراءها. ولكن القرآن الكريم كلما يقول شيئاً يكون مبنياً على المبدأ ويبين الحكمة وراء كل ما يقول، وبين أيضاً سبباً وراء ما أهمله من الأحكام، ولكن هذا الأمر لا يوجد في كتب أخرى. لم يرد في الفيديات المنع من الزواج بشقيقتين ولكن أتباع الفيدا لا يجيزون ذلك.

## دليل قاطع على كمال تعليم الإسلام

أذكر هنا مبدأ عاماً وبسيطاً عن كتب وثائق الهدایة الروحانية هذه. كل ما ورد في كتاب سوى القرآن الكريم من المسائل، لا بد أن تكون هناك مسائل أخرى لو

عمل بها لعد ذلك سيئة حلقية ولكن لن تجدوا المنع عنها في تلك الكتب. ومما ينافي ذلك ليس في القرآن الكريم أمر ينافي العمل به سيئة حلقية ولم يمنع عنه الإسلام، أو لم يبين بشأنه دستور العمل بوجه خاص. وهذا المبدأ الوجيز دليل على كمال تعليمه.

#### ٤- تعلیم الإسلام الجامع عن علم المعاد

الأمر الرابع الذي يتحتم على الدين أن يبين التعليم عنه يتعلق بالمعاد، بمعنى أنه يجب عليه أن يخبر عما ستكون حالة الإنسان بعد الممات. الإسلام يتحدث عن هذا الموضوع أيضا بالتفصيل ولكن لا أستطيع بيانه بالتفصيل في هذا المقام غير أنني أقدم آيتين تأييداً لذلك فيقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١٦)، جاءت هذه الآية بعد ذكر خلق السماوات والأرض وبيان الإحياء والإماتة وبعد بيان مالكية الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى فيها كم من قوى أودعها في الإنسان، وكيف سحر له الأرض والسماءات، وخلق له القمر والشمس ووضع فيهما التأثيرات ثم أودع الإنسان موهب وقدرات. هل فعل كل ذلك ليأكل الإنسان ويشرب في الدنيا ويموت ويفنى؟ كلا، لن يحدث ذلك أبدا بل لا بد أن تكون للإنسان حياة أخرى يُسأل فيها عن أعماله، وتكميل تلك الحياة الهدف من خلقه.

ثم يقول الله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ \* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّعْسِ الْلَّوَّامَةِ \* أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَهُ جَمْعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة: ٤-٢)، أي أشهد الحياة بعد الممات. قد يقول قائل هنا بأن الآيات قدّمت دليلاً على ما كان ينبغي تقديم الدليل عليه. ولكن قراءة بعض الآيات التالية توضح الموضوع جيداً ويتبيّن أن المراد من القيامة هنا هو زمن المسيح الموعود الظليلة لأن بعثة نبي تكون بمنزلة القيامة. فيقول الله في السورة نفسها: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ \* فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ \* وَخَسَفَ الْقَمَرُ \* وَجَمْعُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ \* يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنِّي الْمُفْرُ﴾ (القيامة: ٧-١١)، ﴿بَرَقَ الْبَصَرُ﴾: أي ستنكشف علوم جديدة حتى ترك الإنسان في حيرة من

أمره. ﴿وَجُمعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي عندما ينكسف الشمس والقمر، سيقول الإنسان ﴿أَيَّنَ الْمَفَرُّ﴾. المراد من القيامة هنا هو زمن المسيح الموعود الظاهر، وقد قدِّم دليلاً على القيامة وقيل بأنه سيأتي زمان يبلغ فيه دمار المسلمين وفسادهم منتهاه، وعندئذ سيحييهم الله مرة أخرى. هذه النبوة تتحدث عن زمن المسيح الموعود وتقول بأن المسلمين سيحرزون التقدم بعد مواجهتهم الدمار. وإن تحقق ذلك سيوضح أن القرآن الكريم قد صدر من مصدر لا يصدر منه شيء غير صائب. عندما يتحقق ذلك سيعرف الناس أن ما يقوله القرآن عما بعد الموت أيضاً سوف يتحقق أيضاً لا محالة.

الأمر الثاني المذكور هو أن النفس اللوامة المودعة في الإنسان أيضاً دليل على القيامة. عندما يرتكب الإنسان ذنباً تلومه نفسه، إذ من الملحوظ أنه كلما يكذب المرء حتى الطفل الصغير يضيق صدره وينقبض لأن النفس اللوامة الموجودة فيه تُخجله وتلومه. يقول الله تعالى بأن هذه هي النفس اللوامة التي بسببها يميز الإنسان بين الأخلاق الفاضلة والأخلاق السيئة وبين الذنب والحسنة. وهذا دليل على أن القيامة واقعة لا محالة وإلا لماذا ينشأ في الإنسان شعور بالنندم. كذلك يبين القرآن الكريم تفاصيل العذاب والإنعام ويبيّن الحكم المودعة فيها. يشرح ويبيّن العقوبة والمهدف منها كما يبيّن الإنعام والمهدف منه وأسلوب العقوبة وطريق الإنعام. بإختصار يلقي ضوءاً كافياً على كل جانب بما لا نظير له في الكتب الأخرى قط، وإذا وُجد فهو ناقص. إذن، الإسلام أفضل من الأديان الأخرى من حيث بيان ضرورة الدين أيضاً.

### دين يوصل إلى الله تعالى ويُكمِّل القوى الروحانية

(٥) والآن أبين الأمر الخامس وهو أن الحاجات التي يقدمها دين يتحتم عليه أن يُسَدِّدَها أيضاً. إنني أرى أنه ما من كتاب سوى القرآن الكريم يحقق هذا المهدف.

القرآن الكريم وحده يدّعى أنه ما لم يوصل دين إلى الله وما لم يُكمل قوى الإنسان الروحانية وما لم يضمن له الخير في الآخرة فلا ينفع المرء تعليمه وحده. الإسلام ينادي في هذا العالم: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٣)، فيقول: اعلموا أن الهدف من الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها هو أن يصل الإنسان إلى الله تعالى لأن هدف الدين هو أن يرى الإنسان ربّه. وإن لم ير الإنسان الله تعالى في هذا العالم لن يراه في العالم الآخرة أيضا. فهناك حاجة لرؤية الله في هذه الدنيا أيضا. إذا كان الإنسان يؤدي العبادات ولكنه لا يرى الله تعالى فهذا يعني بكل صراحة أن الهدف الحقيقي من العبادة لم يتحقق. ومن كان أعمى في هذه الدنيا عن رؤية الله فسيكون أعمى في العالم الثاني أيضا. المراد من ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هو أن عمّا في العالم الآخرة سيكون أسوأ من عمّا في هذا العالم لأنّه لا مجال للتوبة في العالم الآخرة.

### النداء من العالم الآخرة

ثم ينادي من العالم الآخرة بالقول: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ أَنفُسِهِمْ وَبُشِّرَ أَكُمُ الْيَوْمَ حَنَّاثٌ بَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَهَارُ حَالَدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفُوزُ الْعَظِيمُ﴾ \* يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣-١٤)؛ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ أَنفُسِهِمْ﴾.. لقد قيل هنا أن التقدم في العالم الآخرة سيحصل سريعا جدا. النور سيسعى حين يسعى السائرون معه أيضا... وفي ذلك إشارة إلى سرعة التقدم ومواكبة المؤمنين مع هذه السرعة. ﴿بُشِّرَ أَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي سبب شرهم ملائكة الله... ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظرونا نَقْتِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمِسُوا نُورًا﴾ سيقول المنافقون والمنافقات: أين أنتم هاربون؟ انتظرونا

لنقبس من نوركم، سيقال لهم: لن تجدوا النور هنا بل ارجعوا إن كنتم قادرين وابحثوا عن النور من حيث أتيتم. لقد قيل في هذه الآيات إن النور الذي يُستفاد منه في الآخرة يناله المرء من هذه الدنيا ولن يناله بعد الوصول إلى ذلك العالم. ومن هنا يتبيّن أيضًا أن على الإنسان أن يكسب الحسنات في هذا العالم ليكون ناجحاً في العالم الثاني، ولكن انظروا ما أُوسع رحمة الله! كان بالإمكان أن يقال بأنه إن لم ينل المرء نورًا في هذه الدنيا فلن يناله أبداً وسيكون محرومًا إلى الأبد. وإذا كان ممكناً نوال النور الذي أشير إليه إشارة خفية في **﴿فَالْتَّمِسُوا نُورًا﴾** فكيف يمكن نواله؟ فقال القرآن الكريم بهذا الشأن: **﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبِيلِهِ الْعَذَابُ﴾** من الواضح أن أهل الجنة لن يخرجوا منها، لذا الهدف من وضع الباب هو أن يدخل الجنّة من كانوا في الخارج. فقد قيل هنا إنه ما لا شك فيه أن النور ينال في هذه الدنيا ولكن سوف يُعفى عن المحرّمين منه أيضًا بعد تحريرهم من بعض الحالات وسيدخلون الجنّة مروراً بهذا الباب. **﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبِيلِهِ الْعَذَابُ﴾**. لقد أشير هنا أيضًا إلى أن الجحيم تتولد من حواس الجنّة وقوتها، بمعنى أن الحواس الحقيقية صالحة حتمًا ولكن استخدامها السيء يؤدي إلى نشوء الجحيم. إذن، لا يشارك القرآن الكريم أيّ كتاب آخر في هذا الادعاء أيضًا.

### الدليل على الإيفاء بالعهد

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما تم ببيانه آنفًا إنما هو ادعاء فهل سيوف بالوعد أيضًا؟ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِلْكَافِرِينَ \* وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنْهُمْ يَنْهَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** (العنكبوت: ٦٩-٧٠)، لقد قال الله في هذه الآية أن الذين جاهدوا فينا إذا مشوا إلى بقدر استطاعتهم ثم إذا تعبت أقدامهم وعجزوا عن المشي سأمشي إليهم بنفسي لأن سنتي هي أن العبد يمشي إلى بقدر استطاعته ثم أمشي إليه أنا.

لقد قيل هنا في: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ إن القرآن ليس افتراء على الله، ولو كان الأمر كذلك لعذب المفترى. ثم يَسِّن في: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَكَهْدِنَّهُمْ سُبْلَنَا﴾ أن المرأة يكذب حين لا ينال هدفه بصدق المقال. ولكننا ترکنا باب نزول الكلام مفتوحا وقلنا: كونوا محسنين تصلوا إلى الله، فلماذا لا يسعى المرأة سعيا صادقا للحصول على كلام صادق، وما حاجته إلى الكذب.

## الفئة الناجحة في الحصول على رضا الله تعالى

عن هذه الآية ينشأ سؤال وهو: قيل فيها فقط بأننا سنفعل كذا وكذا ولكن السؤال هو: هل فعل الله تعالى كذلك في وقت من الأوقات أم لا؟ فمع أن الجواب على ذلك موجود في هذه الآية نفسها أيضاً وهو أنه لن يصل إلى الله إلا من كان حائزًا على تكميل روحي مناسب وهو الذي سينال الجنة أيضًا. ولكن الله تعالى ذكر هذه الأشياء كلها منفصلة أيضًا وقال بأن أصحاب العلاقة الكاملة بالله تعالى قد نالوا مرادهم في آخر المطاف نتيجة العمل بالقرآن الكريم ونالوا الجنة. فيقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُنْهِمُ مَنْ قَضَى تَحْبُّهُ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا \* لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أُوْلَئِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٤-٢٥)، أي الذين أوفوا بعهدهم فقد وصلوا إلى الله. من معاني "النحب" النذر وما أوجبه المرء على نفسه. فكان المراد من ذلك هو الإيفاء بعهد ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ ولكن الله تعالى يقول بأن هناك مؤمنين لا يزالون يتظرون الوصول إلى الله تعالى ولم يقتصرُوا في جهودهم في هذا المجال. فسيجزي الله تعالى هؤلاء الصادقين أيضًا لمحالة على صدقهم.

يتبين من هذا القول أن القرآن الكريم يعترف بأن في أمة محمد ﷺ أناس وصلوا

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى نَتْيَاجَةُ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

## علاقة المؤمنين بالملائكة

لما كان الملائكة يحيثون على الأخلاق الفاضلة لذا قال عليه السلام مزيد من التأكيد بأن علامات إصلاحهم الروحاني تأخذ بالظهور ويلقاهم الذين يضمنون لهم الاتكمال الروحاني، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَخْرُبُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ \* حَنْ نُّ أُولَيَاوْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشَهِّي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ \* تُرِلَا مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣١-٣٣)

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أي أثبتوا ذلك بأعمالهم... لقد قيل في هذه الآيات أنه سيمثل إصلاح قلوبكم وأعمالكم أيضا كما قال رسول الله ﷺ عن بعض أصحابه: "اعملوا ما شئتم"، أي لا يمكن أن ترتكبوا ذنبا الآن. كذلك المراد هنا أيضا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشَهِّي أَنفُسُكُمْ﴾، أي لقد تطهرت نفوسكم بحيث كل ما تريدونه الآن سيكون طيبا وستنشأ في قلوبكم أمانٍ وأفكار طيبة دائما ولن تنشأ أفكار سيئة أبدا وستطلبون الطيبات فقط ولن طلبوا الخبيثات.

السؤال هنا هو: هل انتهى كل ذلك في الأزمنة الغابرة أم ستبقى هذه السلسلة جارية في المستقبل أيضا؟ إن جوابه أيضا موجود في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحُمُوا هُمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٤-٣)، فهذه الآية تعلن بصرامة أن ما حدث في زمن هذا الرسول سيحدث في ذلك الزمان أيضا وستظل هذه السلسلة جارية لن تقطع.

## أفضلية القرآن الكريم من حيث كثرة الفائدة

(٤) هناك سبب آخر للأفضلية وهو من حيث كثرة الفائدة، بمعنى أنه مما لا شك فيه أن الأشياء الأخرى أيضا تكون ذات فائدة ولكن الأكثر فائدة يفضل على

غيره. عندما نلقي نظرة على القرآن الكريم من هذا المنظور نجد حائزاً على الأفضلية من هذا المنطلق أيضاً. يقول الله تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أيها المسلمون عليكم أن تستمروا في الدعاء دائماً أن أهدنا يا ربنا الصراط المستقيم الذي بسلوكه نال السابقون إنعاماتك. أي ندعوك أن تنزل علينا أيضاً إنعامات كلها التي أنزلتها على السابقين. فيقول الله تعالى في بيان الإنعامات النازلة على السابقين:

﴿وَالَّذِينَ أَمْتُنَا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ٢٠)، لقد قيل في هذه الآية إن باب الشهادة والصديقية كان مفتوحاً في الأمم السابقة كلها. ولكن حين ذكر رسول الله ﷺ قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْتَّيِّنَ وَالصِّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٧٠). أي كان الناس ينالون مرتبة الصديق والشهيد فقط نتيجة طاعتهم الأنبياء السابقين. أما بطاعة هذا النبي ﷺ فيمكن نوال مرتبة النبوة أيضاً.

لم يقل سيدنا داود وعيسى عليهما السلام إنهما نالا النبوة نتيجة طاعة موسى عليه السلام، ولكن المسيح الموعود عليه السلام أكد وأعلن مراراً أنه نال مرتبة النبوة نتيجة كونه خادماً لرسول الله ﷺ فقط.

### معنى معية الأنبياء والصديقين

يقول بعض الناس إن التعبير الوارد هنا هو: ﴿مَعَ الَّذِينَ﴾، وهذا لا يعني أن أحداً يمكن أن ينال النبوة نتيجة طاعة الله ورسوله. بل المراد هو الفوز بمعية الأنبياء يوم القيمة. وجوابه الأول هو أنه إذا أنكرنا الحصول على مرتبة النبوة فلا بد أن ننكر الحصول على مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين أيضاً. ونضطر للاعتراف بأنه لا يمكن أن يكون الآن في أمة محمد ﷺ صديق ولا شهيد ولا صالح أيضاً، والعياذ بالله. ولكن لو أمكن نوال مقام الصالحة والشهادة والصديقية لأمكن نوال

مرتبة النبوة أيضاً. ولكن هنا ينشأ سؤال لا محالة أنه ما دام صحيحاً أنه لم ترد في القرآن الكريم أية كلمة دون حكمة فما الحاجة إلى إيراد كلمة "مع" هنا، كما لم ترد كلمة "مع الذين" في مكان آخر بل اكتفى بالقول بأنهم سيكونون صديقين وشهداء، فكان من الممكن أن يستخدم هنا أيضاً الأسلوب نفسه. فجوابه أن الله وجه الأنظار بإيراد كلمة "مع" إلى أن مطاعي هذا الرسول لن يكونوا صديقين فقط بل سيجتمعون في أنفسهم مزايا الصديقين من كل أمة. ولن يكونوا شهداء فقط بل ستجتمع فيهم صفات جميع الشهداء السابقين، ولن يكونوا صالحين فقط سيجتمعون في أنفسهم مزايا كل من سبقهم من الصالحين، كذلك من سيأتي نبياً سيجمع في نفسه صفات الأنبياء السابقين كلهم وكمالاً لهم. إذن، إن كلمة "مع" زادت نتيجة طاعة رسول الله ﷺ ولم تقللها، وبينت أن المرتبة التي ثُنِّيَّتْ نتيجة طاعة محمد رسول الله ﷺ أرفع وأعلى بكثير من مراتب الناس السابقين.

### الكلام البريء من كل شائبة

(٥) هناك سبب آخر للأفضلية وهو ألا يكون الشيء المقدم مشوباً بشائبة فقط. وأفضلية القرآن الكريم تثبت من هذا المنطلق أيضاً. في القرآن الكريم آية يقول الناس عنها: ما الحاجة إليها؟ فأوضح اليوم مدى أهميتها وضرورتها من حيث مفاهيمها. يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لَهُ فِيهِ﴾ أي هذا هو الكتاب الوحيد الذي لا رب فيه، أما الكتب الأخرى كلها فقد شابتها شوائب. لا يمكن لأحد أن يقول عن التوراة بأن كل كلمة منها كلام الله، بل قد ورد فيها: "فَمَا تَهْمَّ هُنَّا كُلُّ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوَّابٍ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. \* وَدَفَنَهُ فِي الْجَوَاءِ فِي أَرْضِ مُوَّابٍ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَعُورٍ. وَلَمْ يَعِرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرُهُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ". (التثنية ٣٤ : ٦-٥)

كذلك لا يسع أحداً أن يقول ذلك عن الإنجيل، ولكن يمكننا القول عن كل كلمة في القرآن الكريم إنها كلام الله ولا دخل فيه لأي إنسان. فالأهمية العظمى

والواضحة لهذه الآية هي أنها تخبر العالم أن الكتب الأخرى قد تطرق إليها أنواع الفساد ولكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا شائبة فيه من الريء.

قد يقول قائل بأن هذا ادعاء بحث قدمه القرآن الكريم عند نزوله، وما الدليل على أنه لن تشوبه شائبة لاحقاً أيضاً؟ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠)، أي نتحمل المسؤولية عن المستقبل أيضاً بأنه لن يتطرق إليه تغيير وتبديل في المستقبل أيضاً. وهذا ما حدث بالفعل إذ ما زالت كل كلمة وكل حرف منه محفوظاً كما نزل على رسول الله ﷺ.

### الفكرة السامية عن ربوبية العالمين

(٦) السبب السادس للأفضلية هو أن يملأ المرء ذلك الشيء لأنه من المعروف أن ما يملأه المرء يكون أحب إليه ويحسبه أفضل مما عند الآخرين. فحين ننظر إلى القرآن الكريم من هذا المنطلق نجده شيئاً ملائكة. فمثلاً لقد زود القرآن الناس بفكرة: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وبذلك أبطل فكرة الآلهة القومية. اقرؤوا الكتاب المقدس تجدوا فيه: إله بني إسرائيل، وإله قومك، أو إله قوم كذا، اقرؤوا الفيدات تروا كأن إله البراهمن غير إله الآخرين. ولكن القرآن الكريم يبدأ بالقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبذلك أُخبر العالم كله أن هذا الكتاب نازل من رب العالمين ويدعو الجميع إلى نفسه. باختصار، فقد جمع الإسلام الناس المشتتين كأم رؤوم وقال: تعالوا إلى إله واحد. كان السبب الوحيد لانتشار الشرك فيمن خلوا أنهم كانوا يؤمنون بألهة منفصلة. قال الهندوس أن إلهاً يتصف بصفات كذا وقال اليهود إن إلهاً يملك صفات كذا، وقال المجوس إن إلهاً يتحلى بصفات كيت وكيت. وقال بعض: أعبدوا آلهة جميع الأقوام للاستفادة منها جميعاً. فهكذا ظهر الشرك للعيان. ولكن الإسلام قال بأن إله المؤمنين والكفار واحد، وأن الإسلام لم يأت لقوم معين بل جاء للعالم كله. فيقول الله تعالى: ﴿يُوَقِّدُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ رَّيْثُونَةٍ لَا شَرِقَيَّةٍ وَلَا غَرْبَيَّةٍ﴾ (النور:

أي أنه لكل قوم وكل زمان، وأن أبواب الارقاء مفتوحة فيه للجميع. كذلك معا الإسلام تميزا عنصريا وقال بأن معيار العظمة هو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّقَائِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، إذا كان المرء تقىا فهو مكرّم عند الله مهما كان اخداره من قوم أدنى. إذن، فقد شطب الإسلام العنصرية ووضع الحد على الفرقـةـ الحـادـثـةـ بسببـ الأـديـانـ المـخـلـفـةـ.

يجب على الإخوة أن يتخذوا القرآن الكريم دستور عمل لهم

لقد تناولت آنفا ستة أوجه فقط للأفضلية من ٢٦ وجه، وقد اكتفيتُ بضرب  
مثال واحد من تلك الأوجه الستة، وأكتفي بها حالياً وسأناقش، إن وفقيه الله  
الذلّك، البقية لاحقاً، وأنصح الإخوة أن يتخدوا العمل بهذا الكتاب العظيم النظير  
نصب أعينهم. إن مفاهيم القرآن الكريم التي حاولت بيانها الآن لا يمكن لكتاب  
آخر أن يقدم مقابلها مفاهيم مثلها. يجب على الإخوة أن يهتموا بكتاب الله هذا  
بووجه خاص ويسعوا جاهدين للعمل به. لو كان الإنسان يملك أفضل الأشياء ولكنه  
لا يستخدمها فلن له أن يستفيد منها. فمثلاً إذا كان البئر موجوداً ولم نشرب منه  
كيف يخدم عطشنا. إذن إن أفضل الكتب موجود عندكم ولكنه سيكون مفيداً إذا  
استخدمناه فقط.

فَاحْدِثُوا فِي أَنفُسِكُمْ تَغْيِيرًا وَاسْعُوا جَاهِدِينَ لِإِصْلَاحِكُمْ، وَاقْتُلُوا بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ  
شَيْءٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ جَمَالُهُ عَلَى الْعَالَمِ، فَيَتَوَجَّهُوا إِلَى قِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ الطَّاهِرِ وَالْعَمَلِ  
بِهِ لَأَنَّهُ لَا نُورٌ وَلَا هُدَىٰ فِي أَيِّ كِتَابٍ سَوَاهُ.

## فضائل القرآن (٣)

الكتاب الفريد في كل مزية وفي كل صفة  
تعليه الإسلام الجامع عن الصدقات  
والعلاقات بين الرجل والمرأة

(خطاب ألقى في ٢٨/١٢/١٩٣٠ م)

( المناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الآيات التالية من سورة "عبس":

﴿عَبَسَ وَتَوَلََّ \* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى \* وَمَا يُدْرِيكَ لَعْلَهُ يَزَّكِي \* أَوْ يَذَّكِرُ  
فَتَنْفَعُهُ الدِّكْرُى \* أَمَّا مَنِ اسْتَعْنَى \* فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى \* وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكِي \*  
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى \* وَهُوَ يَخْشَى \* فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى \* كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ \*  
فَمَنْ شَاءَ ذَكْرَهُ \* فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ \* مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ \* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ \* كِرَامٍ  
بَرَّةٍ﴾ (عبس ٢-١٧).

كنت مصابا بالسعال من قبل ولكن الله تعالى وفقني للعمل في اليومين الأخيرين للجلسة. والآن أيضا لا أستطيع أن أرفع صوتي ولكن آمل بفضل الله تعالى أنه عندما تنشأ بعض السخونة في الحلق سوف يرتفع الصوت وسيصل إلى الإخوة جميعا، فلا تقلقا بل ابقو جالسين بهدوء.

### الرد على بعض الأسئلة من أحد الإخوة:

قبل أن أبدأ بالحديث حول موضوع اليوم، أريد أن أرد على بعض الأسئلة من أحد الإخوة وهي تتعلق بخطابي البارحة، أو يمكن القول إن منشأها ذلك الخطاب. الإجابة على هذه الأسئلة بحد ذاتها تحتاج إلى خطاب طويل منفصل ولكن لا يسعني أن أهمل الموضوع الذي جئت ناويًا بيانه بهذه المناسبة وأشرع في الرد على تلك الأسئلة وغيرها بالتفصيل. وإذا فعلت لكان مثلي كمثل شخص كان مشهورا بين الناس حيث يروى أنه كان يطيل الجلوس على شاطئ النهر، ومن طلب منه أن يوصلهم إلى جانب آخر من النهر أو صلهم. فذات مرة كان يحمل شخصا لهذا الغرض ولم يصل إلا إلى منتصف النهر إذ بشخص آخر يناديه ويقول: عندي مهمة طارئة فأرجو أن توصلني بسرعة، فأوقف الشخص الأول في منتصف النهر وعاد أدراجه ليحمل الشخص الثاني، وعندما حمله ناداه شخص ثالث وقال: أنا في عجلة من أمري فأرجو أن توصلني سريعا. فأقام الشخص الثاني أيضا في الماء وعاد ليحمل الشخص الثالث. لم يكن أحد منهم يعرف السباحة فجاءت موجة ماء فجأة فصرخ الشخص الأول: يا أيها المشهور أرجوك أن تنقذني. فأوقف الرجل الشخص الثالث الذي كان يحمله وأسرع لإنقاذ الأول، ولكنه لم يصل إليه وغرق الجميع.

إذن، لو تركت موضوعا محددا خطابي جانبا وتطرقت إلى الرد على أسئلة أخرى لألحقت بمنفسي الضرر بهدفي. يمكن أن يكسب المرء شعبية بهذه الطريقة ولكن لن يستفيد منه أحد. باختصار، لا أستطيع أن أرد على هذه الأسئلة الآن بالتفصيل ولكنني سأتحدث عنها قليلا بإيجاز.

## هل يمكن لمسلم أن يكون محكوماً أم لا؟

فمما سأله السائل: يجب ألا يكون المسلم محكوماً، فإذا كان الأحمديون مسلمين حقيقيين فتبين أنه ليس في العالم مسلم حُرّ. لماذا نرى الأمر على هذا النحو؟ الجواب على الجزء الأول من السؤال هو أنه لا يكون محكوم في الحقيقة سوى المسلم. المسلم يعني بتعبير آخر المطیع والمستسلم. فال المسلم محكوم ولكن للقانون، المسلم محكوم ولكن للصدق، المسلم محكوم ولكن للحق. فكلما نرى مسلماً محكوماً يجب أن نبحث هل محكوميته تطابق الإسلام أم تخالفه؟ فإذا كانت تعارض الإسلام سنقول: هذا لا يجوز، أما إذا كانت تتوافق مع الإسلام فسنقول إنه هو المؤمن الحقيقي. فإذا ثبت أن العيش في ظل حكومة غير مسلمة ينافي مبادئ الإسلام فلا بد من الاعتراف بأن عيش الأحمديين في حكومة الإنجليز يخالف الشريعة. أما إذا ثبت أن العيش في ظل حكومة غير مسلمة لا ينافي الإسلام فيجب الاعتراف أن عيش الأحمدية في حكومة الإنجليز لا ينافي الشريعة بل يطابق الإسلام تماماً.

يتبيّن من القرآن الكريم أن الإسلام ليس ديناً جاء به النبي ﷺ فقط، بل كل دين جاء به الأنبياء كلهم كان إسلاماً؛ فقد ورد في القرآن الكريم بحق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣٢).

إذن، كل دين جاء به الأنبياء السابقون كان إسلاماً بعينه. وكان من بين هؤلاء الأنبياء موسى عليه السلام الذي عاش تحت حكم فرعون، مع أن اسم فرعون أصبح في هذه الأيام شتيمةً. وكان من بين هؤلاء الأنبياء عيسى عليه السلام الذي عاش تحت حكم الرومان الذين كانت حكومتهم مشركة. إذن، لم يتضرر الأنبياء بعيشهم تحت ظل حكومات غير مسلمة، أما نحن فنعيش في ظل حكومة أهل الكتاب الذين هم أقرب إلينا من قرب هؤلاء الأنبياء إلى تلك الحكومات. فلو لم يتضرر إسلامهم مع عيشهم تحت تلك الحكومات لن يتضرر إسلامنا أيضاً. لم يكن الرومان ملتزمين بأية شريعة، ولم تكن لدى فرعون شريعة. والفرق الوحيد بين محكوميتهم ومحكميتنا هو

أئنا مُحَكَّمُونَ أَقْلَمُهُمْ. فإن لم يتضرر إسلامهم بتلك المُحَكَّمَةِ لَنْ يَتَضَرَّرْ إسلامُنَا أَيْضًا. لم يَأْمُرْ الإِسْلَامُ قَطُّ بِأَنَّهُ لَا يَحُوزُ مُسْلِمٌ أَنْ يَعِيشَ تَحْتَ ظِلِّ حُكْمَةِ غَيْرِ مُسْلِمَةٍ، عَلَمًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا عَاشَ إِلَى ١٣ عَامًا تَحْتَ قَوْانِينَ مُشَرِّكِيِّيَّةِ مَكَّةَ. أَمَّا الْقَوْلُ: إِذَا كَانَ الْأَحْمَدِيُّونَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْحَقِيقِيُّونَ فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهَا مُسْلِمٌ حَرُّ وَاحِدٌ، فَلَا أَقُولُ بِذَلِكَ. بَلْ أَعْتَدْتُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ عَبْدًا لِأَحَدٍ. مَنْ يَسْتَطِعُ أَنْ يُعَدِّ عَبْدًا مِنْ يَدِّيْعِيْ أَنَّهُ لَوْ أَكْرَهَهُ حُكْمَوْتُ الْعَالَمِ كُلِّهَا عَلَى قَبُولِ مَا يَعْرَضُ إِلَيْهِ إِلَّا مَا قَبْلَهُ؟ أَتَّى لَهُ أَنْ يُسَمِّيَ عَبْدًا. وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ سَيَقْبِلُ مَا يَعْرَضُ إِلَيْهِ إِلَّا إِذَا طَلَبَتْ مِنْهُ ذَلِكَ أَعْظَمُ دُولَةٍ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ لَيْسَ بِأَحْمَدِيٍّ. لَيْسَ هُنَاكَ أَيْ أَحْمَدِيٌّ عَبْدًا بَلْ كُلَّهُمْ أَحْرَارٌ.

### لِمَذَا نَالَ الْمَسِيحِيُّونَ الْحُكْمَةَ؟

الْسُّؤَالُ الثَّانِيُّ هُوَ أَنَّ الْحُكْمَةَ نُرْعِتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِسَبِّبِ عَدَمِ عَمَلِهِمْ بِتَعْالِيمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَكِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ أَيْضًا يَعْمَلُونَ بِخَلْافِ كِتَابِ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلِمَذَا مَا زَالُوا حَائِزِينَ عَلَى الْحُكْمَةِ؟

الْجَوابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالَ هُوَ أَنَّهُ إِذَا تَهَاوَنَ الْمَرْءُ وَتَكَاسَلَ مَعَ كُونِهِ حَارِسًا عَلَى الْكَنْزِ عَوْقَبَهُ. وَالْمَسِيحِيُّونَ لَيْسُوا حَارِسَيِّ الْكَنْزِ الرُّوْحَانِيِّيِّ بَلْ أُقْبِلُوا مِنَ الْحَرَاسَةِ بَعْدِ بَعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَكِّلَتْ تَلْكَ الْحَرَاسَةَ إِلَيْهِمْ نَتْيَاجَةً إِيمَانِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَإِذَا تَهَاوَنَ الْمُسْلِمُونَ الْآنَ عَوْقَبُهُمْ وَلَنْ يَعَاقَبَ الْمَسِيحِيُّونَ.

### أَيْةُ قُوَّةِ حَازَهَا الْمُسْلِمُونَ بِبَعْثَةِ الْمَسِيحِ الْمَوْعُودِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الْسُّؤَالُ الثَّالِثُ هُوَ: إِذَا نُرْعِتَ السُّلْطَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَتْيَاجَةً أَعْمَالِهِمُ الْسَّيِّئَةِ فَأَيِّ شُوكَةٍ مِنْهُمْ الْمَسِيحُ الْمَوْعُودُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ بَعْثَتِهِ؟ لَقَدْ مَضَتْ عَلَى بَعْثَتِهِ قِرَبَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا وَلَكِنْ بَعْثَتِهِ لَمْ يَمْنَحِ الْمُسْلِمِينَ أَيْةً حُكْمَةً؟

وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا حُكْمَةً، لَأَنَّهُ لَمْ يُعْطَ فِي عَهْدِ يَعْقُوبِ وَيُوسُفِ وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَعَدِيدُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْآخَرِينَ أَيْضًا. لَمْ يَنْلِ أَتَابَعِ عِيسَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحكومة إلى ثلاثة عام بعد بعثته. والسبب في ذلك يعود إلى أن هناك أنبياء مশرّعون وأنبياء غير مশرعين. ولما تكون مهمة النبي المشرع أنه يجعل أتباعه يعملون بأحكام الشريعة التي يعطها لها يهبه الله تعالى الحكومة في حياته، بينما لا يكون النبي غير المشرع مكلّفاً بأن يجعل أتباعه يعملون بأوامر لم يُعْمَل بها من قبل لذا يقدر الله تعالى في عهده فتح القلوب. هذا هو الفتح الذي أعطى الله المسيح الموعود عليه السلام.

### أمثال علي و خالد رضي الله عنهمَا

السؤال الرابع هو: لماذا لم تتمكن الأحمدية من خلق شخص واحد مثل علي أو خالد رضي الله عنهمَا حتى في أربعين أو خمسين عاماً؟

الرد عليه هو أن الجماعة الإسلامية الأحمدية مثيلة جماعة عيسى عليه السلام، وأقيمت لإنجاز ما أنجزت أمة عيسى عليه السلام، لذا لا يجوز البحث فيها عن أمثال خالد وعلي رضي الله عنهمَا لأنهما كانوا مؤمنين ببني مشرع. لقد جاء المسيح الموعود عليه السلام لترسيخ دعائم مغزى الشريعة، وهذه المهمة كانت تقتضي التضحية بالنفس، وقد نجحت الجماعة في هذه المهمة بفضل الله تعالى. فما يمكن أن نُسَأَل هو: كم من أمثال "بطرس" خلقت الأحمدية في الأربعين عاماً الماضية؟ ويمكننا أن نقول رداً على ذلك باليقين إنه قد كان في جماعة المسيح الموعود عليه السلام أفضل من بطرس بكثير دعك عن بطرس. أما بطرس فحين بُطّش به قال بكل صراحة: إني لا أعرف المسيح، ولكن عندما بُطّش بأحد أتباع المسيح الموعود عليه السلام لفظ أنفاسه تحت وابل من الحجارة ولم يرتد عن إيمانه. إذن، يمكننا أن نقدّم من جماعة المسيح الموعود عليه السلام أناساً قدموا التضحيات مثل المسيح الناصري عليه السلام. كما قبل المسيح عليه السلام أن يعلق على الصليب ولم يترك الحق، كذلك ضحّى خمسة أشخاص من جماعتنا في كابول بأرواحهم من أجل الصدق والحق. فيمكننا القول إن المسيح الموعود عليه السلام لم يخلق في جماعته أمثال حواريي المسيح الناصري عليه السلام بل خلقَ من قدموا التضحيات مثل تضحية المسيح الناصري نفسه.

## لم تبلغ دعوة الأحمدية إلى العالم كله إلى الآن

السؤال الخامس هو: لقد مضى عهد الخليفة الأول أيضاً بعد المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ، ونحن الآن في عهد الخليفة الثاني ومع ذلك لم يصل اسم المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ إلى العالم كله بينما وصله اسم "غاندي".

الجواب هو: العظمة الحقيقة ليست في ذيوع الاسم. يقال إن شخصاً تبول في بئر زمزم فبطش به الناس وأشبعوه ضرباً ولعنة. فقال الرجل: افعلوا ما شئتم فها قد تحققت بُعْيتي. سُأله الناس: ما هي بُعْيتك؟ قال: كنتُ أبتغى الشهرة، والناس قد حضروا هنا من العالم كله وعندما علموا بفعلتي هذه شتموني كثيراً وهم سيشيعون هذا الأمر حيثما ذهبوا، وبذلك سوف يذيع اسمي في العالم كله. إذن، الاسم يذيع على هذا النحو أيضاً، ولكن المراد من ذيوع الاسم على وجه الحقيقة هو انتشاره على الرغم من معارضة العالم. ماذا قال السيد "غاندي"؟ فقد قال ما يقوله كل هندي! كل هندي يتمنى بطبيعته أن يتحرر بلده، وهذا ما قاله غاندي. ولكن المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ أراد أن يُقنع العالم بما تركه الجميع ولا يريدون أن يتفوهوا حتى باسمه. إن مثل السيد غاندي كمثل سابع يسبح في النهر مع التيار، أما مثل المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ فهو كمثل سابع يسبح عكس التيار. لذا فإن سباحة المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ إلى ميل واحد فقط تفوق سباحة خمسين ميلاً من يسبح مع التيار. كان العالم في ذلك الزمن ينكر نزول الإلهام، وكان المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ يريد أن يُقنعهم بنزوله. كان العالم قد تخلى عن الدين أصلاً، وجاء المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ ليُلزّمهم به، فأين وجه المقارنة بين المسيح الموعود الصلی اللہ علیہ وسّلّمَ والسيد غاندي؟ تأملوا فيما يجري هذه الأيام مثلاً؛ تكون مداولاتي على النقيض من رغبات عامة الناس، فلا تنشر في جرائد الآخرين. ولو انتهجتُ أنا أيضاً منهجاً ينتهجه عامة الناس لشارت ضجة في الجرائد كلها على أن الخليفة قال كذا وكذا وهو رجل فطين ويحب الوطن كثيراً. ولكن ما دامت مداولاتي لا تتماشى مع رغباتهم فلا تنشرها الجرائد مهما كانت قوية ومدعومة

بالحجج والبراهين. لعل السائل لم يسمع قصة امرأة أوروبية يروى أنها قالت باكية عند وفاة زوجها إنه كان قد أعطى فلانا مبلغاً كذا وكذا ديننا فمن يسترد الآن دينه منه؟ فنهض شخص من أقاربها وقال: أنا أستردده. وهكذا ظلت تُعدّد الديون عند مدینيه وظل ذلك الرجل يقول: أنا أستردده، أنا أستردده. ثم قالت الأرملة: كان على المتوفى مبلغاً كذا وكذا ديننا لفلان، فمن يسدّه عنه؟ قال الرجل عندئذ: هل يتحتم على وحدي أن أتصدى لكل شيء؟ أليس هناك أحد سوائِي لي رد على هذا؟ فعلى غرار ذلك كان السيد غاندي يبحث على استرداد المبالغ فكان الهنود كلهم يقولون: نحن نستردّها. أما ما قاله المسيح الموعود صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتضي من المرء أن يدفع المبالغ من عنده إن صح التعبير، لذا يقول عامة الناس على هذا النداء: أليس هناك أحد سوائِي من يقوم بذلك؟ هل يتحتم على وحدي أن أتصدى لكل شيء؟ لقد قيل إن إنجازات السيد غاندي تجذب أنظار العالم والحكومة ترتعب حتى من اسمه. ولكن الحقيقة أن الحكومة لا ترتعب من غاندي بل ترتعب من الهند، وتدرك صعوبة سيطرة بضع مئات آلاف من الناس على ٣٣٠ مليون فرد من السكان. فالإنجليز يخافون هذا الأمر ولا يخافون غاندي.

## الوصايا

بعد الرد على الأسئلة أريد أن أوصي بشأن الأولاد الصغار. إن طلاب الجامعة الأحمدية والمدرسة العليا أصدروا العدد السنوي  مجلتيهم -وما دام مرض إصدار الأعداد السنوية منتشرًا في البلاد فلم يسلم منه هؤلاء الطلاب أيضًا- وقد طلبوا مني أن أوصي الإخوة بشرائهما. عندما كانوا على وشك إصدارها قلت لهم: إذا كانت المدرسة أو الجامعة الأحمدية قادرة على تداولها فأصدروها بكل سرور ولكن لا تطلبوا مني أن أوصي أفراد الجماعة بشرائهما. أما الآن فقد أصبحت هذه القضية مماثلة لقصة شخص من طائفة "البيهان"؛ يروى أن ابنه استعد للهجوم على أستاذة بالسيف، فقال أبوه للأستاذ: هذا أول هجوم يقوم به ابني العزيز فدعه يجرّب. فمع

أن شراء المجالات عبء على جيوبنا نحن ولكن لما كان هذا أول هجوم لأولادنا هؤلاء لذا أوصي بشراء مجالاتهم كلها، وذلك لأنهم أولاً يستحقون أن نقدر هجومهم لأنه الأول، وثانياً: قد منّوا علينا نوعاً ما قائلين إنهم كانوا مشغولين في ترتيبات الجلسة لذا لم يتمكنوا من بيع المجلة، وبذلك وجدوا عذراً. فأرجو من الإخوة أن يشجعواهم بشراء مجالاتهم كلها.

والآن أتحدث بإيجاز حول بعض الأمور التي تحدثت عنها بالأمس.

### ضرورة التعاون مع التجار الأحمديين في كل الأحوال

لقد قلت بالأمس إنه لا بد للمؤمن من اجتناب كل نوع من النار، من حيث الدين والدنيا. ولكن لما كان الوقت ضيقاً فاكتفيتُ ببيان مبادئ اجتنابها فقط وترك التفاصيل. والآن أريد أن أوجه أنظار أفراد الجماعة بوجه خاص إلى أمر واحد من بين تلك الأمور. إن كثيراً من الأمور التي لا يمكن أن ينجزها فرد واحد يمكن إنجازها بالتعاون. الأعمال العظيمة التي علينا إنجازها في العالم لا يمكن أن تتم ما لم نراقب الجماعة بشأنها في كل مجال على وجه صحيح. لقد حدد النبي ﷺ للذين أسروا في غزوة بدر فدية أن يعلّموا أولاد المسلمين. من المعلوم أنهم ما كان لهم أن يعلّموا تعليماً دينياً بل قادرون على تعليم علوم متداولة فقط. وقد دبر النبي ﷺ لتحصيلها ورأى التعليم الدنيوي أيضاً ضرورياً إلى جانب التعليم الديني. فمن واجبنا أن نختتم بتقدم الجماعة الدنيوي أيضاً إلى جانب التقدم الديني، غير أنه لا بد من تقديم الدين على الدنيا، وحيثما عرقلت الدنيا سبيلاً الدين وجب تركها.

السبيل الأمثل للتقدم الدنيوي هو التعاون المتبادل. لقد تعاون الأوروبيون فيما بينهم وحازوا التقدم، ولكن المسلمين ظلوا يتخاصمون فيما بينهم. حين شنت أوروبا مجتمعة هجوماً على المسلمين كان المسلمون متخاصمين فيما بينهم حينداك أيضاً. عندئذ حاكت الحكومة الباطنية مع المسيحيين مؤامرة أنها ستقتتل السلطان صلاح الدين وليهاجم المسيحيون المسلمين من الخارج. وما أسفت

عنه هذه المؤامرة هو واضح جليّ. باختصار، ما يمكن إنجازه بالتعاون المتبادل لا يمكن إنجازه بأي طريقة أخرى. فيمكن لجماعتنا أن تتقدم بالطريقة نفسها. والسبيل الأمثل لنيل هذا الهدف هو التعاون مع التجار. لا شك أن الفلاحين أيضا قد يكونون أثرياء ولكن الأثرياء الكبار أيضا لا يستطيعون أن يسيطروا على الأجانب ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ومقابل ذلك يمكن السيطرة على ثروة البلاد الأخرى بواسطة التجارة لأن التجارة يمكن أن تنتشر إلى أبعد شاسعة. لذا فإن مساعدة التجار ضرورية جدا. ولهذا الغرض أقترح حاليا أن نختار شيئاً معينا ونقرر بشأنه أننا سوف نشتريه من التجار الأحمديين فقط دون غيرهم. وبهذه الطريقة يمكن أن تتقدم تجارة ذلك الشيء في غضون عام واحد، كما يمكن مقاومة التجار الآخرين. لذا نأخذ على سبيل المثال الأدوات الرياضية التي تُصنع في مدينة سيالكوت. هذه الأدوات لا تُستعمل في الهند فقط بل تُورّد إلى بلاد خارجية أيضا مثل إنجلترا والنمسا وألمانيا وغيرها. وبواسطة هذه الصناعة يمكن أن تُخلب الأموال من بلاد أخرى. توجد في مدينة سيالكوت أربع أو خمس شركات للأحمديين، فيمكن في العام الحالي أن يشتري جميع الأحمديين ذوي النفوذ - سواء أكانوا مدرسين أو من مدراء المدارس أو كانت لهم صلة بنوادي الألعاب أو كانوا يتاجرون في أدوات رياضية أو كانت لهم علاقات مع أناس في المجالات المذكورة - الأدوات الرياضية كلها من شركات الأحمديين في مدينة سيالكوت. وأقول لأصحاب تلك الشركات أن يشكلوا لجنة لبيع الأدوات ولتكن أعضاؤها التجار في هذا المجال فقط لينال الجميع نصيبهم من الأرباح. بهذه المناسبة أريد أن أقدم هذا المشروع فقط. عندما يشكل التجار لجنة مثلها عندئذ سأعلن في الجريدة أنه يجب أن نسعى لبيع سلع هذه الشركة. وبذلك سوف نعرف مستوى الربح في غضون عام أو عامين. وإذا أحرز هؤلاء التجار تقدّماً فسيكون تقدّماً لجماعتنا على أية حال.

## اقتراح تشكيل شركة بحسب مبدأ التعاون المتبادل

كذلك يجب تشكيل شركة تعاونية يشترك فيها التجار والمزارعون وغيرهم. كنت قد وضعت لها بعض الأصول التي أُعجب بها الشودهري ظفر الله خان من الناحية القانونية وستنشر قريبا. سوف يحدد مبلغ معين يدفعه كل عضو من أعضائها كل شهر. والمبلغ الذي يجتمع بهذه الطريقة سيُشتري به عقار كرهن مقوض. ما دام الأحمديون لا يعرفون التجارة على مستوى أعلى لذا لن تُستثمر النقود فيها بل سيُشتري عقار بصورة رهن مقوض كما يُفعل بالنقود في صندوق الادخار للعاملين في "صدر أنجمن". إذا مات عضو من أعضاء الشركة سوف يدفع نصف الربح الحاصل منه أو ثلثه لورثته. وكذلك يكون المبلغ المجموع أيضا من حق ورثته. أريد أن أعلن عن هذا المشروع بإيجاز فقط وستنشر تفاصيله في الجريدة بعد الاستشارة، فعلى الإخوة أن يكونوا مستعدين له. والآن أتوجه إلى الموضوع الذي اخترته للخطاب هذا العام.

## أهمية موضوع فضائل القرآن

لقد تحدثت في العام المنصرم عن فضائل القرآن. يمكن للإخوة أن يقدّروا أهمية هذا الموضوع من أن أساس الإسلام هو أن القرآن الكريم أفضل من جميع الكتب الدينية والإلهامية في العالم، وإلا لا معنى لبعثة رسول الله ﷺ أصلا؛ إذ كانت الأديان موجودة في العالم قبل بعثته ﷺ أيضا. وإن لم يأت النبي ﷺ بشيء جديد فلم تكن لمجئه حاجة أصلا. أما إذا ثبتت أفضلية القرآن الكريم فلا تبقى للأديان الأخرى أية أهمية بل ينطبق عليها المثل القائل: "إذا حضر الماء بطل التيم". فلو ثبت أن القرآن الكريم بمنزلة الماء لتبين أن الكتب السابقة صارت متروكة، والكتاب الوحيد الجدير بالعمل به الآن هو القرآن.

لقد قلت من قبل إننا إذا أخذنا شيئا واحدا وأثبتنا أفضليته يمكن أن تثار شبهة أنّ الشيء المذكور قد لا يكون أفضل مقارنة بشيء لم يُذكّر. ولكننا إذا أثبتنا

الأفضلية من حيث المبدأ فلا بد من الاعتراف بأن القرآن الكريم أفضل جملة وتفصيلاً من كتب الله فاطبة.

لقد بيّنت في محاضري في العام الماضي ٢٦ وجهاً لأفضلية القرآن الكريم، وأثبتت أفضليته من ٦ أوجه فقط من بين الـ ٢٦ وبقيت العشرين الباقية كدَين عليٍّ، بل تحدثت بإيجاز شديد لضيق الوقت عن الوجهين الآخرين من الأوجه الستة أيضاً. لذا رأيت من المناسب أن أتحدث اليوم عن هذين الاثنين أيضاً بشيء من التفصيل.

### السعي للإيفاء بعهد قطعه المسيح الموعود الغٰيْلَةُ

الحق أن هذا الموضوع إيفاء بعهد قطعه المسيح الموعود الغٰيْلَةُ بتقديم ٣٠٠ دليل في البراهين الأحمدية على أفضلية القرآن الكريم<sup>١</sup> مع أنه الغٰيْلَةُ كتب في نهاية الجزء الرابع من البراهين الأحمدية:

"عندما أُلِفَّ هذا الكتاب بدايةً كان وضعه مختلفاً، ثم أُطلعني، أنا أُحقر العباد، التجلّي المباغثُ لقدرة الله وَعَجَّلَ - مثل موسى تماماً - على عالِمٍ ما كنت مطلعاً عليه من قبل. أي كنت أُتجول أنا العبد المتواضع أيضاً مثل ابن عمران في ليلة مظلمة لأفكارِي، إذ سمعت دفعة واحدة صوتاً من الغيب: "إني أنا ربُّك"، وكشفت الأسرار التي لم تكن في متناول العقل والتصور. فالآن إن وليَّ هذا الكتاب وكفيله ظاهراً وباطناً هو الله ربُّ العالمين، ولا أدرِي إلى أيِّ مدى وقدرٍ يريده وَعَجَّلَ إياصاه. والحق أن أنوار صدق الإسلام التي كشفها عليٌّ وَعَجَّلَ إلى الجزء الرابع من الكتاب، تكفي لإتمام الحجة."<sup>٢</sup>

ثم كتب الغٰيْلَةُ أيضاً بعد ذلك: "كنت أنوي أن أكتب ٣٠٠ دليل في "البراهين الأحمدية" لإثبات حقيقة الإسلام، ولكن حين تأملت في الموضوع توصلت إلى نتيجة

<sup>١</sup> الخزائن الروحانية، المجلد ١، البراهين الأحمدية، ص ١٢٩.

<sup>٢</sup> الخزائن الروحانية، المجلد ١، البراهين الأحمدية، ص ٦٧٣، الإعلان بعنوان: نحن وكتابنا.

أن هذين النوعين من الأدلة يقumen مقام آلاف الأدلة في الحقيقة. فصرف الله قلبي عن تلك الإرادة وشرحه لتحرير الأدلة المذكورة آنفاً.<sup>١</sup> فالأدلة التي وعد بها المسيح الموعود عليه السلام في البراهين الأحمدية كتبها في تأليفاته الأخرى. ولكن لا تدركها كل عين، لذا رأيت بيانها بالترتيب ضرورياً.

### خمسون وجهاً للأفضلية

ولكن عندما جلست لأخطط لتسديد هذا الدين وجدت أن الدين قد ازداد أكثر، وحين بدأت بكتابة رؤوس الأقلام تبيّن لي خمسون وجهاً للأفضلية بدلاً من ستة وعشرين. وبذلك بدا لي أنه بقي بدمتي أربع وأربعون وجهاً بدلاً من عشرين. فخطر بيالي أنني تمكّن بصعوبة بالغة من بيان ستة أوجه في العام الماضي ببذل وقت طويل فكيف يمكن بيان أربع وأربعين وجهاً لهذا العام؟ وإلى جانب ذلك ذهب وهلي إلى أن بعض الناس يملكون طبائع متوجهة لذا يمكنهم القول عني بأني قد أثبتتُ أفضلية القرآن الكريم ببيان أوجه الأفضلية كمبداً فقط ولم أطرق إلى تفاصيلها، فلا بد أن يكون وراء الأكمة ما وراءها، ولعل الحاضر لا يقدر على إثبات أفضلية القرآن الكريم بصورة كاملة، فانتقل ذهني إلى أن أتناول الآن التفصيل الذي لم يتم بيانه. وبذلك قد تفاقمت مهمتي أكثر ولن أستطيع إتمامها هذا العام حتماً. أما العام المقبل فلا أدرى ماذا سيلقي الله في قلبي للبيان، لذا سأبين الموضوع قدر الإمكان.

### القرآن الكريم هو الأفضل في كل ما قاله

لقد قلت من قبل إن أفضلية القرآن الكريم لا تكمن فقط فيما بينه إضافة على ما قالته الكتب السابقة الإلهامية بل هو أفضل مما هو موجود أيضاً في الكتب السابقة. وقد توصلت في أثناء التأمل إلى نتيجة أنه إذا ذكرت الكتب السابقة أسلوب تغيير

<sup>١</sup> الخزائن الروحانية، المجلد ٢١، ص ٦، مقدمة البراهين الأحمدية الجزء ٥،

اللباس مثلاً فقد بيّنه القرآن الكريم بأسلوب أفضل وأحسن منها. وإذا ورد فيها أمرٌ عن تناول الطعام فقد بيّنه القرآن الكريم بأسلوب أفضل منه. باختصار، لا تساوي الكتب السابقةُ القرآن الكريم حتى في أبسط الأمور التي ذكرها القرآن. وإذا أخذنا أبرز الأمور يثبت أن القرآن الكريم أفضل فيها أيضاً من الكتب الأخرى. بل لو أخذنا ما يخطر ببال الإنسان دون أدنى تفكير وتأمل، أستطيع أن أثبت كيف أظهر القرآن الكريم تعليماً أفضل حتى في أبسط الأمور على الرغم من وجود ذلك التعليم في الكتب السابقة. فلدرء شبّهات القائلين بأنَّ أفضلية القرآن قد لا ثبات من حيث التفاصيل، سأقدم مثالين اثنين وأبين كيف قدّمَهما القرآن الكريم بأسلوب جديد وعلمي.

### شمولية تعليم القرآن الكريم في الصدقات

أُقدم تعليم الصدقات كأول مثال. هذه ليست قضية روحانية بل هو أمرٌ طبيعي، فإن عاطفة المواساة المتبادلة موجودة حتى في الحيوانات فيواسي حيواناً آخر، ويواسي طائر طائراً آخر. فمثلاً إذا ضربتم غرابة يجتمع حوله عشرون غرابة صارخاً، وتُظهر حزناً على موته. وإذا وجد شخص يحمل غرابة ميتاً هاجمته وانتشلته منه. باختصار، إن عاطفة المواساة والإحسان إلى الآخرين مودعة في الحيوانات والطير أيضاً. إنما لا تملك نقوداً وإنما تملك منقاراً ولساناً فتبديي بما تملك العاطف. الناس يملكون الأموال والأشياء الأخرى التي يساعدون بها الآخرين. باختصار، إن قضية الصدقات بسيطة ومنتشرة على نطاقٍ واسعٍ فيجب ألا يكون التعليم عنها ناقصاً في أي دين بل ينبغي أن يكون كاملاً لأنماًه أمرٌ ظل الناس يعملون به منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، ولا يسع أحداً القول إنه إذا ثبتت أفضلية تعليم الإسلام فيه فلا تثبت أفضليته في تفاصيل أمور أخرى.

### تعليم الإنجيل عن الصدقة

عندما نقرأ تعليم الأديان المختلفة عن الصدقة نجد أموراً غريبة، فمثلاً جاء في الإنجيل: **فَقَالَ يَسُوعُ لِتلامِيذِهِ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ عَنِّي إِلَى**

مَلَكُوت السَّمَاوَاتِ! وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنَّ مُرُورَ جَهَنَّمَ مِنْ ثَقْبٍ إِبْرَةً أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ عَنِّي إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ! (إنجيل متى ١٩: ٢٣-٢٤)، وهذا يعني بحسب الإنجيل أنه ما لم يبذل المرء في سبيل الله جُلّ ماله لن يكون مقبولاً عنده عَنْكُنْ. وورد فيه أيضاً: إِنَّ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا فَادْهَبْ وَبَعْ أَمْلَاكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونُ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ. (إنجيل متى ١٩: ٢١)

ويقول المسيح عليه السلام عن الصدقات: أَمَّا أَنْتَ فَمَنْ صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعْرِفُ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينَكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتَكَ فِي الْخَيَاءِ. فَأَبْوَكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَيَاءِ هُوَ يُبَخِّرُكَ عَلَيْهِ. (إنجيل متى ٦: ٤-٣)

يتبيّن من هذه العبارات أن الإنجيل يقول عن الصدقات: أولاً: أن تعطي كل ما كان عنده. ثانياً: إذا تصدق فلتتصدق بخفاء حتى لا تعلم بها يدكم الأخرى أي الأقارب أو العاملون تحتكم أو المسؤولون فوقكم.

كل من هذين التعليمين يبدو جميلاً في الظاهر، ولكن إذا أعطى كل إنسان كلَّ ما عنده فمن يأخذه منه؟ ومثله كمثل كمثل تقليد أوجده المشايخ اسمه "الإسقاط" حيث يجلس بعض الناس في حلقة ويمسك أحدهم القرآن الكريم ثم يسلّمه إلى غيره قائلاً: أهديك ثوابه، وهذا الشخص يسلّمه إلى من يليه قائلاً الكلام نفسه ويظل القرآن الكريم يدور على هذا النحو حتى يصل إلى الشخص الأول. باختصار، لو تعمّقنا في تفصيل تعليم الإنجيل وافتراضنا جدلاً أن العالم كله بدأ العمل به لكان النتيجة أن مال زيدٍ يعود إليه في نهاية المطاف. إذن، هذا التعليم ليس جديراً بالعمل أصلاً. التعليم الجدير بالعمل هو الذي يمكن العمل به في كل حال.

كذلك الأمر القائل: أَمَّا أَنْتَ فَمَنْ صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعْرِفُ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينَكَ" يبدو جميلاً في الظاهر ولكن ضره أكثر من نفعه على صعيد الواقع. فمثلاً إذا كان الأب والابن ذاهبان إلى مكان ووُجداً في الطريق فقيراً يتضور جوعاً ويريد

الأب أن يتصدق عليه ويساعده ولكنه لا يستطيع أن يفعل لأن ابنه معه. ولأن تعليم الإنجيل هو: فَمَنْ صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعَرِّفُ شَمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَعْلَمُكَ. فمادا يفعل الأب؟ لا بد أن يصرف ابنه ليعطي الفقير شيئاً في غيابه، أما الابن فسيزعم أن أباً يريد إبعاده ليكتم بخله، فلن يتبعده عنه وبالتالي يحرم الفقير من المساعدة. كذلك ستكون النتيجة الثانية لهذا التعليم أن الحسنة ستتلاشى من المجتمع. معلوم أن الناس يقلدون بعضهم ويتعلمون الابن خاصة من الأب كثيراً. ففي هذه الحالة سيكون هناك كثير من الأبناء الذين سيقولون إن أباً قاسي القلب وليس فيه شائبة من الرحمة، وكثير منهم سيتعودون على البخل تقليداً لآبائهم، وسيقول كثير منهم إن أباً أحسن صنعاً فلن نعطي نحن أيضاً أحداً شيئاً ولو مات جوعاً أمامنا. باختصار، إذا شرحنا هذا التعليم أكثر ثبت أنه خطير وضار جداً بالعالم.

### تعليم التوراة عن الصدقات

إذا نظرنا إلى تعليم التوراة وجدنا أنها لا تقول إن عليكم أن تتصدقوا بكل ما عندكم بل تعليم عن الصدقات أنه يجب رفع معاناة المنكوب، أي أن غاية الصدقات عند التوراة هي رفع معاناة المنكوبين. ثم تقول إن للصدقة نوعين أو هما الصدقة الواجبة والثانوية هي التطوعية. لا شك أن هذا التعليم أفضل من تعليم الإنجيل وأن كلا النوعين من الصدقة ضروري. لا شك أن التصدق من منطلق الرحمة ضروري ولكن إذا أُعطيت الصدقة من منطلق الرحمة حسراً فقد تسفر عن نتيجة سيئة، أي تنشئ الكبر والزهو. فإذا ظن المرء أنه غني وفلان فقير وأنه يساعد فقيراً فهذا يؤدي إلى نشوء الكبر لأن المتصدق يظن أن فلاناً محتاج إليه مع أن كل إنسان في العالم محتاج إلى غيره. يُظَن من منظور دنيوي أن الملوك أكبر الناس، ولكن الملوك أيضاً يصبحون ملوكاً بسبب الذين تحتهم، وهم يحتاجون إليهم. إن زعم المرء أنه فوق الجميع وأنه ليس بحاجة إلى أحد بل الآخرون محتاجون إليه فهذا يقضي على حياته الروحانية ويعده عن الله تعالى. لذا يجب أن تنشأ في ذهنه بدلاً من ذلك فكرة أنه

إذا ساعد أحدا فهو لم يساعد شخصا آخر بل ساعد نفسه في الحقيقة. وهذه الفكرة لا تنشأ إلا إذا فرّق المعطي أن ما أعطاه كان حقاً للمعطى، أو كان لفائدة المعطي نفسه. انظروا مثلاً أن الأمّ عندما ترضع ابنها فلا تفعل ذلك بعاطفة الرحمة به بل تفعل نتيجة عاطفتها الفطرية، غير أنها إذا أرضعت ولدا غير ابنها ففي هذه الحالة ترضعه بداعٍ عاطفة الرحمة. لا بد أن تكون هناك أمهات كثيرات لو قيل لهن إنكِ أرضعتنّ أبناءكِ إلى ستة أشهر وبذلك قد رحّمتنهما بما فيه الكفاية فيمكن أن تتوقفن عن إرضاعهم الآن، لخاصمن القائل بدلاً من فطام أبنائهن، لأنهن يرضعنهم نتيجة عاطفة فطرية وليس رحمةً بهم.

### تعليم الفيدات عن الصدقة

والآن أتوجه إلى الفيدات. قد يظن الذين لم يقرؤوا الفيدات أنها تقع في مجلدات ضخمة، فلعلها تحتوي على أحكام عظيمة وكثيرة. ولكن الحقيقة أنها لا تشتمل إلا على أحكام قليلة جداً، وإن كانت الصدقات مذكورة فيها على أية حال، حيث تقول الفيدات إنه إذا سأله شخص من فئة "برهمن" العرقية بقرةً فليعطيها، ومن لم يعطه كان مذنباً ومن منع أحداً من إعطائه كان مذنباً كذلك. وهذا يعني: (١) أنها تحرض على السؤال، (٢) تجعل إعطاء الصدقة مقتضراً على قوم واحد، (٣) تكره الناس على إعطاء "برهمن" البقرة سواءً كان المرء قادرًا على ذلك أم لا، وحتى لو مات أولاده جوعاً. وما كانت فئة "برهمن" قوية بين الهندوس لذا عدّت الفيدات التصدق على "برهمن" هي الصدقة الحقيقة. وإلى جانب ذلك، مهما كان أحد فقيراً - وإن كان حليب زوجته قد جفّ وكان أولاده يعيشون فقط على لبن بقرة يملكونها - فهو مع ذلك مأمور بأن يسلّم بقرته إلى "برهمن" فوراً إذا طلبها، وإلا سيكون مذنباً ذنباً كبيراً وسيتحطم كل ما يملكه.<sup>١</sup>

<sup>١</sup> The Hymns of the Athara-Veda, Vol II P 120 Book XII, Hymn IV Bebaras, Published 1917.

اقرأوا هذه التعاليم كلها، تجدونها لا تقدم تعليماً كاملاً حتى في أمر بسيط وعادي مثل الصدقات. والذين لا يتبعون أيّ دين تدفعهم رغباتهم الشخصية فقط إلى أن ينفقوا على أحد إذا شاؤوا وإلا فلا، بمعنى أن الإنسان لم يضع قانوناً عن الصدقات بناءً على تجربته بل سنته بعض الأديان ولكن تركته ناقصاً. لا نقول إن موسى أو المسيح الناصري عليهما السلام أو رجال الدين في الهند أعطوا تعليماً ناقصاً وغير مكتمل كما هو الآن، بل نقول إن تعليم تلك الأديان الموجود حالياً هو الناقص. وإذا كان زعماء تلك الأديان أعطوا هذا التعليم فهو ناقص، أما إذا وضعه أتباع تلك الأديان فهذا يعني أن كتبهم الدينية والإلهامية ناقصة.

### قول معلّمي الأخلاق: يجب كسب الحسنة من أجل الحسنة

الذين وضعوا التعليم بأنفسهم عن الصدقات ويسمّون معلّمي الأخلاق قالوا إن الأصل في الموضوع أن تُكسب الحسنة من أجل الحسنة، ولم يجدوا شيئاً آخر عن الصدقات. سوف نضع قولهم هذا في الحسبان ثم سنرى هل أعطى الإسلام تعليماً أفضل منه أم لا؟ نقبل حالياً أن هذا التعليم جيد. ولكن السؤال هو: هل يصلح هذا التعليم لكل مكان وزمان؟ وهل يمكن لكل شخص أن يعمل به؟ فإذا قلتم: تصدقوا عندما يمكنكم القيام بفعل التصدق، فلن يتصدق الذين لا يستطيعون أن يتصدقوا على هذا النحو. وبالنتيجة سيموت القراء جوعاً لعدم حيازتهم على أموال الصدقات، لأن الذين لا يستطيعون أن يتصدقوا من أجل الصدقات لن يتصدقوا أبداً، وسيقولون: ما دمنا لا نستطيع أن نتصدق من أجل الصدقة فلماذا نضيع أموالنا؟ وحين لن يتصدقوا لهذا السبب سوف يتضرر القراء.

### الإسلام يلقي الضوء على جوانب الصدقة المختلفة

والآن أبين كيف جعل الإسلام الصدقات موضوعاً علمياً.

## مقدار الصدقة

الأمر الأول هو مقدار الصدقة، وبأي قدر يجب دفعه؟ يقول الإنجيل حول هذا الموضوع أن ادفعوا كل ما كان عندكم. ويقول الفيدا: كل ما طلبه "برهمن" فأعطيوه دون أدنى تردّد ونقاش. ولكن الإسلام حدد مقدار الصدقة فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَعْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا \* إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ حَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١-٣٠)، أي أيها الناس! نأمركم لا تبخّلوا ولا تبسطوا أيديكم إلى درجة أن يأخذ أموالكم كل من يشاء. أي لا تعملوا كما يقول الإنجيل أن اعطوا كل ما تملكون، ولا تعملوا بحسب تعليم الفلاسفة الأوروبيين القائل بأن الصدقات تؤدي بالناس إلى الكسل فلا تدفعوها. إذن، يقول القسّيس أن اعطوا كل ما تملكون، ويقول الفلاسفة بعدم دفع الصدقات نهائيا. على أية حال، كلا هذين التعليمين موجود. ينظر القرآن الكريم إلى كليهما ثم يقول: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَعْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، أي لا تتنجعوا عن الصدقة قائلين بأن الصدقة تفسد عادات الناس وتجعلهم كسالٍ فيتحاشون الجهد والمشقة، ولا تتصدقوا بكل ما عندكم. ولو فعل أحد ذلك لأسرف فعله عن نتيجتين: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾. إن مزية القرآن الكريم هي أن ما يقوله يأتي عليه بدليل أيضا. فقال ما مفاده: لو لم تتصدق وقلت إن الفلاسفة يمنعون عنها، لأسرف ذلك عن نتيجتين: ﴿فَنَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ أي سيلومك ضميرك وسيلومك الصغار والكبار جميعا ويقولون إنك سلكت سلوكا سيئا إذ لم تطعم الجائع ولم تساعد الحاج والفقير.

ثم بين الله تعالى أمرا ثانيا وهو: لا تنفقوا كل شيء، مع أن الإنجيل أمر بإنفاق كل شيء. لماذا خالف القرآن الإنجيل في هذا القول؟ فقد قدّم على ذلك دليلا: ﴿فَنَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

حسر الشيء: كشفه. حسر الغصن: قشره. حسر البعير: ساقه حتى أعياه. كما أن الشجرة تحف نتيجة إزالة قشرها السميك، كذلك لو سيق الحيوان إلى حد الإعياء فقدان القدرة على المشي لما قدر على المشي أكثر. فقال تعالى: مهما أعطيتم المحتاجين سيفقى المحتاجون في العالم على أية حال. إذا أنفقتم اليوم كل ما تملكونه وأصبحتم مثل بعير أعياه السفر والتعب أو أصبحتم مثل شجرة منزوعة القشر فماذا ستفعلون غدا. كما أن الإنسان يحتاج إلى الأكل والشرب كل يوم، كذلك هو حال الأعمال الروحانية. فمن أراد أن يأخذ نصيبا من البر والتقوى كل يوم يتحتم عليه أن يحفظ عنده أيضا ماله لينمو عنده ثم ينفق على المحتاجين ثم ينمو ماله ثم ينفق. في أوروبا تجارة يستثمرون عشرة ملايين روبية مثلا في التجارة ويربحون عدة ملايين ومن ثم يتصدقون بمبالغ هائلة. ولو بذلوا كل ما عندهم دفعة واحدة وما أبقو عندهم رأس المال أتى كان لهم أن يكسبوا أرباحا وأنى كان لهم أن يدفعوا مبالغ هائلة مرة بعد أخرى في مشاريع خيرية؟ فيقول تعالى: لا تنفقوا كل شيء لينفذ كل ما عندكم فتلاشى إمكانية نمو المال من جديد. فلو فعلتم ذلك لكان مثلكم كمثل سائر عند الإنجليز يقول إن شخصا قتل دجاجته للحصول منها على بضعة من الذهب. يرى أنه كان لدى شخص دجاجة تبيض كل يوم بضعة ذهبية فراودت صاحبها فكرة أنه لو أطعمنها أكثر لعلها تبيض بيتين كل يوم، ففعل ذلك فماتت الدجاجة نتيجة الأكل الكبير.

فلو عمل الإنسان بالتعليم القائل بإنفاق كل شيء دفعة واحدة لحرم من الإنفاق في المستقبل ولما قدر على استخدام مؤهلاته.

ومن معاني "الحسر": العري أيضا. وعلى ذلك يكون معنى "محسورة": سيصبح عاريا. ومن كان عاريا عجز عن المشي والجري هنا وهناك، واضطر إلى الانزواء في بيته. فيقول الله تعالى: لو أنفقتم كل ما عندكم لاضطربتم إلى الانزواء في بيتكم عاطلين ولن تقدروا على فعل شيء.

هنا ينشأ سؤال آخر وهو: ماذا علينا فعله إذا رأينا المحتاجين في العالم؟ وكيف يمكننا أن ننفق نصيباً من المال ونحتفظ بالباقي؟ يقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ حَسِيرًا﴾. أي عندما يحوز أحد ثروة فإنما يحوزها بحسب قانون وضعناه، ولا نعطي الثروة إلا لمن كان يملك موهبة لكتابتها. وإذا عطل هؤلاء الموهوبون لحدث دمار في العالم.

الذين يزدحرون ويتقدمون تكون فيهم قدرة معينة على النمو، وإذا أخذ منهم جل مالهم وزع بين الفقراء والمحتاجين وكانت النتيجة أن القادرين على كسب المال لن يقدروا على كسبه وسيدمر البلد كله. فيقول الله تعالى بأن الذين نعطيهم الثروة إنما نعطيهم بحسب قانون أن لديهم مواهب للتقدم ولكن يتقدموا ويزدحرون. ولما كان إنفاق هؤلاء الناس كل ما يملكونه يسبب هلاك القوم فلا نسمح بذلك. إنهم بارعون في أمور الصناعة والتجارة وما شابه، ولو أخذ منهم جل مالهم وزع على الفقراء لما استطاعوا التقدم. أما الفقراء والمحتاجون فسيأكلون كل ما سيقع في أيديهم، ولكن التاجر يستمر ماله ويربح ويكتسب أكثر. ثم ينفق من الربح على نفسه وعلى الفقراء. أما القول بأنه مع ذلك يكون هناك أناس تهيج فيهم عواطف الرحمة بالنظر إليهم فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ حَسِيرًا﴾ أي نحن نعلم بظروف عبادنا لذا قد دبرنا أمورهم على هذا النحو، ولا تستطعون أن ترجموا العباد أكثر منا فنحن نعلم بأوضاعهم أكثر منكم فوضعنا القوانين نظراً إلى ظروفهم.

ومن معاني التعبير: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقَكَ﴾: إن عدم الإنفاق أيضاً يهلك القوم، بمعنى أن قوة العمل تتلاشى في القوم لأنه قد يكون من المحتاجين من هم قادرون على العمل، فيجب أن يزودوا بالأموال. فلو لم يتم النهوض بالفقراء لضعف الأغنياء أيضاً، أي أن عدم النهوض بالفقراء يتسبب في احتطاط الأغنياء.

ولو قُضي على الأغنياء لبقي الفقراء بلا سند. إذن، إن وجود الأغنياء ضروري، وواجب عليهم أن يساعدوا الفقراء. انظروا كيف بين الإسلام مقدار الإنفاق وأتى عليه بالدليل.

### النصيحة لا جتناب التبذير والبخل

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُلُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان: ٦٨)، فقد بين الله في هذه الآية أن عبادنا يكونون في حالة وسطى. الذين نعطيهم المال والثروة يتحتم عليهم ألا ينفقوا جُل مالهم على أنفسهم، وألا يعطوه كله الآخرين بل يجب أن يسلكوا مسلكا وسطا؛ أي لينفقوا جزءا من أموالهم على الآخرين وجزءا منها على أنفسهم.

لقد سمح الإسلام أن ينفق المرء جزءا من ماله على نفسه، بل إن عدم إنفاق المرء على نفسه يعَد ذنبا عند الله أحيانا. اعترض بعض الناس على المسيح الموعود الله وقالوا إنه يستخدم زيت اللوز والمسك والعنبر وما شابهها. فكان الله يقول ردّا على ذلك إن السيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله كان يلبس لباسا ثمنه ألف دينار، أي إن ثمن لباس واحد له كان يبلغ ١٦٠٠٠ روبية. وعندما سأله شخص عن ذلك قال: لا أكل ما لم يأمرني الله قائلا: يا عبد القادر أستحلفك بنفسك أن تأكل. ولا ألبس لباسا ما لم يقل الله لي: يا عبد القادر أستحلفك بذاتي أن تلبس لباسا كذا.<sup>١</sup>

كان المسيح الموعود الله يقوم بأعمال تقتضي جهدا دماغيا، والمعلوم أن الذي يقوم بأعمال من هذا القبيل يكون أحوج الناس إلى المقويات. فلو لم ينفق الإنسان مثله على نفسه لكان مذنبا. ذات مرة خرج رسول الله الله للجهاد في شهر رمضان، وصام بعض الناس وأفطر بعضهم. عندما وصل الركب إلى الغاية المنشودة استلقى

<sup>١</sup> تذكرة الأولياء.

الصائمون، وانصرف المفطرون إلى نصب الخيم والأعمال الأخرى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَهَبَ الْمُفْطَرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَخْرِ.<sup>١</sup>

باختصار، يقول الإسلام بأنه إذا كان الأكل مفيدة ويساعد على خدمة الدين، فمن لم يأكل طعاماً جيداً في هذه الحالة كان مذنباً. عندما كان النبي ﷺ ينام ليلاً كان الناس من حارات مختلفة يحرسون بيته بالتناوب. والسماح بذلك كان عائداً إلى النبي ﷺ، وكان واجباً على الصحابة أن يدبّروا حراسته ليلاً لأن الهجوم على النبي ﷺ كان سيؤدي إلى الإضرار بالإسلام، لذا لا يجوز لأحد أن يقول بأنه ﷺ كان يضع لنفسه الحراسة لظهور كونه ملكاً، والعياذ بالله. فحراسة النبي ﷺ كانت ضرورية، ولو لم يضع ﷺ الحراسة لنفسه لكان مسؤولاً عند الله.

### التعليم عن توزيع الصدقات

يقول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا \* إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِحْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧-٢٨).

لقد ذُكرت في هاتين الآيتين الأمور التالية:

- ١- يجب على الإنسان ألا يُبَدِّر ثروته كلها بل يجب أن يحتفظ بها لأهله وعياله أيضاً، أي يجب ألا يتصدق بكل ماله بل ليتصدق بجزء منه.
- ٢- يجب ألا يتصدق بما لا ينفع الآخرين. إن معنى "التبذير" هو التُّرُثُ. فمثلاً إذا جاء أحداً عشرة جياع وهو لا يملك إلا رغيفاً واحداً، فلو قطعه إلى عشر قطعٍ وأعطى كل واحد منهم قطعة واحدة فلن تنفع أحداً منهم شيئاً. ولكن لو أعطى أحدهم ذلك الرغيف واعتذر من الآخرين لكان أفضل. كذلك إذا مرض كثير من الناس ولم يتتوفر إلا قدر قليل جداً من "الكينين" ثم أُعطي الجميع جُزئية بسيطة منه

<sup>١</sup> صحيح مسلم، كتاب الصيام.

فلن تنفع أحدا، أما إذا أُعطي أحدهم بكماله فسيفيفيه. إذن، يأمر الله تعالى أولاً لا يوزع المرء بخل ماله. وثانياً: فليوزع بأسلوب ينتفع به المنفق عليه. ومن لم يفعل ذلك فقال يَعْلَمُ اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي أن الإنفاق بهذه الطريقة لن ينفع أحدا وسيؤدي إلى عدم الشكر.

### الحكمة في القول: **﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾**

لم يقل الله تعالى هنا إن المبدرين شياطين، بل قال: **﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾**. والسبب في ذلك أن المنفق فعل ذلك بحسن النية إذ أعطى الكثيرين بدلاً من إعطاء شخص واحد فقط. ولكن الحقيقة أن فعله هذا لم يكن مستحسناً، لذا إن فعله هذا ليس من عدم الشكر في الحقيقة بل يماثل عدم الشكر على أية حال. لقد عَدَ الله تعالى توزيع المرء شيئاً قليلاً على أناس كثيرين -بحيث لا ينتفع به أحد منهم- عدم الشكر، وقال إن السبب وراء ذلك هو أننا أعطيناه النعمة لهدف معين ولكنه وزعها بأسلوب لم يُجِدِّ نفعاً، وبذلك أبطل ذلك الهدف. الهدف هو أن المال يأتي إلى المهووبين، وجعل المهووبين قادرين على العمل ضروري للقوم. فمثلاً إذا وزع صناعٌ ماهر متقن عمله أدواته على الآخرين لتوقف عمله، ولن ينتفع الآخرون أيضاً شيئاً. أما لو ظل مشتغلاً في عمله محافظاً على أدواته وأنفق على الآخرين مما كسبه لكان ذلك مفيداً جداً.

### الأسلوب الأنسب للتصدق

لقد بين الإسلام الطريق للتصدق وهو: **﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾** (البقرة: ٢٧٥)، لقد أُمر في هذه الآية، أولاً: أن تتصدقوا سرّاً، وثانياً: أن تتصدقوا علينا. هنا يمكن مقارنة تعليم الإنجيل من منطلق أسلوب توزيع الأموال، فقد قيل فيه: "فَمَئَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعْرِفُ بِمَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْحُكْمَاءِ". **﴾إِنْجِيلُ مَتَّى ٦ : ٤-٣﴾**

ولكن القرآن الكريم يقول، يجب أن تنفقوا سرّاً تارة وعلنا تارة أخرى ليعلمها الجميع. ثم ذكر السبب أيضاً وراء الإنفاق سراً وعلانية فقال: ﴿إِنْ تُبْدِوا الصَّدَقَاتِ فَيُعْمَلَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنَّ كَفِرَ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ إِيمَانَ الْمُعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، ففي الأسلوب الثاني للصدقة بين الحكمة الكامنة في الأسلوب الأول أيضاً. فلما قال إن الإنفاق سرّاً خير لكم، قال إلى جانب ذلك إن في الإنفاق علانية خير للآخرين، لأن الناس عندما يرون غيرهم يتصدقون يقولون في أنفسهم إن هذا فعل حسنٌ ويقلدوهم. انظروا مثلاً إلى المعجبين بأوروبا أنهم يلبسون من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ما يلبسه أهل أوروبا. في الزمن الذي كان المسلمين يحكمون الهند كان الهندوس يلبسون العباءات مثل المسلمين، بل المناطق التي يكثر فيها المسلمين يلبس الهندوس فيها إلى يومنا هذا مثل المسلمين تماماً كما هو الحال في إقليم "سرحد" و"السيند".

ذات مرة كان تاجر من السندي من السفر معنا وكان لا يلبس المسلمين تماماً حتى ظنته مسلماً. عندما بدأنا أكل الطعام دعاه جدنا من الأئمّة -الذي كان يرافقنا في السفر- ولكنه لم يأكل معنا. وعندما أوضح على النزول قال معتذراً: أنا شخصياً لا أرى مانعاً في الأكل مع المسلمين ولكن غيري يستاؤون من ذلك. عندها علمنا أنه لم يكن مسلماً بل كان هندوسياً. إذن، الإنسان يقلد الآخرين في بعض أعمالهم. لقد قال رسول الله ﷺ: كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته. أي لدى كل راعٍ بعض الشياطين التي تبعه. فلو أنفق أحد علينا لتبعه في التصدق أولاده وإخوته وأقاربه ومربيده وخدماته وأصدقاؤه ومعارفه.

الفائدة الثانية هي أن هذا السلوك سينفع الأجيال المستقبلية، وسيعتاد الأولاد على الصدقات. فعندما يرون كبارهم يتصدقون سيدركون أن هذا عمل حسنٌ ويشرعون في التصدق بأنفسهم ويتلقون تربية حسنة تلقائياً.

الفائدة الثالثة هي أن الناس لا يعرفون أحياناً أن فلاناً محتاج إلى المساعدة. قد أعرف أنا عن محتاج في حارتي أو بلدي أو مدينتي ولكن لا يعرف احتياجـه الآخرون. فإذا أعطيـت أحدـا شيئاً وقلـت له أن يسلـمـه إلى فلان فسيخـطـر بيـه تلقـائـياً فـكـرة المسـاعـدة دون الإعلـان بـهـذا الأمرـ، فـهـذه فـوـائدـ التـصـدقـ عـلـنـاـ.

كـذـلـكـ لو تـصـدقـ المـرـءـ سـرـاـ لـكـانـ خـيـراـ لـمـتـصـدقـ نـفـسـهـ لأنـ ذـلـكـ لـنـ يـخـلـقـ فـيـهـ رـيـاءـ يـمـكـنـ أـنـ يـنـشـأـ فـيـ حـالـةـ الإـنـفـاقـ جـهـراـ.ـ وـالـذـيـ يـنـفـقـ سـرـاـ حـتـىـ لـاـ يـتـولـدـ فـيـ نـفـسـهـ الـرـيـاءـ،ـ لـنـ يـتـولـدـ عـنـدـ الـرـيـاءـ حـتـىـ عـنـدـ إـنـفـاقـهـ جـهـراـ لـأـنـهـ ظـلـ يـنـفـقـ سـرـاـ خـشـيـةـ الـرـيـاءـ.ـ الـرـيـاءـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـولـدـ فـيـ الـذـيـ يـنـفـقـ عـلـنـاـ فـقـطـ.

ثم بين الله تعالى بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ أن الإنفاق سـرـاـ مـفـيدـ لـكـمـ وـلـلـفـقـرـاءـ الـذـيـنـ تـنـفـقـونـ عـلـيـهـمـ أـيـضاـ،ـ لأنـ ذـلـكـ يـحـافـظـ عـلـىـ كـرـامـتـهـمـ وـلـاـ يـتـعـرـضـونـ لـلـخـجلـ.ـ باختـصارـ،ـ إـنـ الـصـدـقـةـ سـرـاـ تـنـفـعـ الـمـتـصـدـقـ لـأـنـهـ يـجـتـنـبـ الـرـيـاءـ،ـ وـيـنـفـعـ مـتـلـقـيـهـ لـأـنـهـ لـاـ يـتـعـرـضـ لـلـخـجلـ.

### أنواع الصدقة

الأمر الثالث عن الصدقة هو أن الإسلام جعل لها أنواعاً. أحد أنواعها إلزامي كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتُّوِّلُ الزَّكَاةَ﴾، أي التزموا بالصلوة جماعة وبشروطها وأدوا الزكاة. ثم بين نوعين لهذه الصدقة الإلزامية. الأول: الإلزامي المؤقت مثل الجهاد، أي إذا اقتضت الحاجةً للجهاد تختتم على القوم أن يضخمو بأموالهم. الثاني: الإلزامي الواجب والدائم مثل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ (التوبـةـ: ١٠٣ـ)،ـ المرادـ هـنـاـ هـوـ الزـكـاـةـ.ـ وـهـنـاكـ صـدـقـةـ مـؤـقـتـةـ وـغـيـرـ مـحدـدـةـ،ـ أـيـ لـمـ تـحدـدـ الشـرـيـعـةـ مـقـدـارـهـاـ وـلـكـنـهـاـ أـمـرـتـ بـأـنـ دـفـعـهـاـ وـاجـبـ فـيـ وـقـتـ كـذـاـ.ـ لـقـدـ خـدـدـ النـصـابـ فـيـ الصـدـقـةـ الـوـاجـبـ وـهـوـ جـزـءـ وـاحـدـ مـنـ أـرـبـعـينـ أـوـ عـدـدـ كـذـاـ وـكـذـاـ مـنـ الـأـنـعـامـ.ـ وـلـكـنـ الـأـمـرـ عـنـدـ الـجـهـادـ هـوـ أـنـ تـدـفـعـوـ بـقـدـرـ اـسـتـطـاعـتـكـمـ.ـ قـالـ سـيـدـنـاـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ذـاتـ مـرـةـ عـنـ مـنـاسـبـةـ الـجـهـادـ:ـ أـمـرـنـاـ رـسـوـلـ اللـهـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ تـنـصـدـقـ فـوـافـقـ ذـلـكـ عـنـدـيـ مـاـلـاـ فـقـلـتـ

الْيَوْمَ أَسْيِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَا لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قُلْتُ مِثْلُهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ وَاللَّهُ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبْدَاً.<sup>١</sup>

قد يقول قائل هنا: ماذا ترك أبو بكر رضي الله عنه لأهله حين جاء بكل ما عنده؟ فليكن معلوما هنا أن المراد من كل ما عنده هو ما كان في بيته. كان رضي الله عنه تاجرا ولم يأت بمال كان متداولا في التجارة ولم يبع منزله أيضا.

لقد ورد ذكر إنفاق المال عند الجهاد في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي أنفقوا أموالكم في الحروب وإن لم تفعلوا فسينتصر العدو وتدمرُون.

ثم هناك صدقة بالخير، وقد ورد ذكرها في آية أخرى في السورة نفسها: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ حَيْرٍ فَلِلَّهِ الْدِيَنُ وَالْأَفْرِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: ٢١٦)، كلما سُنحت فرصة وأردتم الإنفاق في سبيل الله فلهم أن تنفقوا على والديكم وأقاربكم واليتمى والمساكين والمسافرين. لقد خير الله سبعين المتصدق في هذه الصدقة. وفي آية أخرى أشار عجمي إلى صدقة بالخير وصدقة إلزامية فقال: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ \* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٥-٢٦)، لقد بين الله تعالى في كلمة ﴿مَعْلُومٌ﴾ أن مقدار هذه الصدقة محدد أي أن الإعطاء بقدر كذا وكذا ضروري، أو يكون وقت الإنفاق محددا؛ أي أن إنفاق شيء في هذا الوقت واجب عليكم. فقال: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ \* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. أي من واجبكم أن تنفقوا بقدر كذا وكذا. وقال عن الإنفاق غير المحدد: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠)، هنا لم يورد الله تعالى كلمة ﴿مَعْلُومٌ﴾. يقول بعض الناس إن القرآن اهتم بالسجع فقط، بينما لو كان الأمر مقتضرا على السجع فقط

<sup>١</sup> سنن الترمذى، أبواب المناقب عن رسول الله.

لوردت هنا أيضاً كلمة **«مَعْلُومٌ»** مع **«مَحْرُومٌ»** كما في سورة المعارج، ولكنها حُذفت في سورة الداريات لأن فيها ذكر صدقة من نوع آخر. وهذا يدل على أن القرآن الكريم لا يهتم بالسجع بل بالمضمون.

### الصدقة - بتعبير آخر - تسديد قرض

الأصل الرابع الذي ذكره القرآن الكريم بشأن الصدقة هو بيانه حقيقة الصدقة فقال إنما بمنزلة تسديد القرض نوعاً ما. يقول البعض إن الناس يتکاسلون عن العمل نتيجة تلقيهم الصدقات وينشأ فيهم الكسل والتهاون، ولكن الإسلام يقول: **«فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّسَائِلٍ وَالْمَحْرُومٌ»** (الداريات: ٢٠)، أي إن كنتم تتفقون على محتاج فأنتم لا تمنون عليه بل تؤدون حقه فقط. وقد فسر هذا الحق في آية أخرى كما يلي: **«وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ»** (الجاثية: ١٤).

أي أيها الناس قد سخرنا كل ما في السماوات والأرض لخدمتكم بغير مقابل وبدون أي جهد منكم. فلو كان كل ما في السماوات والأرض يخدم زيداً أو بكرًا فقط لأمكن القول بأنه يملكتها، أما إذا كانت تلك الأشياء تخدم كل فقير وثري على حد سواء فثبت أنها لم تُخلق لزيدٍ أو بكرٍ فقط بل خُلقت للجميع. لو خُلقت الشمس للملك فقط لكان واجباً أن تتراءى له وحده وتنفعه وحده ولكنها كما تحيي الضوء والدفء للملك كذلك تحييهم للفقير. والمبداً نفسه ينطبق على أشياء أخرى. فتبين من ذلك أن كل ما في السماوات والأرض هو ملك الناس جميعاً، وثُكَسَب الثروة كلها بواسطتها. فالإنسان يكسب الأموال والثروة كلها بسبب **«سَحَّرَ لَكُمْ»**. إذن، الثروة كلها ثُكَسَب مما هو ملكية عامة، أي مما خلقه الله للعالم كله. ولكن مما لا شك فيه أن الذي يُكَسِّبها بالجهد وتكبّد المشقة فله نصيب الأسد منها، ولكن يكون في الملك حق من كان له نصيب فيه وإن كان للمجتهد نصيب أكبر. ولكن لما يكون الملك الذي يجتهد فيه المجتهد مشتركاً بين الجميع لذا فيه الحق لكل مشترك فيه. وهذا الحق يُدفع من خلال الصدقة والزكاة.

انظروا الآن كيف كسر كبر الأغنياء والأثرياء ببيان هذه النقطة؟ فما دام في أموال الأثرياء حق للقراء فإذا بذل غني على القراء فهو يؤدي حقهم ولا يمن عليهم. ومن ناحية ثانية فقد أنقذ الله القراء والحتاجين من الندامة قائلاً إن لهم حقاً في أموال الأثرياء، وبأنه تعالى أعطى الأثرياء ثروة كبيرة وأوجب عليهم أن يبذلوا منها على عباده الحاجين أيضاً وألا يأكلوا كل ما يكسبون بأنفسهم فقط.

### الدowافع وراء الصدقات

الجانب الخامس الذي يبيّنه الإسلام عن الصدقات هو الدوافع وراء دفعها. الدوافع السيئة تجعل العمل الأفضل أيضاً سيئاً، فمثلاً إذا جاءنا ضيف وخدمناه واضعين في الحسبان أنا سنتنا نتائج خدمته منفعة كذا وكذا، فمهما خدمناه ستكون منفعتنا الشخصية كامنة فيها. أما لو خدمنا ضيفاً لأن الله تعالى أمرنا بذلك وكانت حسنة كبيرة. إذن، الدوافع السيئة تجعل الشيء سيئاً، والدوافع الحسنة تجعله حسنة. لقد قيل لليهود إن الهدف من الصدقة هو الرحم. وهذا جيد من ناحية، ولكن فيه عيب أيضاً. لقد ناقش الإسلام الدوافع أيضاً إذ قال: ﴿مَنْ لَدُنْهُمْ أَفْوَاهُمْ أَبْتَغَاهُمْ مَرْضَاهُ اللَّهُ وَتَنْتَهِيَا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٦). في هذه الآية ذكر غرضان من الصدقة، أو لهما: ﴿أَبْتَغَاهُمْ مَرْضَاهُ اللَّهُ﴾ والثاني هو: ﴿تَنْتَهِيَا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي أحياناً يكون الهدف هو تقوية القوم. إذن، للصدقة هدفان عند الإسلام، أو لهما نيل رضا الله تعالى، والثاني مساعدة القراء، فإنما هي مساعدة المنفقين في الحقيقة. القوم الذي يكون أفراده ساقطين يضعف أيضاً، لأن الساقطين يشكلون عبئاً على القوم فلن يتقدم. لذا إن الأقوام الأوروبية التي ليس لها أدنى علاقة بالله تعالى تتصدق واسعة في الحسبان أن تقدم القراء في القوم يؤدي إلى تقدم القوم وازدهاره. فقد قال الإسلام إن الهدف من الصدقات هو: ﴿تَنْتَهِيَا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بواسطتها يتقوى القوم.

كذلك يقول الله تعالى في ذكر الناس الصالحين: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي الصالح هو من يعطي المال لنيل رضا الله ﷺ. ما أوجز هذه الكلمات! ولكن ذكرت فيها معانٌ واسعة جداً.

١- إن معنى ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ هو أنهم أولاً يعطون لنيل رضا الله تعالى، إذ قد ذكر الله تعالى قبل هذه الكلمات، والمراد منها أنهم يعطون المال لنيل رضا الله تعالى وحبه. إنهم يحبون الله تعالى وبالتالي يحبون خلقه. ويقصدون من ذلك أنهم ما داموا يحبون الله والله يحب عباده، لذا لا بد أن يحبونهم أيضاً.

٢- يعود الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ إلى من يعطى المال أيضاً، فمن هذا المنطلق يكون معنى الآية أن من يعطونه المال لا يعطونه إياه حاسبينه ذليلًا مهاناً بل يعدونه أخاً لهم. إنهم يعطون المال غيرهم ولكن لا يفعلون ذلك بعده حقيرًا ومهاناً بل واضعين في الحساب أن هذا المال حق له وأنه أخ لهم وحبيبه.

٣- يعود الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ إلى إعطاء المال أيضاً، وعليه فيكون معنى الآية أنهم يعطون المال لأنهم يحبون إعطائه ويكتنون رغبة عارمة في إعطاء المال في سبيل الله. فهم لا يحسبون إعطاء المال غرامة بل لأنهم ينالون به لذة وسروراً روحانياً. وقد بيّن الله تعالى عن الكلمة نفسها أي ﴿حُبِّهِ﴾ في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩١)، أي أن حبهم يظل في ازدياد مستمر حتى يبلغ درجة يحسبون أنفسهم فيها أنهم بمنزلة الآباء، والفقراء والمحاجون أولادهم. كما أن الأمّ ترضع ولدتها حُبًّا وليس طمعاً في شيء، كذلك إنهم يعطون المحاجين أموالهم بهذه العاطفة. ما هو حليب الأمّ يا ترى؟ إنه بمنزلة دمها، ومع ذلك فالسيدات اللواتي لا يقدرن على الإنجاب يحترقن كمداً، بمعنى أنه ليس لديهن ولد يسقينه دمهنّ. فيقول الله تعالى بأن الذين يعطون المال يبلغون مقاماً بحيث لا يظنون أنهم بإنفاقهم المال على أحد يمتنون عليه بل يحسبون أن الذين يأخذون منهم المال هم الذين يمتنون في الحقيقة على المنفقين. كما أن الولد عندما ينزعج من الأمّ

قليلاً ترضيه الأمّ وتداعبه قائلة مثلاً: "فدتك نفسي" أو ما شابهه، مع أنها تعطي الولد شيئاً ليأكله ولا تطلب منه شيئاً. فيقول الله تعالى بأن عليكم أن تحتلوا مكانة حيث يبدو أن الذين أخذوا منكم مالا هم الذين مَنَوا عليكم ولم تمنوا عليهم شيئاً.

### الهدف من الصدقة

سادساً: لقد بين الإسلام الأهداف من الصدقة، وذكر أحدها في الآية التي تلوها آنفاً أي: ﴿أَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، أي من أعطى المال أحداً فليعطيه حبّاً له وليس عداوةً، ولا ليفسد به عادات أحد بل لينفق في أمور حسنة وليستفيد منه المعطى وألا يضره.

### مواطن الامتناع عن دفع الصدقة

سابعاً: بين الإسلام مواطن الامتناع عن الصدقة أيضاً، أي يجب ألا تصدقوا في موطن كذا، وأنكم معذورون من أدائهما في مواطن كذا، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةِ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). لقد بين الله تعالى في هذه الآية ثلاثة مواطن لا بأس فيها من عدم التصدق. الأول: عندما لا تجدون مالاً؛ ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةِ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ترجون رحمة ربكم لمواجهتكم ضيق اليد بأنفسكم. الثاني: تجدون في قلوبكم رغبة في التصدق وتملكون المال أيضاً لهذا الغرض، ولكن قلوبكم يفتي أنه لو تصدقتم لنزل غضب الله ولو لم تفعلوا لنزلت رحمة الله. ﴿إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةِ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي لا يمتنع المرء عن التصدق بخلاف بل حاسباً أن عدم التصدق سيكون مدعاه لنزول فضل الله تعالى، فعدم التصدق هو الأفضل في هذه الحالة. فمثلاً إذا كان أحد يهلك الأموال في المللوات فإن عدم إعطائه يكون مدعاه لرضا الله تعالى. أو إذا جاء شخص مثلاً وقال: أريد مالا لأؤلّف كتاباً ضد الإسلام فلتتبرع في هذا المشروع، فسيكون إعراض المعرض عنه ابتغاً رحمة الله حتماً. أضرب مثلاً آخر أيضاً على أن المرء راغب في الإعطاء ولكنه يمتنع عنه ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةِ مِنْ رَبِّكَ﴾. فمثلاً إذا كان هناك طفل نرسيّه فيطلب

شيئاً ونقدر على تحقيق طلبه الذي ليس سيئاً أيضاً ولكن نرى أن تحقيقه ضار بمقتضى تربيته فلا خرقه.

الوجه الثالث هو أن يسألنا أحد مالاً لإلحاق الضرر بأحد، ومثال ذلك أن يطلب منا المال ليشتري به مسدساً لقتل أحد هم، فلنعطيه.

### أسلوب رفض التصدق

ثامناً: لقد بين الإسلام أسلوب الامتناع عن الصدقة وإنكارها، فقال: ﴿أَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرُ﴾ (الضحى: ١١)، أي إذا أردتم رفض التصدق على أحد فلا تنهروا السائل. يحق لكم أن ترفضوا ولكن يجب ألا تقسو على السائل.

ثم قال ﷺ: ﴿فَقُلْنَاهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٩٨)، أي قولوا للسائل ما لا يُشعره بالذلة والإهانة. يقول الناس إن على المرء أن يرفض سؤال السائل بالرفق، وهذا ما ذكر في: ﴿أَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرُ﴾. وأما ﴿فَقُلْنَاهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ فمعناه: يجب أن ترددوا سؤاله بأسلوب لا يُشعره بالذلة والندامة.

### ماذا يجب أن يُعطى في الصدقات

تاسعاً: لقد بين الإسلام ماذا يجب أن يعطى كصدقة؟ هذا السؤال أيضاً مهم جداً. يقول بعض الناس: ما الفائدة من إعطاء الفقير لباساً فاخراً، بل لو أعطي بدلاً منه عشرة ألبسة وإن كانت خشنة لكان أفضل. كذلك لو أعطي عشرة فقراء شيئاً من الدقيق بدلاً من إطعام واحد منهم طعاماً فاخراً لكان أفضل. ولكن هذا خطأ منهم. فالإسلام ينظر إلى أعمق الفطرة ويدرك أن الفقراء يرون أن الأثرياء يأكلون كل يوم أطعمة فاخرة ويلبسون لباساً فاخراً فتنتابهم رغبة في أن يلبسوا لباساً فاخراً مثل الأغنياء ويأكلوا أطعمة فاخرة مثل الأغنياء. لذا يجب أن يجدوا أحياناً فرصة مثلكما يجدها الأغنياء. الإسلام لا يجعل الناس فلاسفة جافين بل يأمر بدراسة ما في قلوب الآخرين. هناك قصة معروفة في بلدنا كنا في صغernَا نستمع إليها بكل شوق ورغبة، جاء فيها أن حطّاباً كان يأتي بالحطب لمطبخ الملك. فجاء بالحطب

ذات يوم وإذا ب الطعام فاخر يُعَدُّ، فتأثر لدرجة أنه لم يتمالك نفسه وقال للطباخ: هل لك أن تعطيني شيئاً من هذا الطعام؟ قال الطباخ: هذا طعام ثمين جداً، فأنني لي أن أعطيك منه؟ سأله الطباخ: ما ثمنه؟ فقيل له بأن ثمنه يساوي حطباً تجمعه في ستة أشهر. فبدأ الطباخ يجمع الأخشاب أكثر من ذي قبل، إذ كان يأتي بحمل واحد يومياً ولكن من هذا اليوم بدأ يأتي بحملين، ويعطي حملاً سلفة كثمن الطعام، ويقضي حاجاته اليومية بما يدرّ عليه الحمل الثاني. وبعد ستة أشهر أعطى الطباخ ذلك الطعام، وحين أخذه إلى بيته طرق فقير بابه وسأل الطعام. فقالت له زوجته: أعطِ الفقير هذا الطعام لأننا نستطيع أن نتال هذا الطعام بجمع الأخشاب إلى ستة أشهر أخرى، ولكن هذا الفقير لا يستطيع أن يناله حتى بهذه الطريقة. فأعطى الطباخ الفقير ذلك الطعام.

كذلك يُروى أن السقاء الذي أنقذ السلطان المغولي "همايون" من الغرق في البحر عرض عليه أن يسأل ما يشاء، فسأل تولي الحكم لاثنتي عشرة ساعة. فهذه كانت أمنية السقاء القلبية. إذن، إن الله تعالى يطلع على ما في القلوب، ولكن الفيلسوف لا يدرك مثل هذه الأشياء. لقد أمرنا الإسلام مراعياً مشاعر تكتنها القلوب: ﴿وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٤) أي أنفقوا مما أعطاكم الله، ويجب إلا يقتصر الإنفاق على بذل النقود فقط بل يجب أن تتصدقوا بلباس جيد وبطعام جيد، بل وزِعوا باستمرار من كل ما أعطيتكموه.

ثم قال الله تعالى بوضوح أكثر في آية أخرى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَمْرَأَ وَأَنُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأنعام: ١٤٢)، أي أيها المسلمين الذين تملكون البساتين، عندما تثمر بساتينكم وتأكلون منها مع أقاربكم، هل يخطر ببالكم مرة أن تسألكم القراء الذين يمرون بجانب البستان ماذا يجري في قلوبهم؟ فأمر الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَمْرَأَ وَأَنُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي كلوا هذه الشماريالباغة كما تشاءون ولكن يجب أن تطعموا منها القراء أيضاً لينالوا هم أيضاً نصياً

من نعم الدنيا. لم يقل الله هنا إن عليكم أن تباعوا هذه الشمار وتعطوا الفقراء بعض النقود ليأكلوا منها طعاما بسيطا، بل قال **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبُتُمْ﴾** (البقرة: ٢٦٨). هناك أناس يقومون بالنهب والسرقة كلما جاشت في قلوبهم عاطفة مساعدة الفقراء. إن الذين ليسوا مطلعين على علم الأخلاق يقولون إن السارق الفلاي رجل طيب لأنه يساعد الفقراء كثيرا. يقول الله تعالى إن هذا ليس طریقا سلیما لمساعدة الفقراء بل الطريق السليم هو: **﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبُتُمْ﴾**، أي لا يجوز أن تقوموا بالنهب والسرقة من أجل مساعدة الفقراء وتنهبوا أموال الآخرين لتعطوها الفقراء. بل يجب عليكم أن تعطوا بقدر ما أجازه القرآن من مالكم الحلال والطيب ثم فوضوا الباقى إلى الله تعالى، ولا يجوز العمل غير المسموح به من أجل الآخرين، وإن إعطاء الفقراء بنهب مال الآخرين لا يجوز بأى حال. وإن قلتم بأن لديكم مالا قليلا ولكن الفقراء كثُر، فهذه ليست مسؤوليتكم، بل ليس عليكم إلا أن تنفقوا بقدر استطاعتكم واتركوا الباقى على الله تعالى.

هناك طرفة تاريخية جاء فيها أن شخصا كان موظفا في الجيش في أيام الحروب الصليبية فجاء ذات يوم إلى الملك وقال: لا تقبل غريتى أن أتقاضى من بيت المال راتبا، فلن آخذه من اليوم. فسئل: علام ستعيش إذن؟ قال: لدى جارية تعرف السحر والشعوذة وسأعيش على ما تكسبه. إذن، بسبب عدم معرفته بتعليم الإسلام أجاز لنفسه المال الحرام، وحسب الحلال حراما.

### يجب أن يتصدق كل من الفقراء والآغنياء

عاشر: لقد بين الإسلام من يجب عليه التصدق؛ هل الأغنياء فقط مطالبون بأدائها دون الفقراء؟ يقول الإسلام بأن على الفقراء أيضا أن يؤدواها، لأنه ليس

الهدف من الصدقة مساعدة المحتاجين فقط بل هذه مدرسة ل التربية أخلاقية، ولو حرم الفقراء من التصدق لحرموا من التعلم في هذه المدرسة. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، أي المؤمنون هم الذين ينفقون في حالة السعة المالية وضيق ذات اليد أيضا. وبين من ذلك أن الإسلام فرض التصدق على الفقراء والأثرياء على حد سواء لينالوا من فوائده. علما أن للصدقة عدة فوائد ولكنني سأذكر اثنتين أو ثلاثة منها.

أولا: يشعر المتصدق أن في العالم أناسا أكثر منه فقرا واحتياجا. الذي لم يجد وجبة واحدة ليوم كامل ثم وجد طعاما وقال في نفسه: هل أتصدق به؟ يقول الله تعالى له: هناك في العالم أناس لم يجدوا وجبات لأيام عدة، لذا يمكنك أن تتصدق به على من هو دونك.

ثانيا: لا يريد الإسلام أن يحرم أحد من أي ثواب، لذا لم يفرض الصدقة على الأثرياء فقط بل فرضها على الفقراء أيضا لئلا يحرموا هم أيضا من الثواب. والذي يساعد الآخرين مع كونه محتاجا يستحق ثوابا أكثر.

ثالثا: لا يريد الإسلام أن يصدأ قلب الفقير لأن الذي يأخذ فقط ولا يعطي يصدأ قلبه، لذا فقد أمر الإسلام أن يتصدق الفقير أيضا ليدرك أنه لا يتلقى المساعدة فقط بل يساعد الآخرين أيضا. إذن، قد هيا الله تعالى له فرصة خاصة، وهي صدقة الفطر بعد رمضان، التي لم يُسْتَشِنَ منها أحد، فقال النبي ﷺ ما معناه أنه يمكن للفقير أن يتصدق بما أرسل الغني إلى بيته، ولكن يجب أن يتصدق على أي حال.

### من يستحقون الصدقة

الأمر الحادي عشر الذي يبيّنه الإسلام هو: من تُدفع الصدقة؟ لقد قلت من قبل بأن الفيدا يقول أن تُدفع الصدقة للبرهمن. تأمر بعض الأديان بآدائها نظرا إلى القرابة القومية أو العائلية، ولكن الإسلام يمنع من ذلك. ثم هناك بعض الأديان التي تأمر

بالتصدق على الأغيار دون الأحباب والأقارب. وقد تطرق إلى المسلمين أيضاً فكراً أن التصدق على الأقرباء لا يجوز، بينما لا يوجد في الإسلام أمرٌ من هذا القبيل. بل يقول القرآن الكريم: ﴿فُلَّ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ حَيْرٍ فَلِلَّهِ الْدِيْنُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَابْنِ السَّيِّلِ﴾ (البقرة: ٢١٦)، أي إذا كان آباءهم محتاجين ولم يُرُل ضيقهم بإنفاقكم عليهم وما تهدونهم إياه أيضاً فلهم أن تتصدقوا عليهم، واعطوا الأقارب واليتمى والمساكين والمسافرين. ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّيِّلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبه: ٦٠)... تُنفق أموال الصدقات على الذين لم يؤمنوا بعد، أي لطعامهم وسكنهم وتعليمهم وتربيتهم، وتُنفق لفك رقاب الأسرى وللذين يرثون تحت أعباء الديون وللمجاهدين في سبيل الله وللمسافرين...

ويقول تعالى أيضاً: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَمَمْرُرُ جُوْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٩)، أي لا ينبعكم من التصدق على المذكورين في الآية.

يقول تعالى أيضاً: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومُ﴾ (الذاريات: ٢٠)، أي فيها حق للسائلين الذين يستطيعون الكلام، وكذلك للمحروم؛ أي الحيوانات التي لا تقدر على الكلام والسؤال.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْفُرْقَانِ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا أَلَا تَحْبُّونَ أَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٣).

يتبيّن من هذه الآيات أن الإسلام، أولاً: أمر بالتصدق على المستحقين ولم يجعله خاصاً بقوم دون قوم ولم يضع في ذلك أجراء إضافياً.

ثانياً: ولم يفرق من هذا المنطلق بين الأصحاب والأغيار بل أجازه للأقارب والأغيار على حد سواء، وبذلك دحض أفكار: (أ) الذين لا يساعدون أقاربهم ولا يتصدقون أيضاً عليهم بل يتزدرون في ذلك. (ب) الفقراء الذين لا يستطيعون أن يساعدوا أقاربهم ويتصدقوا عليهم في آن معاً لم يحرموا من البر، بل عُدّت مساعدتهم أقاربهم صدقةً.

ثالثاً: لم يجعل التصدق مقتضاً على الفقراء فقط بل أجاز على ما شابهم أيضاً. فمثلاً (أ) لو كان هناك شخص غني جداً يرفل في الملابس ولكن ضاع ماله في الطريق لجأ التصدق عليه. لا يجوز إعطاؤه ديناً مبلغه كبيراً لأنَّه ما يدرينا لعله نصَّابٌ أو مخادع وما شابه ذلك. أما التصدق عليه فممكن؛ لأنَّه إذاً كان نصَّاباً ومخادعاً سيتحمل مغبة سوء عمله بنفسه.

(ب) المساكين، كلمة "المساكين" لا تعني "الفقراء" لأنَّه لو كان معناها الفقراء لما وردت في الآية "للفقراء"، بل المراد من المسكين هو من لا يستطيع المباشرة بعمله لعدم توفر المال عنده. مثال ذلك أنَّ شخصاً يعمل بحرفة ولكن العمل في مجالها يقتضي عشرة آلاف روبيَّة، وهذا الشخص لا يُعَدُّ فقيراً لأنَّه ميسور الحال إلى حد ما ولكنه لا يستطيع التقدم لعدم قدرته على استخدام براعته وموهبيه. ولو أُعطي عشرة آلاف روبيَّة لاستطاع أن يباشر بالعمل. فيمكن للحكومة أن تعطيه مالاً من صندوق الصدقة سواء بصورة مساعدةٍ أو فرض.

(ج) بيان ذلك أنَّ هناك شخصاً غنياً ولكنه مدين. فمثلاً إنه يقوم بتجارة قدرها خمسون ألف روبيَّة وعليه دَيْنٌ عشرة آلاف روبيَّة، والدائنون يتقاضون ديونهم. فلو سدَّد الدَّيْن من ماله المتداول في التجارة لبارت تجارتة البالغ قدرها خمسون ألفاً. فيمكن مساعدة شخص مثله من مال الصدقات. أو إذا كان هناك فلاح وهو مدين ولو أراد تسديد الديون لبيعت أرضه ولما بقي لديه معاش، لجازت مساعدته أيضاً من مال الصدقات.

(٣) : لقد عُدّ العاملون على جمع الصدقات أيضاً من يستحقون الصدقة، لأنّه لما أمر الإسلام أن دفع صدقة كذا وكذا ضروري سينشأ السؤال: من سيجمعها؟ فكان ضرورياً أن يكون هناك من يعمل في هذا المجال، وأن تُحدّد لهم رواتب معينة. لا شك أن هذه الرواتب لن تُعدّ صدقة، ولكن دفع الرواتب من مال الصدقة جائز. هذا سؤال لم يهتم به أيّ دين آخر، أي لم يقل إن في أموال الصدقات حقاً للعاملين أيضاً.

(٤) : خامساً: بين الإسلام ألا يُحرّم السائل. يقول بعض الناس: يجب ألا يُعطي السائل شيئاً لأن ذلك يُفسد عادتهم، ولكن الإسلام يقول بإعطائهم لأنّه لا يتبيّن من النّظر إلى وضعه الظاهري هل هو محتاج في الحقيقة أم لا، لذا يقول الإسلام أنه إذا سُأّل أحد وكان المسؤول قادرًا على إعطائه شيئاً فليعطه.

(٥) : سادساً: يجب التصدق على الأقارب والأغيار إلا الخائضين في الحرب ضدنا في ذلك الوقت لئلا يضروا المعطين.

(٦) : سابعاً: يجب ألا تُحرّم من الصدقة -إضافة إلى الناس- الحيوانات كونها عاجزة عن الكلام والتي لا تُحسب لها أية قيمة، لأن الله تعالى قد جعل نصيبيها أيضاً مع الناس. وهذا يعني أن إعلاف الحيوان الهرم وعديم الفائدة أيضاً صدقة ومدعاة للأجر والثواب. لا شك أن الإنفاق على حظيرة البقرات صدقة وكذلك على مربض الإبل والجوميس.

### مبادئ توزيع الصدقات

الأمر الثاني عشر الذي بيّنه الإسلام هو: ما هي المبادئ التي بحسبها يجب على الحكومة توزيع الأموال الحاصلة في صندوق الصدقات. وقد وضع الإسلام لهذا الغرض قوانين وقال: ﴿تُطَهَّرُهُمْ وَتُنَرِّكُهُمْ بِهَا﴾ (التوبه: ١٠٣)، أي يجب الاهتمام بأمرتين اثنين.

الأول: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي لإزالة ضعف القوم ومصيبة المنكوبين.  
 الثاني: ﴿تُزَكِّيَهُمْ إِنَّا﴾ أي للنهوض بالقوم، إذ من معاني "زكي" الرفع والتقدم أيضا.

### طبيعة العلاقات بين معطي الصدقات ومتلقيها

الأمر الثالث عشر هو: كيف يجب أن تكون العلاقات بين معطي الصدقات ومتلقيها؟ (١) لقد قسمت الشريعة مال الصدقة على قسمين، الأول هو الجزء الذي توزعه الحكومة، فلا يمكن لأحد أن يقول عنه بأنه خرج من يدي أو سُلِّم مالي إلى فلان، وذلك لأنه مال جُمع من الجميع، وتوزعه الحكومة بنفسها على المستحقين. وبذلك شطب الإسلام وساطة المتصدق ولم يترك مجالا للمن.

(٢) قضى على فكرة المن بالقول: ﴿حُقُّ الْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ﴾ وقال إن متلقي الصدقة أيضا حقا في مال المتصدق.

(٣) ولكن لأنه لا يمكن لكل واحد أن يبلغ هذا المقام لذا قد أعطى الإسلام حكاما ظاهيرية أيضا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمِنْ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٥).

(٤) ثم اختار أسلوبا آخر لا يترك أي مجال للمن، فقال: ﴿يُبَحِّثُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِيبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٧)، أي سيمحو الله تعالى الربا وينتهي مال المتصدقين. وقد قال هنا إن الله تعالى بنفسه سيجزي المتصدقين.

### التركيز على الصدقات والمنع من السؤال

الأمر الرابع عشر المذكور هو: ما دام الإسلام قد ركز على الصدقات فكان بالإمكان أن يخطر بالبال أن السؤال أمر مستحسن، لذا فقد شرح الموضوع وبين سلوكا يليق بالمؤمن فقال: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَحْافًا﴾ (البقرة: ٢٧٤)، أي أن غير المطلع على تعليم الإسلام

ولا يجحد السؤال، يحسب الفقراء أغنياء بسبب عدم سؤالهم. ولكن المطلع عليه يدرك الأمر بمجرد النظر إلى وجوههم ويساعدهم.

وقد بيّن في ذلك أن على المؤمن الكامل أن يجتنب السؤال، ولكنه لم يمنعه أيضاً؛ أي أن السؤال ليس حراماً حرمة مطلقة، لأن الإنسان يضطر إلى ذلك أحياناً. لقد جاء ذات مرة إلى النبي ﷺ شخص وسأله فأعطاه ﷺ، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال ﷺ له: ألا أخبرك بشيء؟ وهو أن السؤال ليس بمحظى. فقرر السائل ألا يسأل أحداً بعد ذلك أبداً. ويقول أحد الصحابة إنه رأى أن سوط الشخص المذكور سقط على الأرض أثناء حرب فلم يسأل أحداً ألا يناله إياه. حاول أحد الصحابة أن يناله إياه ولكنه رفض وقال ما معناه: لقد عاهدت رسول الله ﷺ ألا أسأل أحداً شيئاً أبداً. ثم ترجل عن فرسه وأخذ السوط بنفسه.

إذن، فمن ناحية رُكز الإسلام على الصدقات كثيراً لدرجة يمكن أن يخطر بالبال لماذا لا نأخذها، ومن ناحية أخرى منع من السؤال وطلب من المتصدقين أن يبحثوا بأنفسهم عن مستحقها.

تلك أربع عشرة قضية بينها الإسلام عن الصدقات، ولو تصفحتم الكتب الإلهامية كلها للأديان الأخرى وقرأتم مؤلفات كافة الفلاسفة أيضاً لن تجدوا فيها بحثاً مستفيضاً حول هذا الموضوع.

أستطيع أن أقول بكل تحدٍ إنكم لن تجدوا في مؤلفات البشر ولا في الكتب الإلهامية حتى أمراً بسيطاً أيضاً مبيناً بالأسلوب الذي يبيّن القرآن الكريم.

## البحث في العلاقات بين الرجل والمرأة

والآن أتناول على سبيل المثال أمراً آخر وهو العلاقة بين الرجل والمرأة. هذه غريزة فطرية موجودة حتى في الحيوانات ولا حاجة إلى بحث طويلاً للعثور عليها. خذوا الأسد مثلاً فإنه يفترس الحيوانات الأخرى كلها ولكنه يشعر بضرورة المكث مع لبواه. يُعدّ الحمار حيواناً غبياً ولكنه أيضاً يشعر بضرورة العلاقة مع الآنان.

باختصار، إنها علاقة ينتقل إليها ذهن كل ذي نفس منفosaة ويمارسها، فيجب أن يكون التعليم عنها كاملاً لأنها ضرورة ملحة بدأت منذ زمن آدم العليّة ولا تزال كذلك إلى اليوم، ولكن جميع الكتب الدينية عاجزة عن إعطاء تعليم كامل عنها سوى القرآن الكريم، مع أن بيان كتابٍ شيئاً جديداً عن هذه العلاقة يبدو شبه مستحيل.

إن موضوع العلاقات بين الرجل والمرأة واسع جداً، ولن أتناول الآن تعدد الزوجات وحقوق النساء والمسؤوليات المتبادلة بين الرجال والنساء وقضايا المهر والطلاق وما شابهها، لأنها مسائل طويلة ودقيقة، بل سأكتفي بذكر أكثرها إيجازاً والذي بسببه يبدأ الرجل والمرأة بالعيش معاً، وسأذكر أيضاً كيف بين الإسلام هذه العلاقة بأكمل صورة، وكيف جعلها موضوعاً لطيفاً وجميلاً.

عندما ننظر إلى الكتب المقدسة للأديان الأخرى يتبيّن أنها ساكتة عن هذه المسألة الابتدائية أيضاً. خذوا الإنجيل مثلاً فقد جاء فيه عن العلاقة بين الرجل والمرأة:

"فَالَّهُ تَلَامِيذُهُ: إِنْ كَانَ هَكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ، فَلَا يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ! \* فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبِلُونَ هَذَا الْكَلَامَ بِالَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُمْ \* لَاَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلَدُوا هَكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَا تَهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ حَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ حَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لِأَجْلٍ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ . مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبِلَ فَلِيَقْبِلْ . " (إنجيل مَئَى ١٩ : ١٢-١٠)

هذا يعني أن المسيح العليّة أخبر تلاميذه أن العلاقة بين الرجل والمرأة إنما هي فعل أدنى الناس درجة، وإذا أراد أحد أن يحتل درجة علياً وأراد الدخول في ملوك السماء، عليه أن يصبح خصياً. والمراد من هذا القول هو أن الحسنة الحقيقة تكمن في عدم الزواج، أما الذي لا يقدر عليها فليتزوج. كذلك ورد في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٧: ٢-١: فَحَسِنْ لِلرَّجُلِ أَنْ لَا يَمْسَ امْرَأَةً \* وَلَكِنْ لِسَبَبِ الرِّزْنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَةً، وَلَيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلَهَا.

كما جاء في رسالَة بُولس الرَّسُولِ الأولى إلى أهْلِ كُورِنثُوسَ ٧: ٨-٩: وَلَكِنْ أَقُولُ لِعَيْرِ الْمُتَرَوِّجِينَ وَلِلْأَرَامِلِ... وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلَيَتَرَوْجُوا. أَيْ إِنْ بقاءِ الرَّجُلِ وَالمرْأَةِ بِغَيْرِ زِوْجٍ مُسْتَحْسِنٍ.

لم يرد ذلك في كتب اليهود بهذا الشكل ولكن لم يرد فيها أُمُرٌ واضحٌ أيضاً عن العلاقات بين الرجل والمرأة بينما لم يرد في التوراة إلا: فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. \* وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهُ الْمُضْلَعَ الَّتِي أَخْذَهَا مِنْ آدَمَ اُمْرَأَةً وَأَخْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. \* فَقَالَ آدَمُ: هَذِهِ الْآنَ عَظِيمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى اُمْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ اُمِّي أُخِذَتْ. \* لِذَلِكَ يَئِرُّكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِأُمْرَأَتِهِ وَيَكُونُانِ جَسَدًا وَاحِدًا. (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٢: ٢١-٢٤)

لقد تم الالكتفاء في هذه العبارة بالبيان أن المرأة حُلقت من ضلع الرجل لذا فبالاجتماع بها يصبحان جسدا واحدا، وسيظل الرجل راغبا في المرأة بطبيعة الحال. ولم يذكر هل عيشهما معا سيكون خيرا لهما أم لا، بل ذكرت العلاقة الطبيعية فقط. لم تذكر الهندوسية شيئاً عن ضرورة الزواج، كل ما يعلم هو أن آلهة الهندوس كانوا يتزوجون فكيف لا يتزوج الناس؟ يقول البعض إلى جانب ذلك إن الوسيلة الحقيقية للنجاة هي أن يعكف المرء على العبادة زاهدا في الدنيا وما فيها. يقول "منوجي" الذي يؤمن الهندوس بتعليميه: يجب أن يبقى المرء عازبا إلى ٢٥ عاما ثم متزوجا إلى ٢٥ عاما. ولكن الفيدات التي تشمل تعليم الهندوس الحقيقي ساكتة تماماً عن هذا الموضوع. إن "منوجي" وغيره صامتون عن ضرورة الزواج وحقيقة ونظامه وما إلى ذلك. البوذية تفضل عدم الزواج لأنها تمنع من الزواج خدام الدين الأطهار والحاائزين على مرتبة عليا سواء أكانوا رجالاً أو نساء. هذا هو تعليم مذهب "جين" أيضاً. وإذا أمعنتم النظر في الإسلام ترون أنه جعل هذه العلاقة قضية هامة جداً وعددها جزءاً من الدين ووسيلة للتقدم الروحاني.

## الإسلام يُعد الزواج ضروريًا

السؤال الأول الذي ينشأ بهذا الشأن هو: هل يجب أن تكون بين الرجل والمرأة علاقة؟ وهل يجب أن يعيشَا معاً؟ يقول القرآن الكريم في هذا الموضوع إن الزواج ضروري، وليس ذلك فحسب بل يجب تزويج الأرامل أيضاً. ويقول مقدماً الدليل على ضرورة الزواج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ٢).

يتبيّن من هذه الآية أن الإنسانية جوهر، ولا يصح القول بأن الرجل يشكل الإنسانية أو المرأة تشكلها، بل الإنسانية شيء منفصل، وهي نفس واحدة وجُزِّيت إلى جزأين، نصف الجزء يسمى رجلاً والنصف الآخر يسمى امرأة. فما دام كلاهما جزأين من شيء واحد فلا يمكن أن يكتمل ذلك الشيء ما لم يجتمعوا معاً، بل سيكتمل الشيء إذا جَمِعَ بين الجزأين.

لقد ذُكر هنا القانون الأساسي للعلاقة بين الرجل والمرأة وقيل بأنهما قطعتان منفصلتان من جوهر الإنسانية، وإذا أردتم إكمال الإنسانية فلا بد من الجمع بين كِلَتَا القطعتين، وإلا لن تكتمل الإنسانية، وإن لم تكتمل الإنسانية لن يبلغ الإنسان درجة الكمال.

## لم تُخلق حواء من ضلوع آدم

يقول الناس معتبرين على هذه الآية إنه يتبيّن منها أن حواء خُلقت من ضلع آدم اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْ بَعْدِكَ شَرٌّ كما جاء في الكتاب المقدس. ولكن هذا ليس صحيحاً. القرآن يقول أولاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٥٠)... ألم يتذكّر الله أن يخلق الإنسان زوجين، والعياذ بالله، حتى أخرج حواء من ضلوع آدم؟ يقول القرآن الكريم إن لكل شيء زوجاً سواءً أكانت الأفكار والأمور العقلية أو المشاعر أو الإرادة، ولا تكتمل إرادة ولا شعور ولا عاطفة ما لم تكن مقابلها إرادة أو مشاعر

أو عواطف تلاقيها. كذلك لا يكتمل جسم ما لم يلقه جسم آخر، ولا يكتمل حيوان ما لم يلقه حيوان آخر، ولا يكتمل إنسان ما لم يجتمع إنسانان. فحين قال الله تعالى بأنه خلق كل شيء زوجين فمن سيقبل أن آدم خلق أولا ثم خلقت حواء من ضلوعه نظرا إلى كونه حزينا. يقول القرآن الكريم إن لكل شيء زوجا، لذا حين خلق الله تعالى الذرة الأولى خلق لها زوجها أيضا. وقد ورد عن الإنسان: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أيها الناصٰ ما دمنا قد خلقناكم أزواجا، فكيف خلق آدم وحيدا دون زوج؟ أين كان زوجه؟ علما أن الفقرة: ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وردت بحق جميع الناس أيضا، ولكن الناس لا يستنبطون منها هذا المعنى. يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النحل: ٧٣)، فهل تخلق كل زوجة من ضلوع زوجها؟ إن لم يكن الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون معنى الآية المذكورة أولا أن زوج الإنسان خلق منه. كذلك يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ (الشورى: ١٢)، فإذا كانت حواء خلقت من ضلوع آدم كان من الواجب أن يخلق الحصان أولا ثم تخلق أنثاه من ضلوعه. كذلك كلما ولد طفل فلينزل ملاك ويخرج ضلعا منه ويخلق منه بنتا. ولكن هل رأى أحد حدوث ذلك؟ ثالثا يقول الله تعالى أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٩٠).

إن الذين يقولون إن زوج الرجل خلق من ضلوعه إنما يقولون إن حواء فقط خلقت من ضلوع آدم اللَّهُمَّ، ولا يقول أحد إن آدم اللَّهُمَّ خلق من ضلوع حواء، بينما يتبيّن من هذه الآية أن المرأة لم تخلق من ضلوع الرجل بل الرجل خلق من ضلوع المرأة لأن الضمير في "زوجها" يعود إلى "نفس واحدة" وهي مؤنث. كذلك استُخدم ضمير "منها" أيضا للمؤنث. ثم قيل إن الله تعالى خلق زوجها من "نفس واحدة" واستُخدم للزوج صيغة المذكر أي "ليسكن". فتبين من ذلك بكل وضوح أن الزوج الذّكر خلق

من الأنثى. فلا بد من الاعتراف من منطلق هذا المعنى أيضاً أن المرأة لم تُخلق من ضلع الرجل بل الرجل خلق من ضلع المرأة! وهذا ما لا يقول به أحد.

إن هذه الآيات تعني في الحقيقة أن الرجل جزء من المرأة والمرأة جزء من الرجل، والتقاء الجزئين يشكل وجوداً كاملاً، وإذا بقي الجزءان منفصلين فلن يشكلان إنساناً كاملاً، وإنما يكتملان عندما يجتمعان مع بعض.

انظروا الآن، ما أكمل هذا التعليم الأخلاقي الذي جاء به الإسلام! الرجل الذي لا يتزوج لا يكون رجلاً كاملاً، كذلك المرأة التي لا تتزوج لا تكون امرأةً كاملةً من منطلق هذا التعليم. الرجل الذي لا يحسن معاملة امرأته ويضايقها فهو يقطع جزءاً من نفسه بنفسه بحسب هذا التعليم. كذلك المرأة التي لا تعيش مع الرجل على أحسن وجه تجعل نفسها ناقصة، وبذلك يبقى جزء الإنسانية ناقصاً.

إذن، ما دامت الإنسانية ليس اسم رجل ولا اسم امرأة، بل الإنسانية اسم مجموعة الرجل والمرأة فلا بد من الاعتراف بأن اجتماع الرجل والمرأة ضروري لإكمال الإنسانية. والدين الذي يُعيق أحدهما بمغزل عن الآخر يقطع دابر الإنسانية. إذا كان الدين يهدف إلى إكمال الإنسان فلن يخالف هذا العمل بل سيخدمه لنيل هدفه. والكتاب الديني الذي يستنكر هذا الفعل الطبيعي ويمنعه أو يرجح اجتنابه يعرقل طريق تقدم الإنسان حتماً وبذلك يبطل أفضليته.

قد ينشأ هنا سؤال أنه ما دام الرجل والمرأة جزءان من شيء واحد فلماذا خلقا كيائين منفصلين؟ ولماذا لم يتركهما كياناً واحداً لثلا يرغب الرجل في المرأة ولا المرأة في الرجل؟ الإسلام يرد على هذا السؤال ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢٢)، أي كان في الإنسان نوع من الهياج فجعلت منه قطعتان لوضع الحد لهذا الهياج وجعل اجتماعهما مدعاعة للسكينة. والآن ليتأمل ما هو ذلك الهياج الذي يتمثل في العلاقة

بين الرجل والمرأة؟ فليكن معلوماً أن هذا هو الهياج نفسه الكامن في: ﴿الَّسْتُ بِرِّتَكْمٍ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف: ١٧٣)، الموعَد في فطرة الإنسان كما أُودع البحث عن الله في طبيعته، وهذا البحث يقود الإنسان إلى الله تعالى رويداً رويداً. ما كان مكتملاً في حد ذاته لا توجد فيه الرغبة في البحث والتحري. أما إذا كانت فكرة البحث موجودة ففي كثير من الأحيان يبحث الناس عن شيء بسيط ولكنهم يجدون شيئاً عظيماً. يقول الله تعالى إننا أودعنا الإنسان رغبةً في البحث وعندما يستخدمها يتجلّى الله تعالى أمامه وهو يجده يَعْلَمُهُ. وعندما يبحث الرجل عن المرأة ويجد في قلبه هياجاً لها يقول الله له: ألمست جديراً بأن تبحث عنّي؟ عندئذ يصدر من لسانه صوت "بلى" ويقول عفويّاً: إنك أنت المقصود الحقيقى. كذلك عندما تبحث المرأة عن الرجل يقول الله تعالى لها: ألمست جديراً بأن تبحثي عنّي، فتقول عفويّاً: "بلى" إنك أنت المقصود الحقيقى. إذن، بسبب تخلّي الرجل والمرأة بعاطفة البحث عن بعضهما ينالان حب الله تعالى ويجدانه يَعْلَمُهُ.

### لماذا أبقى الله تعالى عاطفة حبه خافية في فطرة الإنسان؟

قد ينشأ هنا سؤال: لماذا لم يخلق الله في الرجل والمرأة حبه بصورة ظاهرية ولماذا أخفاه على هذا النحو؟ والجواب على ذلك هو: لو كان الحب سطحياً ظاهرياً لما كان حصول الاتصال مدعاه للتقدم والثواب، لأن جانب الإخفاء ضروري للثواب؛ لذا فقد أخفى الله تعالى حبه وراء حب الرجل تجاه المرأة ووراء حب المرأة تجاه الرجل لكي يناله الناس بالجهد وتكتبد المشقة فيستحقوا الثواب. الرغبة في المرأة التي أودعها الله الرجل وكذلك في الرجل التي أودعها المرأة، هي أمنية مبهمة، والأمنية الحقيقية للوصول إلى الله تعالى. لذا فقد أودع الله الإنسان عاطفة الرغبة في إكمال نفسه، ويفهم أنه بحاجة إلى شيء آخر للإكمال. ولكن إذا أُودع الناس اضطراباً ورغبة في التجسس فقط فإن الاضطراب يؤدي أحياناً إلى اليأس أيضاً، لذا كان ضرورياً أن يكون في قلب الإنسان اضطراب

من أجل الإكمال، ومن ناحية ثانية يجب أن يكون هناك مخرج أيضاً من الاضطراب، كما يكون في الحرك مخرج للبخار الزائد. إذن، فقد خلق الله تعالى في الإنسان اضطراباً وفي الوقت نفسه جعل الرجل للمرأة والمرأة للرجل بمنزلة صمام الأمان وبذلك أعطاهما فرصة لاستخدام الفائض من الحب الذي كان مقدراً أن يُخلق لله تعالى. ولولا وجود صمام الأمان لأدى هذا الحب إلى إصابة كثير من الناس بالجنون. لا يقبل عاقل في العالم أن يضيع شيء، فلئن كان ممكناً أن يدع الله تعالى شيئاً يضيع؟ فقد عالج الله تعالى الموضوع إذ قسم الإنسانية إلى جزأين وأظهرها على شكلين وبالنتيجة يخرج هياج الإنسان الإضافي وغير الضروري إلى جانب آخر فيشعر الإنسان -رجلًا كان أم امرأة- بالسكينة. هذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في حديث: **حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّبِّ وَجُعِلَ قُرْئَةُ عَيْنِيِّ فِي الصَّلَاةِ** (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك) وفي رواية: "...من دنياكم". يتبيّن من هذا الحديث أن العلاقة بين الرجل والمرأة مدعوة للسكينة والهدوء، وكذلك الطيب يؤدي إلى سكينة القلب، وأما ما يخلقه التضُّر والأدعية في الصلاة من اللذة والمتّعة فهو أيضاً يجلب السكينة والطمأنينة للإنسان.

### الرجل والمرأة يسبّان السكينة لبعضهما

لا يخطرن ببال أحد هنا أنه قد قيل هنا بأن المرأة سبب السكينة للرجل ولم يذكر أن الرجل أيضاً يسبّب السكينة للمرأة. إن معنى العلاقات بين الرجل والمرأة المذكور لا يصح إلا إذا كان كل واحد منهما يسبّب سكينة لآخر. ول يكن معلوماً أن الله تعالى يقول بهذا الشأن في آية أخرى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٨)، فكلاهما سواسية من حيث كونهما سكينة لبعضهما، أي الرجل سكينة للمرأة والمرأة سكينة للرجل.

لقد أشار الله تعالى في قوله: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ إلى أن على الرجل والمرأة أن يحميا بعضهما. إذا استحم أحد مثلاً ثم لبس لباساً

وسخا فهل سيعد نظيفا؟ كلا، بل إذا كان لباسه وسخا فسيعد وسخا مهما كان نظيفا ظاهريا. إذن، ففي قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ عد الرجل والمرأة شريكين في الفرح والترح، وقال بأن عليهما أن يحفظا بعضهما، وبذلك يتحقق مفهوم: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لأنهما منزلة رفيق السفر لبعضهما.

### علاقة القوى الروحانية مع القوى الجسمية

الحق أن كثيرا من الناس لم يدركوا أن للقوى الروحانية علاقة مع القوى الجسمية في هذه الدنيا، وأن الروح تعمل بواسطة الجسد. هذه الحقيقة خافية عن أعين عامة الناس. يقول العلماء العلمانيون الأغبياء نظرا إلى حركات الجسد أن الروح ليست بشيء، أما العلماء الذين يدعون أن لهم علاقة مع الروحانيات ولكنهم لا يعلمون علوم القرآن الكريم فيقولون إن الروح شيء منفصل عن الجسد مع أن الروح والجسد مندمجان في بعضهما اندماجا كاملا. لقد أعطى الله تعالى الروح كنوز العلم والمعرفة، وقد أنطت البحث عن هذه الكنوز واللوحة لها واستخدامها بمساعي الجسد. فعندما يبحث الجسم عنها ويتحررها تستمر تلك الكنوز في البروز والظهور للعيان. لذا لن ترى شخصا معتوهها واصلا إلى الله لأنه لو كانت الروح منفصلة عن الجسم ولم تكن بينهما علاقة لكان للمعتهو علاقة مع الله تعالى، لأن المعتوه يكون مختل الذهن وللذهن علاقة مع الجسم ليس مع الروح، ولكن هذا لا يحدث، لذلك قال النبي ﷺ إنه قد رفع القلم عن المعتوه حتى يعقل ويهمي الله له فرصة العمل مرة ثانية. فإذا كان إنشاء العلاقة مع الله تعالى مهمة الروح فقط ولا دخل للجسم فيها، فقد سبق أن قالت الروح "بلى" وانتهى الأمر، ولكن الحقيقة أن الروح مندمجة مع الجسم كليا. لقد أودع الله الجسم قدرات تزيد في الروحانية.

## علاقة قوى الرجلة والأنوثة مع الروح

من القوى التي أعطيها الإنسان للحصول على الأبدية فعل الغدد المتعلقة بالرجلة والأنوثة. هذه الغدد ليست جزءاً من الجسم فقط بل لها علاقة مع الروح أيضاً، وإنما مُنع الرجال من أن يجعلوا أنفسهم مختشين. يقول الله تعالى بأنه يكون للأنبياء أيضاً أولاد وزوجة لأن هذه الأعضاء ضرورية للروحانية، بل بسببها تكتمل الروحانية. الهدف الحقيقي من الرجلة والأنوثة هو الأمانة لخلق الشعور بالبقاء. وبسبب هذه الرغبة تخدم غدد الرجلة والأنوثة وجهاً آخر للبقاء، أي التوالد. إذن، إن نمو هذه الغدد وتأثيرها وسيلة لخلق نسل الإنسان. والقوة التي هي وسيلة بقاء الروح جعلها الله تعالى نفسها وسيلة لبقاء العالم أيضاً، وهذا يحدث عن طريق التوالد والتناسل. إن تقدم الروح يتسبب في البقاء الأبدى، وبواسطة الأولاد يستمر بقاء الأجساد. لذا فقد استُخدمت القوة الإضافية، خالقة البقاء لهذا الغرض.

وإذا قال قائل: ما فائدة وضع هذه القوة في الحيوانات؟ فليكن معلوماً بهذا الشأن أن الإنسان خُلق بعد مروره بمراحل مختلفة. أولاً جاء إلى حيز الوجود كحيوان صغير ثم كبير ثم أكبر منه وفي النهاية أكتمل خلق الإنسان<sup>١</sup>. يقول الله تعالى في

<sup>١</sup> لا يعتقد المؤلف عليه السلام بالتطور على طريقة داروين والتي تقول بأن الإنسان تطور من حيوانات مختلفة وكان سمة أولاً ثم أصبح قرداً نتيجة لطفرات، بل ما يقصد هو أن الإنسان في خلقه الأول قد بدأ بالنمو كالنبات في الكهوف ثم بدأ ينمو وينتشر الصفات الحيوانية في مراحل مختلفة حتى أكتمل خلقه وبدأ يشعر ويتصدر كإنسان. وفي هذه المرحلة خلق الله الجنسين الذكر والأنثى في تلك الكهوف واصطفى منهم الأنبياء ووجههم في أمور حياتهم. وفي خلق الإنسان بالتناسل - بعد ذلك الخلق الأول - فإن الإنسان في بطن أمه يمر بأطوار أيضاً يكون فيها كالنبات بداية في جدار الرحم، ثم يبدأ بإظهار الصفات الحيوانية والحركة في داخل الرحم حتى يكتمل خلقه فيولد ويبدأ بالنمو، فهو يخلق أطواراً أيضاً، وهذه الأطوار تشير إلى ذلك الخلق التطوري الذي كان بصورة مختلفة في الخلق الأول أيضاً. وقد بين الخليفة الثاني عليه السلام هذا

القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا \* وَقَدْ خَلَقْتُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٤-١٥)، أي ما لكم لا تريدون لله وقارا وتقولون بأن عليه أن يستعجل؟ انظروا لكم استغرق خلقكم الأول من الوقت. باختصار، لقد خلق الإنسان بعد مروره بمراحل مختلفة بما فيها مراحل حيوانية. فالحق أن جميع أحوال الحيوانات بمنزلة سُلْم الوصول إلى مرحلة الإنسان، غير أنها ليست الغاية المنشودة في حد ذاتها. وما يتم تمريره عبر الإسلام يمكن أن يسقط أيضاً في الطريق، لذا فإن الأشياء التي كانت ستُخلق لارتفاع الإنسان وُجدت في الحيوانات أيضاً، ولكن الحقيقة الثابتة هي أن القوى الشهوانية في الحيوانات لم تبلغ مبلغ الارتفاع بقدر ارتفاعها في الإنسان. ومن الحقيقة الثابتة أيضاً أن للقوة الشهوانية علاقة متينة مع الموهاب الدماغية. وفي عصارة الغدد الجنسية يمكن علاج كثير من النقائص العصبية والدماغية.

باختصار، الحق أن المهمة الحقيقة للأدوات المسؤولة عن خلق القوى الشهوانية هي إصلاح الأخلاق، ولكن بعد إنجاز مهمتها يبقى بعضها وتكون بمنزلة البخار الإضافي الذي إن لم يتم إخراجه لشَكَل خطراً قد يحطم المركب. فقد سحرها الله تعالى لعمل آخر وهو بقاء النسل، أي قد اختار هذه الوسيلة بدلاً من وسيلة أخرى لاستمرار نسل الإنسان. هذه حقيقة لم يدركها العالم كاملاً إلى الآن إلا أنه بدأ يدركها شيئاً فشيئاً مؤخراً. يقرُّ عالم الطب أن للقوى الشهوانية علاقة متينة مع الموهاب الدماغية وُتُستخدم هذه الغدد الجنسية ذاتها. يقول عالم أوروبي إن الخل في هذه الغدد يؤدي إلى اليأس والعديد من العيوب الجسدية الأخرى. وقد أَلْفَ شخص أميركي كتاباً في سبعة مجلدات قال فيه إن الاعتراض على تعدد زواج رسول الله ﷺ اعترض لغو تماماً، لأنه كان يظل منهمكاً في حب الله تعالى وذكره، والعلوم

---

الأمر في مناسبات أخرى، ومن ضمنها خطابات جُمعت في كتابه "السياحة الروحانية" وكذلك في مواضع مختلفة من مؤلفاته. (المترجم)

أن قوة الرجلة عند إنسان مثيله تزداد باستمرار. مع أن هذا الكاتب لم يبيّن الحقيقة بكلمات صحيحة ولكن الحق أن الوسيلة للبقاء الأبدى هي العدد الجنسية، وأن بقاء النسل إنما هو فعلها الثانوى والتابع لمهمتها الأصلية. فكان ضرورياً -لتقليل من الهياج الذي خلقه الله تعالى في الإنسان بواسطة الغدد الجنسية، وبذلك دعاه إلى نفسه- ألا ينحرف الهياج عن طريقه الصحيح، وأن يستخدم الفائض أيضاً للقوة التي من أجلها سُنت العلاقة بين الرجل والمرأة، وجعلها مداعاة سكينة لبعضهما. أذكر قول الخليفة الأول ص: صمّت ذات مرة في حالة المرض وهذا أدى إلى كثير من الضعف في قوتي الجنسية. والغريب في الأمر أن عشرات الناس يستفيدين من هذا العلاج ولكنه لم ينفعني شيئاً. ثم ذهب وهلي إلى أن أشرع في ذكر الله فأكثّر من التسبيح والتحميد وشفيفٌ. إذن، هذه علاقات دقيقة لا يمكن لكل شخص أن يدرك كنهها.

### في الروحانية أيضاً تكمن صفات الرجلة والأنوثة

إن سلسلة خلق الله تعالى من كل شيء زوجين جارية في الأمور الروحانية أيضاً إلى جانب الأمور الظاهرة كيلاً يكون الكمال في الغفلة مداعاة للسكينة الباطلة وبالتالي سبباً للهلاك، وكيلاً يكون كل شيء كاملاً بحد ذاته بل يبقى التوجّه قائماً إلى الوجود الكامل الذي يُنال منه الكمال. ومن هذه الظاهرة أيضاً تتبّع حقيقة هذه السلسلة الظاهرة. يتبيّن من القرآن الكريم أن حالة رجولة الإيمان تتغلب على كل كافر في البداية، وعلى كل مؤمن تتغلب حالة رجولة الكفر. فمثلاً إذا كان أحد جاهلاً فيسبّب جهله تنشأ في قلبه رغبة عارمة في تحصيل العلم. ولكن عندما ينال المرأة العلم يطمئن أنه حاز العلم. وهذا المبدأ ينطبق على كل موقف. لقد ضرب القرآن الكريم مثال المؤمن بامرأة فرعون لأن الكفر ينوي أن يتغلب على المؤمن في البداية ولكنه في نهاية الأمر يصبح مغلوباً. هذا ما أشير إليه في حديث مفاده أن لكل إنسان بيّنا في الجنة وبيّنا في الجحيم. ولكن هذا لا يعني أن لكل إنسان بيّنا في الجنة وبيّنا في

الجحيم في الحقيقة بل المراد أن في الإنسان كلتا القوتين. قوة الكفر تجره إلى الكفر وقوة الإيمان تجره إلى الإيمان، فينجرّ المرء إلى هذا الجانب أو إلى الآخر.

الحقيقة أن الرجلة في مصطلح القرآن الكريم تُطلق على القوة الفاحصة، والأنوثة تسمى الفيضُ. ولكن الإنسان ينصرف فيما بعد إلى هذه القوة أو تلك، غير أن هناك بعض الاستثناءات وهم أناس ذوو صفات مرعية. أي أن رجولتهم وأنوثتهم تكون متصبغة بصبغة واحدة منذ البداية، فهم يحتلون مقام القدوسيّة، بمعنى أن بعض الناس يملكون بطبيعتهم صفة التأثير والتأثير أيضاً. عندما تكتمل رجولتهم وأنوثتهم يولّد نتيجتهما ولدٌ يتصف بصفة القدوسيّة أو بصفة كونه مسيحاً، أما غيرهم فيكسبونها كسباً. ولكن الذي يتحلى بـهاتين القوتين توهب له مرتبة جديدة ويولّد ولادة جديدة. عندما استدلّ المسيح الموعود عليه السلام من سورة التحرّم أن بعض الناس يملكون صفات مرعية اعترض عليه الجهلاء وقالوا بأنه يدعى تارة بكونه امرأة ويدعى بالحمل تارة ويُدعى الإنجاب تارة أخرى، مع أن جميع الصوفية قالوا مثل قوله. فقد روى شهاب الدين السهروردي رحمة الله في كتابه "عوارف المعارف" عن المسيح عليه السلام رواية: "لن يلتجّ ملوكوت السماء من لم يولّد مرتين"١. أي ولادة حدثت بيد الله وولادة أخرى هي ولادة مرعية. ثم يقول: "وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء. ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل، والعقل إذا كان يابسا من نور الشرع لا يدخل الملوكوت ولا يزال متزددا في المُلْك"٢.

إذن، في الأمور الروحانية أيضاً أزواج، وهذا ما أشير إليه في حديث: مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُسُهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ

١ "عوارف المعارف" للسهروردي: ص ٤٥ - ٤٦، و"إحياء الدين" للغزالى: ص ٧٤، طبعة

بيروت عام ١٤٠٤ هـ.

٢ المرجع السابق.

إِلَّا مَرْمَمٌ وَابْنَهَا. (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن: تفسير سورة آل عمران، آية: وإن أعيذها بك..)

ليس المراد هنا مريم وعيسى عليهما السلام حسرا بل المراد هو كل من يملأ صفات مريمية، وإلا نضطر إلى القول إن الشيطان مسّ رسول الله ﷺ أيضاً، والعياذ بالله. الحقيقة أن النبي ﷺ بين في هذا الحديث أن هناك ولادتين كاملتين، ولادة مريمية ولادة عيساوية. إن الذي يولد بصفات مريمية يصبح مسيحاً، والذي يولد بصفات عيساوية يصبح محمداً ﷺ. الذين ولدوا بصفات المسيح كانوا أنبياء متصفين بصفات الجلال، وكان أصحاب الصفات المريمية متصفين بصفات الجمال. أي أحد الحزبين ملكوا صفة التأثير والآخر صفة التأثير كاملاً. أي أن الصفة الأصلية لدى أحد الحزبين هي صفة الأنوثة وتكتمل الرجولة فيما بعد، وهم أنبياء تابعون ومتصنفون بصفات الجمال، وهناك حزب آخر يتولّون من كيان ذي صفات مسيحية ثم تكتمل أنوثتهم وهم يتصنفون بصفات الجلال، أي الأنبياء المشرّعون.

باختصار، في السلسلة الروحانية أيضاً أزواج، ولا يكتمل أي إنسان ما لم يجتمع صفاته المتعلقة بالرجولة والأنوثة مع بعضها وما لم تكن هاتان الصفتان الكاملتان اللتان يمكن أن نسميهما بتعبير آخر جانب الأخلاق الذي يؤثّر ويتأثر. عندما ينشأ هذان الجانبان تتولد الروح الجديدة التي تُسمى خلقاً جديداً. والروحانية تنال السكينة باجتماع التأثير والتأثر، ويطمئن قلب المرء لدرجة يحظى عندها بولادة جديدة ويصبح مقرباً إلى الله تعالى.

إنها لَمسَأَلةٌ واسعةٌ لعلم النفس الروحاني أنْ جَمِيعَ قُوَّىِ أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِ  
الَّتِي يَتَعْلَقُ بَعْضُهَا بِقُوَّةِ الرَّجُولَةِ وَبَعْضُهَا بِالْأَنْوَثَةِ - عِنْدَمَا تَجْتَمِعُ بَعْضُهَا تَنْشَأُ  
الْأَخْلَاقُ السَّامِيَّةُ. وَلَكِنَّ مَا دَامَ هَذَا الْمَوْضُوعُ لَا يَعْنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ لَذَا  
اَكْتَفَيْتُ بِالإِشَارَةِ إِلَيْهِ فَقَطُّ.

## صفة المودة في الرجل والمرأة

الأمر الثاني الذي يبيّنه الله تعالى هو: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾ (الروم: ٢٢) والمودة تعني الحبّ، ولكن إذا أمعنا النظر في استخدامهما ومعانيهما لوجدنا أن بينهما فرقاً وهو أن المودة تعني حبّاً يقدر على جذب غيره في نفسه. ولكن لا يوجد هذا الشرط في الحبّ، لذلك استُخدمت كلمة "المودة" للحب المتبادل بين البشر. والمراد من ذلك أن الرجل يودّ أن يفوز بالمرأة والمرأة تودّ أن تفوز بالرجل. ومن يفوز بغيره من بينهما يسمى رجلاً ومن يُفاز به يسمى امرأة. ولكن هذه الكلمة لم تستُخدم بحق الله تعالى لأن العبد لا يقدر على أن يجذب الله تعالى. فلم يرد في القرآن الكريم أن العبد ودود الله ولكن جاء بحق الله أنه ودود فهو يجذب العبد. بينما استُخدم الله تعالى كلمة المودة بحق الرجل والمرأة. ولما كان إكمال الإنسان مطلوباً لذا فقد أودع الله تعالى في الرجل والمرأة مشاعر بمحبت يودّ الرجل أن يجذب المرأة والمرأة تودّ أن تجذب الرجل. ولكن العبد لا يستطيع أن يجذب الله تعالى. لذا وردت بحق العباد كلمات مثل: ﴿يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَ﴾ و﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولم يرد: "يودون الله".

لقد بين الله تعالى بخلق علاقة المودة بين الرجل والمرأة بأنه تعالى جعل بهذه الطريقة من نفس واحدة جزأين أودعهما عاطفة الجذب، فيجذب كل جزء غيره إلى نفسه. وهكذا تظل الإنسانية تجري نحو الكمال تلقائياً. وإن لم يخلق الله تعالى هذه المودة لامتنع كثير من الناس من الزواج خشية المشاكل الناتجة عنه ولقالوا: لماذا نبذل الأموال ولماذا نجعل أنفسنا تحت أعباء المسؤوليات. ولكن ما دام الله تعالى قد خلق المودة بين الرجل والمرأة فيتحمل الناس مشاكل الزواج.

## العلاقة بين الرجل والمرأة مدرسة رحمة

الأمر الثالث الذي يبيّنه الله تعالى هو أن الرحمة حُلقت بهذه الوسيلة، لأن النفس عندما تشعر بأنها تملك شيئاً معيناً تعامله بالرحمة، فعندما يشعر الرجل بأن المرأة

جزء منه يحميها أيضاً. قد يقول بعض: ألا يحدث الشجار والنزاعات بين بعض الرجال والنساء؟ فجوابه أن هذا يحدث حينما لا يجتمع الجزءان المناسبان مع بعضهما كما يجب، وحينما يجتمع الجزءان الصحيحان تسرى أمور الحياة بالأمن والسكينة والوئام تماماً ولا يحدث شجار ولا نزاع. لقد لوحظ ماراً أن النزاع يستمر بين رجل وزوجه حتى يبلغ الأمر إلى الطلاق في نهاية المطاف، ثم يتزوج الرجل من امرأة أخرى وتتزوج المرأة ب الرجل آخر وتحري حياتهما بكثير من الحب واللوعة. فيتبين من ذلك بكل وضوح أن المرأة قطعة من الرجل دون شك ولكن عندما تجتمع القطعة الصحيحة مع مقابليها ينشأ الأمن والوئام والسكينة. إذن، يرحم الرجل زوجه حاسباً إياها قطعة منه وهكذا يعتاد على الرحم، ثم يمارس عادته هذه في كل موطن. الذين يقومون بالسرقة ويقتلون الناس، لو عاشوا بين الأهل والأولاد لغمرت الرحمة قلوبهم، ولكن بسبب عيشهم منعزلين تندم فيهم الرحمة. لذلك يقال إن إبقاء المجرمين في السجون يؤدي إلى ازدياد الجرائم لأنهم يعيشون منعزلين وتحجر قلوبهم أكثر بسبب عيشهم منعزلين عن الناس. إذن، بسبب العلاقة بين الرجل والمرأة يجب الإنسان مدرسة رحمةٍ يتربى فيها ويظل يتقدم ويجلب رحمة الله. باختصار، لقد بين الله تعالى أن العلاقة بين الرجل والمرأة مبنية على حكمة عظيمة، وقطع هذه العلاقة يجعل الإنسانية والسلوك ناقصاً، وإن إقامتها يؤدي إلى السهولة في السلوك والرغبة في الله تعالى دون العرقلة في هذا السبيل.

### الحكمة في عد المرأة حرثاً

هنا ينشأ سؤال: على أي أساس يجب أن يؤسس الرجل والمرأة علاقتهما؟ من الفلاسفة الأوروبيين من يقول إن الزواج ضروري لتربية الأخلاق ولكن العلاقات الشهوانية ضارة، فيجب اجتنابها. وقد رد الله تعالى عليه أيضاً بالقول: ﴿نِسَاءُكُمْ حَرَثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَثَكُمْ أَيَ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفِسِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤).

قد يقول قائل هنا: ما دام قد قيل (أئن شئتم) فنريد ألا نكون على علاقة مع النساء. فيقول الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي يجب أن تتصرفوا بأسلوب يؤدي إلى استمرار النسل وبقاء الذكرى، فلا تستنكروا هذه العلاقة. لقد دُرِّكت في هذه الآية الأمور التالية:

١- لقد أُجِّيزَت العلاقة بين الذكر والأنثى، ولكن بإشارة دقيقة؛ أي قد بيّن بوصف المرأة "حِرث" أن عمل الإنسان محدود. فما الذي يجب فعله لجعله غير محدود؟ الجواب هو: إجراء النسل. كما أن الحارث لا يترك أرضه دون الزرع فكيف تبدلون وسيلة يمكن أن تجذب ثمارها؟ ولو فعلتم لضاعت بذرتكم.

٢- الأمر الثاني الذي بيّنه الله تعالى هو: يجب أن تكون علاقتكم مع النساء بقدر لا تضيع به قوتها ولا قوتكم. فإذا بُذررت في الأرض بذور أكثر من اللازم لضاعت، كذلك إذا استُخدِّمت الأرض بكثرة على التوالي لفسادها. فقال يَعْلَمُهُ اللَّهُ هنا: يجب أن يكون هذا العمل ضمن المحدود. كما أن الحارث الفطين يستخدم الأرض بالحكمة ويهتم بعمر البذور التي يجب زراعتها، وإلى أي مدى يحصد منها الزرع، كذلك يجب أن تتصرفوا بالحكمة.

يتبيّن أيضًا من هذه الآية أن الذين يقولون إنه لا بد من إنجاب في كل الأحوال ولا يجوز ضبط إنجاب الأولاد بأي حال مخطئون. كما لو زُرعت الأرض فورا بعد الحصاد لما كان الزرع التالي جيدا، والزرع الذي يليه سيكون أسوأ من سابقه. الإسلام لا يمنع من إنجاب الأولاد بل أمر بذلك، بل قال إلى جانب ذلك أن قانون الله الذي تلتزمون به بشأن الزرع التزموا بالقانون نفسه في إنجاب الأولاد. كما أن الحارث الفطين لا يستخدم أرضه إلى حد يؤدي إلى إهلاكها أو يضعف نفسه لدرجة لا يقدر عندها على حصد الزرع، أو أن يكون نتاج أرضه غير سليم، كذلك عليكم أن تهتموا بأزواجكم. أي إذا لم تتم تربية الأطفال على ما يرام وكان هناك خطر على صحة المرأة فتوقفوا عن الإنجاب.

والأمر الثالث الذي بيته الله تعالى هو أنه لو عاملتم النساء بالحسنى لترك ذلك تأثيراً حسناً على الأولاد، وإن ظلمتموهن لما كان الأولاد مخلصين وأوفياء لكم. فيجب أن تعاملوا النساء بالحسنى ليكون الأولاد جيدين. أما إذا فسدت المزرعة بسبب سوء المعاملة لكان الحصاد أيضاً فاسداً، أي أن سوء معاملة النساء سيؤدي إلى سوء أخلاق الأولاد لأنهم يتعلّمون الأخلاق من الأمهات.

الأمر الرابع المذكور هو أنه يجب أن تكون علاقتكم مع الزوجة بأسلوب يؤدي إلى الإنجاب. بعض السفهاء يزعمون أن في آية: ﴿فَأُثُرُوا حَرَثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ إذن لفعل يخالف الفطرة، ولكن زعمهم هذا خطأً تاماً. يقول الله تعالى أن اعملوا ما يُبَتُ الزرع. القرآن الكريم كلام الله تعالى وهو يذكر الأمر بكلمات مكشوفة بقدر ما كان ضرورياً بحسب مقتضى الأخلاق، أما ما سواه فيذكره إشارة وتلميحاً. لقد أذنَ الله تعالى في قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أن النساء حرث لكم فعاملوهن كما تشاورون، ولكن تذكروا نصيحة أنه يجب أن تعاملوا بما فيه خير لكم، وإنما ستواجهون مغبة أعمالكم. هذا الأسلوب من الكلام متداول في العالم كله. فمثلاً نؤجّر بيتاً لشخص ونقول له: استعمله كما تشاء، يكون المراد من ذلك أن عليك أن تنتبه جيداً إلى أنك إن لم تهتم به جيداً للحق به الضرر وبالنتيجة ستواجه خسارة.

كذلك عندما يزوج الناس ابنتهما يقولون لزوجها وأهله مثلاً: لقد سلمناها إليكم فلكلم أن تعاملوها كما تشاورون. ولكن لا يكون المراد من ذلك أن تسيئوا معاملتها بل يكون المراد بأنها صارت جزءاً منكم وعليكم أن تهتموا بها. فالمراد من ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ هو أن زوجتكم صارت جزءاً لكم، فإن أساءتم معاملتها وكانت النتيجة سيئة في حقكم وإن أحسنتم معاملتها كانت النتيجة حسنة في حقكم. الحق أن الناس يستنتجون من هذه الآية معنى خاطئاً ويزعمون أن لهم الحق أن يفعلوا ما يحلو لهم دون حدود وقيود.

## علاقة الزواج بإكمال الروحانية

ثم يقول القرآن الكريم إن في الجنة أيضا زوجات. يتبيّن من ذلك بوضوح أن العلاقة بين المرء وزوجته ضرورية عند الإسلام لإكمال الروحانية، وإلا ما الحاجة إلى الزوجات في الجنة إذ لا إنجاب فيها. فتبين بكل جلاء أن الهدف الحقيقي من الرجلة والأنوثة هو إكمال الإنسانية، أما الأولاد فهم كفائدة ثانوية.

باختصار، خذوا أيّاً من أوامر الإسلام، مهما كان يتعلّق بالمراحل الأولية، ستجدون فيه تعليم الإسلام هو الأفضل. كم هي مسألة العلاقة بين الذكر والأنثى أولية! وكم جعلها القرآن الكريم مسألة علمية! بينما قد لا تكون مذكورة أصلاً في الكتب الأخرى. إذن، لا ندعّي فقط أن القرآن الكريم يتناول أموراً لا يتناولها أيّ كتاب ديني آخر، بل ندعّي أيضاً أنه لم يُذكَر في القرآن شيء إلا وهو مذكور بوجه أفضل مما هو في كتب موحى بها للأديان الأخرى سواءً كان يتعلق بالأكل والشرب أو بأمور التجارة أو المعاملات. نستطيع أن نتحدى بهذا الشأن أن ينهض أيّ من النصارى والمُهندس أو من أتباع أيّ دين آخر ويطالعنا أن ثبت له أفضليّة بيان القرآن الكريم في أية قضية، وسوف نثبتها حتماً بإذن الله تعالى.

فالقرآن الكريم ليس أفضل من غيره في بعض الأمور فقط بل هو أفضل في كل شيء حتى من حيث اللغة. ولكن ما دامت التفاصيل تقود إلى العثور على الجزئيات فقط لذا أعود الآن إلى الأصول.

لقد بيّنت في جلسة العام المنصرم ستة أصول لأفضليّة القرآن الكريم، وأثبتتُ أنه أفضل من الكتب الأخرى في كل واحد منها. وتلك الأصول هي: (١) مصدره أفضلي. (٢) جماله الظاهري. (٣) يحقق الهدف الذي جاء من أجله. (٤) فائدته أفضلي. (٥) ليس محرّقاً. (٦) ما يملّكه المرء بنفسه.

والآن سأتناول بعض الأصول الأخرى للأفضليّة وأبيّن أن القرآن الكريم أفضل من جميع التعاليم الإلهامية وغيرها من منطلق هذه الأوجه أيضاً.

## الوجه السابع لأفضلية القرآن الكريم

الوجه السابع لأفضلية شيء هو أن يكون مصنوناً أكثر من التمزق والاهتراء أكثر من الأشياء من جنسه. فمثلاً عندما نشتري ثوباً نبحث عما يمكن استخدامه لمدة أطول نسبياً، ولا نشتري ما كان قابلاً للتمزق سريعاً. والمبدأ نفسه ينطبق على أشياء أخرى، فنشتري ما كان أكثر متانة ونترك ما كان على عكس ذلك. ينشأ هذا السؤال عن التعاليم أيضاً دون شك. فمثلاً لو كان هناك تعليمان متساويان لكن المصنون من الفساد والتحريف هو المقدم حتماً. فنرى من هذا المنطلق هل القرآن الكريم مصنون من التمزق والاهتراء أم الكتب الأخرى؟ ما معنى تمزق الكتب الإلهامية واهتراءها يا ترى؟ معناه أن يكون تعليمها مصنوناً من الفساد والتحريف وألا تكون هناك إمكانية تحريفه في المستقبل أيضاً. لقد قلنا من قبل إن الكتب الأخرى طالها التحريف ولكن القرآن منه عنه، مع أن بياني كان بإيجاز شديد حتى أني ما تمكنت من بيان الأدلة. ولكن سأبين الآن أن القرآن الكريم محفوظ بحيث لا يمكن أن يطاله التحريف أبداً. هناك فرق كبير بين عدم التحريف واستحالة التحريف مستقبلاً. القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يمكن أن يطاله التحريف أبداً وذلك للأسباب التالية:

(١) يدعى القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْدِّيْكُرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠) ومن الحقائق الثابتة أنَّ الشيء الذي يحفظه - كل حين - قادرٌ ذو قدرة بلا حدود لا يمكن أن يتعرض للفساد أو يطاله التزيف أو التحريف. غير أن هذا الادعاء بحث ولا أقدمه كدليل حالياً. القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى في هذا الادعاء أيضاً لأنَّه ما من كتاب آخر ادعى أنَّ الله تعالى حافظه، فلم يدع ذلك الإنجيل ولا التوراة ولا الفيدا ولا كتاب آخر. أما القرآن الكريم فقد بينَ السبب أيضاً مع هذا الادعاء، وهو: (أ) إنه ذِكر كامل، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْدِّيْكُرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي نحن أنزلنا هذا الذكر الكامل، ولأنَّ وقوع الخلل فيه يؤدي إلى دمار العالم لذا نتحمل مسؤولية حفاظته. كلما يُصنع شيء جديد يُجعلُ أفضل من سابقه. ولكن

ما دام القرآن الكريم كاملاً، فلا حاجة لتفكيره أبداً. (ب) الأمر الثاني الذي يبيّنه الله تعالى هو: لقد وهبنا القرآن الكريم كاملاً، وما دمنا نحن وهبنا له الكمال فكيف يمكن أن نضيع كاماً وهبناه؟

### وسائل حفظ القرآن الكريم

ثم ذكر الله تعالى الوسيلة أيضاً لحفظ القرآن الكريم فقال في سورة الحجر: ﴿تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ٢)، "مبين" أي كتاب يكشف الحقائق كلها. فلما قال الله تعالى عن القرآن الكريم إنه كتاب كامل، وكان معناه أنه سيقى محفوظاً، فاعتراض الكفار وقالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتَنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الحجر: ٨)، أي إذا كانت حفاظة هذا الكتاب مقدرة فلماذا لم تُخبر بوسائل حفظه، إذ كان من المفروض أن ينزل معه الملائكة. هذا الاعتراض كان معقولاً من وجهة نظرهم، لذا رد الله تعالى عليه قائلاً: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (الحجر: ٩). أي الملائكة رسول، فيأتون بأنباء العذاب أو بالبشارات. فهم لا يقدرون على أن يحفظوا كلام الله! الملائكة لا يملكون علماً كاملاً، فلا يقدرون إلا على حفظ الكلمات على أكثر تقدير ولا يقدرون على حفظ المعاني والمفاهيم. فلا يقدر أحد على الحفظ إلا نحن، فنخبركم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي قد قررنا حفظه ونحن المسؤولون عنه. فلكل الكفار في المستقبل أن تسعوا بكل ما في وسعكم، ولن تقدروا أنتم ولا أحد في المستقبل على فعل شيء. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيعِ الْأَوَّلِينَ \* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ \* كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ \* لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ حَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١١-١٤)، أي قد واجه الأنبياء السابقون أيضاً الإنكار والاستهزاء، ولكنهم لم يقولوا عن كتاب نزل عليهم إنه سيقى محفوظاً إلى الأبد، فلماذا استهزا الناس بهم؟ ليس هؤلاء الناس هدف إلا الاعتراض فحسب، وما يقولونه ليس معقولاً قطعاً، بل هو نتيجة جريمة ظهرت في كل زمان.

أما الدليل على الحفظ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ \* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرْتُ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْخُورُونَ \* وَلَقْدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ \* وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \* إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتَبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ١٥-١٩)، أي يقول هؤلاء السفهاء جهلاً منهم إن القرآن أيضاً كتاب مؤلف من كلمات، فلما فسدت الكتب مثله من قبل فلماذا لا يمكن فساده؟ الحق إنهم لا ينظرون إلى وسائل سماوية، فهو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء ورجعوا إليها- أي اطّلعوا على وسائل سُحرٍ لحفظ هذا الكتاب- لما قالوا مثل هذا الكلام السخيف. لو رأوا وسيلة واحدة لاستغربوا وقالوا: ﴿سُكِّرْتُ أَبْصَارِنَا﴾ فلا نستطيع أن نرى شيئاً، أما ما نراه فلا يمكن حدوثه على صعيد الواقع؛ أي قد عميّت أبصارنا، وإنْ هذا إلا حُلم، أو قد سحرنا هذا الشخصُ لدرجة إن هذا القدر الهائل من الوسائل يُؤيد هذا الكلام.

ثم يذكر الله تعالى وسيلة من تلك الوسائل ويقول: ﴿وَلَقْدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٧)، أي قد جعلنا في سماء هذا الكلام نجوماً متلائمة، أو سحرنا بعض النجوم للمحافظة عليه. وزيننا سماءه بالنجوم، أي أكثرناها فيها و: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (الحجر: ١٨)، أي حفظنا هذه السماء بواسطة هذه النجوم من كل شيطان رجيم يريد إفسادها، فلا يسع شريراً أن يمسّ هذا الكلام بسوء؛ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتَبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ١٩)، إلا أنه يمكن أن يسمع أحد من بعيد مما جاء في هذا الكلام ويُسعي لإفساد معانيه كما يفعل النصارى، ولكنهم يكونون من يسمعون من بعيد ويختلقون الأمور من عندهم، ولكنهم لن يكونوا في مأمن بل نسحر لهم شهاباً يكشف حقيقتهم، أي قد عيّنا رجالاً سُيُّهلكون- بصفتهم شُهُبَا - كُلَّ من حرف معنى آية.

فقد اختيرت هذه الوسيلة لحفظ القرآن الكريم. وقال الله تعالى في: ﴿رَيَّنَاها﴾ إن وسائل النور التي جعلناها ليست قليلة بل هي كثيرة جداً، ثم بين في ﴿مُبِينٌ﴾

حقيقة أنه ليس المراد من الشهب التي تسقط، بل المراد أن كل من يبين مفاهيم القرآن الكريم سيكون شهابا.

وقد قيل في هذه الآية إنه لا يسع أيّ شيطان أن يمس السماء. وقد فصّل هذا الأمر في آية أخرى بكلمات: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة :٨٠). أي لا يمسه إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وخدام الدين، أما لو أراد غيرهم أن يمسّوه بنية سيئة وبنية إفساده فلن يقدروا على ذلك. فقد جاء بحق القرآن حسراً أن الشيطان لن يقدر على مسّه، وإلا فلما كان الشيطان لا يستطيع أن يمس سماء فهل يستطيع الإنسان أن يمسّها؟ أما هذه السماء فلا يستطيع الشيطان مسّها ولكن المؤمن يقدر على ذلك. فالقرآن هو الذي يستطيع المؤمن أن يمسه.

وقد فسّر ذلك في آية أخرى حيث يقول الله تعالى إن بعض الجنّة حين رجعوا بعد سماع القرآن قالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهِيدًا \* وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلشَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَّا يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَصَادًا﴾ (الجن: ٩ - ١٠)، أي كنا نلمس السماء من قبل أما الآن فحين حاولنا ذلك وجدنا أن هناك حرساً كثيرون لحفظها ووجدناها ملئت شهباً. كنا من قبل نسترق السمع جالسين في السماء، أما الآن فحين يحاول أحد السمع يُمطر بالحجارة.

يتبيّن مما سبق أن السماء التي نراها ليست إلا جوًّا وليس لها مكان يمكن للإنسان أن يجلس فيه. ولو افترضنا جدلاً أنه يمكن لأحد الجلوس فيها فهذا يعني أن الشياطين كانت تجلس في السماء قبل بعثة النبي ﷺ ولكنها لم تجلس بعده ﷺ، مع أنه يتبيّن من الحديث أن الأرواح الكافرة لا تستطيع الوصول إلى السماء. فنقول: إذا كان الشيطان يجلس في السماء قبل بعثة النبي ﷺ فلماذا لا يجلس الآن؟ ألم يكن الله بحاجة إلى حفظ الغيب من قبل؟ ثم من كانوا يأتون إلى الأرض بعد أن يسمعوا غيب الله تعالى؟ القرآن الكريم يدحض هذا المعنى بكل وضوح، ويقول بأنه ليس لأحد أن يصل إلى السماء ولا يمكن أن يطلع على الغيب دون أن يطلع الله عليه.

ولو أخذنا بالمعنى المذكور لاضطررنا إلى الاعتراف بأن الله تعالى أيضاً ما كان يعرف الغيب، والعياذ بالله، لأنه كان هناك من يذهب إلى السماء ليستمع أمور الغيب دون أن يعرف الله بوصوله، أما الآن فقد وضع الله حراساً للعثور على ذلك.

الحقيقة أن الآيات المذكورة تعني أن الكتب التي جاءت من السماء الروحانية من قبل كان الأعداء قادرين على لمسها، أي كانوا يفسدوها ويبدلونها، أما الكتاب الذي جاء الآن فلا يقدر أحد على المساس به - أي على إفساده؛ لأنه قد أخذت إجراءات ضرورية لحفظه. بينما كان، أي بعض منا؛ يسمعون الكلام من قبل ثم يروونه باللف والدوران كما يحلو لهم، أما الآن فقد سُدّ هذا الباب إذ جاء الكتاب الذي لا يمكن لفسد أن يلمسه، بل لو حاول أحد فعل ذلك لسقط عليه شهاب ثاقب فوراً. إذن، الممس محال قطعاً وأما السمع فممكן ولكن إلى جانب ذلك هناك وسائل تفيد أنه إذا حاول أحد أن يقول شيئاً خلط الكذب فيه، وليس مع بسوء النية، يتم دحشه فوراً.

باختصار، قد **حفظ** القرآن الكريم حفظاً كاملاً بحيث لا يقدر أحد على تحريف ألفاظه، كذلك وضع الله تعالى ضد مفسدي معانيه أيضاً أسباباً تُصلح ذلك الفساد باستمرار.

قد يظن هنا أحد أن الكلمة الواردة في الآية هي "السماء" فلا بد أن يكون المراد هو لمس السماء دون غيرها. فليكن معلوماً بهذا الشأن أن:

(١) السماء التي ينزل منها الكلام لا يمكن أن تكون سماء مادية، وإنما لا بد من الاعتراف بكون الله أيضاً مادياً. وأضف إلى ذلك أن السماء إنما هي مادة لطيفة وليس صلبة حتى يُعقل لمسها والجلوس فيها. فلا بد من أن نستنتج أن السماء التي نزل منها الكلام لها معنى آخر.

(٢) تُستخدم في اللغة العربية كلمة "السبب" و"المقام" على سبيل الاستعارة لشيء أيضاً يخرج من السبب والمقام، لذا من معاني "السماء" المطر أيضاً، فلأن

المطر ينزل من الأعلى لذا يُطلق عليه "السماء" أيضا. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٧)، أي أرسلنا عليهم السُّحب الماطرة مطرا غزيرا. كذلك تُطلق "السماء" على الخضروات والأعشاب أيضا لأنها تنبت بالماء. يقال: "ما زلنا نطا السماء حتى أتيناكم".

إذن، المراد من السماء هنا هو الكتاب السماوي، وإن لا معنى للقول بأننا كنا نسمع من قبل جالسين هنالك ولكن لا نستطيع فعل ذلك الآن. لماذا كانوا يسمعون من قبل ولا يسمعون الآن؟ لا بد من أن نبحث عن سماء كانوا يلمسونها من قبل ولا يستطيعون لمسها الآن. يتبين من القرآن الكريم بهذا الشأن أن المراد من تلك السماء هي الكتب السماوية، لأن الناس كانوا يحرفوها من قبل، فقد جاء في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّرِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ \* رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحْفًا مُطَهَّرًا \* فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ﴾ (البينة: ٤-٢)، أي لن يخلِّي أهل الكتاب والمشركون عن جهلهم ما لم تأثِّم البينة. ولكن ما هي البينة؟ إنما رسول الله الذي يتلو عليهم كتابا ذي صحف مطهَّرة كثيرة. كان هناك عديد من التعاليم التي تطرق إليها الفساد ولكنها عُرضت في القرآن في حالتها الأصلية. فلما اجتمعت في القرآن كتبٌ قِيمَة، لذا لا يمكن أن يفسد.

فبوصف القرآن الكريم بـ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ﴾ بين الله تعالى أنه كان في التعاليم السابقة عيَّان اثنان. أولهما الذي لم تُعَد من حاجة إلى إصلاحه، لأنَّه نُسخ، لذا فقد تركه وشأنه. أما العيب الثاني الذي كان في تعليم كان بقاوته مقدّرا، فقد أُصلح ذلك العيب وأُخذ التعليم. باختصار، إذا كان التعليم من النوع المذكور قد فسد ولم يُعَد العالم بحاجة إليه فقد أُهمل ذلك التعليم. أما إذا تطرق الفساد إلى تعليم كان جديرا بالبقاء فقد أُخذ التعليم السليم بعد إصلاح العيب فيه.

## أساس السماء الروحانية على صفاتي الله "الحي والقيوم"

السماء الجديدة التي تكونت بواسطة القرآن الكريم مقابل التعاليم السابقة قد أُسّست على صفاتي الله "الحي والقيوم". الكلام على مختلف الأنبياء كان ينزل بحسب صفات الله المختلفة، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَاءٍ﴾ (الرحمن: ٣٠)، أي أن كلام الله ينزل في زمن كلنبي كان ينزل بحسب صفات الله المتتجدة. المراد من "يوم" في هذه الآية هو زمن النبوة إذ يقول تعالى في آية أخرى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ إِمَّا تَعْدُونَ﴾ (السجدة: ٦). إذن، المراد من "يوم" هو زمن النبوة، والمراد من السماء هو القرآن الكريم لأنّه قد وُصف بأنه "صحف مرفوعة"، ومعنى السماء العلوّ أيضاً. فيمكن إطلاق كلمة "السماء" على هذه السماء الروحانية، وقد استُخدمت لهذا الغرض صفتان: "الحي والقيوم".

الدليل على أن القرآن الكريم مؤسس على صفاتي الله "الحي والقيوم" موجود في القرآن والحديث، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سُئل: أي آية من آيات القرآن هي الأعظم فقال: آية الكرسي. (انظر سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي) وأساس آية الكرسي هو على "الحي والقيوم". هذه الرواية مروية عن أربعة أو خمسة من الصحابة ﷺ من فيهم أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة ﷺ، ومذكورة في معظم كتب الحديث.

المراد من أعظم آية هو أن هذه الآية منبع القرآن الكريم وإلا فكل الآيات هي أعظم. "المنبع" يُطلق على آية هي بمنزلة الأُمّ، أي فيها ما يميز القرآن الكريم من حيث الأصول عن كتب أخرى. هناك رواية عن علي بن أبي طالب رض أن النبي ﷺ قال: "أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش، ولم يؤتّهانبي قبلّي". (الدرر المنثور) الحق أنه لم يُعطّنبي قبله رض أي آية من آيات القرآن الكريم، ولكن المراد من عدم إعطاء آية الكرسي هو أنه لم ينزل على أيّنبي كلام بحسب الصفتين المذكورتين في هذه الآية.

أي: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ففي سورة آل عمران ذكر الله تعالى نزول القرآن الكريم ببيان هاتين الصفتين. فقال إن هذا الكتاب نزل من الحيّ، الله الذي هو حيّ بنفسه ويحيي الآخرين، أي أن هذا الكلام سيقى حيا إلى الأبد وسيهب الحياة. وقد نزل هذا الكتاب من القيوم الذي هو قائم بحد ذاته وهو قيوم الآخرين أيضا. فسيجعل هذا الكتاب قائما إلى الأبد. يقول النبي ﷺ عن آية الكرسي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشَكَ فَأَقْرَأْتَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظًّا، وَلَا يَقْرِبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن) فتبين من ذلك أن للقرآن الكريم علاقة متينة مع هاتين الصفتين.

ثم نرى أن هذا هو الكلام الوحيد الذي قال الله تعالى عنه: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، فهذا هو الكلام الوحيد الذي وعد بيقائه حيا وبمحفظه ولم يرد هذا الوعد عن أيّ كلام آخر من قبل مع أن كافية تلك الكتب كانت سماوية، والناس كانوا يلمسونها. ولكن الكلام الذي مُنْعِنَ من ملسمه هو هذا الكلام، أي القرآن الكريم. فمن الواضح أنه قد أشير إلى هذا الكلام حصرا في آية جاء فيها: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا﴾. يجب التذكر أيضا أنه إن لم يكن المراد من الحفظ هو حفظ القرآن الكريم فما معنى ذكر نزول الشهاب بشأن سؤال الكفار؟ كان الكفار يسألون عن القرآن الكريم، فما معنى القول ردّا عليهم إن الشيطان لا يمكن أن يصل إلى السماء، وإذا فعل سقط عليه شهاب؟

## التحريف في الكتب السابقة

انظروا كيف حُرِّفت الكتب السماوية السابقة؟ لقد نزلت التوراة على موسى وورد فيها ذكر موت موسى نفسه. كذلك ذُكر موت المسيح عليه السلام في الإنجيل. يقول المجوس بأنفسهم عن كتبهم "دستير" إن المسلمين أفسدوها. أقول: سوف يُرى لاحقا إلى أي مدى تدخل المسلمين في الكتب السماوية للمجوس، ولكن يثبت من قولهم هذا أن التحريف قد طال كتبهم. كذلك إن هيئة "الفيديات" توحى بأنها قد حُرِّفت.

وقد عُلِّم فيها الأدعية عن اختطاف نساء الآخرين وعن السرقة، وتوجد فيها تعليمات قيل فيها بأنه يجب القيام بالسرقة من حيث لا يرى السارق أهل البيت. الكتاب الذي يعلم السرقة والاختطاف كيف يعقل كونه مصوناً من مسِّ الشيطان؟ يثبت من الأمور مثلها بخلاف أن الشيطان مسَّ هذه الكتب. أما القرآن الكريم فلا يدعى نزاهته فقط مقابل ذلك بل يقول أيضاً: ﴿لَا يَمْسِهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، أي لا يقدر أحد على المسِّ به بسوء، ولو حاول أحد ذلك لسقطت عليه الشهب. هذا ليس بأمر عادي، في حين نرى أن الكتب الأخرى يحرّفها الناس بين حين وآخر. ولقد أعلن مؤخراً المسيحيون أنفسهم عن الكتاب المقدس ما مفاده:

"نشرت مؤسسة الكتاب المقدس بجموعة مجلدات للترجمة الجديدة بعد تفكير طويل ورثين راجية أن تصالها الاعتراضات على هذه الترجمة، فتُبَرَّأَ فيها تعديلات مناسبة نظراً إلى الاعتراضات."<sup>١</sup>

كذلك شُطب جزء من الإنجيل نهائياً. عندما اعترض المسيح الموعود ﷺ على شفاء يسوع المسيح المرضى وقال بأنه قد ورد في الإنجيل أن المرضى كانوا يُشفون نتيجة الاستحمام في بِرَكَةٍ، شطب المسيحيون منه هذا الكلام قائلين بأنه كان مقتبساً من كتاب آخر ولكنه نُقل في الإنجيل خطأً. فنقول: هذا يثبت أن الشيطان مسَّ الإنجيل بينما لم يقدر أحد على مسِّ القرآن الكريم. لماذا لا يحاول أتباع الكتب الأخرى تحريف القرآن الكريم؟ لماذا يخافون ذلك؟ حاولت الحكومة الروسية ذات مرة أن تمحو من القرآن الكريم آيات تتعلق بالجهاد، فقامت في البلاد ثورة وضجة كبيرة حتى اضطرت الحكومة إلى التراجع عن نيتها القدرة. هذه أيضاً كانت الشهب التي سقطت على الحكومة. لماذا لا يحدث هذا مع الإنجيل؟ ثم حدث أن الحكومة الروسية التي أرادت شطب الآيات المتعلقة بالقتال من القرآن الكريم واجهت الحرب بنفسها.

<sup>١</sup> جريدة نور أفغانستان، عدد ٢٨/١١/١٩٣٠ م.

## حفظ القرآن الكريم والمستشرقون

الوسيلة الثانية التي تحول دون أي تحرير وتبديل في القرآن الكريم، كما بينها الله تعالى في الآية المذكورة هي أن هناك حارساً مسحّرين لحماية القرآن الكريم، فلا يمكن أن يحدث فيه أي تغيير. وقد ذكر هذا الموضوع بتفصيل أكثر في آية أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُهُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرُهُ فِي صُحْفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَّةٍ﴾ (عبس: ١٢-١٧). إنها آية عجيبة بحيث يبدو بقراءتها أنها أنزلت بالنظر إلى أدبيات النصارى. لقد استخرجت من كتبهم الحالية كلمات تبدو أنها شرح هذه الآية. يقول الله تعالى أننا سحرنا لحفظ هذا الكلام وسائل ومنها: (١) إن هذا الكتاب سيقى مكرماً إلى الأبد، ونلقى إكرامه في قلوب الناس، فلن يحرّفوه ولن يفسدوه بسبب إكرامهم واحترامهم له. وقد قبل السير "وليم موير" هذا الاحترام كما يلي:

The two sources would correspond closely with each other; for the Coran, even while the Prophet was yet alive, was regarded with superstitious awe as containing the very words of God; so that any variations would be reconciled by a direct reference to Mahomet himself, and after his death to the originals where they existed, or copies from the same, end to the memory of the Prophet's confidential friends and amanuenses.<sup>1</sup>

أي أن هيبة القرآن الكريم كانت مستولية على الناس لدرجة أنهم ما كانوا يقررون بشأنه شيئاً بعقولهم، بل كانوا يسألون رسول الله أو يراجعون الحفاظ ويقارنونه بنسخ القرآن الكريم ولا يقررون بأنفسهم شيئاً.

الأمر الثاني المذكور في هذه الآية هو: ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي لا يمكن أن يتطرق إليه الفساد باطنياً أيضاً، لأن مفاهيمه جعلت سامية جداً، وقد أودع علوماً بأسلوب لا يقدر على فهمها من لا يؤمن به كلام الله. من المعلوم أنه لا يحرّفه أحد إلا إذا

<sup>1</sup> The Life of Mahomet By William Muir P. 555 Published in London 1877.

فِهِمْ مَعَانِيهِ وَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْ غَيْرَ فِيهِ شَيْئاً لَصَارَ الْكَلَامُ عَلَى نَحْوِ كَذَا. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ وَضَعٌ فِيهِ مَفَاهِيمٌ بِحِيثُ لَا يَسْعَى لِتَحْرِيفِهَا مِنْ لَا يَفْهَمُهَا. أَمَّا الْأَعْدَاءُ فَيَقُولُونَ بِأَنَّهُ كَلَامٌ فَارِغٌ وَمُجَمُوعَةٌ لِكَلْمَاتٍ عَدِيمَةِ الْمَعْانِي، فَلَا يَحَاوِلُونَ تَحْرِيفَهُ. يَقُولُ السَّيِّرُ وَلِيمُ مُوَيْرُ بِهَذَا الشَّانَ:

The contents and the arrangement of the Coran speak forcibly for its authenticity. All the fragments that could be obtained have, with artless simplicity, been joined together. The patchwork bears no marks of a designing genius or moulding hand.<sup>1</sup>

أَيْ أَنَّ كَلْمَاتَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَوْحِي بِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَحْرِفْهُ، وَقَدْ وُضَعَتْ جَمِيعُ الْجَزِئِيَّاتِ مَعَ بَعْضِهَا بِكُلِّ بَسَاطَةٍ بِحِيثُ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْلِّبَاسَ الَّذِي رُقِعَتْ بِهِ تَلْكَ الرَّقَعَاتِ لَمْ يَرِقِّعَهَا شَخْصٌ فَطِينٌ.

فَكِيفَ يَتَشَجَّعُ أَحَدٌ أَنْ يُدْخِلَ شَيْئاً فِي كَلَامٍ مَرْفُوعٍ مُثْلَهُ؟ الَّذِينَ يَفْهَمُونَهُ وَصَفُوا بِأَنَّهُمْ بَرَّةٌ، أَمَّا الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَهُ يَحْسِبُونَهُ كَلَامًا بَلَا مَعْنَى، فَلَا يَرَوْنَ ضَرُورَةً أَيْ تَغْيِيرٍ فِيهِ.

الْأَمْرُ الْثَالِثُ الَّذِي يَبَيِّنُهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابُ ثُرَّةٌ مِنْ كُلِّ عِيْبٍ، وَمَنْ تَدَخَّلُ فِي شَيْءٍ سَامٍ مُثْلَهُ يُبَطِّشُ بِهِ فوراً. انْظُرُوا مَثَلَ ذَلِكَ فِي كَشْمِيرِ مُثَلًا، فَحِينَمَا تَمَّ التَّدَخُّلُ فِي الْمَبَانِيِّ الَّتِي بُنِيَتْ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ الْمُغَوْلِيَّةِ عُرِفَ ذَلِكَ فوراً بِكُلِّ سَهُولَةٍ. كَذَلِكَ الْحَالُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى "تَاجِ مَحْلٍ". فَلَوْ رَمَّ الْمَرْءُ مِبْنَى بِسِيَطَةٍ فَإِنَّهُ يَمْكُنُ أَنْ يَخْفِي عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنْ إِذَا فَعَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ فِي "تَاجِ مَحْلٍ" عُلِمَ بِهِ فوراً. إِذْن، إِنَّ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ مَزاِيَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا يَرَوْنَ ضَرُورَةً إِلَى الإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَوْ إِلَيْنَا مِنْهُ شَيْئاً، أَمَّا الْعَارِفُونَ بِهَا فَلَا يَسْتَطِعُونَ أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِي حَسَنَةِ وَجْهَهُ، لَأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَظَهَرَ ذَلِكَ لِلْعَيْانِ فوراً. فَلَا يَتَجَاهِسُونَ عَلَى تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَهَائِيَاً.

<sup>1</sup> The Life of Mahomet By William Muir P. 561 Published in London 1877.

## الوسائل الظاهرة لحفظ القرآن الكريم

لقد سحر الله تعالى وسائل ظاهرية أيضا لحفظ القرآن الكريم، وذكر ثلاث وسائل للحفظ الخارجي أيضا كما ذكر ثلات وسائل للحفظ الداخلي، وقال: **﴿بِأَيْدِيْنِ سَفَرَةٍ﴾**، من معاني "سفرة" **الكتاب**، فتعني الآية من هذا المنطلق أن هذا الكتاب قد أُعطي بيد قوم ظلّوا يكتبونه بقدر ما كان ينزل، وما كتب صار محفوظا. ثم قال تعالى إنه سُلِّمَ إلى **كتاب** **﴿كَرَامِ بَرَرَةٍ﴾** أي إلى أناس محترمين وأطهار وأخيار. أي سيتوفر له دائمًا **كتاب** مخلصون لن يكتبوا طمعا في المال بل سيكونون ثلّة من الأشراف ومكرّمون بكل معنى الكلمة، ويحتلون مكانة سامية بين معاصرهم فيكتبون القرآن لكسب الحسنة فقط. والواضح أن الذين لا يخدم التحرير أي هدف لهم وهم صالحون أيضا لن يرتكبوا التحرير أبدا. فلهذا السبب سنتشر في العالم نسخ القرآن الكريم الصحيحة الكثيرة جدا حتى يستحيل تحريفه خائيا.

انظروا الآن، ما أعظم هذا المبدأ وكيف حققه الله تعالى، فكان هناك ملوك كبار ما كانوا علماء بالدين فلم تكن لهم أي مصلحة في تحريف تعليم القرآن الكريم. وأضف إلى ذلك أن الملوك في مختلف البلاد كانوا معتادين على كتابة القرآن طمعا في الثواب. كان من ملوك الهند ملكٌ معروف اسمه "أورنغ زيب" كتب عدة نسخ من القرآن الكريم. وقد أُلْفَ مؤخراً كتاب حول الحروب الصليبية قال فيه أسامة بن منقذ عن والده "سلطان شهزاد" الذي كان ملكاً في ولاية في الشام، أنه إما كان يحارب الإفرنج أو يصطاد أو يكتب القرآن الكريم، وقد ترك عند وفاته ٤٣ نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بيده.

المعنى الثاني لـ **﴿سَفَرَةٍ﴾** هم المسافرون. فمن منطلق هذا المعنى يكون المراد أن القرآن الكريم لن يُكتب فقط بكثرة بل ينتشر أيضا سريعا في كافة أنحاء العالم، وبذلك يسلم من التحرير. فمثلاً إذا أراد أحد تحريفه في مصر سوف يزيل هذا التحريف القرآن الموجود في جزيرة العرب والشام والهند وغيرها من البلاد.

فقال تعالى: لقد سُلِّمَ هذا الكتاب إلى المسافرين الكرام ليذهبوا به إلى جميع البلاد. فنرى أن القرآن الكريم وصل في زمن النبي ﷺ إلى بلاد العرب كلها وإلى أفريقيا والحبشة. وبعد بضعة أعوام من وفاة رسول الله ﷺ انتشر في فلسطين والشام والعراق وإيران وأفغانستان والصين والأناضول والهند واليونان وغيرها. فبسبب هؤلاء الكتاب العفيفين ثم نتيجة انتشارهم في بلاد مختلفة استحال وقوع أيّ تغيير فيه، كذلك لم يُعد مجال للشك فيه لأن النسخ الموجودة في بلاد مختلفة تصدق بعضها. أما الآن فقد خرج انتشاره عن حدود العدّ والحساب نتيجة اختراع المطبعة.

وإضافة إلى ذلك إن الخلاف الذي حدث بين المسلمين في صدر الإسلام قد أيدَ حفظ القرآن الكريم. ومن معاني "سَفَرَة" من يضع الخطام في أنف البعير، فمن هذا المنطلق يمكن الاستنباط من الآية أن القرآن سيكون في أيدي قادة الجيوش المهاجمة أو زعماء الجماعات الذين يكونون صلحاء كلهم. وبذلك إن وجود القرآن الكريم، بغير أن يكون فيه أي اختلاف، في أيدي جماعات مخالفة يجعله مصوناً محفوظاً تماماً ولن تقدر جماعة على عيشه الفساد فيه لأن جماعة أخرى سوف تبطش بها فوراً. هذا الدليل قوي لدرجة أن اعترف بقوته أللّ الأعداء أيضاً، ولكن أليس غريباً أن القرآن الكريم جمع بنفسه كل هذه الأدلة والبراهين في سورة مكية واحدة. يقول السفير وليم موير:

It is conceivable that, either Ali, or his party, when thus arrived at power, would have tolerated a mutilated Coran-mutilated expressly to destroy his claims? Yet we find that they used the same Coran as their opponents, and raised no shadow of an objection against it.<sup>1</sup>

أي كيف يمكننا أن نقبل أن القرآن تعرض لأي تحريف. عندما كان المسلمين يتشاربون فيما بينهم كان عندهم قرآن واحد، ولم يعترض أحد على قرآن عند فريق آخر. ثم يقول السير وليم موير:

<sup>1</sup> The Life of Mahomet By William Muir P. 559 Published in London 1877.

So far from objecting to Othman's revision, Ali multiplied copies of the edition among other MSS. Supposed to have been written by Ali, one is said to have been preserved at Mashhad Ali as late as the fourteenth century, which bore his signature.<sup>1</sup>

أي إن عدداً من المؤلفين الآخرين أيضاً قالوا باستحالة التحريف في القرآن نتيجة انتشاره بسرعة وكونه عند فئات مختلفة متحاربة.

ولكن انظروا إلى القرآن الكريم إذ قد بين هذه الحقيقة سلفاً بالتفصيل، وهذه معجزة عظيمة بحد ذاتها. فقد قال القرآن الكريم إنه سُيُّكتُبُ بكترا، وينتشر إلى بلاد نائية، وستندلع الحروب بين المسلمين أنفسهم، لذا لن يقدر أحد على تحريفه. إنها لأدلة قوية لدرجة أن اعترف بها النصارى أيضاً، مع أن هذه الأمور ذُكرت حين كان النبي ﷺ لا يزال في مكة حيث لم يكن هناك أدنى مجال للتحريف في القرآن.

ومن معاني "سفرة" الكناسة، ورفع الستار أيضاً. فمن هذا المنطلق يكون معنى الآية أن هذا الكتاب قد سُلِّمَ إلى أناس يزيلون باستمرار غبارة يمكن أن يتراكم على تعليم القرآن ويشوهه ويعيدونه إلى حاليه الأصلية ويبيّنون مفاهيمه الخافية ويعرضون على الناس معارفه السامية، وبذلك يجذبون باستمرار قبوله في الناس وتأثيره فيهم، وهم كِرَامٌ؛ أي الخبراء في هذا المجال. وكذلك هم بَرَّةٌ؛ أي لهم باع طويلة في أمور الخير. وبذلك لا يقومون بالخدمة بأنفسهم فقط بل يتركون وراءهم أيضاً خداماً كثيرين.

الطريف في الموضوع أنه ذُكرت في هذه الآية ثلات صفات للكتاب وثلاث صفات لحملته، غير أن هناك فرقاً بين الصفتين ما عدا صفة "كِرَامٌ" فهي مشتركة بين الاثنين (أي الكتاب وحملته) إذ قد جاء في صفة الكتب: "مرفوعة" و"مطهّرة"، وفي صفة الناس ورد: "سَفَرَةٌ" و"بَرَّةٌ". ولكن إذا أمعنا النظر وجدنا أن في هذا الاختلاف أيضاً وحدةً. إن زوج "سَفَرَةٌ" هو "مرفوعة"، لأن الشيء المرتفع يكون خافياً عن الأعين،

<sup>1</sup> The Life of Mahomet By William Muir P. 559 Published in London 1877.

ومن معانٍ "سَفَرَ" إِزَالَةُ الْخَفَاءِ، فَحِينَ نَقُولُ: "سَفَرَ الرِّيحُ الْغَيْمَ عَنْ وِجْهِ السَّمَاءِ" كَانَ مَعْنَاهُ: كَشْفُهُ. أَيْ أَزَلَتِ الرِّيحُ الْغَيْمَ وَجَعَلَتِ السَّمَاءَ صَافِيَّةً. وَوَرَدَ "بَرَّةٌ" مُقَابِلٌ "مَطَهَّرٌ" لَأَنَّ الْمَطَهَّرَ يَعْنِي مَا اجْتَمَعَ فِيهِ كَافَةُ أَوْجَهِ الْطَّهَارَةِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى "بَرَّةٌ" أَيْضًا؛ أَيْ مَنْ كَانَ فِيهِ كَافَةُ أَوْجَهِ الْخَيْرِ. إِذْنَ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابِلَ صَفَاتِ الْكِتَابِ الْثَّلَاثَ، ثَلَاثَ صَفَاتٍ مَمَاثِلَةً لِهَا لَحْمَلَةُ الْكِتَابِ الَّذِينَ سِيَحْفَظُونَهُ.

سَبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْظَمُهُ مِنْ ادْعَاءِ! وَكَيْفَ تَمْ تَحْقِيقُهُ بِقُوَّى عَظِيمَةٍ! كَادَ الْخَطَأُ الْأَوَّلُ يَصُدِّرُ بَعْدَ وَفَاتَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وَقَعَتِ الشَّبَهَةُ فِي وَفَاتَةِ ﷺ وَكَأَنَّهُ كَانَ سَيُعْطَى مَقَامَ الْأَوْلَاهِيَّةِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَامَ أَبَا بَكْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَسْبِ آيَةِ الْاسْتِخْلَافِ الْوَارَدَةِ فِي سُورَةِ النُّورِ وَبِذَلِكَ أَزَالَ هَذَا الْخَلَافَ، إِذْ قَدِّمَ أَبُو بَكْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسَهُ آيَةً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، وَقَدْمَهَا بِأَسْلُوبٍ بِحِيثُ لَمْ يَعُدْ صَاحِبُ الْاِخْتِلَافِ (أَيْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَادِرًا عَلَى الْوَقْفِ عَلَى قَدْمِيهِ بِلَ سَقْطٍ. وَلَكِنَّ فَكِّرُوا جِيدًا مَا الَّذِي حَدَثَ بَعْدَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ ﷺ! كَانَ لَا يَزَالُ حِيَا وَأَطْلَلَ الْفَسَادَ بِرَأْسِهِ بَعْدَ حَادِثِ الصَّلِيبِ. كَمَا بَدَأَ النَّاسُ يَشْرُكُونَ بِاللَّهِ فِي حَيَاةِ مُوسَى ﷺ، وَلَمْ يَقْدِرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّاسٌ مُثُلُ هَارُونَ، وَأَنَّاسٌ مُثُلُ بَطْرُسَ أَنْ يَفْعُلُوا شَيْئًا فِي زَمْنِ الْمَسِيحِ ﷺ. وَبَدَأَ الْضَّلَالُ يَلْقَى بِظَلَالِهِ بَيْنَ ظَهَرَانِيِّ الْحَوَارِيِّينَ، وَإِنْ سِلِّمَ مِنْهُ الْحَوَارِيُّونَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. صَحِيحٌ أَنَّ الشَّرَكَ اَنْتَشَرَ بَعْدَ فَتْرَةِ طَوِيلَةٍ وَلَكِنَّ الْفَسَادَ الَّذِي بَدَأَ كَانَ بِصُورَةِ الإِبَاحَةِ. بَعْدَ هَذَا الزَّمْنِ كَلِمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ تَمَّ إِصْلَاحُهُ، وَخُلُقُ فِي الْأَمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ دَائِمًا أَنَّاسٌ ظَلُوا يَزِيلُونَ الْخَلَافَاتَ مِنْ كُلِّ نُوْعٍ بِوَاسِطَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَمُقَابِلٌ ذَلِكَ ظَلَّتْ حَالَةُ الْأَدِيَانِ الْأُخْرَى تَنْدَهُرُ وَلَمْ يُخْلُقْ فِيهَا مُصْلِحُونَ. خَذُوا هَذَا الزَّمْنَ الْأَخِيرَ مُثْلًا كَيْفَ أَعْادَ اللَّهُ إِلَيْهِ إِلْسَامَ إِلَى حَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَكَيْفَ قَامَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى مَفَاهِيمِهِ الْحَقِيقِيَّةِ! إِنْ جَمِيعَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي نَشَأَتِ فِي الزَّمْنِ الْرَّاهِنِ بِسَبَبِ تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْخَاطِئَةِ

أزلاه المسيح الموعود الملائكة بعد مجيئه، وقدّم القرآن الكريم أمّا العالم بأجلٍ وأبجيٍ صورة كما كان في زمان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه.

### الوعد الدائم بحفظ القرآن الكريم

إذن، فقد تحقق الوعد الدائم بحفظ القرآن الكريم الذي وعد به الله تعالى ولم يقدر أحد إلى اليوم على تحريف القرآن، لا ظاهرياً ولا باطنياً. وما دامت التجارب المتعددة إلى اليوم توحّي بأنّ هذا الوعد ظلّ يتحقق دائمًا فلا بد أن يتحقق في المستقبل أيضًا. لقد قال الله تعالى بنفسه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٤)، فلما أكتمل الدين وتمت النعمة فلم تعد هناك حاجة إلى أيّ دين آخر. وكلما جاء مبعوث من الله الآن سيبأّي مؤيّداً لهذا الدين، لذا لن يتعرض القرآن الكريم إلى التحريف إلى يوم القيمة. إذا كان أحد قادراً على إجراء أيّ تغيير في القرآن الكريم فهو الله تعالى وحده، ولكنّه أخبر أنه أكمله من كل النواحي ووضع وسائل الحفظ من كل نوع، وهي تضمن عدم قدرة أيّ إنسان على التحريف فيه، فلا مجال لأيّ نوع من التغيير في القرآن الكريم.

### نصيحة للأحبة

أود أن أنصح الأحبة أنه منذ أن بدأ القطار يسير (من قاديان) أطلت مشكلة برأسها وهي أن جميع الناس بدأوا يعودون إلى بيوتهم فور نهاية الخطاب في اليوم الأخير من الجلسة. من كانوا مضطرين لذلك بسبب نهاية عطلتهم فلهم أن يعودوا، ولكن الذين يقدرون على المكث يجب أن يمكثوا لبضعة أيام أخرى؛ فهناك أناس كثيرون لا يجدون فرصة الجيء إلى هنا خلال العام إلا بمناسبة الجلسة السنوية فقط، فعليهم أن يمكثوا بعد نهاية الجلسة أيضًا، وليدعوا في المساجد هنا ويقابلوا الناس ويتقدّموا الأمور التجارية الجارية هنا وليدعوا للمدفونين في "بجشتي مقبرة". والآن أدعوا الله تعالى أن يوفقنا للعمل في المستقبل أيضًا على المنوال نفسه كما جعل هذه الجلسة ناجحة بفضلـه.



# فضائل القرآن (٤)

القرآن الکریم وحده حائز على شرف  
کونه کلام الله  
من بين جميع الكتب الالهامية

خطاب ألقي في ٢٨/١٢/١٩٣١

بمناسبة الجلسة السنوية في "قاديان" دار الأمان

قال تعظيمه بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة:

الموضوع الذي أعلنت البارحة بالحديث عنه هو الموضوع نفسه الذي أخطب فيه منذ ثلاث سنين، وهو "فضائل القرآن"، أي ما هي الفضائل التي بسببيها لا يفوق القرآن الكريم على التأليفات البشرية فقط بل يفوق الكتب السماوية أيضا. لقد بدأ المسيح الموعود عليه السلام الحديث عن هذا الموضوع في تأليفه "البراهين الأحمدية" وقال بأنه سيكتب فيه ٣٠٠ دليل. لقد تأملت في هذا الأمر وتوصلت إلى نتيجة أنه يمكن في الحقيقة بيان تلك الأدلة الثلاث مئة، ويمكن للإنسان أن يشرح البراهين الأحمدية بحسب فهمه وبقدر استطاعته في ضوء علوم جاء بها المسيح الموعود عليه السلام ومستفيضا من نور جاء به.

## مقدمة تفسير القرآن الكريم

"البراهين الأحمدية" هو بحسب رأيي مقدمة تفسير القرآن الكريم. المواقع التي يجب مناقشتها مفصلاً عند كتابة تفسير القرآن الكريم قد بدأ بها المسيح الموعود عليه السلام في البراهين الأحمدية، وفي قلبي رغبة عارمة أن يكتمل هذا العمل ظاهرياً أيضاً بتوافق من الله، وقد أكمله الله تعالى باطنياً إذ قد قدم عليه السلام مئات آلاف الأدلة السماوية فضلاً عن ثلاثة مئة دليل، ولكن ما دامت الأدلة السماوية قد قدمت فإن تقديم الأدلة الظاهرية أيضاً يكون خدمة عظيمة للجماعة. أريد من الأعماق أن يوفق الله تعالى أحداً ليتحقق الهدف الظاهري أيضاً من البراهين الأحمدية.

كنت قد ذكرت بعض التعليقات التمهيدية حول هذا الموضوع في عام ١٩٢٨م، وقدمت في خطابين في عام ١٩٢٩م و ١٩٣٠م ستة أدلة على أفضلية القرآن الكريم، وبنسبة الجلسة عام ١٩٣٠م طال الوقت كثيراً قبل أن ينتهي بيان الدليل السابع، وإلى جانب ذلك بدأت أشعر بالضعف لذا اضطررت إلى إثناء ذلك الخطاب سريعاً بينما كان جزءاً من الدليل السابع ما زال غير مكتمل، لذا أبين ذلك الآن ثم سأبدأ بالدليل الثامن.

## البقية من الدليل السابع

لقد تحدثت في العام الماضي حول هذا الموضوع وقلت إن القرآن ليس محفوظاً من منطلق أنه لم يتعرض لتحريف على يد البشر فقط بل لا يمكن أن يتعرض لأي تحريف بشري أبداً. أي لم يحصل للقرآن شرف عدم التعرض لأي تحريف فحسب، بينما تعرضت له بقية الكتب السماوية، بل هو حائز أيضاً على شرف أنه لا يمكن التحريف فيه مستقبلاً أيضاً بينما يمكن تصرف البشر في الكتب الأخرى. لقد قدّمت في العام الماضي دليلين على ذلك، والآن سأقدم دليلاً ثالثاً على استحالة حدوث التغيير في القرآن الكريم، وهو أنه كلام الله، فتغييروه من قبل البشر مستحيل عقلاً. لعل كثيراً من الناس يستغربون من قولي هذا ويقولون إن الكتب الأخرى أيضاً

كلام الله فكيف حصلت هذه الميزة للقرآن وحده؟ الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام كان كلام الله، كذلك أيضاً نزل كلامه بِعَيْنِكَ على نوح وإبراهيم والأنبياء الآخرين عليهم السلام. فلما كانت تلك الكتب أيضاً كلام الله فلماذا يمكن التحريف فيها بل قد حُرِفَتْ فعلاً، بينما لم ولن يتعرض القرآن الكريم للتحريف؟ ولماذا هذا الفرق بين الأشياء من نوع واحد؟

سأشرح الآن أن هذا الاستغراب ليس في محله، وأنه أكبر دليل على أفضلية القرآن الكريم أنه كلام الله. لذا فالقرآن الكريم ليس أفضل من الكتب غير الإلهامية أو من الكتب الإلهامية في حالتها الراهنة فقط بل هذه أفضلية لم يضاهي فيها أي كتاب قط.

### الكتب الإلهامية السابقة لم تكن كلام الله

من الخطأ القول إن الكتب الإلهامية السابقة كانت كلام الله. لا أقول إن التوراة الحالية ليست كلام الله بل أقول إن الكتاب الذي أُعطيه موسى لم يكن كلام الله. كذلك لا أقصد أن الأنجليل الحالية ليست كلام الله، علماً أنها لم تنزل على المسيح بِعَيْنِكَ موجوداً أصلاً. أنا متأكد من أنه لو كان الإنجيل الذي نزل على المسيح بِعَيْنِكَ موجوداً لقنا مع ذلك إنه ليس كلام الله. ذلك الإنجيل كان كتاب الله ومصداقاً لما أنزل على المسيح ولكنه لم يكن كلام الله. كذلك لو وُجدت اليوم صحف إبراهيم وصحف نوح عليهما السلام وبدون أن تدخلها كلمة واحدة من كلام البشر لما كانت كلام الله، إلا أنها كانت كتب الله. لقد استُخدمت في القرآن الكريم عبارة "كلام الله" ثلاثة مرات، وفي كل مرة استُخدمت بحق القرآن الكريم حسراً. والقرآن الكريم وحده يدّعى أنه كلام الله.

لقد جاء في سورة التوبه: ﴿إِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَيْلِغْهُ مَأْمَنَةً ذَلِكَ بِأَكْثَرِ قَوْمٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبه: ٦)... أي ليس مع

كلام الله في صحبتك ثم أبلغه مأمنه. لقد أمر بذلك لأنهم لا يعلمون من الدين شيئاً، وما لم يتعلموا علوماً دينية كيف يتعلمون الدين؟ مع أن هناك حرباً بينك وبين الكفار وهم يحاربونك، وفي الحرب يحق لك أن تقتل خصمك، ولكن ما دمت زعيمًا دينياً لذا نأمرك بأنه إذا جاءك أحد من قوم آخرين مخالفًا لقانون الحكومات السائدة وأراد أن يسمع كلام الله فأسمعه، ثم إذا أراد العودة فأبلغه إلى غايته المنشودة دون أن يصيبه أذى. ويقول الله في آية أخرى: ﴿فَأَفْتَضَمُّعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُخْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٦)، أي: أيها المسلمين هل تتوقعون أنهم يقبلون كلامكم؟ كان بعض الصحابة يظنون أن اليهود سيسمعون لهم، وكانت بعض المسلمين علاقات صدقة معهم. فيقول الله تعالى: هل تتسم صداقتكم بصفة أن يقبلوا كلامكم مع أن جماعة منهم يأتون ويسمعون القرآن ﴿ثُمَّ يُخْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فما دام هذا سلوكهم تجاه القرآن الكريم أتى لهم أن يقبلوا كلامكم؟

يقول البعض إن المراد من كلام الله هنا هو التوراة، ولكن هل كان في زمن رسول الله ﷺ من علماء اليهود من كان لترحيفه تأثير؟ كانوا أناساً عاديين فقط، وإذا كان فيهم زعيم فلم تكن له أهمية أكثر من زعيم حارة واحدة. لذا ما كان ليخطر ببال اليهود في المدينة أنهم إذا قدموا التوراة بإجراء التعديل فيها سيقبلها الناس. بل كل ما كانوا يفعلونه هو أنهم كانوا يحضرون صحبة النبي ﷺ ويسمعون القرآن ويختبرون أموراً من عندهم وينشروها، كما كان الناس يكتذبون عن المسيح الموعود ﷺ وقاديان. فمثلاً قال شخص من مدينة فيروزبور للناس: ذهبت إلى قاديان ذات مرة وأُسكنت في دار الضيافة. ثم علمت فور وصولي أن المراza قد أرسل الحلوي وقال: أطعموها الضيوف كلهم، فأكلها الضيوف الآخرون ولكنني رميتها منتهزاً الفرصة. بعد هنهذه اصطحبني المراza وخرج للتنزه في عربة يجرها حصانان - من هنا يتبيّن أنه

لم يحضر قاديان أصلاً - وبدأ يحدثني في الطريق، وقال: "إني إله"، فقرأت الحوقة بسماع هذا الكلام، فشحب لونه ثم قال بالنظر إلى المولوي نور الدين: ألم تطعموه الحلوى؟ فشحب لون المولوي أيضاً وقال: لقد أرسلتها له ولكن لا أدرى ما الذي حدث. ثم هربت من هنالك.

كان في المجلس نفسه شخص محترم من غير الأحمديين فقال: هذا الشخص كذاب، لقد عدْتُ بنفسي من قاديان ولم يذهب هذا الشخص إلى هناك قط. يصعب أن تجري في قاديان عربة يجرها حصان واحد ناهيك عن عربة يجرها حصانان. باختصار، هكذا كان هؤلاء الناس يفعلون، أي كانوا يسمعون الكلام ويحرفونه كما يحلو لهم ويسردونه للناس كما يشاءون. الدليل على أن الآية المذكورة تتحدث عنهم ملحوظ في الآية التالية حيث جاء فيها: ﴿وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا أَمَنَّا وَإِذَا حَلَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَحَدُثُونَهُمْ إِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجِجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٧)، يتبين من هنا أن هؤلاء المحرفين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، فكانوا يسمعون القرآن ثم يكذبون أمام الآخرين ويقولون إنه قال كذا وكذا. يقول الله تعالى في آية مذكورة من قبل: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، ولكن اليهود ما كانوا يسمعون أي كتاب بل كانوا يقرأونه. ومن أراد أن يدخل فيه جملاً من عنده لا يستطيع أن يفعل ذلك بالسماع بل يستطيع فعله بالقراءة. إذا كان المراد منه هو الكتاب المقدس لورَد "يقرأون" لأن الناس كانوا يقرأونه. إذن، التوراة ليست مذكورة هنا بل ذُكر القرآن الكريم. والمراد أنهم كانوا يسمعون من المسلمين ويفهمون ثم يسردون بأسلوب يزيد الناس معارضةً.

الآية الثالثة بهذا الخصوص جاءت في سورة الفتح وهي: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُونَا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُنَذِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ (الفتح: ١٦)، أي عندما تخرجون للقتال يرعن هؤلاء الناس أنكم ستنتصرون وتنالون الغنائم،

فيقولون: خذونا أيضاً معكم. وهم يريدون أن ييدلوا كلام الله بتصوفهم هذا. أي لو أخذتموه معكم لقالوا: انظروا قد بدلنا كلام الله الذي قيل فيه بأنهم لن يذهبوا وهذا قد ذهبنا. ولو لم تأخذوه معكم لقالوا: المسلمين طماعون و يريدون أن يستأثروا بكل شيء.

باختصار، لقد وردت عبارة "كلام الله" في القرآن الكريم في ثلاث آيات، وفي كل آية جاءت بحق القرآن الكريم ولم ترد بحق أي كتاب آخر. لذا فالعقل يقتضي الاعتراف بأن القرآن وحده كلام الله. ولا يحق لنا أن نقول بغير دليل إن كتاباً سماواه آخر سوى القرآن الكريم أيضاً يستحق أن يسمى كلام الله. لم يُسمّ كتاب موسى عليه السلام كلام الله، فأنا لنا أن نسميه كلام الله، وخاصة سأثبت لاحقاً أنه ما من كتاب من بين تلك الكتب هو كلام الله من منطلق التاريخ أيضاً.

لقد وصف الأنبياء في القرآن الكريم به "كلمة" كما وصفت الإلهامات بكلمات، بل "كلمات الله" أيضاً. وقيل أيضاً: ﴿كَلَمَّةُ اللَّهِ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥)، مع ذلك لم يوصف كتاب موسى الذي ذُكر في القرآن الكريم مراتاً بكلام الله، فيقول عَجَلَ: ﴿نَبَدَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٠)، فتبين بخلافه أن هناك فرقاً بين كتاب الله وكلام الله. يمكن أن يطلق "كتاب الله" على كل كتاب رُوي فيه ما قاله الله، ولكن لا يمكن إطلاق "كلام الله" على كل منها. الكتب الإلهامية الأخرى سميت "كتاب الله" كما جاء هذا التعبير بحق القرآن أيضاً. أما التعبير "كلام الله" فقد استُخدم بحق القرآن حسراً دون غيره. هذا هو الفرق وهو ليس بغير حكمة.

## أنواع الوحي

يجب التذكّر لفهم هذا الفرق أن وحي الأنبياء عدة أنواع. (١) الوحي الذي يتناهى إلى الأذن ويحرى على اللسان بكلمات الله. فمثلاً أسمع الله رسوله ﷺ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهذه الكلمات سمعها النبي ﷺ بأذنيه كصوت وجرت على لسانه. فأحرف هذه الآية- أي: ال ح م د- وحركاتها كلها مما أخبره بها، ولم يُلقِ الله تعالى مضمونها في قلبه ﷺ، بل كل حرف وكل كلمة جاءت من الله تعالى. وهذا الوحي نزل على جميع الأنبياء.

(٢) النوع الثاني من الوحي هو الرؤى والكشف، وهي لا تأتي بالكلمات بل بصورة المشاهد. فمثلاً عندما كان النبي ﷺ على وشك الخروج لغزوة أحد رأى في المنام أن حد سيفه قد كسر ورأى أيضاً بقرًا ثُدْبِح، فقال ﷺ: المراد من كسر السيف هو الفتح الذي سيصبح مشتبهاً فيه، أما ذبح البقر فلم يُرَد منه استشهاد بعض الصحابة. هذا الوحي أيضاً كان من الله تعالى ولكن الفرق هو أن الوحي من النوع الأول كان بالكلمات أما الثاني في بصورة المشهد. وعند بيان المشهد يستخدم المرء كلمات من عنده. ومن الممكن جداً أن يحدث فرق بسيط عند انتقاء الكلمات لدى البيان.

(٣) النوع الثالث هو الوحي الخفي الذي لا ينزل بالكلمات ولا يُرى مشهداً بل يكون بصورة التفهيم والانكشاف. تنشأ في القلب فكرة ولكن يُلقي في قلب صاحبها فوراً أنها ليست فكرته بل ألقاها الله في قلبه، ثم يتلقى متلقبيها كلمات مناسبة لبيانها. هذا أدنى أنواع الوحي، ويفوقه وحي الرؤيا والكشف ولكن يُكون بحاجة إلى تفسير. والمعلوم أن التفسير يحتمل إمكانية الخطأ. أما الوحي الذي ينزل بالكلمات فلا إمكانية للخطأ فيه، وهذا أرفع أنواع الوحي.

فلو جمع نبي في كتابٍ وحِيَّ كلَّه بما فيه وحِيَ الكلمات ووحي الكشف والرؤيا والوحي الخفي المحتوي على كلمات النبي نفسه فيمكنا أن نسميه كتاب الله ولكن لا يسعنا أن نسميه كلام الله، لأنَّه ليس كلَّه كلام الله، بل يتضمن كلام البشر أيضاً إلى حد ما وإنْ كان المضمون كلَّه من الله، فبناء على ذلك يُعَدُّ ذلك الكتاب كتاب الله.

فانظروا الآن واضعين الفرق في الحسبان أن أي كتاب في العالم - لأي قوم كان ومهما كان - يُنسب إلى الله تعالى بقوة وشدة لا يمكن أن يكون كلام الله؛ لأنه ما من كتاب يحتوي على كلمات الله كلها في حالتها الراهنة ولا حين قدّمه نبي. بل يكون الكتاب محتويا على بعض كلمات الله وبعض المشاهد وذكر فيه بعض المفاهيم أيضا. فلو شطينا من التوراة الحشوارات التي أدخلها اليهود من عندهم مثل: "فَمَا هُنَّاكُ مُؤْسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُؤَبَّ حَسَبَ قَوْلَ الرَّبِّ وَدَفَنَهُ فِي الْجَوَاءِ فِي أَرْضِ مُؤَبَّ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورٍ". (آلشّيّة ٣٤ : ٦-٥). في تلك الحالة أيضا لن تكون التوراة كلام الله لأنه قد ورد فيها:

وَظَاهَرَ لَهُ مَلَائِكَ الرَّبِّ بِلَهِيَّبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَيْقَةُ تَتَوَقَّدُ  
بِالنَّارِ، وَالْعُلَيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. (الْأَخْرُوجُ ٣ : ٢).

والأمر نفسه ينطبق على كتاب عيسى والأنبياء الآخرين عليهم السلام. فلو شطبت منها الحشوارات التي أدخلها الناس فيما بعد لما كان كتاب موسى كلام الله حين دُونَه موسى ولا كتاب عيسى حين حكاه، ولا الفيدات حين نزلت. إن لم يكن فيها كلام الناس الآخرين حينذاك كان فيها كلام الأنبياء حتما. باختصار، لم تكن تلك الكتب كلام الله حتى في زمن سلامتها من التحرير أيضا.

لا يقول أحد هنا: أي أفضليّة هذه؟ لو أراد موسى لجمع كلام الله منفصلا. لو فُصل كلام كُلٌّ من موسى وعيسى - عليهما السلام - من التوراة والإنجيل هل يصبح هذان الكتابان مساويان للقرآن الكريم؟ سأقول: لا، لأن موسى إذا كان قادرا على ذلك لفعل حتما. لو أمكن موسى أن يفصل وحي الكلمات ودون منه كتابا منفصلا لفعل حتما. كذلك إذا أمكن ذلك لعيسى لفعل أيضا. إذن، هذه الأفضليّة كانت من نصيب رسول الله ﷺ فقط إذ أُعطي الشريعة كلها بكلمات الوحي. أما في كتب الأنبياء الآخرين فكان شيء من كلام الله وشيء من المشاهد وشيء من المفاهيم التي بيّنوها بكلماتهم. فلو فصلوا الجزء المحتوي على المشاهد

والمفاهيم لصارت كتبهم ناقصة، لأن أديانهم كلها لم تكن محصورة في كلام الله بل كان فيها جزء من الرؤى والكشف وجزء من الوحي الخفي. وإذا فصلوا منها كلام الله لصارت أديانهم ناقصة. وعلى النقيض من ذلك شمل القرآن الكريم الدين كله، والدين كله محصور في كلام الله. إذن، لا يمكن أن يسمى كتاب أيّ نبي كلام الله سوى القرآن الكريم، فهذا الاسم خاص بالقرآن الكريم وحده.

الحق أنه لما كان مقدرا عند الله أن يجعل القرآن أكمل كتاب وآخر كلام، ويجعل الإسلام أكمل دين، كان ضرورياً أن يحفظه بحيث لا يفوته أيّ مضمون. وهذا كان ممكناً في حالة واحدة وهي أن يتم بيان كل شيء بكلمات عالم الغيب، لأن الرؤى والكشف قد تؤدي إلى النزاعات والخلافات. لذا فقد أنزل الله تعالى الشريعة الإسلامية بكلماته وسماها كلام الله، وقال إنها تحتوي على كلمات الله فقط. لذا ليس هناك كتاب سوى القرآن الكريم تترشح من كلماته مضامين متتجدة دائماً. القرآن الكريم وحده الكتاب الذي لا تنتهي مفاهيمه. اقرأوه ليل نهار فلن تنتهي حفائقه أبداً، بل تترشح منه حِكْمٌ جديدة ويثبت أن كل لفظ منه مليء بالحكمة. لقد ذُكر في الأساطير من قديم الزمان كيسٌ تخرج منه كافة أنواع الأطعمة. لا شك أن هذا خيال ووهمٌ فقط أما القرآن الكريم فهو في الحقيقة كنز لن ينفد أبداً. وهذا ليس في نصيب الكتب الأخرى. فمثلاً يعترف المسيحيون وغيرهم بأنفسهم أن الأخطاء وقعت في العبارات الأصلية. لا أقصد أن كلام الله لم ينزل على الأنبياء السابقين بل أقصد إن أديانهم وكتبهم لم تكن كلها محصورة في كلام الله فقط.

### السبب وراء فساد الكتب السابقة

إذا تأملنا أكثر تبيّن لنا أن السبب وراء حدوث الفساد في الكتب السابقة هو أنها لم تكن كلام الله. فلما كانت شروح الأنبياء ورؤاهم وكشوفهم ومفاهيمهم مذكورة فيها بكلماتهم، لذا لم يكن ممكناً أن يهتم الناس بحفظها اهتماماً كبيراً. عندما رأى أصحاب موسى عليه السلام أن وحياً نزل عليه وأملأه وأملى إلى جانبه رؤياه وكشفه وأملأى

أيضاً أنه قد انتابته فكرة إلهامية كذا وكذا، تشجعوا على أن يدخلوا في العبارة ما كانوا يفهمونه من التوراة زاعمين أنه لا ضير إذا كتبوا كمدّكرة ما فهموه. ولأن كل شخص يحسب فهمه صائباً لذا كانوا يحسبون فهمهم مبنياً على أمر إلهي. هكذا حرفت تلك الكتب، مع أنه لو أدركوا الأمر على حقيقته لفهموا أن فهم النبي كان جزءاً من الكتاب لكونه من الله، أما فهمهم فلا. بل لو كان فهم أحدهم من الله أيضاً مع ذلك ليس له أن يكون جزءاً من الكتاب مثل فهم النبي. أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد رأوا أنهم عندما يأتون إلى النبي ﷺ يقول لهم: هذا ما أوحى الله إلى اليوم، فيسألهم الصحابة: هل نكتب؟ يقول ﷺ: نعم اكتبوا. ثم يقول ﷺ: هذا ما رأيته في الكشف وهذا ما رأيته في الرؤيا. فكان ﷺ يبين مفهومه ويقول: لا تكتبوا ضمن الوحي. فلما رأى الصحابة أن النبي ﷺ بنفسه لا يستطيع أن يضيف إلى الوحي شيئاً قالوا: أتّى لنا أن نضيف إليه شيئاً؟ لقد رأى الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ لا يضيف إلى الوحي الحرف نوعاً آخر من الوحي مثل الكشف والرؤى وما أُلقي في قلبه بصورة مضمون فضلاً عن أن يضيف شيئاً من عنده، أتّى كان لهم أن يضيفوا إلى الوحي شيئاً من عندهم. ولكن لما كان الأنبياء السابقون يكتبون شروحهم ورؤاهم وكتشوفهم وتفهيماتهم بكلماتهم فتشجع أتباعهم أن يكتبوا فيها تفهيماتهم أيضاً.

يقول الباحثون في الكتاب المقدس إن ما أضيف إلى الصحف القديمة كان سببه أن كل من انتابته فكرة كتبها فيها. ولكن لما كان القرآن الكريم كلام الله الخالص، فلم يدخل النبي ﷺ فيه إلهاماته ولا كشوفه أو رؤاه أو تفهيماته. وهذا الأمر ترك في الصحابة تأثيراً عميقاً وعلموا أنه يجب ألا يضاف إلى هذا الكتاب شيء آخر لدرجة أنهم حافظوا على أسلوب الكتابة وعلامات الوقف أيضاً، وبذلك حفظ القرآن الكريم إلى الأبد لكونه كلام الله.

لقد اعترف ألد أعداء الإسلام أيضاً أن كون القرآن الكريم كلام الله لعب دوراً

كبيراً في عدم تعرّضه للتحريف، فيقول السير وليم موير:

A similar guarantee existed in the feelings of the people at large, in whose soul no principle was more deeply rooted than an awful reverence for the supposed word of God.<sup>1</sup>

أي ما يضمن كون القرآن محفوظا هو أنه كان منقوشا في قلب كل مسلم. إن كل حرف وكل حركة فيه إنما هي من عند الله.

الفائدة الثانية لجمع كلام الله على هذا النحو كانت أنه لا يمكن أن يتطرق إليه تاريخ أو فهم شخص. فمثلا لم يرد في القرآن كلام مثلا أني ذهبت إلى مكان كذا وتلقيت هنالك إلهاما كذا، بل إن عبارته تجري بأسلوب بحيث كل كلمة توحى بأنها من الله تعالى، فلا يسع بشرا أن يدخل فيه كلاما آخر أبدا، وإذا فعل فسيبدو غير مترابط تماما. ولما كانت الكتب السابقة تشمل المفاهيم أيضا لذا فإن إدخال أحد مفهوما آخر كان يحول دون ظهور الخطأ للعيان.

### القرآن الكريم وحده تفرد بكونه "كلام الله"

إذن، القرآن الكريم فريد من حيث كونه "كلام الله"، كانفراد الكعبة - بتسميتها "بيت الله" - عن البيوت الأخرى. لقد وصف الله تعالى الكعبة بأنها بيت الله، والقرآن الكريم بأنه كلام الله. لقد أطلق على الكعبة هذا الاسم لأن الله تعالى أمر ببنائها. لو أمر الله تعالى ببناء بيت آخرى أيضا لما ألغى، ولما كان مقدرا أن تلغى البيوت الأخرى لذا لم يطلق عليها هذا الاسم. كذلك لما كان مقدرا أن يبقى القرآن الكريم إلى الأبد لذا أنزل بصورة كلام الله، وأطلق عليه هذا الاسم كيلا يقدر أحد على إدخال كلامه فيه.

إذا قال أحد إنكم تقولون إن الشريعة كلها موجودة في القرآن الكريم، ولكن هذا ليس صحيحا لأن القرآن تحتاج إلى الحديث والسنّة، فجوابه أن مفهوم السنّة هو أن النبي ﷺ عمل بما جاء في القرآن الكريم، والمراد من الأحاديث هو ما فهمه ﷺ من القرآن الكريم وليس أكثر. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُنْطَقُ عَنِ الْهُوَيْ \* إِنْ هُوَ إِلَّا

<sup>1</sup> Life of Mahomet by William Muir P. 560 Published in London 1877.

وَحْيٌ يُوحَى ﴿النَّجْمٌ: ٤-٥﴾، أي أنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ لا يَقُولُ شَيْئاً عَنِ الدِّينِ مِنْ عَنْدِهِ بَلْ يَقُولُ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى الْوَحْيِ. فَكُلُّ مَا فِي الْأَحَادِيثِ إِنَّمَا هُوَ شَرْحُ الْقُرْآنِ وَمَفَاهِيمُهُ فَحْسَبٌ.

### الدليل الثامن على أفضلية القرآن الكريم

وَالآنُ أَبْيَنُ الدَّلِيلَ الثَّامِنَ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهُوَ أَنَّ أَفْضَلِيَّةَ كُلِّ كَلَامٍ نَازِلٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظِيمُهُ تَعْتَمِدُ عَلَى مَنْ يَأْتِيُ بِهِ، لَأَنَّ الرَّسُولَ يُرْسَلُونَ بِصَفَّتِهِمْ حَامِلِيَ الرِّسَالَةِ. فَمَثَلًا إِذَا أَرَادَ الْمَلِكُ تَنْظِيفَ غُرْفَتِهِ سِيَقُولُ لِخَادِمِهِ أَنْ يُخْضِرَ كَنَاسَاهُ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو مَلِكًا لِلْقَائِمِ فَلَنْ يَقُولُ ذَلِكَ لِلْخَادِمِ بَلْ سِيَقُولُ لِلْوَزِيرِ، وَهُوَ بِدُورِهِ سِيُوصِلُ إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ قَائِلًا بِأَنَّ الْمَلِكَ يَرِيدُكَ أَنْ تَلْقَاهُ.

بِالْخَتْصَارِ، إِنَّ أَفْضَلِيَّةَ الرِّسَالَةِ تَرْتَبِطُ بِحَامِلِهَا. السَّفَرَاءُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ رِسَالَاتَ الْمُلُوكِ يُهْتَمُّ بِهِمْ أَيْضًا لِيَكُونُوا ذُوِّي مَكَانَةٍ سَامِيَّةٍ.

كَذَلِكَ لِتَفْهِيمِ الْكَلَامِ مِنَ الْدَّرْجَةِ الْعُلَيَا يَحْتَاجُ الْمَرءُ إِلَى عِلْمٍ بِالْعُلُوِّ دَرْجَةً عَلَيْهَا. لَوْ كَانَ هُنَاكَ كِتَابٌ يَحْتَلُّ دَرْجَةً عَلَيْهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ مَعْلِمٌ أَيْضًا إِلَى ثَقَافَةٍ عَلَيْهَا كَذَلِكَ. لَا يَمْكُنُ أَنْ يَدْرِسَ شَخْصٌ ذُو ثَقَافَةٍ عَادِيَّةٍ طَلَابًا فِي الْدِرَاسَاتِ الْعُلَيَا. إِذَا أُرْسَلَ شَخْصٌ خَرِيجٌ فِي الْمَدْرَسَةِ الْابْدَائِيَّةِ يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سِيَدْرِسُ مِنْهَا جَاهًا ابْدَائِيًّا جَدًا. وَإِذَا أُرْسَلَ خَرِيجٌ فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانِيَّةِ يُفْهَمُ أَنَّهُ سِيَدْرِسُ الصَّفَّ الرَّابِعَ أَوَّلَ الْخَامِسِ الْابْدَائِيَّ، وَإِذَا أُرْسَلَ شَخْصٌ حَائِزٌ عَلَى شَهَادَةِ بَكَالُورِيُّوسِ يُفْهَمُ أَنَّهُ سِيَدْرِسُ الصَّفَّ التَّاسِعَ أَوَّلَ الْعَاشِرِ فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانِيَّةِ، وَإِذَا أُرْسَلَ حَائِزٌ عَلَى شَهَادَةِ عَلِيَا سِيُّفَهُمْ أَنَّ مَهْمَمَتَهُ تَدْرِيسُ الصَّفَوْفِ الْعُلَيَا. فَعَلَى هَذَا النَّحْوِ تَبَيَّنُ أَفْضَلِيَّةُ الْكِتَابِ أَوْ عَدَمُهَا مِنْ هُوَيَّةِ الَّذِي يَأْتِيُ بِالْكِتَابِ الإِلَهَامِيِّ. أَمَّا إِذَا أَتَيْتَ الْكِتَابَ أَفْضَلِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ فَهَذَا يُعَدُّ أَمْرًا أَعْظَمُ، لِأَنَّهُ قَدْمُ الدَّلِيلِ بِنَفْسِهِ فِي هَذَا الْمَحَالِ أَيْضًا وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَيِّ دَلِيلٍ آخَرَ.

بِالْخَتْصَارِ، لَأَنَّ سُلُوكَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ يَؤْثِرُ بِوَجْهِ خَاصٍ عَلَى اِنْتَشَارِ الْكِتَابِ لِذَا فَالْكِتَابُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَقْدِمُ سُلُوكَ الْمَنْزَلِ عَلَيْهِ بِصُورَةِ بَارِزَةٍ

كيلا يرتاب الناس في أمر مصدر الكتاب. فالإثبات أن مصدر القرآن ليس مشتبها فيه بل جرى القرآن على لسان شخص يحتل مكانة عليا، يجب أن يثبت القرآن نفسه أن الذي جاء به كان إنساناً مقدساً ونزيهاً عن كل عيب؛ لأنه ما لم يثبت ذلك ستخالج قلب الإنسان شبهةً -مهما كان الكتاب كاملاً وأفضل- في سلوك وسيرة الذي جاء به. والشبهة الثانية التي تنتاب الإنسان هي: ما مدى تأثير هذا الكتاب على أول مخاطب به؟ فإن لم يترك فيه تأثيراً جيداً فماذا عساه أن يؤثر فينا؟ وإن لم ينفع المخاطب الأول فماذا يمكن أن ينفعنا؟ فعند مناقشة أفضلية الكتاب لا بد لنا من أن نبحث أولاً في أخلاق الذي جاء به، وكذلك عند النقاش حول أفضلية صاحب الكتاب لا بد من البحث فيما يقدم من أفكار.

القرآن الكريم حائز هذه الأفضلية أيضاً على الكتب الأخرى؛ أي أن الذي جاء به هو أفضل الناس جميعاً أياً كانوا، وأفضليته الإضافية هي أنه ليس محتاجاً إلى أحد لحفظ هذا الدليل أيضاً بل قد حفظه بنفسه، لدرجة أن يقول شخص معاند مثل وليم موير أيضاً إن أفضل مصدر للعثور على سيرة محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هو القرآن.<sup>١</sup> وفي هذا المقام نقل وليم موير قول عائشة رضي الله عنها: "كان حلقة القرآن".<sup>٢</sup> أي يجب أن تقرأوا القرآن للعثور على أخلاق رسول الله ﷺ، فكانت أخلاقه كلها تطابق معايير وضعها القرآن الكريم. فيتحقق للقرآن الكريم أن يدّعى أنه خلق شخصاً واحداً على الأقل بحسب معياره؛ لذا لا نستطيع أن نشك في تعليمه بأنه (١) ليس قابلاً للعمل. (٢) أنه لم يُصلح شخصاً جاء به فأئن له أن يصلح الآخرين؟ لأن محمداً ﷺ عمل به وصار إنساناً من الدرجة العليا. فلا يسع أحداً أن يقول بأن القرآن لم ينفع الذي جاء به فكيف يفيدنا نحن؟

١ Life of Mahomet by William Muir P. 550 Published in London 1877.

٢ مسنن أحمد بن حنبل.

ما قلته إن من أدلة أفضلية الكتاب الإلهامي أن يكون الذي جاء به أفضل من غيره، فهذا الدليل قدمه القرآن بنفسه، ويتلخص في أن تكون حياة النبي السابقة طاهرة وكاملة، وأن تكون حياته بعد إعلانه مطابقة للوحي تماماً. فيقول الله تعالى في القرآن عن حياته ﷺ قبل الإعلان: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةً قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتَى رُسُلُ اللَّهِ الَّلَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيِّصِيبُ الدَّيْنَ أَجْرُمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ إِمَّا كَانُوا يَمْكُرُونَ \* فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ يَسْرُحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّحْمَنُ عَلَى الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥-١٢٦)، أي كلما يقدم محمد ﷺ أمامهم معجزة يقولون: لن نؤمن بها ما لم نرَ ما أُوتى رسول الله، أي الوحي والإلهام. فيقول الله ﷺ: هل يجب أن ينزل الوحي على كل شخص؟ الله أعلم من يستحق أن يجعل رسولاً، فهو ينظر إلى أحواله وأفكاره وعاداته، ومن كان أفضل من غيره وله منصب الرسالة. يقولون: يجب أن يعطوا ما يعطى الرسل! ولكن ألا تنتظرون إلى حالتكم؟ أنتم أنجاس ولا يكون في نصيب الأنجلاس إلا الذلة. بينما الرسالة منزلة محترمة جداً ولا توهب إلا لإنسان طاهر ومن يحتل مكانة علياً، أما أنتم فستُعذَّبُونَ بسبب مكاييدكم. ومن يجعل صدره ضيقاً حرجاً، فهو يشعر عند كسبه عملاً صالحًا كأنه يتسلق الجبل... هكذا يعامل الله الذين لا يؤمنون.

لقد قيل في هاتين الآيتين: (١) عند بعثه أحد رسولاً ينظر الله تعالى إلى سيرته وأعماله. فالرسالة لا توهب للمجرمين لأن في نصيبهم الذلة، بينما الرسالة مدعوة للعزّة الكبيرة. (٢) الذي يبعث رسولاً يكون مطيناً لله تعالى قبل البعثة أيضاً، وتكون طاعة الله جزءاً من طبيعته، ويكون سباقاً في قبول الدوافع إلى الحسنات.

وبذلك قد بين الله تعالى مبدأً أن حياة الأنبياء السابقة يجب أن تكون على درجة علياً في كل مجال. يمكن لمن كان مذنباً في زمن من الأزمان أن يصبح ولها بعد

أن يتوب، ولكن من الضروري للنبي أن يكون على درجة عليا من الطهارة منذ البداية. (٣) قال يَسِّعُك عن حياة من حاز النبوة: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٩)، أي الحائزون على قرب الله يخبرون الناس بأعمالهم ليل نهار أن الله تعالى سبوح، أي بقدر ما ينالون قرب الله يطيعونه ويُظهرون سبوحية الله بكل عمل من أعمالهم، ويخبرون العالم أن الله تعالى لم يصطفهم جزافا. أي يُظهرون سبوحية الله بأعمالهم ويُثبتون أن اصطفاء الله ليس خاطئا.

### حياة النبي ﷺ الطاهرة قبل النبوة

السؤال الآن هو: هل ذُكر في أي مكان تحقق هذا المبدأ العام بحق رسول الله ﷺ. يُ بين الله تعالى أن حياة رسوله ﷺ قبل إعلان النبوة كانت طاهرة تماما ونزيهة عن كل عيب ونقصة فيقول: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لِبْسْتُ فِيْكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٧)، أنتم تعلمون أن حياتي كانت طاهرة منذ البداية، إن مدة أربعين عاما ليست بمدة قصيرة فكيف ترمعون بعد ذلك أني افترضت هذا الأمر كذبا؟ إذن، هذا ما أعلنه رسول الله ﷺ عن حياته التي سبقت إعلان النبوة، وقد أعلن ذلك أمام الكفار ولم يقدروا على إنكاره.

### قرب الله نتيجة اتباع رسول الله ﷺ

أما عن حياته بعد إعلان النبوة فنجد في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، أي أن هذا الرسول أسوة حسنة لإظهار مدى تأثير القرآن الكريم في حياته، وهو ليس أسوة لقوم دون قوم أو لبلد دون بلد، بل هو أسوة للعالم كله، ويجب على الناس جيئوا أن يتأسوا بها. قد يقول قائل هنا: لا بد أن يكون الأنبياء الآخرون أيضا هكذا، فأفديم بهذا الشأن آية أخرى من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُجِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَعْفُرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٢)، انظروا إلى سمو المكانة التي تبيّنها هذه

الكلمات! لم يقل الله تعالى هذه الكلمات من عنده بل قالها على لسان رسوله ﷺ لتكون تحدياً للعالم كله، فكأن الله تعالى تحدي العالم وقال ﷺ لرسوله أن يعلن أنه إذا كانت في قلوبكم رغبة وحرقة لتكونوا محبوبين عند الله فتعالوا أخبركم بسرٍ إن عملتم به أصبحتم محبوبين عند الله مع كونكم محبين. والسر هو: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي اعملوا كما أعمل أنا. لم يقل الله هنا "أطعوني" بل قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي إن كنتم تريدون أن يحبكم الله فاكسبوا الأعمال التي يكسبها محمد رسول الله ﷺ. لم يقل الله أن أطعو ما يأمركم به محمد رسول الله ﷺ، بل الكلمة المستخدمة هنا هي الاتباع، وتعني: "اقتفاء الأثر" لذا تستخدم بحق الله تعالى كلمة "الطاعة" ولا تُستخدم كلمة "اتباع" لأن الله تعالى أسمى من الشرائع. ولكن تستخدم بحق الرسول كلتا الكلمتين أي الاتباع والطاعة، أي أنه ﷺ يأمر ثم يعمل بنفسه بما يأمر. إذن، معنى ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ هو أنني صررت محبوب الله نتيجة طاعة الله، فإن عملتم كما أعمل أنا ستصبحون أنتم أيضاً أحباء الله تعالى. وهذا يعني أن الله تعالى عدّ أعمال رسوله ﷺ اسم آخر للقرآن الكريم.

### دحض اعترافات معارضي الإسلام

الآن أتناول الاعترافات التي وُجّهت إلى رسول الله ﷺ وأبين كيف ردّها القرآن الكريم وأثبت كماله ونراحته ﷺ من كل عيب، لأن القرآن الكريم فرض على نفسه إثبات طهارته ﷺ ولم يتزكي على أي إنسان. الاعتراف الأول الذي كان توجيهه إلى حياة النبي ﷺ مكنا هو: ما هي الدوافع والأسباب وراء إعلانه؟ وماذا كان السبب الحقيقي لتقديمه القرآن الكريم؟ فكان هناك من يقول بأنه مجنون، والعياذ بالله، وهناك من يقول إنه يرى أضغاث أحلام، ويقول آخر إنه ساحر ويقول غيره إنه كذاب ويقول غيره إنه كاهن. باختصار، كانت قلوب الناس تكنّ أفكاراً مختلفة، وهي لا تزال مستمرة إلى اليوم. كلما يُؤلف أحدهم كتاباً ضد النبي ﷺ يقول إنه كان كاذباً، ويقول غيره إنه كان مجنوناً، والعياذ بالله.

## الاعتراض الأول

أولاً أتناول اعتراضاً يتعلق بالجنون. لما كانت حياة النبي ﷺ طاهرة ونزيهة لدرجة أنها لم يكن للمنكرين أن يطعنوا فيها، لذا فكلما سمعوا كلامه لم يستطعوا تكذيبه فقالوا إنه مجنون. من ناحية كانت أفكار الشرك مترسخة في قلوبهم ومن ناحية كانوا يقولون إن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكذب، فكان لا بد لتضارب الأمرين من أن يؤدي إلى نشوء فكرة أنه ﷺ فقد صوابه. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٧)، عندما عرض محمد ﷺ القرآن الكريم احتار الناس في كيفية إنكاره فقالوا: يا أيها الذي تقول إن كلام الله نزل عليك إنك فقدت صوابك وصرت مجنونا. فرد القرآن الكريم على قولهم هذا قائلاً: ﴿نَّ وَالْقَلْمَ وَمَا يَسْطُرُونَ \* مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِمَّجِنُونٍ \* وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرًا مُّمْنُونٍ \* وَإِنَّكَ لَعَلَى حُلُقٍ عَظِيمٍ \* فَسَبِّصْرُ وَيُبَصِّرُونَ \* بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٢-٧) الناس يزعمونك مجنونا ولكننا نقدم الخبرة والقلم شهادة على صدقك. من هو المجنون؟ الذي يكون عقله أدنى من عقل عامة الناس، وإلا يملأ المجنون أيضاً شيئاً من العقل على أية حال، فهم يأكلون ويشربون ويلبسون. إنهم يسمون مجانين لأن عقلهم دون أدنى مستوى العقل المعروف لدى عامة الناس. يقول الله تعالى عن الذين كانوا يسمون النبي ﷺ مجنوناً: تحسبونه مجنوناً؟ ولكن العلماء الأكثر ثقافة من غيرهم يعدهون أعقل الناس، كما أن المؤلفين الذين يملكون عقلاً رصيناً يعدهون عقلاً؛ فنقول: هاتوا بكلامهم لمبارزته، واتقوا بجميع الكتب التي ألفت في العالم إلى اليوم - علماً أن الله تعالى لم يقل هنا أن يأتوا بمؤلفات الناس فقط بل قال اأتوا بكل ما هو مكتوب، أي هاتوا بكتب دينية وسماوية أيضاً أو محتوية على العلوم من أعلى الدرجات الموجودة في المكتبات - وإن لم تثبت هذه الكتب كلها عديمة الأهمية أمامه فيجب أن يقرؤوا: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِمَّاجِنُونٍ﴾.

انظروا ما أعظمه من إعلان! وما أقواه من برهان! هذا البرهان قدمه للناس في ذلك العصر، ثم عرض على الذين سيأتون فيما بعد دليلا آخر فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَنْتُونٍ﴾ (القلم: ٤). أي أن الذين سيسمونك مجنونا في المستقبل سنتقول لهم إن مهدا (عليه السلام) ليس فيكم الآن ولكن نتائج أعماله الجبار موجودة بين ظهريكم. المجنون لا يعطي جزاء على أعماله. فمثلا إذا صار المجنون ملكا هل يدفع له أحد ضريبة؟ أو إذا صار طبيبا هل يعالج أحد على يده؟ أو إذا أصبح نبيا فهل يصبح أحد مريدا له؟ ولكن الله تعالى يقول عن رسوله (عليه السلام): سمعطيه على أعماله أجرا لن يقطع أبدا، ولن يأتي زمان ينقطع فيه أجر أعماله. كلما اعترض عليه (عليه السلام) قائل بجنونه سيُقال له إن أعمال المجنون لا تسفر عن نتيجة ولكن انظروا إلى رسول الله (عليه السلام) ترون أن أعماله تأتي بالنتائج حتى بعد مرور عدة قرون.

ثم قال (عليه السلام): نخبركم بشيء آخر عنه (عليه السلام) وهو: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ حُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، لو قلت للمجنون إنك مجنون للطمك، ولكن العاقل يصبر، فلو حسبك هؤلاء الناس مجنونا لما قالوا لك ذلك في مجلسك بل قالوه باقين بعيدا عنك. فما داموا يسمونك مجنونا في وجهك فهذا دليل على أنك لست مجنونا. والدليل على ذلك للذين سيأتون في المستقبل هو أنه يأمر أتباعه أن يتزموا الصمت مقابل الذين يسمونه مجنونا. فهل من مجنون لا يكتفي فقط بكتبة ثورته مقابل الذين يسمونه مجنونا بل ينصح أيضا أجيالا قادمة ألا يعاملوا المعارضين بسوء؟ ثم يقول الله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبَصِّرُونَ \* بِأَيِّسِكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٦-٧)، في هذا الدليل بين الله تعالى أن نصرة الله لا تحالف المجنون، أما محمد رسول الله (عليه السلام) فيحرز نجاحا بعد نجاح بنصرة الله، فكيف يمكن عذر مجنونا؟

## الاعتراض الثاني

لقد أثير الاعتراض الثاني حين رأى المعارضون أن العقلاة بدأوا يسمونهم أنفسهم مجانين على تسميتهم النبي (عليه السلام) مجنونا. عندما رأوا أن الذي يسمونه مجنونا لم يقتل

أحدا ولم يضرب أحدا بل أبدى أخلاقا سامية جدا، فـكروا أن يخترعوا أمرا آخر فقالوا إنه أعلن ما أعلن نتيجة أضغاث أحلام. فيقول الله تعالى في ذكر اعتراضهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْعَاثُ أَحْلَامٍ﴾ (الأنباء: ٦)، أي أن كلامه مبني على أضغاث أحلام يراها، وإلا فهو رجل طيب بحد ذاته ويتحقق بعض ما يقول ولكنه يرى بعض الأمور السيئة حسنةً.

الفرق بين الجنون وأضغاث الأحلام هو أن في حال الجنون يحدث الخلل في الدماغ في البقظة، أما في حال أضغاث أحلام يحدث الخلل في الدماغ أثناء النوم. لما كان المعارضون يرون أنه لا عيب في سلوك النبي ﷺ فقالوا بأن المراد من الجنون ليس الجنون الظاهري، بل هو يرى في المنام أموراً كهذه. فرد القرآن الكريم على ذلك قائلاً: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنباء: ١١)، الذين يرون أضغاث أحلام هل تشمل أحلامهم أسباب التقدم القومي؟ أضغاث الأحلام تسفر عن نتائج مشتتة. بينما قد أنزل عليه كتاب هو مدعوة لعزتكم وشرفكم. فهل الخلل الدماغي يفوز بمثل هذا التعليم؟ أتتم تحسبون أنفسكم عقلاً، أفلأ تعقلون هذا الأمر البسيط أيضاً؟

### الاعتراض الثالث

قال بعضهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ (ص: ٥). من معانى السحر الكذب أيضاً. ولكن المعارضين سمو النبي ﷺ كذاباً بوجه عام أيضاً، لذا فلو كان معنى السحر الكذب سيكون الرد عليه منفصلاً. معنى السحر الثاني هو أن يتراءى الشيء في شكله الظاهري مختلفاً عما هو عليه في الباطن. يقول الله تعالى ردًا على ذلك: ﴿وَإِنْ يَرَوْا أَيَّهُ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ﴾ (القمر: ٣)، أي كلما يرون من محمد ﷺ معجزة يعرضون ويقولون نفهم هذه الأمور جيداً، هذا سحر قديم. ثم يقول تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بِالْعَةٌ فَمَا تُعْنِي التُّدْرُ﴾ (القمر: ٦)، أي في القرآن حكمة بالغة، وفيه مضامين من شأنها أن تحدث تغييراً. معنى السحر أن يمسخ الظاهر ويقى الباطن

مستقلاً، ولكن تأثير القرآن هو أنه يغير القلوب بدلًا من الظاهر، لذا لا يمكن تسميتها سحراً. هذه حكمة باللغة تؤثر إلى أبعاد شاسعة، وتؤثر في العواطف والأفكار الداخلية ولكن هذا الإنذار لا ينفع هؤلاء الناس.

#### الاعتراض الرابع

قال بعض إنه لا يجد ساحراً بل هو مسحور دون شك. أي هو رجل طيب في حد ذاته ولكن سحره أحد ذلك يقول مثل هذا الكلام، فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشْبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الفرقان: ٩)، يقولون إن المسلمين يتبعون رجلاً مسحوراً، وقد سحره أحد فقد صوابه. لقد سبق هذه الآية طلب المعارضين بنزول الملائكة. عندما قال النبي ﷺ إن الملائكة تنزل وتحب الكنوز (المراد من الملائكة هو الإلهام، ومن الكنوز معارف القرآن) قال المعارضون: إنه يرى الملائكة لأنه مسحور، بينما لا نرى الملائكة ولا نرى الكنوز، ولكنه يقول إن الملائكة تنزل عليه ويتنقى الكنوز. متى تلقاها؟ بل هذا تأثير السحر عليه إذ يقول مثل هذا الكلام. فيقول الله تعالى رداً على عدة اعتراضات من هذا القبيل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَّوْا عُتُّوًا كَبِيرًا \* يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا يُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا \* وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْتُورًا \* أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ حَيْرُ مُسْتَقْرِرًا وَأَحْسَنُ مَقْيِلًا \* وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْعَمَامِ وَنَزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا \* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحُقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٢-٢٧)، أي يقول الأغبياء إنه مسحور، ويأتون عليه بدليل أنهم لماذا لا يرون الملائكة ولا الكنوز؟ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، لماذا لا تنزل علينا الملائكة وهو يدعى نزولها عليه؟ ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، هو يقول إنه يرى ربه فلماذا لا نراه نحن؟ يزعم هؤلاء الجهلاء أن هذه الأشياء ليست موجودة ومن أدعى وجودها فهو مسحور. ولكنهم لا ينظرون إلى أنفسهم، هل يمكن أن يرى الله أناسٌ نجسون مثلهم؟ ﴿عَتُّوًا عُتُّوًا كَبِيرًا \* يَوْمَ

يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ》 ... سوف يرون الملائكة ولكن بأسلوب آخر، أي عندما يروهم يقولون متحسرين: ليتنا لم نرهم. لن ينال المجرمون يومذاك بشاراة من الملائكة فيقولون قلقين أن ابتعدوا عننا. يقول الله تعالى بأنهم يرون الله أيضا على المنوال نفسه، ولكن ليس لينعم عليهم، بل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٤)، أي سيفحص أعمالهم ليبيدهم وسيذروا حكمتهم ذروا. ويكون هذا اليوم يوم فرحة وسرور للذين يقولون عنهم بأنهم يتبعون رجلا مسحورا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَخْسَرٌ مَقْيَلًا﴾ (الفرقان: ٢٥). أي أنهم يُؤْوِلُونَ مقاماً أحسن ومرحبا، ثم بين ﷺ تفصيله وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَفَّقُ السَّمَاءُ بِالْعَمَامِ وَتُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٦)، أي ينزل المطر من السماء وينزل الملائكة كما نزلوا يوم بدر. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحُقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٧). في ذلك اليوم تباد حكومة مكة ويهب الحكم محمد رسول الله ﷺ. ويوم فتح مكة يكون يوما صعبا جدا على الكافرين.

أما الكنوز فقال ﷺ عنها: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣١)، أي يا رب كان بإمكانهم أن يعتضوا بشأن الحكومة إن لم يروها، ويعتذروا عن الكنوز إن لم يروها، ويعتذروا عن الملائكة إن لم يروهم، ولكن كيف جاز لهم الاعتراض على القرآن بعد أن رأوه بأم أعينهم؟ ولكن من المؤسف حقا أنهم أنكروا هذا الكنز العظيم والثمين، مع أنه كان ممكنا أن يروه.

لقد ورد في سورة الإسراء أيضا أن المعارضين سمو رسول الله ﷺ مسحورا. فقد جاء فيها: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الإسراء: ٤٨)، وجاء بعد هذه الآية فورا، وكذلك بعد الآية المماثلة من سورة الفرقان: ﴿اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِعُونَ سَيِّلًا﴾ (الفرقان: ١٠)، مع أنهم يذلون جل مساعيهم في سبيل دحض كلام جاء به، وتکاد نفوسهم تزهق نتيجة خيبة آمالهم وفشلهم، ومع ذلك يقولون إنه مسحور. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا عجزوا عن مبارزة هذا

الشخص الضعيف. المسحور يكون تابعاً للآخرين، بينما هو يجعل الآخرين يتبعونه، وجميع الناس الآخرين عاجزون مقابلة.

أقول بأسف شديد إن المسلمين أيضاً اشتركوا مع الكفار في هذا الاعتراض، وقالوا إن اليهود سحرروا مرة رسول الله ﷺ، والعياذ بالله، وبقي تأثيره عليه إلى مدة طويلة. وقد جرّوا في هذا الموضوع الإمام البخاري أيضاً مع أنهم يقرأون بكل وضوح في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٨). فإذا كان الناس قادرين على سحر رسول الله ﷺ فكيف صحّ قوله تعالى: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ إننا نرى أنه لا يسع أحداً أن يسحر حتى خدام رسول الله ﷺ ناهيك عن رسول الله. حكى شخص لأحد الأحمديين قائلاً: أنا بارع جداً في المسمّرية، وذات مرة أردت أن أؤثّر بها على المرزا الختم وأجعله يتصرف بتصفات غريبة أمام الناس، فذهبت إلى مجلسه واضعاً هذه الفكرة في البال، وبدأت أرتكّز عليه ولكنّه ﷺ ظل يحاور الناس بكل سكينة وهدوء ولم يقع عليه أي تأثير حتى بذلت قوتي كلها وسعيت أن أثر فيه ولكنني شعرت كأن أسدًا موشك على الهجوم علي، وحين رأيت ذلك هربت من هناك مذعوراً.

ثم بعد وصوله إلى لاهور بعث هذا الشخص إلى المسيح الموعود ﷺ رسالة قال فيها: إبني موقن بأنك ولي الله الكبير. فقال له أحد: كيف علمت أنه ولي الله، إلا يمكن أن يكون هو أقوى منك في مجال المسمّرية؟ قال: لا بدّ من يمارس المسمّرية أن يرتكّز على ضحيته ملتّماً الصمت، ولكنّه ﷺ كان يتحدث مع الناس، لذا لا يمكن أن يكون من يمارسون المسمّرية.

### الاعتراض الخامس

كان هناك اعتراض آخر أنه ﷺ كاهن. ومعلوم أن الكهان يتنبأون بأنباء مستقبلية نظراً إلى بعض العلامات. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَقُولُ

كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَكَّرُونَ ﴿الحاقة: ٤٣﴾، أي يحسبك الناس كاهنا ولكن كلامك ليس كذلك، ولكنهم لا يتذكرون فقط.

الغريب في الأمر أن كلمة "مسحور" جاءت بحق النبي ﷺ في القرآن الكريم مرتين، وجاءت بعدها آية: ﴿اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِعُونَ سَيِّلًا﴾ (الإسراء: ٤٩، الفرقان: ١٠)، وجاءت كلمة "كاهن" أيضا مرتين، وجاءت مصحوبة بـ"ذكر"، فيتبين من ذلك أن الكاهن والمذكور ضدان. فجاء في سورة الطور: ﴿فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِعِمَّةٍ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنِونٍ﴾ (الطور: ٣٠)، أي أن الكاهن لا يمكن أن يكون مذكرا، والمذكور لا يمكن أن يكون كاهنا. والسبب وراء ذلك أن كلمة الكاهن تطلق على أناس عنيدين ومنجمين وحمقى يسردون أخبار الغيب نظرا إلى بعض العلامات. ولما كان رسول الله ﷺ ينبئ بأخبار الغيب لذا كان بعض الحمقى يسمونه كاهنا. يقول الله تعالى إن أخبار الكهان والمنجمين تكون أخبارا محضة، أما أخباره ﷺ فهي تحمل جانب التذكير، وتعلق بإصلاح النفس وإصلاح القوم، فكيف يمكن أن يكون كاهنا. إن أخبار الكهان تكون مثلا ذكر عن المولوي برهان الدين الجهمي. وبيانه أن المولوي برهان الدين ذات مرة أظهر لمنجم يده وهو جالس خلف ستار. فحسبه المنجم امرأة وبدأ يحدّثه عن الزوج، وعندما أخرج المنجم ما في جعبته أمسك المولوي برهان الدين يده وقدّم لحيته أمامه، فهرب المنجم من فوره ولم يرجع إلى تلك الحارة بعد ذلك.

باختصار، إن أخبار الكهان تكون أخبارا محضة مثل أن فلانا سيرزق بابن، ويموت فلان.. فهي لا تُظهر قدرة الله تعالى. أما الأخبار التي ينسئ بها محمد رسول الله ﷺ فلا يمكن تصنيفها في قائمة أخبار المنجمين، بل هي تزيد المرء إيمانا وتُظهر قدرة الله وجلاله. يقول الرسول إنه جاء من الله، ومن يتصدى له يفشل وتخيب آماله، ومن يؤمن به ينتصر. ولكن لا يسع كاهنا أن يقول ذلك. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾. لقد فقد القائلون بذلك صوابهم لدرجة أنهم يسمعون هذا القدر من النبوءات التي تُظهر قدرة الله وجريته، ومع ذلك لا يتعظون. ويقول الله تعالى في الرد الثاني على الاعتراض المذكور: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ \* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ \* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ \* وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ \* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* وَلَوْ تَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِلِ \* لَا أَخْدُنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ \* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ \* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحافة: ٤٨-٣٩) ... أي أن ظروفه الظاهرية والباطنية أيضاً تشهد أن هذا القرآن كلام رسول كريم. من حيث الظروف الظاهرية يشتراك الكاهن والشعراء في أمر واحد، أي أن الشاعر ييدي العواطف بشدة وبعد بيان كل شيء يمد يده متسللاً، والكافر أيضاً يتسلل ببيان الأخبار. ويقول الله تعالى بأن هذا الرسول كريم ينفق من عنده بينما الكاهن يسأل الآخرين.

لا يظنّ أحد هنا أن القرآن الكريم عَدّ هنا كلام رسول الله ﷺ، بل دُحضرت هذه الشبهة بإيراد الكلمة "رسول" وقال بأن القرآن ليس كلام الرسول لأن الرسول من ينقل رسالة غيره، وإذا قال محمد (رسول الله ﷺ) شيئاً من عنده لكان ذلك كلامه، ولكنه رسول فقط.

والدليل الثالث هو أن الكاهن ينسب أخباره إلى علمه، ويقول إنه عشر عليها بواسطة علم الجفر والرمل والأرقام وغيرها، ولا ينسب أخباره إلى الله تعالى، أما هذا الرسول فيقول إنه يتلقى الكلام من الله ثم ينقله، ويقول عن كلامه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لقد بين أيضاً هنا أن الكاهن لا يعاقب على سرده مثل هذا الكلام لأنه لا يتقول على الله بل يقوله من عنده، ولكن الرسول يقول إنه يسرد ما يتلقاه من الله، ولو كذب لأهلك فوراً. فهذا الرسول ﷺ ليس كاهناً بل هو رسول الله الصادق، والكلام الذي نزل عليه إنما أنزله الله تعالى. وإن قلتم إنه يكتبه كهانته بهذه الطريقة

فاعلموا أن الذي يفعل ذلك قصدا لا يمكن أن يجتنب العقاب أبدا. ولو نسب هذا الشخص إلهاً ما كاذباً إلينا، ولو واحداً، لأخذناه باليمين وقطعنا منه الولتين، وما كان لأحد منكم أن ينقذه من عذابنا.

### الاعتراض السادس

وقد اعترض على النبي ﷺ أنه شاعر كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي أنه يؤثر في الناس بكلام فصيح، فرد الله على هذا الاعتراض في سورة يس وقال: ﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ \* لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحْقِقَ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٧١-٧٠) .. أي قد أنزل عليه هذا الذكر والقرآن المبين لينذر الذين فيهم حياة روحانية ولتهم الحجة على الكافرين.

لقد بين الله تعالى هنا أن: أولاً، القرآن ليس شعراً بل الحق أن هؤلاء الناس فقدوا صوابهم إذ يحسبون النثر شعراً. ثانياً: إن قيل بأنهم يحسبونه شعراً بالمعنى المجازي - لأن الشعر هو ما يأتي من الداخل إلى الخارج، والشعر يسمى شعراً لأنه يثير المشاعر - فقد رد الله على هذا بقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، أي لا يليق بمرتبته أن يقول مثل هذا الكلام. الشاعر يحب أن يذاع اسمه، ولكن أمعنا النظر في حياته ﷺ كلها فهو يقول: ﴿مِثْلُكُمْ﴾ أي أنا بشر مثلكم. الشاعر يمدح الذين يتوقع منهم شيئاً، ولكن هذا الرسول يقول: لا أريد منكم ولا أسألكم شيئاً. إذن، لا مجازة بين الشعر والكلام الذي جاء به. ثالثاً: هذا الكلام ذِكْرٌ بينما الشعر لا يكون ذِكْراً بل الشاعر يثير المشاعر والعواطف الباطنية ويدرك الشهوة والشغف في الجمال. ولكن هذا الذكر يشجب هذه الأمور كلها. رابعاً: هذا الكلام يوحي بمحاسن عظمى للفطرة وينقذ من السيئات أصحاب الفطرة السليمة، وينعم الحجة على من كان من الميتين، بينما الشاعر يثير المشاعر البهيمية. فلا يمكن تسمية هذا الكلام شعراً ولو مجازاً.

## الاعتراض السابع

الاعتراض السابع هو أنه معلم، فيقول الله تعالى: ﴿أَنَّ هُمُ الْذِكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ \* تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (الدخان: ١٤-١٥)، أتى هؤلاء الأغبياء أن يتذكروا مع أنه جاءهم رسول يبين معارف عليا.. يقولون إنه غبي لدرجة أن الناس يخبرونه ما يخالف دين آبائه وأجداده وهو يحكى الكلام نفسه لآخرين.

كان ولا يزال بعض الناس يعتضدون أن القرآن لم ينزل عليه ﷺ ولم يخترعه من عنده بل علّمه إياه شخص آخر. فقال أهل مكة: كيف يروق لحمد ﷺ أن يشجب أوثان قومه -مع كونه من مكة- ويثنى على أنبياء قوم آخرين، فلا شك أن أحدا آخر يعلّمه هذه الأمور. كلما سمعوا مدح موسى عليه السلام في القرآن الكريم قالوا لعلّ يهوديا علّمه، وإذا سمعوا ثناءً على عيسى عليه السلام قالوا إن نصرانيا علّمه. وفي ذلك كانوا يجدون تأييدها على موقفهم لأن أحداث الأنبياء السابقين أيضا مذكورة في القرآن الكريم. لم ترد كلمة مجنون في هذه الآية بمعناها الحقيقي، بل هذا كلام قيل في حالة الغضب لأنه لا يمكن أن تجتمع صفتان المعلم والمجنون في شخص واحد. فالمراد هنا هو أنه غبي ولا يدرك أن الناس يعلمونه أمورا تختلف أهل دينه وقومه.

لقد وردت هذه الفكرة في آيتين في القرآن الكريم، فمثلا جاء في سورة النحل: ﴿فَلَمَّا نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُنَبِّئَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدَىٰ وَبُشِّرَى لِلْمُسْلِمِينَ \* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَكْثَمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الدَّىِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣-١٠٤)، أي يا محمد ﷺ قل للمعارضين إن القرآن الكريم أنزله روح القدس، وفيه جميع أنواع الحقائق من ربك... ﴿أَعْجَمِي﴾؛ الأعجمي من ليس عربيا أو إذا كان عربيا فلا يكون قادرا على أن يعبر على ما يرام بما يضممه قلبه. ولكن هذا الكلام عربي وليس عربيا عاديا بل عربي مبين. وقال

الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْلُكُ افْتَرَاهُ وَأَعْانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَخْرَوْنَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَرُوزًا \* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُكْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* قُلْ أَنْزَلَهُ اللَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧-٥) .. ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هناك جماعات بحسب زعمهم، إحداهم تدون المضمون والأخرى تكتب له ﴿بَلَّه﴾.

لقد اشتراك في هذه الأيام المسيحيون أيضاً في هذا الاعتراض فيقول كبار مؤلفيهم متلذذين: لم يعرف محمد ﷺ ما هو مكتوب في كتب النصارى واليهود، وكان النصارى واليهود هم الذين جمعوا له هذه الحكايات. فما دام هذا الاعتراض يثار في هذه الأيام أيضاً وتعلق عليه أهمية كبيرة، لذا سأرد عليه بشيء من التفصيل.

يقول المفسرون إن المراد من البشر في: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ هو "جبر" عبد رومي<sup>١</sup> وكان عبداً لعامر بن الحضرمي، وكان قد درس التوراة والإنجيل. عندما بدأ الناس يؤذون النبي ﷺ كان ﷺ يجلس عنده، فاعتراض الناس على ذلك. وفي روايات أخرى جاء قول الفراء والزجاج إن عبداً لحويطب بن عبد العزى اسمه "عائش" أو "يعيش" كان يقرأ الكتب السابقة، ثم أصبح مسلماً مخلصاً فيما بعد وكان يحضر مجلس النبي ﷺ. فكان الناس يذكرون اسمه بشأن الاعتراض المذكور آنفاً. يقول مقاتل وجibir إن الناس كانوا يشكّون في أبي فُكّهية - اسمه "يسار" - الذي كان يهودياً وعبد لسيدة في مكة. وأخرج آدم بن أبي إنياس والبيهقي وجماعة عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان نصريان من أهل عين التمر اسم أحدهما "يسار" والآخر "جبر" وكانا يصنعان السيف بمكة وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبي ﷺ وهو يقرئان فيقف ويستمع فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما إنك تعلم محمداً ﷺ فقال لا بل هو يعلّمني.

<sup>١</sup> الإصابة، لابن حجر، الجزء الأول، حرف الجيم: جبر مولى عامر بن الحضرمي

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: كان بمكة غلام أعمى لبعض قريش يقال له بلعام وكان رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام فقالت قريش: هذا يعلم محمدا عليه الصلاة والسلام.<sup>١</sup>

يقول المؤرخون المسيحيون: لعله ﷺ تعلم من الراهب بحيري. ما دام لا يُعثر على اسم بحيري في كتب التاريخ للمسيحيين لذا كانوا في البداية يرفضون حتى اسمه، ولكن بدأوا الآن يعترفون به بسبب رواية أوردها المسعودي، ويستفيدون منها من أجل الاعتراض. تقول هذه الرواية إن المسيحيين كانوا يسمون بحيري باسم "سرجيوس" (Sergius) وهذا الاسم مذكور في كتب المسيحيين. فيقولون الآن بأن رسول الله ﷺ تعلم من هذا الشخص ودون القرآن، والعياذ بالله. ولكن المستشرق "سيل" (Sale) يرفض هذه الفكرة ويقول إن سفر بحيري إلى مكة ليس ثابتا، وإن الزعم أن رسول الله ﷺ تعلم القرآن من بحيري في أيام شبابه قبل إعلانه بالنبوة غير معقول، إلا أنه من الممكن أن يكون قد تعلم منه شيئاً عن المسيحية.

يقول القسيس "ويري" مظهراً سروره بهذه الروايات: إن هذه الرواية مروية بكثرة وإن كان هناك اختلاف في الأسماء - ولا تترك مجالاً للشك في أن بعض النصارى واليهود كانوا يأتون محمداً (ﷺ) وأنه استفاد من الحديث معهم بوجه خاص، وأن الضعف في الجواب يدل على أن وراء الأكمة ما وراءها، وإنما معنى الجواب القائل إن لسان الذي يعلمه أعمى، إذ يمكن أن يصوغ الأعمى جملة مكسرة في لغته ثم يضفي عليها محمد (ﷺ) صبغة العربية. (يقدم ويري تأييداً لموقفه هذا مستشراً باسمه آرنولد أيضاً) ويقول:

"It is because of this that we do not hesitate to reiterate that old change of deliberate imposture."<sup>2</sup>

<sup>١</sup> تفسير روح المعانى.

<sup>2</sup> A comprehensive commentary on the Quran by the Rev. E.M Wherry M. A Vol III P.47 Published in London 1896.

لا نشعر بأدنى تردد عند إعادة تحمتنا القديمة أن محمداً (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد افترى الكذب عمداً.

يمكن أن يُعرف ما دُكِر آنفًا أن كفار مكة كانوا يعلقون على هذا الاعتراض أهمية غير عادية، وأن ورثتهم المسيحيين قد أبقوها قائمة إلى الآن.

أولاً سأتناول اعتراضات المسيحيين، وأقدم في الجواب شخصاً يحسبه النصارى ابن الله. لقد اعترض على المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن للشيطان علاقة معه، وهو يُخرج الشياطين بمساعدته، فقد ورد: "وَكَانَ يُخْرِجُ شَيْطَانًا، وَكَانَ ذَلِكَ أَخْرَسَ. فَلَمَّا أُخْرِجَ الشَّيْطَانَ تَكَلَّمَ الْأَخْرَسُ، فَتَعَجَّبَ الْجُمُوعُ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَقَالُوا: بِعَزْبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ. وَآخْرُونَ طَلَبُوا مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ يُجْرِيُونَهُ. فَعَلِمَ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: كُلُّ مَلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تَحْرُبُ، وَبَيْتٌ مُنْقَسِمٌ عَلَى بَيْتٍ يَسْقُطُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا يُنْقَسِمُ عَلَى ذَاتِهِ، فَكَيْفَ تَثْبِتُ مَلَكَتُهُ؟ لَأَنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنِّي بِعَزْبُولِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ. (إِحْيَيْلُ لُوقَا ١١: ١٤-١٨)

هنا قدم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قانوناً. فحين قيل إنه يُخرج شيطاناً بمساعدة الشيطان قال: لماذا يُخرج الشيطان شيطاناً؟ ففكروا الآن بحسب هذا القانون، هل يبدو القرآن من صنع يهودي أو نصري؟ إذا كان من صنع نصري فكيف كان ممكناً أن يكون مليئاً بما يفتّن المسيحيّة؟ وإذا كان من صنع يهودي فكيف ورد فيه ما يدحض اليهودية؟ أخبروني عن أي فرقة من فرق المسيحية وسأبين لكم تفنيدها من القرآن. أخبروني عن فرقة من فرق اليهودية إلا ودحضه موجود في القرآن. هل لأحد أن يظن أن مسيحياناً أو يهودياً سيفند دينه؟ القرآن يفتّن المسيحيّة كلّياً. لا نذهب بعيداً بل السورة الأولى في القرآن الكريم تستأصل شأفة المسيحية، فالسورة الأولى التي نزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمَ \* الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمِ \* عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ \* كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى \* أَنْ رَأَهُ أَسْتَغْنَى \* إِنَّ إِلَيْ رَبِّكَ

الرُّجُعُى \* أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى \* عَبْدًا إِذَا صَلَى \* أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى  
أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى \* أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى \* أَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى \* كَلَّا لَئِنْ لَمْ  
يَنْتَهِ لَنْسُقَعْنَ بِالنَّاصِيَةِ \* نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ حَاطِئَةٌ \* فَلَيَدْعُ نَادِيَهُ \* سَنَدْعُ الرَّبَّانِيَةَ \*  
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿العلق: ٢٠ - ٢﴾.

ففي هذه السورة التي هي الأولى نزولاً دُحِضت جميع مسائل المسيحية. المجموع الأول على المسيحية هو: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. إن أساس المسيحية هو على اعتقاد أن الإنسان مذنبٌ فطرةً، ولا يمكن أن يصبح صالحاً نتيجةً لأعماله، لذا صُلب المسيح الذي كان طاهراً ونزيهاً عن كل عيب وبذلك حمل ذنوب الناس وصار كبس فداء. يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي حب الله تعالى مودع في فطرة الإنسان، وهو محبوّل على العلاقة بالله. وهكذا أُبطل أول اعتقاد للمسيحية وقيل إن الكفارة ليست بشيء. الكفارة مبنية على أن الإنسان مذنب بينما الإسلام يبدأ من فكرة أن الإنسان صالح وقد أُودع فطرته حبّ الله لا الذنب.

الرد الثاني الذي قدمه الله هو: ﴿أَفَرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، أي أن الصفات التي توجد في أشياء أخرى تتجلى في الله تعالى صفات أعلى منها. تقول المسيحية إنه ليست في الله صفة الرحم، فلا يستطيع أن يعفو عن مذنب، ولكن الإسلام يقول: ما دام الإنسان يستطيع أن يعفو عن المخطئ بمحنه، ويتحلى بصفة العفو، فكيف لا يقدر الله تعالى على ذلك؟ ولماذا لا يتحلى تعالى بهذه الصفة؟ الحق أن هذه الصفة موجودة في الله تعالى بوجه أتم وأكمل لأنه "الأكرم"، أي يفوق الجميع في الصفات الحسنة.

الرد الثالث الذي قدمه الله هو: ﴿عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إن دعامة المسيحية الثالثة هي أن الشريعة لعنة، ولكن القرآن يقول إن في الشريعة أشياء لا يمكن للإنسان أن يكتشفها بعقله. والناس لا يستطيعون أن يصوغوا أحكام الشريعة بسعفهم، لذا تأتي الشريعة.

المجوم الرابع على المسيحية هو: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى \* أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾ أي أن الإنسان متمرد جداً إذ يقول إنه ليس بحاجة إلى شريعة الله وسيهين لنفسه أسباب هدایته، ولكن القائلين بذلك أغبياء جداً.

والرد الخامس هو: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، أي لا تسمع لما يقوله هؤلاء الناس واعبد الله حق العبادة وأطعه. فقال ﷺ لرسوله ﷺ ألا يطيع راهباً يُعَذَّبُ الشريعة لعنة بل استمرّ في طاعة الله. أي بين أن وسيلة النجاة والتقرب إلى الله هي السجود (أي الطاعة) أو الإسلام بتعبير آخر، وليس الإيمان بكافارة.

فالسورة الأولى نزولاً في القرآن الكريم دحضت المسيحية بالأدلة. كذلك دُحضت المسيحية واليهودية في سورة الفاتحة. فهل لأحد أن يقبل أن النصارى واليهود كانوا يهينون الأدلة ضد دينهم؟ ليس في الموضوع إلا خياران اثنان؛ إما أن يكون الراهب المسيحي مؤمناً بدينه أو غير مؤمن به. فإذا كان مؤمناً به كان عليه أن يؤيد دينه بدلًا من أن يقول ما يعارضه. أما إذا كان غير مؤمن به وكان يدرك أن ما توصل إليه الآن ذو شأن عظيم فلماذا لم ينسبه إلى نفسه؟ كان عليه أن يؤلف الكتاب باسمه دون أن ي ملي على غيره.

والآن أتناول تلك الآيات والردود المذكورة فيها. يتبيّن من آيات في سورة النحل أن هؤلاء الناس اعترضوا أن شخصاً آخر يعلّمه. ورد الله تعالى على ذلك فقال إن ذلك الشخص أعمامي بينما لغة القرآن عربية. يقول "ويري" إن هذا الجواب سخيف ويتبين منه أن وراء الأكمة ما وراءها. بل كان ذلك الشخص الأعمامي يصوغ المضمون وكان رسول الله ﷺ يحوله إلى العربية بعد ذلك. ولكن السؤال هو: هل بقية الردود القرآنية أيضاً سخيفة؟ إذا كان كلام القرآن أرفع وأعلى فلا بد لكم من أن تفكروا أن هذا الجواب أيضاً سيكون أعلى حتماً وقد يكون فهمكم خطأ. ثانياً: إذا كان هذا الجواب في غير محله فلماذا لم يدحضه أهل مكة؟ ولماذا لم يردوا كما ردّ به "ويري"؟ إذ كانوا هم المعارضون بأنفسهم وكانوا يدركون معنى اعترافهم

أكثر من ويري وغيره، فكان ممكناً أن يقولوا إن هذا الجواب لا يعني شيئاً، ولكن لم يرد ولو في أضعف رواية أن أهل مكة قالوا إن هذا الجواب في غير محله. يتبيّن من ذلك أنهم تلقوا جواباً صحيحاً ومفهوماً على اعتراضهم فلزموا الصمت.

أما القول: ما معنى السؤال والجواب أصلاً؟ فجوابه أن الكفار لم يطرحوا سؤالاً واحداً بل سؤالين، ويسبّب عدم فهمهم هذين السؤالين حسوباً الجواب القرآني في غير محله. أحد هذين السؤالين مذكور في سورة النحل والآخر مذكور في سورة الفرقان. ففي سورة النحل نُقل اعتراضهم أن شخصاً أعمجياً يعلّمه ﷺ ولكن القرآن الكريم لم يذكر اسمه غير أنه قال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌ﴾ (النحل: ١٠٤)، هذا يعني أن المعارضين كانوا يحدّدون شخصاً معيناً، ويتبّين أيضاً أن ذلك الشخص كان معروفاً وكان المسلمون أيضاً يعرفون اسمه.

إن آية سورة الفرقان تختلف عن الآية المذكورة، وقيل فيها إن الكفار اعتربوا دون ذكر اسم شخص معين وقالوا إن جماعة تعلم رسول الله ﷺ وتبقي عنده ليل نهار، وهو يعلّي على أناس آخرين أحداثاً تخبره بها هذه الجماعة.

إذن، الفرق واضح، إذ ذُكر في آية شخصٌ معين وفي آية أخرى ذُكرت جماعة غير معينة. وفي آية ذُكر التعليم فقط وفي الثانية ذُكر أن جماعة تعلّم على عليه. وفي آية ذُكر التعليم فقط وفي الأخرى ذُكر نقلُ أساطير الأولين وأفكارهم، وفوق كل هذا جاء الرد في كلام الموضعين مختلفاً. إذن، هذه الفروق واضحة لدرجة يمكن أن يدركها كل شخص بسهولة.

الحق أنه عندما أعلن النبي ﷺ ادعاءه آمن به في البداية بعض العبيد الذين كانوا من قبل عبادة الأوثان أو نصارى أو يهودا. وكلما وجدوا فرصة صباحاً أو مساءً جاءوا إلى بيت النبي ﷺ وتعلّموا الدين مع الصحابة الآخرين، وصلّوا الصلوات. يتضح من حادث آمن نتيجته عمر رضي الله عنه أن هذا الاجتماع كان يُعقد في بيت ذات يوم خرج عمر رضي الله عنه -قبل إسلامه- من بيته ناوياً الهجوم على

رسول الله ﷺ. سأله أحد في الطريق: أين تقصد؟ قال: أقصد محمدا الذي صبا. قال: انتبه إلى أهل بيتك أولا. قال ﷺ: ما القصة؟ قال: لقد أسلمت أختك وزوجها. بسماع هذا الكلام توجه عمر رضي الله عنه إلى بيت أخته وطرق الباب. كان أحد الصحابة يعلمهمما القرآن آنذاك. عندما علموا أن الزائر هو عمر، أخفى الصحابي القرآن الكريم وواجهه عمر أخته وزوجها وسألاه عما جاء به. قال عمر: أخبرني ماذا كنتما تفعلان؟ وقد سمعت أنكم صباكم. قالا: هذا ليس صحيحا، ولم نصبا. قال عمر رضي الله عنه: قد سمعت بنفسي صوتكم وأنتم تقرأون شيئا. قال ذلك وهجم على زوج أخته. تدخلت أخته ووَقَعَتُ الضربة على رأسها وشَجَّ رأسها وسال منه الدم. فقالت بكل حماس: لقد أسلمنا وأمنا بالله ورسوله فافعل ما شئت. كان عمر رضي الله عنه رجلا شجاعا وعندما رأى أن ضربته وقعت على امرأة وهي أخته، ندم بشدة وقال: أربيني ما كنتم تقرأونه. قالت: إنك مشرك ونجس، فاذهب واغتسل أولا ثم نخبرك بالموضوع. فاغتسل عمر رضي الله عنه وزال غضبه تماما ثم قرئت عليه آيات القرآن التي كانوا يقرأونها. رق قلبه رضي الله عنه بسماعها وقال عفويًا: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. عندها خرج الصحابي الذي كانا قد أخفياه، وقال عمر رضي الله عنه: أين زعيمكم، أريد الذهاب إليه. قيل له إن المسلمين يجتمعون في بيت كذا. ذهب عمر رضي الله عنه إلى هناك وكان النبي ﷺ وبعض الصحابة موجودين وكان الباب مغلقا، فطرقه عمر رضي الله عنه. سأله الصحابة: من الطارق؟ قال: أنا عمر. ذكر الصحابة مجيء عمر للنبي ﷺ خائفين، ورأوا من فتحة الباب أن السيف معلق في عنقه. قال النبي ﷺ: افتحوا الباب. وحين دخل عمر رضي الله عنه أمسك النبي ﷺ بقميصه وقال: ماذا وراءك يا عمر؟ قال: جئت لأدخل الإسلام. قال ﷺ: الله أكبر،<sup>١</sup> وكبار الصحابة أيضا على إثر ذلك بأعلى صوتهم.

<sup>١</sup> السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثاني، إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يتضح من هذا الحادث أن النبي ﷺ كان يدعو الصحابة ﷺ إلى بيت منفصل لتعليمهم الدين. ولما كان مجلس مغلقاً الأبواب كيلاً يعيث الكفار شرًا لذا كان الاجتماع من هذا النوع أمراً غريباً للكفار، فكانوا يزعمون أنهم يدونون القرآن الكريم هنالك. ولما كانت في القرآن الكريم إشارة إلى بعض أحداث الأنبياء السابقين فزعم الكفار أن العبيد اليهود والنصارى يلقطون المسلمين هذه الأمور والنبي عليهما على أصحابه. فرد الله تعالى على ذلك قائلاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْلَكٌ افْتَرَاهُ وَأَعْنَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَخْرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَرُورًا﴾ (الفرقان: ٥)، أي أن اعتراضهم هذا خطأ وباطل بالبداهة ومبني على الظلم والزور لأنه هل يمكن للعبيد المسيحيين أن يفعلوا ما يعرض دينهم للضحك والسخرية؟ ما حاجتهم إلى ذلك وماذا ينفعهم الاشتراك فيما لا ينفعهم ولا يجديهم شيئاً وليعرضوا أنفسهم للضرب والإيذاء ليل نهار ويُحرّروا على رمال حارقة؟ فالمعرضون افتروا ظلماً وزوراً باعتراضهم على أناس مخلصين مثلهم، إذ من المستحيل تماماً أن يختلف أناس مثلهم زوراً كهذا.

والرد الثاني الذي قدمه الله تعالى هو أن ما تزعمونه أساطير قديمة فليس بالأساطير بل أخبار وأنباء عن المستقبل، فيقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْزَلْنَا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٧)، أي لا يسع بشراً أن يصوغ كلاماً مثله، فهو مبني على أمور الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله.

انظروا الآن إلى هذه الردود، فما أقوالها وما أصواتها، وما أوهن فكرة ويري! وإذا ورد في هذه الآية أيضاً اعتراض ذُكر في سورة النحل فلماذا لم يُرد عليه هنا بما رُدّ به عليه هنالك؟ ما هو السبب يا تُرى أن يعطي جواباً سخيفاً بحسب زعم ويري إذا كان السؤال نفسه قد ورد في سورة النحل؟ من كان يعرف جواباً صائباً وقدمه سلفاً فلماذا يقدم جواباً آخر تاركاً جوابه السابق؟ إذن، هذا الجواب ليس لغواً بل هناك خلل في عقل المعرضين. الحقيقة أنه لم يُذكر في سورة النحل أن شخصاً آخر يصوغ

له مضمونا بل قيل إن الجهلاء يقولون عن شخص أعمى لا يقدر على التعبير جيدا عما في قلبه وليس لديه إلمام بالعربية إلا قليلا بأنه يعلم محمدا رسول الله (إذ من معانى الأعمى من لا يقدر على التعبير جيدا عما في قلبه، وهذا المعنى أيضا مذكور في المعاجم). فرد الله تعالى على ذلك قائلا بأن الإنسان يستطيع أن ينقل قول غيره بطريقتين، أولا: أن يفهم قوله ويعينه بكلماته هو. ثانيا: أن يحفظ كلماته عن ظهر غيب ويعيدها كما هي كالبغاء. فهذان هما أسلوبان لنقل الكلام لا ثالث لهما. يقول الله تعالى إنكم تعرفون أن الذي تنسبون إليه هذا الأمر لا يستطيع أن يعبر عما في قلبه على ما يرام، فما دام لا يستطيع أن يعبر عما يضممه قلبه فكيف يفهم النبي ﷺ تلك المضامين فيذكرها بعد تحويلها إلى العربية؟ هذا هو الجواب على النصف الأول من الاعتراض. والإمكانية الثانية هي أن يُنقل قول القائل كما هو، ولكن هذا لم يكن ممكنا لأنه كان يتحدث بالعربية، وإذا أعيد كلامه كما هو لكان الإعادة بالعربية، ولكن القرآن الكريم ليس بالعربية أو اليونانية -التي كُتب بها الإنجيل والتوراة- بل هو بالعربية. فعندما لا يكون ذلك الشخص قادرا على أن يعبر عما في قلبه بالعربية، ولا القرآن منقول من لغة أخرى؛ فكيف يمكن نسب هذا الكتاب إليه؟

يجب التذكرة أن ترجمة التوراة والإنجيل بالعربية لم تكن متوفرة إلى ذلك الوقت. وثبت من التاريخ أنه قد طُلب من بعض الصحابة أن يتعلّموا العربية ليتمكنوا من دراسة التوراة والإنجيل. والدليل الثاني على ذلك أن المفسرين ذكروا علوما كثيرة في التفاسير ولكن عندما يقتبسون من الكتاب المقدس يخطئون في الاقتباس. والسبب في ذلك أن الكتاب المقدس بالعربية لم يكن متوفرا، فكانوا يقتبسون بالسماع من هنا أو هناك فيخطئون.

والدليل الثالث هو أنه قد جاء عن ورقة بن نوفل - في صحيح البخاري - أنه: "كان يكتب الكتاب العبراني". وهذا يعني أن التوراة والإنجيل ما كانا متوفرين بالعربية

حينذاك. فلا بد أن ذلك الغلام (الأعجمي) كان يقرأ الإنجيل إما بالعبرية أو باليونانية، ولم يكن قادرا على بيان مضمونه بالعربية، وهكذا دُحض هذا الاعتراض. يتضح من التاريخ - كما قال جبر: "بل هو يعلمني" - أن جبرا أسلم أخيرا، وكشف عبد الله بن أبي سرح سر إسلامه للكفار فكانوا يؤذونه بشدة حتى اعتقه النبي ﷺ بأداء المال. وحين سُئل قال: لا أعلم بل هو يعلمني.

### الاعتراض الثامن

كان الاعتراض الثامن أن له علاقة مع الشيطان ويتلقى الكلام منه. صحيح أنه لم يُقل أى قول للكفار بشأن هذا الاعتراض ولكن توجد الإشارات إليه حتما، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (الشعراء: ٢١١)، ويقول ﷺ أيضا: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ﴾ (التكوير: ٢٦). يتبيّن من هنا أن الكفار كانوا يعتقدون أن الشيطان ينزل عليه. من المؤسف حقا أن المسلمين قوّوا هذا الاعتراض أكثر، وقد سلّحوا به الكفار. وبيان ذلك أنهم يقولون بأن زعماء مكة جاؤوا ذات مرة إلى رسول الله ﷺ مجتمعين، وقالوا: يأتيك أناس من الدرجة الدنيا، أما كبار الناس فلا يسمعون لك. فلو لَيْتَ دينك قليلاً لجئناك وجلسنا معك وسيأتيك أناس آخرون أيضا. فقال النبي ﷺ في نفسه إنني لو فعلت ذلك لآمن بي كبار الناس. لقد استمتعت بما قاله "نولدكه" حول هذه الروايات، إذ قال: يبدو أن مخترعي هذه الرواية كانوا يحسبون محمدا ﷺ غبياً مثلهم.

باختصار، قرر النبي ﷺ -بحسب زعم القائلين- أن يلِّين الدين، وفي أثناء ذلك صلّى ﷺ وتلا في صلاته سورة النجم، وبعد الآيتين: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزَّى \* وَمَنَّاةَ الشَّالِهَةِ الْأُخْرَى﴾ أجرى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العلي، وإن شفاعتهم لُرتجي". معلوم أن هناك سجدة تلاوة في نهاية سورة النجم، فسجد رسول الله ﷺ وسجد معه الكفار كلهم، لأنهم فهموا أن النبي ﷺ لِيَنْ دينه وأمن بالأصنام.

لقد وردت هذه الرواية بطرق كثيرة لدرجة أن يقول شخص مثل ابن حجر إن هذه الرواية بحاجة إلى تأويل. مع أنه ثابت تاريخيا أنها موضوعة قطعا، وأستطيع أن أثبت أنها موضوعة تماما ولكنني لن أخوض الآن في أي تأويل، بل أريد بيان ما يقوله القرآن الكريم فقط بهذا الشأن، وهل صدر ذلك عن النبي ﷺ فعلا؟

وهذه المناسبة أذكر قول رجل مسلم صالح وقد أعجبني كثيرا لدرجة أنني كلما أقرأه أدعوه لقائه. وهذا الرجل الصالح هو القاضي عياض، إذ قال: لا يتصرف الشيطان على النبي ﷺ بل تصرف الشيطان على قلم المحدثين وجعلهم يكتبون هذه الرواية. أي إذا كان لا بد من قبول تصرف الشيطان على أحد فلماذا لا نقبله على المحدثين، ولماذا نقول إنه تصرف على رسول الله ﷺ؟

يقول بعض الأغبياء إن رسول الله ﷺ فرأ العبرة المذكورة أيضا عند قراءته سورة النجم، فنزل جبريل وقال: ما هذا الذي فعلته؟ لم آت بهذه العبارة بل أجراها الشيطان على لسانك، فحزن النبي ﷺ على ذلك كثيرا. فأزال الله حزنه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَّنَّ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْبِيَتِهِ فَيُنَسِّخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَيَّاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: ٥٣).

يقولون: عندما نزلت هذه الآية اطمأن النبي ﷺ، ولكن كيف؟ فقد اطمأن مثلما ورد في قصة أن أحدا سأله امرأة عجوزا: هل تحبين أن تزول حدة ظهرك أم تحبين أن تحدو بـ الأخريات أيضا مثلك؟ قالت: لقد ضحكـ النساء على بقدر ما شئـن، والآن أحب أن يحدو بـن لأنـ ضـحكـ عليهـنـ.

كيف اطمأن النبي ﷺ - بحسب قول القائلين بصحة هذه الرواية - بإخبار الله تعالى له أن الشيطان لم يتسلط عليه فقط بل ظل يسيطر على جميع الأنبياء؟ فزال حزنه ﷺ بسماع ذلك. ما أسفـ هذا الكلام! لم يـفكـرـ القـائلـونـ بهـ أنـ اللهـ تعالىـ يقولـ فيـ هذهـ الآـيـةـ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هلـ هـذاـ يـعـنيـ أنـ فيـ سـيـطـرـةـ الشـيـطـانـ عـلـىـ كلـ نـبـيـ وـرـسـولـ حـكـمـةـ عـظـيمـةـ؟ـ ثـمـ مـاـ عـلـاقـةـ ذـلـكـ مـعـ "ـعـلـيمـ"ـ؟ـ

كنت أقول إن قول ذلك الرجل الصالح "القاضي عياض" أعجبني كثيراً إذ قال بعد نقل الروايات من هذا القبيل بأننا علمنا أن الشيطان تصرف ولكنه لم يتصرف على رسول الله ﷺ بل على أقلام ناقلي هذه الروايات. هذه نكتة جميلة جداً.

الرد الذي قام به القرآن الكريم على ذلك مذكور في المقام نفسه حيث يقولون بأن الشيطان أنزل عبارة: "تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتُهن لثُرْبَجِي"، ويقولون إنه نزلت بعد الآيات: ﴿أَلَكُمُ الْذَّكْرُ وَلَهُ الْأَنْشَىٰ \* تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضَيْرَىٰ \* إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (النجم: ٢٤-٢٢)، أي أبتخلون لأنفسكم الذكور وبحلول الله البنات مثل اللات والمناة والعزى؟ ما أسف هذه القسمة؟ بل هذه أسماء سميت بها أنفسكم ولم ينزل الله شيئاً بشأن هذه الأصنام. هل لأحد أن يظن بعد وجود هذه الآيات أن العبارة المذكورة اندسّت بين آيات القرآن؟ هذه الآيات توحّي بجلاء أن العبارة المذكورة لا يمكن أن تتخلّل الآيات. كان الكفار أيضاً يعرفون العربية على أية حال.

إضافة إلى ذلك تدحض وجود العبارة المذكورة آياتان آخرتان وهما: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ \* وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٢-٢١١)، أي هنا الكلام نفسه يدحض كلام الشيطان بحيث لا يمكن للشيطان أن ينزله، وإذا أراد الشيطان أو أشياعه أن يخلطوا فيه شيئاً لن يقدروا على ذلك. ولا يمكن أن تتلاطم معه عبارة دخيلة، بل لو خلطوا شيئاً لبداً بجلاء أنه كلام غير مترابط. ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿هَلْ أُنِسِّكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ \* تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكِ أَثَيْمٍ \* يُلْفُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَادِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٢). أي أن الشياطين تنزل على كذاب وآثم كبير، بينما يقولون بأنفسكم أن محمدًا رسول الله ﷺ أصدق الناس، وتعترفون بكونه أميناً أيضاً، فكيف يمكن إذن أن يتصرف به الشيطان. ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوَحِّونَ إِلَىٰ أَوْيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٢) أي إن الشيطان يوحّي إلى الشياطين ليجادلوكم ولا يوحّي إلى المؤمنين.

انتبهوا الآن، ما أكيرها من تهمة تلصقها بالنبي ﷺ الروايات التي تُروي بهذا الشأن. الحق أن الشيطان يوحي إلى ولِيٍّه فقط ويقول له: خذ هذا السلاح وجادل! فأني لـه أـن يقول مـسلم شيئاً ضد نفسه.

وورد في سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَهْبَمْ يَتَوَكَّلُونَ \* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَُّونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ١٠١-١٠٠). أما محمد رسول الله ﷺ فقد ظل يحارب الشرك على مدى عمره، فكيف يمكن أن تكون له علاقة بالشيطان؟

### الاعتراض التاسع

الاعتراض التاسع هو أنه ﷺ مفتر وكذاب. لقد جاء في سورة ص أن الأعداء قالوا: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فقد جاء في سورة النحل: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ﴾ (النحل: ١٠٢). فرد الله تعالى على ذلك بالقول: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبٍّ الْعَالَمِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ فُلُونَ فَأَنْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨-٣٩).

### خمسة دع او عن القرآن الكريم

في هذه الآية قدّمت خمسة ادعاءات عن القرآن الكريم. الأول: القرآن بنفسه دليل على نفسه، ولا يمكن لأحد أن يصنعه من دون الله، لأن فيه أموراً تفوق قدرة البشر، أي الأمور الغيبية. فقال تعالى: ﴿فُلُونَ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٦)، أي في القرآن الكريم أمور غيبية لا يمكن أن يخبر بها سوى الله تعالى.

الثاني: بواسطته تتحقق النبوءات الواردة في الكتب السابقة.

الثالث: فيه شرح الكتب السابقة.

الرابع: يبين كل شيء بالدليل وبأسلوب لا يبقى في صحته شكًّ.

الخامس: نزل بحسب صفة الله "رب العالمين" لتسع برّكاته الأقوام كلها. يقول الله تعالى: إذا كان القرآن مفترى فأنتموا بسورة فيها هذه الصفات الخمس. فإذا أتيتم بسورة فيها هذه الصفات سمعتُ أن بشراً يستطيع أن يأتي بكتاب مثله، وإن لم تستطعوا جميماً، تبين أنه ليس بشرع أن يأتي بكتاب مثله. يثبت من ذلك أن هذه الأمور الخمسة كانت موجودة في جزء القرآن الذي نزل قبل سورة يومن الصداق، جاءت فيها هذه الادعاءات الخمسة. والآن نرى هل توجد هذه الأمور الخمسة في ذلك الجزء القرآني؟ ولو وُجدت لثبت أنه كلام الله حتماً.

### علم الغيب

الأمر الأول هو أن في القرآن أموراً لا يعلمها إلا الله، أي فيه علم الغيب. فحين نتأمل في القرآن من هذا المنظور نجد سورة الكوثر - وهي من أوائل السور نزولاً - تشمل نبوءة عظيمة، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ \* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأُنْحِرْ \* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. كان الأعداء يقولون عن النبي ﷺ إنه أبتر ولا أولاد ذكوراً له فمن سيخلفه؟ يقول الله تعالى في هذه السورة لرسوله ﷺ: لست أبتر بل عدوك هو الأبتر. ما المراد من عدم كون النبي ﷺ أبتر؟ وما معنى كون عدوه أبتر؟ يقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، أي قدرنا يا محمد ﷺ أن نعطيك جماعة عظيمة الشأن تكون ذريتك الروحانية وسيكون فيها أناس كبار وعظام. ثم قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأُنْحِرْ﴾ فما محمد أكثر من الصلاة فرحة وسروراً على ذلك، وقدّم التضحيات. وكلما كثّرنا جماعتك أكثر، فأكثّر أنت من العبادة والتضحيات لأننا سزيد نسلك الروحاني. وسيزداد هذا النسل الروحاني بحسب ستنزع من أبي جهل ابنه ونعطيكه فسيصبح أبتر وتصبح أنت صاحب أولاد. والمعاملة نفسها سيلقاها الزعماء الآخرون، حيث ستنزع منهم أولادهم ونسلّمهم إليك. وهذا ما حدث على صعيد الواقع أنه ﷺ أعطي أولاد أعدائه وصار الأعداء أبّات روحانياً. لذلك كلما أحرز النبي ﷺ نجاحاً آذاه الكفار أكثر فأكثر. لقد ذُكر تحقق هذه النبوءة في سورة

الكواشر. وقد قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نُتْأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٥)، أي أننا نعطي محمدا (ﷺ) أولاد أعدائه كل يوم. هل هذا يعني أنهم سيغلبون؟ وأنّ لهم أن يغلبوا في حين نسلم إليك فلذات أكبادهم كل يوم، وأولاد هؤلاء الذين يسمونك أبتر وأقاربهم يدخلون الإسلام في كل يوم وبذلك يؤكدون على صدقه ﷺ ويشون أن الكفار أبتر ويؤكدون على كون النبي ﷺ صاحب أولاد. فقد أُعطي النبي ﷺ أولاد وأقارب عائلات كبيرة من مكة من فيهم عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة والأرقم بن أبي أرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد ، وقد آمن كل هؤلاء الناس في أوائل الأيام، وكانوا أولاد وأقارب الرعماء الذين كانوا أشد الناس إيماناً للنبي ﷺ. وبإسلامهم كان الكفار يشططون غضباً إذ وقف هؤلاء المؤمنون ضد آبائهم وأجدادهم وأيدوا محمداً رسول الله (ﷺ). كان عثمان بن مظعون ﷺ من أقارب الوليد بن المغيرة وفي ذمته. ذات يوم كان عثمان يمر في الطريق إذ رأى مسلماً يؤذى إيزداء شديداً، ولكنه لم يقل لأحد شيئاً إلا أنه ذهب إلى الوليد وقال: لا أريد أن أبقى في ذمتك لأنني لا أتحمل أن أرى المسلمين الآخرين يُعذّبون وأنا مأمون في ذمتك. في بعض الأحيان يمتحن الله إيمان المؤمن، فما لبث أن خرج من ذمة الوليد إذ حدث أن أنسد شاعر كبير اسمه لبيد في مجلس الشطر الأول من بيت له: "أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا حَلَّ اللَّهُ بِاطِلٌ" ، فقال عثمان ﷺ: صدقت. فنظر إليه لبيد غاضباً على أن طفلاً صغيراً يشيد بكلامه، وحسب ذلك إساءة لنفسه وقال: يا أهل مكة! ما كنتم سيئي الأدب إلى هذه الدرجة من قبل، فماذا جرى لكم الآن؟ قالوا: هذا طفل بسيط فلا تهتم به. ولكن الحقيقة أنه كان قد سمع القرآن ولم تعد عنده أدنى أهمية للشعر بعده، بل هكذا تصرف لبيد أيضاً بعد إسلامه. ذات مرة أرسل عمر ﷺ إلى أحد ولاته أن يرسل له أشعاراً حديثة للشعراء المعروفيين، وعندما طلب منهم ذلك كتبوا بعض آيات القرآن الكريم.

وعندما أنسد ليد الشرط الثاني من البيت: "وَكَلَّ نَعِيمٍ لَا حَمَالَةَ رَازِيلٌ" ، قال عثمان رضي الله عنه: كذبت، بل إن نعيم الجنة لن يزول أبدا. عندها استشاط ليد غضبا وقال: لقد سببتم الإساءة إليّ فوبخ أحد الحضور عثمان رضي الله عنه ولকم ففقت عينه. كان الوليد يشاهد هذا المشهد فقال: هل رأيت نتيجة خروجك من ذمي؟ فادخل في ذمي مرة ثانية. قال عثمان رضي الله عنه: أي ذمة تتحدث عنها؟ بل إن عيني الثانية أيضا تنتظر أن تُفقأ في سبيل الله. عندما توفي عثمان قبله رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم وجادت عيناه عليه بالدموع. وعندما توفي ابنه صلوات الله عليه وآله وسالم إبراهيم قال: الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون.<sup>١</sup>

### كتاب يحقق نبوءات الكتب السابقة

الإعلان الثاني بحق القرآن هو أن هذا الكتاب يحقق نبوءات الكتب السابقة، فقد جاء في الكتاب المقدس: يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِحْوَتِكَ. (التثنية ١٨ : ١٥) ففي ذلك نبوءة أن النبي القادم لن يكون من بنى إسرائيل بل من إخوتهم أي من بنى إسماعيل، بمعنى أنه سيكون من أبناء إبراهيم صلوات الله عليه وآله وسالم ولن يكون من قوم آخرين، ثم بين علامته فقال: فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَمَمَّا يَحْدُثُ وَمَمَّا يَصْرُ، فَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ. (التثنية ١٨ : ٢٢)

انظروا الآن، كيف تحقق ما قاله القرآن الكريم، وكيف تتحقق نبوءاته. عندما قال الكفار عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم إنه ليس له أولاد، قال الله تعالى: سنرزقه أولاً وننزع أولاً الذين سُوهُ أبتر ونسلّمُهم إليه. فهذا ما حدث تماماً وتحقق هذه النبوءة بكل ع神性ة.

لقد أنكر المسيح صلوات الله عليه وآله وسالم الناصري كونه مصداق هذه النبوءة، فقد ورد في الإنجيل: فَسَأَلُوهُ: إِذَا مَاذَا؟ إِبْلِيًّا أَنْتَ؟ فَقَالَ: لَسْتُ أَنَا. أَنَّبِيُّ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ: لَا. (إنجيل يوحنا ١ : ٢١) كذلك ورد في (سفر أعمال الرسل، الإصلاح ٣) أن ذلك النبي سُيُّعْث قبل البعثة الثانية للمسيح وبعد بعثته الأولى، بل جاء أيضا: وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءُ

<sup>١</sup> شرح المواهب اللدنية، المجلد الأول.

أيضاً من صموميئلَ فَمَا بَعْدَهُ، حَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِمِنْهُ الْأَيَّامِ. (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٣ : ٢٤)

هذه النبوة تحققت في شخص رسول الله ﷺ لأنَّه كان من إخوته؛ أي من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

كذلك قال إشعيا مُشيراً إلى النبي القادر (من أورشليم) فَتَرَى الْأُمَّمُ بِرَأْكَ، وَكُلُّ الْمُلُوكِ مَجْدَكَ، وَتُسَمَّيْنَ بِاسْمٍ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فَمُ الرَّبُّ. (إشعيا ٦٢ : ٢)

ليس في العالم دين سوى الإسلام سماه الله تعالى بنفسه، فيقول تعالى عن الإسلام: ﴿وَرَضِيَتِ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِيَنًا﴾ (المائدة: ٤).

وإلى جانب النبوة الأولى ذُكرت النبوة الثانية عن أورشليم: لا يُقَالُ بَعْدُ لَكِ: «مَهْجُورَةٌ»، وَلَا يُقَالُ بَعْدُ لِأَرْضِكِ: «مُوْحَشَّةٌ»، بَلْ تُدْعَيْنَ: «حَفْصِيَّةٌ». (إشعيا ٤ : ٦٢)

هذه النبوة أيضاً تتعلق بالإسلام فيقول الله تعالى عن مكة: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٨).

يقول المسيح الناصري عليه السلام: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لَأَفُولَ لَكُمْ، وَلِكُنْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الْآنَ. وَأَمَّا مَتَّى حَمَّا دَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرِيدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لَأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتَيَهُ دَاكَ يُمْجِدُنِي ..". (إنجيل يوحنا ١٤ : ١٢ - ١٦)

انظروا كم ذُكرت في هذه العبارة من علاماتِ رسول الله ﷺ!

(١) النبي القادر سيعطي تعليماً لم يعطه أحد إلى المسيح عليه السلام، أي سيعطي تعليماً أفضل من الجميع.

(٢) سيقول كل شيء، أي سيعطي تعليماً كاملاً. ولن يأتي بعده أحد بتعليم أفضل منه.

(٣) لن يقول شيئاً من عنده بل سيأتي بكلام الله.

- (٤) سيشمل كلام الله هذا أنبياء عن المستقبل.
- (٥) إن ذلك الكلام سيبرئ ساحتي (أي ساحة المسيح الشَّيْخَةُ) من كُمْ أصدقها بي الأعداء.

إذن، كل هذه النبوءات تنطبق على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الأمر الأول الذي قاله المسيح هو إن ذلك النبي سيأتي بتعليم لم يأت به أحد من قبل. يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: **﴿عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** أي قد علِّمْتُ بواسطة القرآن الكريم أمرٌ لم يعلِّمها أحد. الأمر الثاني الذي ذكره المسيح هو: **“فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ”** يقول القرآن الكريم في هذا الموضوع: **﴿الِّيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾** وجاء في سورة الكهف: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾** (الكهف: ٥٥)، أي قد بيَّنا في القرآن كل ما كان ضرورياً وبأساليب مختلفة. الأمر الثالث الذي أخبر به المسيح هو: **“لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ”**. بل سيقدم ما يأمر به الله. وقد جاء في القرآن الكريم: **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَيِّ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾** (النجم: ٤-٥). أي لا يقول هذا الرسول شيئاً من عنده بل يقدم كلام الله فقط. أما الكتب الأخرى فقد حوت كلام الأنبياء أيضاً. القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يحتوي على كلام الله فقط. الأمر الخامس الذي قاله المسيح هو إن ذلك الرسول سيرئ ساحتي من كُمْ أصدقها بي الأعداء. يعلم الجميع أنه قيل بحق المسيح إنه ولد زنا، والعياذ بالله، أي عُدُّ ملعوناً، ولكن القرآن الكريم دحض هذه التهم كلياً.

### تفصيل الكتب السماوية

والآن أبين الأمر الثالث وهو أن القرآن الكريم يشرح ويفصل الكتب السماوية، وقد فصّلت فيه العلوم الروحانية، وأكملت. أقدم بهذا الشأن مثالين اثنين، فقد جاء في التوراة: **لَا تُشْفِقْ عَيْنَكَ نَفْسٌ بِنَفْسٍ عَيْنٌ بِعَيْنٍ سِنٌّ بِسِنٍّ يَدٌ بِيَدٍ رِجْلٌ بِرِجْلٍ**. (الكتابية ١٩ : ٢١)

وجاء في الإنجيل التعليم التالي: سمعتم أنَّه قيل: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍ. \* وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تُثَوِّمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْأَخْرَ أَيْضًا. \* وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَاخْدُثَ ثُوبَكَ فَاتَّرُكَ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. \* وَمَنْ سَحَّرَكَ مِيلًا وَاحِدًا فَادْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. (إنْجِيل مَتَّى ٥ : ٤١-٣٨)

ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤١).

لقد ذكرت التوراة جزءاً وأهملت جزءاً آخر، أما الإنجيل فذكر الجزء الثاني وأهمل الأول، ولكن القرآن أكمل هذا التعليم وقال إن القصاص جائز ولكن من عفا بشرط ألا تزداد السيئة كأن أجره على الله. أما من عفا وأدى ذلك إلى تفاقم السيئة، فسيغضب الله عليه لأنه لا يحب الظالمين.

لقد بيَّنتُ أحکاماً مفصَّلةً عن الصدقات، والعلاقات بين الرجل والمرأة في خطابي في العام الماضي، وقلتُ إن الأحكام عن هذه الأمور في الكتب السابقة جاءت بإيجاز شديد، ولكن القرآن الكريم بين بكل تفصيل الهدف وراء كل حكم وحدود استخدامه.

### الكلام المزيَّن بالأدلة والبراهين

ميزة القرآن الرابعة التي ذُكرت هي: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي أنه يبيَّن كل أمر بدليل ولا يترك مجالاً للشك. الشك ينبع عن الإبهام دائماً، بينما إعلانات القرآن الكريم مبنية على المشاهدة. وقد قدَّمت فيه الأدلة على وجود الله والملائكة والدعاء والنبوة وضوره الأنبياء، والقضاء والقدر، والقيامة والجنة والجحيم، والصلوة والصوم والحج والزكاة، والمعاملات وغيرها، ولم يدع شيئاً جزافاً. فمثلاً ورد فيه عن الجنة: ﴿وَلَمْنَ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٧)، لا نقول إنكم ستتناولون الجنة بعد الممات، ولا يسعكم أن تقولوا: لا ندرِي هل سنناول الجنة بعد الممات أم لا، بل يثبت القرآن الكريم وجود الجنة في هذا العالم أيضاً وينالها المؤمنون في هذا العالم؛ فقد قدَّم الدليل على ذلك إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تَخَافُوا وَلَا تَخْزُنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجُنَاحِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ (فصلت: ٣١)، أي ينال المؤمنون شرف مكالمة الله في هذا العالم، وإذا حظي المرء بكلام الله فأين بقي الريب؟

### ظهور صفة الله "رب العالمين" بواسطة القرآن الكريم

ثم ذكر أمرا خامسا أن القرآن الكريم نزل بحالة تتجلى فيها صفة الله "رب العالمين"، لأنه قد رُوعيت فيه كل فطرة؛ فبعض الناس يغضبون أكثر، لذا كان ضروريًا أن يوجهوا إلى العفو، وفي بعضهم تلاحظ الديوثية وعدم الغيرة فأعطوا تعليم الغيرة. لم يتبه الإنجيل إلى هذا الأمر بل ركز على العفو في كل حال، وأما التوراة فلم تراع العفو بل أكدت على المعاقبة في كل الأحوال، ولكن القرآن الكريم اهتم بالناس من كلا النوعين. واهتم بكل زمان أيضا ووجه الدعوة إلى العالم كله فقال:

﴿فَإِنْ يَأْتِهَا النَّاسُ إِلَيْيَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩).

إذن، ليس هناك كتاب قبل القرآن الكريم وجه الدعوة إلى العالم كله، بل أغلقت الكتب السابقة السبيل على الأقوام الأخرى. لقد ورد في الإنجيل قول المسيح: **لَمْ أُرْسِلْ إِلَّا إِلَى خَرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلِ الْضَّالَّةِ**. (إنجيل متى ١٥: ٢٤)، وورد أيضًا: **لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْهَدَ حُبْرُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ**. (إنجيل متى ١٥: ٢٦)، أي أن المسيح رفض أن يهدي أحدًا سوى بني إسرائيل، ولكن الله تعالى فتح في القرآن الكريم أبواب الإيمان على كل قوم. منها مثلا: (١) صدق الأنبياء كلهم وبذلك أنشأ البشرashaة في قلوب الناس جميعا، ولكن إذا تنصر هندوسي اضطر إلى القول إن بودا وكرشنا كاذبان. وإذا دخل مسيحي الهندوسي اضطر إلى تكذيب موسى وعيسى عليهما السلام. ولكن ما أعظمها من مزية للقرآن الكريم إذ يقول: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّا فِيهَا نَذِيرٌ** (فاطر: ٥٤)، لذلك قال رسول الله ﷺ لجميع الأقوام إنكم لن تضطروا نتيجة الإيمان بي إلى تكذيب أسلافكم الصالحين، بل هم أيضًا كانوا صادقين، غير أن الفرق بيني وبينهم هو أن تعليمهم كان كاملا لمن جاؤوا فيه فقط. أما التعليم الذي جئت به فهو كامل لكل زمان.

## المفترى يفشل دائمًا

الدليل الثاني الذي قدمه القرآن الكريم على عدم كون النبي ﷺ مفترياً هو أنه يقول بعد ذكر المفترين: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَيَاءِ يُضَاعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُصْرِفُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ \* لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (هود: ٢١-٢٣)، أي يقولون إن هذا النبي يكذب بينما مفترو الكذب على هذا النحو يواجهون عذاب الله ولا يستطيعون الحياة عنه بأي حال بل يظل عذابهم يزداد كل لحظة، ولا يقدرون على أن يسمعوا كلاماً صادقاً أيضاً ناهيك أن يختلفوا كلاماً صادقاً بأنفسهم، ويحيط بهم العذاب من كل حدب وصوب. وإذا كان هذا هو حالم في هذه الدنيا فيمكنكم أن تدركوا ماذا عسى أن يكون حالم يوم القيمة. فقد بين الله تعالى هنا أن من علامات المفترين أنهم يواجهون العذاب، ولكن لم ينزل أي عذاب على محمد رسول الله ﷺ بل نصره الله تعالى في كل موطن.

علامة المفترى الثانية هي أن عذابه يظل يتفاقم باستمرار، بينما كل ساعة لهذا الرسول خير من سابقتها.

العلامة الثالثة للمفترى هي أنه يضطر إلى تبديل تعليمه، ولكن هل غير هذا الرسول شيئاً في القرآن في وقت من الأوقات؟ فكيف يمكن أن يكون مفترياً؟

**المعنى الصحيح لـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى﴾**

التهمة الأخرى التي توجه إلى رسول الله ﷺ هي أنه كان ضالاً قبل النبوة، والعياذ بالله، وظلت تصدر منه الذنوب بعد النبوة أيضاً. وأثبتت هذه التهمة على بعض آيات القرآن الكريم نفسه، فمثلاً تقدّم تأييداً لـ "ضال" الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى﴾ (الصحي: ٨)، وقد جاء الرد على ذلك في آية أخرى حيث رفض الله تعالى الضلال من النبي ﷺ رفضاً باتاً، فقال: ﴿وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا

غَوِيٰ﴾ (النجم: ٤ - ٣). أي نقدم النجم شهادة. والنجم كل نبات لا جذر له. فيقول الله تعالى: نقدم شهادة هذا النبات - الذي لا جذر له - إذا هو؛ أي بقدر ما يحاول الارتفاع يسقط بالقدر نفسه. يمكنكم أن تفهموا من هذه الشهادة أن أصحابكم هذا لم يضلّ من حيث الهداية ولم يضلّ الطريق أيضاً. الضلال يعطي معنى الصلاة الظاهرة و"غوى" يعني معنى الفساد الباطني الناتج عن فساد الاعتقاد.

فيقول الله تعالى إنه بقدر ما تمر الأيام على نبتة ليست لها جذور تُضعفها يوماً إثر يوم، فلو لم تكن لحمد رسول الله ﷺ علاقة مع الله تعالى لما كانت جذوره قوية ولضعف رويداً رويداً، ولتطرق الفساد إليه، ولكنكم ترون أنه كلما تمر الأيام يحرز رسول الله ﷺ قوة إثر قوة، ويتقدم ليلاً نهاراً ظاهراً وباطناً. أما لو كان ضالاً لنزل عليه كلام فيه الضلال، ولكن انظروا إلى الكلام الذي ينزل عليه، هل تخدون فيه للأهواء النفسانية أدنى أثر؟ إذا كان ﷺ غاوياً لحدث فيه تأثير الشيطان، ولكن في كلامه شوكة وقدرة إلهية. أتى من كان على علاقة مع الشيطان أن يسيطر على العالم.

وقد بين الله الموضوع نفسه في سورة الصحرى: ﴿وَلَأَلَّا خَرَّ حَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الصحرى: ٥) أي كل لحظة من حياتك خير وأفضل من سابقتها. أليس غريباً أنه تعالى قال هنا إن كل لحظة من حياتك خير من سابقتها ثم قال في السورة نفسها إنك كنت ضالاً؟ هل كون اللحظة التالية خيراً من سابقتها دليل على الضلال؟

وقد جاء في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَشَجَرَةً طَيْبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، كذلك من علامات الصادق أن تعليميه يحرز التقدم وجماعته تزداد عدداً. إذن، هذا الرسول الذي ينال التقدم يوماً إثر يوم، لو كان ضالاً ل كانت في تعليميه كله عيوب. ولكن كثرة كلامه تجعل تعليميه كاملاً.

ثم قال ﷺ: لو كان غاوياً لوجود في كلامه أثر للشيطان، ولكن كلامه مصدق: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَيِّ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى \* عَلَمَهُ شَدِيدُ الْفُوْيِّ﴾ (النجم: ٤ - ٦).

هناك آية أخرى تحل هذه القضية، فقد جاء في سورة الإسراء: ﴿وَإِنْ كَادُوا لِيُفْتَنُوكُمْ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا عَيْرًا وَإِذَا لَاتَّخِذُوكُمْ خَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٤)، يستنتاج بعض الناس من هذه الآية معنى خاطئاً ويقولون إن معناها: كادوا ليغونوك. ولكن أى لهم أن يغوه؟ بل معناها: كادوا يغبونوك عذاباً شديداً بسبب كلام أوحى إليك، لتغيير فيه خائفاً مذعوراً. ولو فعلت ذلك لاتخذوك خليلاً ولكن زعمهم هذا ليس إلا جنونا. ﴿وَأَوْلَى أَنْ تَبَرُّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٥)، أي حتى لو لم تُنزل القرآن فإن فطرتك كانت طاهرة لدرجة استحالة إحداثك التغيير في كلام الله، هذا مع أنك تكاد تتشابه معهم (تميل إليهم) قليلاً، أما الآن وبعد أن أراك وحي الله تعالى صراطاً مستقيماً فلم يعد ممكناً أن تتحقق أمنيتهم (إحداث التغيير) أبداً.

السؤال الآن هو: ما معنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًاً فَهَدَى﴾؟ الجواب على هذا السؤال أيضاً موجود في السورة نفسها وهو دليل متين على صدق النبي ﷺ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالصُّحَى \* وَاللَّيلُ إِذَا سَجَى \* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَى﴾ (الضحى: ٢-٤)، أي اسمعوا أيها الناس إننا نقدم الضحى والليل إذا استقر جيداً وانتشرت ظلمته في كل ناحية شهادةً على أننا لم نخذل محمداً ﷺ قط، ولم نسخط عليه قط.

هنا ينشأ سؤال: كيف يشكل الضحى والليل في منتصفه دليلاً على أن الله لم يسخط على محمد ﷺ قط ولم يخذه؟ من الواضح أنه ليس المراد هنا هو النهار أو الليل الظاهريان، بل المراد هو النهار والليل المجازيان، وهذا التعبير متداول في كل لغة أن المراد من النهار والليل هو زمن الفرح والحزن، والصحوة والغفلة. الليل تعبير عن الظلام والمصيبة والجهل، أما النهار فيعبر به عن زمن التقدم والنور والعلم. فيقول الله تعالى إننا نقدم ساعات الفرح من حياتك ونقدم كذلك ساعات الحزن، ونقدم زمن شبابك وزمن صغرك الذي هو زمن الجهل بوجه عام. ونقدم زمن النبوة والزمن الذي طلعت فيه شمس النبوة وبلغت نصف النهار، وحل بك أيضاً زمن حين كنت في

حضر مرضعك ثم أتاك زمن الشباب الذي يُعِير عنده بزمن الظلام، وقد حل بك زمن فتور العواطف ثم أتاك زمن حين كان أعداؤك منتشرين في كل حدب وصوب وكان النهار أيضاً بمنزلة الليل لك. ثم جاء زمان حين كان القوم كلهم يسمونك صادقاً وأميناً. تأمل في تلك الأزمنة كلها، فهل أتاك زمان لم ينصرك الله فيه أو ظهر سخطه عليك بأي حال؟ بعض الناس يفسدون في أيام الراحة والعزة، ولكنك حظيت بالأمن واحترمك قومك، وتزوجت بامرأة ثرية، وكسبت حينذاك أيضاً أعمالاً حسنة. ثم حل بك زمان حين أنزل الله عليك كلامه، فكنت مطيناً في هذا الوقت أيضاً، أي كل لحظة من حياتك كانت أحسن وخيراً من سابقتها وظلت تزداد في حيازة تأييد الله ورضاه.

انظروا الآن، ما أعظم هذا الدليل على صدق النبي ﷺ! من الغريب حقاً أن الله تعالى يقول إنه لم تكن في حياته ﷺ كلها لحظة واحدة من الضلال منذ الصغر إلى آخر لحظة حياته ولم يخذه الله قط، ويقول المعارضون الجهلاء إنه كان ضالاً. إذا كان هذا هو الضلال، فكل هداية له فداء!

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ حَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٥) أي كل خطواتك تنتقل إلى الأمام. يكون الإنسان بريئاً من الذنوب في الصغر، ولكن إذا ضلّ النبي ﷺ بعد أن يكبر، والعياذ بالله، لم تكن آخرته خيراً من الأولى، بينما يقول الله تعالى إن كل لحظة من حياته كانت أفضل من سابقتها. ولما كانت الآخرة خيراً من الأولى فأين الضلال؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيَكَ رِثْيَكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٦)، يجب أن نرى في القرآن الكريم ماذا كانت أمنية رسول الله ﷺ التي يسعد بتحققها. فقد ورد في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ عَلَى أَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾ (الكهف: ٧) إذن، كانت أمنيته الوحيدة أن يؤمن الناس بكلام الله. ويقول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيَكَ رِثْيَكَ فَتَرْضَى﴾، أي لقد رأيت أننا جعلنا كل لحظة

من حياتك خيرا من سبقتها فكيف نردد أمنيتك بهدایة قومك، فنحن نعلم أمنيتك هذه وسوف نتحققها.

ثم قال ﷺ: ﴿أَمْ يَجِدُكَ يَتِيمًا فَأَوِي﴾ (الضحى: ٧). أي: لقد ولدت يا محمد ﷺ يتيمًا فاحتضنك الله تعالى منذ فترة يُتمك، ولم يأتوك وقت كنت فيه خارجا من حضن الله. معنى "أوي": بُوأ فيقرب. فقال: ﴿أَمْ يَجِدُكَ يَتِيمًا فَأَوِي \* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. إذا استنتج من الضلال هنا معنى حرفياً (أي ضد الهدایة) فهو لا يصح هنا بأي حال. المعنى الصحيح هو أننا وجدنا فيك لوعة حُبّتنا فزوّدناك بوسائل هدایة العالم. وهذا المعنى تؤيده آية أخرى؛ فحين قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال أهل بيته: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٦). أي أن حبك ليوسف لا يكاد يزول من قلبك وما زلت أسيّر حبه القديم. ما كان هؤلاء القائلون يحسبون يعقوب عليه السلام ضالاً بمعنى ضد الهدایة، بل كانوا يحسبونه مشغوفاً في حب يوسف، لذا فقد استخدموها كلمة "ضلال" بمعنى الحب الشديد. إذن، معنى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ هو أنه عندما بلغت مرحلة الشباب ونشأت في قلبك أمنية أنه لن يهدأ بالك دون الوصول إلى الله تعالى، فدعوتك فوراً أن تعلَّم إلَيْها أنا موجود. وأنت تعرف يا محمد ﷺ أننا هدیناك ولم تكن تلك الهدایة لنفسك فقط بل كانت للعالم كله، فجاءك الناس ذوو الطبائع المختلفة، فأعطيتك بصورة القرآن الكريم لكافاللهم رزقاً كانت فيه الكفاية لكل شخص أياً كان طبعه.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَعْنَى﴾، أي وجدناك تعول الكثيرين فأغتنيناك. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تُفْهِرْ \* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهِرْ﴾ لا تُلْقِ عَلَيْهم الآن عبئاً لدرجة تدمّر مواهِبِهم، ولا تخفَ عنهم كثيراً فيفسدوا. ففي هذه الآية أيضاً ورد "سائل" مقابل "ضال" وفي ذلك إشارة إلى أن المراد في الآية السابقة أنه ﷺ كان يتحرى حب الله تعالى.

باختصار، يقول الله تعالى إنه إذا جاءك أحد طالباً الهدایة فلا ترفض، بل بلغ الهدایة التي أعطيناها إلى العالم كله.

لا يمكن أن يكون لكلمة "ضال" معنى إلا الذي ذهبت إليه هنا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَوَجَدَكُمْ ضَالًاٰ فَهَدَى﴾ ويقول في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ١٠٩). فكيف يمكن أن يستخرج من الضلال معنى ضد الهدایة. كذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابًا شَدِيدًا بِمَا كَانُوا يَكْرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، لقد وضح الله تعالى في هذه الآية بكل جلاء أن الذنب ينبع عن الضلال لا عن الهدایة.

### حقيقة الذنب والاستغفار

يقال أيضاً إن رسول الله ﷺ كان مذنياً، والعياذ بالله، ويقدمون تأييداً لموقفهم هذا الكلمة الذنب والاستغفار. ولكن الحق أن الناس بوجه عام لم يفهموا معنى هاتين الكلمتين. معنى الاستغفار هو ستراً المشاكل العارضة في السبيل، كذلك معنى الذنب إثْمٌ وَكَلَامٌ غَيْرِ مَهِمٍ. فمعنى "غفر" هو ستراً، ومعنى الذنب هو الزوائد. عندما تستخدم الكلمة الاستغفار بحق النبي ﷺ يكون المراد منها زوال المشاكل الحائلة في سبيله، والمراد من غفران الذنب إزالة الزوائد. فانظروا مثلاً فقد ذُكرت في سورة النساء الحرب أولًا ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْحَائِنِينَ حَصِيمًا \* وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ (النساء: ٦-١٠٧)، أي يا محمد عندما نعطيك حكومة سيكون هناك بعض الخائنين في أمور الدين، ويسلكون مسلكاً معوجاً، فلا تخاصِمهم بل ادعُ الله تعالى أن يزول ضعفهم هذا. وقال ﷺ في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ (غافر: ٥٢)، وذكر في هذه الآية نصرته ﷺ للنبي ﷺ، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدِينِكَ وَسَيَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر: ٥٦)، وبذلك أمره ﷺ بالاستغفار والتسبيح. وفي سورة محمد أيضاً ذكر ﷺ الساعة أولاً (أي الفتح) ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدِينِكَ﴾ (محمد: ٢٠)، وفي سورة النصر أيضاً ذكر الفتح أولاً ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ (النصر: ٤)، وفي سورة الفتح ذكر ﷺ الفتح أولاً ثم قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا \* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿الفتح: ٣-٤﴾. في هذه الآيات كلها ذُكر الاستغفار مقولنا بالفتح، سواء قبل الوعد بالفتح أو بعد ذكر الفتح. في أربع آيات ذُكر الاستغفار مقولنا بوعد الفتح وفي آية ذُكر فتح مبين، وقال هنالك: ﴿لِيُغْفِرَ﴾ والمعنى هو أن أدعوك قد أُجِيَتْ، وأعطيناك فتحا مبينا - بدلاً من فتوحات عادية- لِيُغْفِرَ ذَنْبُكَ.

يجب التأمل الآن، هل نيل الفتح والنصرة ذنب؟ ولماذا جاءت هذه الكلمة مقترنة بالفتح دائمًا؟ يتبيَّن من ذلك أن هذا الاستغفار والذنب من نوع آخر. إذا كان المراد هو إثْمٌ لكان من المفروض أن يُذَكَّر ذلك الإثْمُ ولكن لم يُذَكَّر أَيِّ إثْمٌ في أي مكان، بل قيل بدلاً من ذلك إننا نرْزُقُك فتحا ونصرة فاستغْفِرْ. فثبتت بكل ما جاء أن له معنى آخر، وهو أن الذين يباغتون نتيجة الفتوحات وهم بمئات الآلاف لا يمكن تربيتهم على ما يرام، وبالنتيجة يمكن أن يبدأ الخطاطق القوم من اليوم نفسه. عندما أسلم مئاتآلاف الناس وانتشروا في البلد كله كانت تربيتهم مستحبة. فقال عَجَّلَ إِن تربية هذا العدد الهائل كما يجب يفوق قدرة البشر، بل الله وحده القادر على تربيتهم. لذا فادعُ الله تعالى أن يهيء أسباباً ووسائل لتربيتهم الحسنة. ثم بشّرَه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا \* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٣-٤) أي أن الفتح الذي نرْزُقُك سيكون فتحا مبينا ويزَّ بين الحق والباطل، ولن يكون الفتح على الأجسام فقط بل على القلوب أيضاً، ولن يدخل الناسُ الإسلام نفاقاً بل شوقاً في الدين، وأعطيناك هذا الفتح ليتقوى جانب التربية، وهذا ما حدث بالفعل.

فتوضيح الحق قوَّى الله تعالى جانب التربية، وأعطاه ﴿نُوَّابًا﴾ صاروا حَفَظَةَ الدين إلى الأبد. انظروا مثلاً، كان هناك وقتٌ حين هرب عَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ من مَكَّةَ قائلًا إنه لا يستطيع العيش حيث يعيش مُحَمَّدُ ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، ثم جاء وقتٌ حين أسلم عَكْرَمَةُ وصار مُسْلِمًا مخلصاً؛ حيث يُروى أنَّ الْأَعْدَاءَ كَانُوا يَقْتَلُونَ الصَّحَابَةَ وَاحِدًا

بعد الآخر في قتال، فقال عكرمة: لا أستطيع أن أحمل هذا الموقف، فهل من أحد يصحبني لمقاومة العدو؟ فاصطحب بعض الناس واستأذن القائد وهاجم قلب جيش العدو الذي كان عدده ستين ألفا فانهزم العدو وفروا. لوحظ في هذا الوقت أن عكرمة يلفظ أنفاسه لشدة الجروح، وجيء إليه بالماء نظرا إلى عطشه، فقال: اسقوا صاحبي أولا، وأشار صاحبه إلى جريح آخر والآخر أشار إلى الثالث. كانوا سبعة شباب وكانوا على وشك لفظ أنفاسهم لشدة الجروح ولكن لم يشرب أحدهم الماء بل قال كل واحد منهم أن اسقوا صاحبي فلانا قبلي ثم يمكن أن تسقوني. عندما رفض الجميع واحداً بعد الآخر عاد حامل الماء إلى عكرمة وكان قد لفظ أنفاسه. ثم ذهب إلى الآخرين وكانوا قد استشهدوا كلهم.

باختصار، لم يرزق الله تعالى رسوله ﷺ فتحا ظاهرياً فقط بل وفقه لفتح القلوب أيضاً.

### المكانة الأسمى لرسول الله ﷺ

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم لا يؤكد فقط على أن رسول الله ﷺ ليس بريعاً عن الذنب فقط بل يُعدّه إنساناً عظيماً يحتل أسمى مكانة، فيقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ  
خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، أي لا يقولون أحد إن نبينا آثم، وإذا قال الأعداء ذلك  
فإنهم يهدون فقط إذ نعلم إنه على خلق عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَسْرَحُ لَكَ صَدَرَكَ﴾ (الشرح: ٢)، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ  
رَسُولُ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فتستطيعون النجاة نتيجة التأسي بأسوته.

ثم بين الله تعالى مكانة أعلى منها أيضاً وهي أنه ﷺ يُنذّكِي الآخرين أيضاً فقال:  
﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُنذِّكِيْهِمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)، ثم قال  
فوق ذلك: ﴿فُلَانٌ إِنْ كُنْتُمْ تُحْبِّبُونَ اللهَ فَأَنَّبَّعُونِي يُنذِّكِيْهِمْ اللهُ وَيَعْفُرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ﴾ (آل  
عمران: ٣٢). أي يا من تعترضون علىي، إن كنتم تريدون أن تصبحوا أحباء الله فتعالوا  
أخبركم السبيل إلى ذلك؛ وهو أن تعملوا مثلما أعمل أنا، عندئذ يجعلكم الله أحباءه.

ثم تقدم خطوة أخرى وقال إن الكلام الذي نزل على محمد رسول الله ﷺ لا نسمح لأحد أن يمسه، فهل يمكن أن يكون من جاء به غير طاهر؟ فقال: ﴿إِنَّهُ لِقُرْآنٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ \* لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٠-٧٨)، أي القرآن الكريم كتاب عظيم وقد أنزله الله تعالى منزلًا لا يمكن أن يمسه نجس، ولا يمسه إلا مطهّر فقط، فالذي نزل عليه هذا الكلام كيف يمكنكم أن تسموه غير طاهر؟ ثم قال: لقد أعطيناه كتاباً لن يقدر على المساس به أحد اليوم ولن يقدر على ذلك في المستقبل أيضاً، وذلك لأنّه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ \* كِرَامٍ بَرَّةٍ﴾ (عبس: ١٦-١٧)، أي سيقى في أيدي أناس سيختارون أسفاراً طويلة وهم محترمون جداً وصالحون من الدرجة العليا.

لا يمكنني في هذا الوقت إلا تناول اعتراضين فقط، وذلك بإيجاز شديد. والآن أدعو الله تعالى أن يورث الإخوة الذين اشتراكوا في الجلسة نعمه، وينزل رحمته على الذين ساهموا في ضيافتهم رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً. وينزل رحمته أيضاً على الذين كانت قلوبهم مشتركة في الجلسة وإن لم يتمكنوا من الاشتراك فيها جسدياً، ويوفق جميع أفراد الجماعة أن يبلغوا إلى العالم النور والصدق الذي نالوهما، ويجعل المخطئين منهم صالحين ويقوّي الضعفاء من أفراد الجماعة، ويشفى المرضى ويوفق المدينين لتسديد الديون، ومن كان في إيمانه ضعف فندعواه بِسْمِ اللَّهِ أن يزيل ضعفه، ويؤيد الدعاء في جماعتنا وينصرهم، وأن تحفظهم ملائكة الله ويكونوا أحباء الله، ويبارك الله في كلامهم وأفكارهم. وأن يشارك الله في بركات الجلسة كل فرد من أفراد الجماعة حيثما كانوا. ويشرح قلوب الناس جميعاً من فيهم الهندوس والسيخ والنصارى والملحدون ليصبحوا أبناء آدم ويعيشوا كالإخوة.

كما أتمنى من الإخوة أن يعملوا بما سمعوه في الجلسة. أنا أدعو لهم وسأظل أدعوه، وأرجو من الإخوة أيضاً أن يدعوا الله تعالى ليوفّقني لأداء واجباتي ويجعلني ناجحاً في أداء المسؤولية التي كلفني بها. هذا عبء كبير، ولا يمكن لأحد أن يحمله بغير نصرة

الله وعونه. هذه مسؤولية جسيمة وفيها أخطار كثيرة. نسأل الله رحمته ليبشرني عند مشولي أمامه - إذ لا يمكنني أن أقول شيئاً - بأنني قد أديت واجبي. أدعو للإخوة مرة أخرى أن يجعلهم الله كاملين في الإيمان ويوافقهم لأداء واجباتهم، وأن تكون جماعة يرضى بنا ربنا ونرضى به، آمين.

# فضائل القرآن (٥)

## نبوعات الأنبياء السابقين

### عن بعثة رسول الله ﷺ

### وخمسة إصلاحات قام بها القرآن الكريم

(خطاب ألقى في ٢٨/١٢/١٩٣٢ م)

( المناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ تحفيظه الآيات التالية من سورة الأعراف:

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقْوُنَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ يَتَّسِعُونَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأَمِيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالْأَعْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٩)

بعد محاضراتي البارحة كان حلقي على ما يرام إلى المساء ولكن بعد اللقاءات ليلاً بُعْد صوتي، وقرب الساعة الثانية عشرة ليلاً أصبحت بذوبه برد وبدأت أشعر بالصعوبة في الكلام. وعندما انتهت سلسلة اللقاءات بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كان صوتي قد بُعْد إلى حد كبير، لذا لا أستطيع أن أتكلم الآن بصوت عال، ولكنني أتوقع من فضل الله تعالى أن الصوت سيعلو بعد قليل بعد أن يسخن حلقي قليلاً. من الممكن ألا تصل بعض أجزاء خطابي إلى بعض الإخوة في البداية ولكن أرجو منهم أن يصبروا ويأملوا من الله تعالى -ما داموا قد جاءوا من مسافات بعيدة لسماع كلمات الحق، وما دمت قد قمت متوكلاً على الله وراجياً منه أن يوفقني لأقول الحق - أنه سيرحمني وإياكم وسيوفقني للخطاب وسيوفقكم للسماع.

### أهمية المجالس الدينية

أقول متأسفاً إن بعض الإخوة، وإن كان عددهم قليلاً جداً، يخرجون من المجلس ويتمشون في الخارج رغم إسداء النصح لهم. ما لا شك فيه أن في كل جماعة بعض المرائين ويخرجون من المجلس بعد أن يبرزوا أنفسهم فيه. لقد ورد في القرآن الكريم أن بعض المرائين من هذا القبيل كانوا في زمن النبي ﷺ أيضاً، فكانوا يأتون عند انعقاد المجلس -لأنه في بداية المجلس يقع النظر على كل واحد - فكان الصحابة يرونهم، وحين تبدأ الفعاليات يتسللون لواذا. يقول الله تعالى عن هؤلاء الناس: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادِأً﴾ (النور: ٦٤).

فقد يكون هنا أيضاً المراوئون من هذا النوع ولكن هناك كثيرون لا يدركون أهمية هذا الموضوع، ولا يعلمون كيفية فعلهم هذا. لقد جاء في الأحاديث ما مفاده: ذات مرة قال النبي ﷺ في أثناء الخطاب إن الله تعالى أخبره أن شخصاً جاء إلى هذا المجلس ورأى المكان مكتظاً بالناس، ولم يصل إليه الصوت إلا بالكاد، ولكن قرر ألا يخرج من المجلس لأن فيه يُذكَر اسم الله، فجلس استحياء. فقال الله، سأغضض الطرف عن ذنبه، ولن أؤاخذه بها. ثم جاء شخص آخر ووجد أنه لا مكان

للجلوس فيه، ولكنه بحث عن مكان هنا وهناك وجلس في مكان حيث أمكن له سماع الصوت، فقال الله تعالى: كما تقدم هذا الرجل جاهدا كذلك سافسح له مكانا في قريي. ثم أخبره الله عن شخص ثالث أنه جاء ووجد أن الصوت لا يصله فانصرف، فقال الله تعالى: لقد انصرف هذا الشخص من مجلس ذكر الله وسأصرف وجهي عنه ولن أفتح له أبواب الرحمة.<sup>١</sup>

باختصار، إن مجالس ذكر الله آدابا. الذين كان في قلوبهم مرض لم يستطع النبي ﷺ أيضا أن يعالجهم، واكتفى بالقول إن شخصا جاء وانصرف. فلما لم يستطع رسول الله ﷺ أن يعالج ذا قلب مريض فإني لنا أن نفعل. ولكن بعض الناس يواجهون موقفا محراجا على حين غرة منهم، إذ لا يعرفون ماذا عسى أن تكون نتيجة فعلهم. يقول النبي ﷺ: عندما يعقد مجلس ذكر الله ينزل ملائكة الله برحمته تعالى حتى نهاية المجلس. إن مثل مجلس ذكر الله كمثل بلاط الملك، فإذا كان الخارج من بلاط الملك مجرما فكيف لا يكون الخارج من مجلس ذكر الله مجرما؟ لذلك أمر النبي ﷺ الناس أن يظلوا جالسين في المجلس، إلا إذا اضطر أحد للخروج فليفعل بعد الاستئذان. إن استئذان الناس في مجلس كهذا - الذي يضم من ١٥ إلى ٢٥ ألف نسمة - هو أمر صعب. ولكنني أقول مؤكدا إن الذين يخرجون مضطرين فليعودوا فورا بعد فضاء حاجتهم، وليعلموا أن جلوسهم في المجلس ليس بلا جدوى، لأنهم أولا لو التزموا بما سمعوه في المجلس لكان وسيلة نجاتهم، وإن لم يفهموا بعض ما قيل فيه فمع ذلك إن الجلوس في المجلس حسنة. نريد أن يعلم كل أحمدي ترجمة معاني القرآن الكريم، ولكن هناك الكثيرون لا يعرفونها. لا شك أن الذين يقرأونه دون أن يعرفوا ترجمة معانيه يثابون أيضا. وإن لم يصل الصوت إلى المرء في هذا المجلس أو فهم مضمون المحاضرة أو لم يفهم فلسفه يثاب على الجلوس في المجلس على أية حال.

<sup>١</sup> صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس...

وأقول الآن إن موضوع محاضري اليوم استمراراً لموضوع لا أزال أتناوله منذ أربع سنين بفضل الله تعالى. أي موضوع خطابي اليوم هو القسط الخامس لموضوع: فضائل القرآن. هناك مواضيع واسعة جداً كثيرة موضوع وجود الله تعالى لدرجة أنّ الكلام فيه لا يتكرر مهما أكثروا بيانه. كذلك إنّ موضوع فضائل القرآن أيضاً لا يتكرر، لأنّ معارف كلام الله تعالى لن تنتهي ولو استمر العالم كله في بيانها إلى يوم القيمة. المحاضرات التي ألقيتها في السنين الماضية حول هذا الموضوع لم تنشر إلى الآن لأنني أود أن تنشر كلها في مجلد واحد ليجد الإخوة سهولة ويسراً عند المقارنة بين القرآن الكريم وكتب الأديان الأخرى الإلهامية، ولنتمكن من المساهمة في تحقيق أمنية المسيح الموعود القليل لإكمال البراهين الأحمدية.

### الفائدة من المحاضرات العلمية

قال لي بعض الإخوة إنّ عامة الناس لا يفهمون محاضراتك العلمية بمناسبة الجلسة، وكثير منهم يجلسون فيها بنية التبرّك فقط. والجواب الأول على قولهم هو أئمّة إذا كانوا يجلسون بنية التبرّك وبيارك الله لهم فما الذي يُحرجكم في ذلك؟ هذه هي الغاية من المجيء إلى هنا، فإذا تحققت هذه الْبُعْيَة فقد تحقق المراد سواء أفهموا الحاضرة أم لا. فيجب ألا تنشأ لدى أحد شكوك تجاه هذا الموقف. خذوا مثلاً أنه إذا أدخل الله مذنبنا الجنة بدون سؤال فهل يرفض دخولها؟ كلا! بل سيجري إليها فوراً. كذلك إن نال المرء ثواباً بمجرد الجلوس في الحاضرة فما مجال الشكوى من ذلك سواء أفهم ما قيل في الحاضرة أم لم يفهم. غير أنّي أرى أنّ القول المذكور خاطئ لأنّ الله قد أبلغ أذهان أفراد جماعتنا درجة علياً، وقد استغربت كثيراً حين سمعت من أخ أحمدي أن بعض الناس لا يفهمون الحاضرة. قبل بضعة أيام قال أحد زعماء المؤتمر الهندوسي: "المسلمون جهال وليسوا مثقفين بما فيه الكفاية، لذا إن التحكم فيهم ليس سهلاً. ولقد حدث أول مرة في تاريخ العالم أن زمام الحكم يكاد يُعطى في يد فئة غير مثقفة". فكتبت الجريدة اليومية "الخلافة" الناطقة باسم

لجنة الخلافة المركزية معلقة على قوله: "لو لم يُفْحِم سائق عربة حصان من قرية صغيرة مثل قاديان الحائزين على شهادة بكالوريوس من كلية "خالصة" وكلية "ديانند" لكتاب مخطئين في طلبنا هذا، وفي هذه الحالة لن يطلب المسلمون حرية الإقليم أبداً".

إذاً كان سائق عربة حصان في قاديان مثقفاً إلى هذه الدرجة في رأي المعارضين، أليس غريباً أن يقول أحد من أفراد جماعتنا إن الأحمديين لا يقدرون على فهم محاضري؟ الحق أنهم يفهمون محاضراتي جيداً ولكن القائلين إن بعض الأحمديين لا يفهمون الحاضرة لم يقدّروا مواهب إخوتهم. فقد أحسنوا الظن بأنفسهم أنهم يفهمون الحاضرة ولكن أساووا الظن بغيرهم وقالوا إنهم لا يفهمونها مع أن المؤمنين بالأنباء، وإن جهلو العلوم المتداولة، يفهمون الأمور الدينية جيداً لأنهم يوهّبون علوماً سماوية. يقول المسيح الموعود ﷺ ما مفاده: لقد جئت بمعجزات سماوية متعددة وأقدم مشاهدتي الشخصية، ولكن الآخرين يقدمون قصصاً وحكايات. كذلك إن جماعته حائزة على المشاهدة في العلوم الروحانية، وكل أحمدي ينال علماً جديداً يوم إيمانه باليسوع الموعود ﷺ. والله تعالى بنفسه يعلم الأحمديين ردوداً على الاعتراضات من كل نوع. فمثلاً لو استهزأ أحد لنال الجواب فوراً. يروي المولوي غلام رسول الراحيكي أنه كان يناظر ذات مرة شيخاً من الخصوم، وفي هذه الأثناء أرسل أحد الأحمديين إلى ذلك الشيخ بورقة صغيرة، وظن الشيخ أن حامل الورقة غير مثقف وسوف يتغلب عليه بسهولة. فقال للأحمدي واضعاً ذلك في الحسبان: جاء في القرآن الكريم عن عيسى ﷺ: ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهذا يعني أنه لا يمكن أن يموت. قال الأحمدي: ما هي العلامة تحت "ف" في ﴿رَافِعُكَ﴾ قال الشيخ: تحته "جر". قال الأحمدي: من الممكن أن ترفعه الكلمة ﴿رَافِعُكَ﴾ إلى الأعلى ولكن الجر تحت "ف" يجره إلى الأسفل ولا يسمح له بالصعود. فلزم الشيخ الصمت. باختصار، الأسلوب الذي يعترض به معارض يفهم الله تعالى الأحمديين لإفشاله رداً بالأسلوب نفسه. فيرد الأحمديون غير الملمين بالعلوم الظاهرية تماماً ردوداً جميلة لا يسع

المعارضين إلا أن يلزموا الصمت. كان عند المسيح الموعود العليل خادم اسمه "بيران دتاً" ، وكان فهمه وعقله عادياً جداً، لكن بقاءه في صحبة المسيح الموعود العليل أثر فيه بشدة. ذهب ذات يوم إلى "بطالة" لإرسال البرقية. كان المولوي محمد حسين البطالوي في ذلك الزمن يمنع الناس من الجيء إلى قاديان، وذات مرة رأى المولوي محمد حسين هذا الخادم وأمسك به وقال: أين ذهبت؟ ماذا وجدت هناك؟ يجب ألا تبقى هناك، وقال كلاماً كثيراً من هذا القبيل. قال الخادم: أنا لست مثقفاً كثيراً ولا أعرف تفاصيل القضية، ولكنني أعلم شيئاً واحداً وهو أن المراza الحترم جالس في بيته والناس يأتونه من مسافات بعيدة، ويصلون إليه بعد تكبّد مشقة السفر في عربات الأحصنة، أما أنت فتسعى جاهداً وتجول هنا وهناك ولا يتوجه إليك أحد. أقول: هذا دليل علمي قدمه على صدق مبادئ من الله شخص جاهم لدرجة أنه كان يشتري الكيروسين ببعض مليمات ويصبه في طبيخه ويأكل دون أن يعرف ماذا يفعل. ما كان يعرف تعايير علمية ولكن ما قاله كان دليلاً علمياً، أي أن نصرة الله تحالف حضرة المرازا وأنت تصييك اللعنة فقط.

باختصار، عندما يدخل أحد في جماعة ربانية يُشحَّذ عقله فيفهم أدق معارف الروحانية بكل سهولة. والأقوام الذين يقولون إننا لا نستطيع أن نفهم أموراً من نوع كذا وكذا تنحط عقولهم ويعجزون عن فهم أمور بسيطة أيضاً. ولكن الذين ثبّيّن أمامهم نكبات روحانية وعلمية ويحاولون فهمها تنشأ في غير الفاهمين منهم أيضاً مواهب حتى يبدأون بفهمها رويداً رويداً. فلا يخطر ببالِي عند إلقاء محاضرة علمية حتى أمام الفلاحين الأحمديين أنهم لن يفهموها، ولكن مقابل ذلك أخشى عند إلقاء محاضرة علمية على طلاب الكليات من غير الأحمديين أنهم قد لا يفهمون كلامي. والسبب في ذلك أن الأحمديين معادون على سماع محاضرات علمية وروحانية، بينما الآخرون ليسوا متعددين على سماع أمور دينية. للتعود على سماع أمور دينية، أمر النبي صلّى الله عليه وآله وسَلَّمَ برفع الأذان في أذني الوليد فور ولادته. فإذا كان ممكناً أن

تنشأ موهبة فهم الأمور الدينية على هذا النحو في ولد صغير فكيف لا يفهمها الأحمديون بيان الأمور العلمية أمامهم؟

الحق أن الناس بأنفسهم جعلوا العلوم صعبة. قد هيأ الله تعالى علوماً لكل شخص، وأودع الناس -أيًّا كان مستواهم- موهبة لفهمها سواء كانوا فلاحين أو يقumen بأعمال علمية. لو لم يُعِّقد الناسُ العلومَ بأنفسهم لما تعذر فهمها على أحد. عندما يقول أحد إن كذا وكذا ثابت من دليل الاستقراء يقول كثير من الناس: ما أدرانا ما دليل الاستقراء؟ ولكن إذا قيل: هل ظل آباءكم يموتون كابرًا عن كابر أم لا؟ سيفهم الأمر كل شخص.

باختصار، إن الله لم يجعل أي علم معقداً، بل الناس يجعلونه كذلك نتيجة انتقاء الكلمات. وإن لم يفهم الناس معاشرتي فأنا المخطئ في ذلك لأنني لم أستخدم كلمات سهلة الفهم لهم، وإنما ليس في القرآن الكريم مضمون لا يقدر الماء على فهمه. فسأحاول أن ألقي الحاضرة بكلمات سهلة، ولكن بعض الكلمات الصعبة تخرج من اللسان عند تسلسل الكلام ولكنها لا تفسد الموضوع.

### الدليل التاسع على أفضلية القرآن الكريم

لقد بيَّنَتُ إلى الآن ثمانية أدلة على أفضلية القرآن الكريم، واليوم سأقدم الدليل التاسع.

الدليل التاسع على أفضلية القرآن الكريم على الكتب الإلهامية السابقة والفلسفات الأخرى هو أنه يوضح الأخطاء الواردة في كتب الأديان الأخرى الإلهامية والفلسفات الدينية كلها، ولا يكتفي بإيضاحها فقط بل يصححها أيضًا. من الواضح أن الذي يستخرج خطأً يكون أفضل من المخطئ. ومستخرج الخطأ يكون أستاذًا وبارعاً في المجال المعنوي. إن أفضلية القرآن الكريم التي تستتحقق من خلال هذا الدليل سوف تثبت على الكتب الإلهامية الحالية والأديان المعاصرة، لأنه من الممكن جداً أن الخطأ الذي يستخرج له القرآن الكريم قد لا يكون موجوداً في

الكتاب الأصلي بل أضيف إليه فيما بعد. أو قد لا يكون ذلك الأمر موجوداً في ذلك الدين بل نسبه الناس إليه فيما بعد، لأن جميع الأديان جاءت من الله تعالى فلا يمكن أن يكون فيها أمر خاطئ وكاذب من الله تعالى. فكلما وصف القرآن الكريم كتاباً سابقاً بأنه غير مكتمل يكون المراد من ذلك أن الكتب السابقة لم تكن على هذه الحال في وقتها، وكلما قال إن فيها خطأً كذا وكذا يكون المراد منه أن الله تعالى لم يقله. وحين يذكر أخطاء الفلسفة يكون المراد أن الناس اختلفوا تلك الأمور بعقولهم، وهي خاطئة.

لقد قلت إن أخطاء الكتب السابقة التي ذكرها القرآن الكريم لم تكن موجودة فيها في حالتها الأصلية. ومن هذه الناحية أيضاً يثبت القرآن الكريم أنه أفضل منها، لأنها محقة ومبذلة في حالتها الراهنة. ولكنها ما دامت موجودة أمام العالم في حالتها الحالية ويعمل بها الناس ويضررون، لذا فإن أفضلية القرآن الكريم ثابتة على أية حال لأن الناس بواسطته يطّلعون على أخطاء الكتب السابقة. ويثبت أيضاً أنه ما من كتاب جدير بالعمل الآن سوى القرآن الكريم. لقد ادعى القرآن الكريم ذلك بنفسه وقال: ﴿تَالَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ \* وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيَّنَ لَهُمُ الَّذِي احْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤-٦٥).

### إعلانات القرآن الكريم الستة

لقد قدم الله تعالى في هاتين الآيتين ستة ادعاءات. الأول: جاء الأنبياء قبل رسول الله ﷺ أيضاً، فقال: ﴿تَالَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾. الثاني: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي فسّدت الأمم بعد ذلك وجعلوا التعاليم التي أعطوها معيبة، وبدأ الناس يرون أهواهم النّفسانية حسنة.

من طبيعة الإنسان أنه يرتكب السيئة أولاً ثم يأتي بأدلة تؤيدها. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ يقول إنه سأله ذات مرة سارقاً: ألم تستح مرة عند

السرقة؟ قال: الحق أن المال الحلال هو ما نكسبه نحن، إذ نخاطر بأنفسنا للحصول على المال، وما دمنا نتකب كثيرا من المشقة والجهد لذا فإن ما نحصل عليه هو حلال لنا. يتبيّن من ذلك أن السارقين أيضاً يقدمون الدليل على جواز سرقتهم.

باختصار، الإنسان يرتكب السيئة أولاً ثم يخترع أدلة على جوازها. الحق أن الله تعالى أودع فطرة الإنسان حسناً يلومه على ارتكابه فعلاً سيئاً. وما دام الإنسان لا يقدر على تحمل اللوم في كل وقت لذا يختلق أدلة ليعيّز فعله. يقول الله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي عندما يعتاد الناس على فعل سيء يحسبونه حسناً.

الادعاء الثالث هو: ﴿فَهُوَ وَلِهُمُ الْيَوْمُ﴾. أي أن هذه السلسلة لم تنته بعد بل تجدر اليوم أيضاً الأقوام كلها في الحالة نفسها ولا يزال تأثير هذا العمل الشيطاني ولعنته ملحوظة عليهم لأن الفساد الذي يطلّ برأسه مرة لا يمكن لأحد أن يزيله سوى الله تعالى.

الادعاء الرابع هو: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي لأنهم مهددون بالوقوع في الجحيم بسبب هذا العيب، لذا تزيد رحمة الله أن تسعفهم.

الأمر الخامس المذكور هو: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُ الْكِتَابَ إِلَّا تِبَيَّنَ لَهُمُ الَّذِي احْتَلَفُوا فِيهِ﴾. أي كان ضرورياً في هذه الحالة أن يفتح باب رحمة الله. عندما ضلّ عباد الله وفسدت الكتب السابقة فتح الله باب رحمته. فيما رسول الله، قد أنزل الله عليك كتابه لتعليمهم على تعليم حقيقي لизول الفساد، ولكنهم خالفوه وضلّوا الطريق.

الأمر السادس هو: لم يكتفي الله بإزالة الفساد فقط بل بين في هذا الكتاب أموراً إضافية أيضاً، ولم يكتف ببيان أخطاء الكتب والفلسفات السابقة بل جاء أيضاً بأمور لم تخطر ببال فلاسفة السابقين. وهي نوعان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أحدهما هدى والآخر رحمة. الهداية تعني وسائل الارتقاء الذهني والعقلي. والرحمة تعني وسائل الراحة والهدوء والارتقاء العملي. فهذا يعني أن القرآن الكريم لا يشمل وسائل الارتقاء الذهني فقط بل فيه وسائل الارتقاء العلمي أيضاً. والأديان

والفلسفات كلها تسعى للحصول على هذين الأمرين فقط، وكلاهما موجود في القرآن الكريم، ففيه هدى ورحمة.

### القرآن الكريم هو الفرقان

الآية الثانية التي تدل على هذا الموضوع هي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). للفرقان عدة معانٍ ولكنني سأذكر فقط المعنيين اللذين ينطبقان هنا. الأول: كل ما يفرق بين الحق والباطل. الثاني: الصبح والسّحر. يقول الله تعالى: يمكن التمييز بين الحق والباطل بواسطة هذا الكتاب. وثانياً إننا جعلناه مثل فلق الصبح، بمعنى أنه عندما ينبلج الصبح تظهر للعيان حقيقة كل شيء. كذلك أظهر هذا الكتاب الحقيقة. فمن منظور هذا المعنى يكون معنى الآية: (١) تبارك الله الذي أنزل على عبده كلاماً يميز بين الحق والباطل. (٢) تبارك الذي أنزل على عبده كلاماً ترى في صوئه جميع الفلسفات عيوبها وتشعر في إصلاحها. كما يتراءى عيب كل بيت عند انبلاج الصباح كذلك في ضوء القرآن سيرى أصحاب الأديان كلها ما عندهم من العيوب ويسرعون في إصلاحها.

باختصار، لقد قدّمت في القرآن الكريم أدلة تميز بين الحق والباطل، وقدّمت التعليمات الصحيحة بأسلوب أظهر على الناس نقاط ضعف أديانهم تلقائياً، وبدأوا بسترها.

### براءة أقوام العالم من الشرك

انظروا الآن كيف تحقق هذان الأمران. سأذكر أحدهما بالتفصيل لاحقاً، أما القول إن الناس يبدأون بإصلاح عيوبهم عند انفلاق الصبح فيتبين صدقه من حقيقة أن الأقوام كلها كانت متورطة في الشرك عند بعثة رسول الله ﷺ. كان اليهود قد اخندوا "عزيراً" ابن الله، مع أن لديهم تعليم الإيمان بإله واحد. كذلك كانت الزرادشتية مؤسسة على وحدانية الله، ومع ذلك فسد أتباعها واتخندوا إلهين اثنين. واتخذ الهندوس ٣٣٠ مليون إله. أما البوذية في الصين فقد اتخذت إليها منفصلاً لكل

شيء. فمثلاً كان هناك إله للخشب، وإذا صُنعت من الخشب طاولة صار لها إله منفصل. **فَبَعْثَتِ النَّبِيُّ** ﷺ **فِي هَذَا الْوَقْتِ وَعَلِمَ أَنْ هُنَّاكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَقَطْ.** كان الناس حينذاك قد ابتعدوا عن التوحيد كثيراً فضحكوا على هذا الكلام، وقالوا: **﴿أَجْعَلْ** **الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾** (ص: ٦). ولما لم يكن ممكناً أن يخترع بياهم أن الإله واحد فكانوا يزعمون أن رسول الله ﷺ قد ضم آلهة كثيرة في إله واحد، ورأوا تقديم عقيدة إله واحد حما، فكأنهم كانوا يرون تقديم الاعتقاد بإله واحد حما. كذلك كان النصارى يعتقدون باعتقادهم بثلاثة آلهة. باختصار، كانت الأقوام كلها متورطة في الشرك. ولكن بعد انتشار نور القرآن الكريم آلت الحالة إلى أن مسيحيياً يهُبُّ اليوم ويقول: لا يقدم التوحيد الخالص أي كتاب سوى الإنجيل، ولا يشعر عند قوله هذا بكثير الكذب الذي يتغوه به! إذن، كان الناس من قبل يضحكون على النبي ﷺ على تقديم عقيدة التوحيد، أما الآن حين طلعت الشمس فقد ظهر سواد وجوههم وبدوا يغسلونه. كان الهندوس قد اخندوا ٣٣٠ مليون إله و كانوا ساخطين على السلطان محمود العزني بسبب كسره أصنامهم. أما الآن فترى الهندوس أنفسهم يكسرونها هنا وهناك لأن شمس القرآن قد طلعت وعلموا أن الوثنية اعتقاد سيء. خذوا أي قوم فتجدونهم يخالفون أفكار الشرك. فما أعظم هذا الدليل على كون القرآن فرقاناً! يمكن تقديم عشرات الأدلة حول هذا الموضوع ولكنني لا أريد الإسهاب فيه لأنه أمر ثانوي. على أية حال؛ الحقيقة هي أنه لم يكن هناك دين من بين اليهودية والنصرانية والمحوسية والهندوسية وغيرها إلا وكان أهله مشركون في البداية، ولكنهم غيرروا اعتقادهم بعد نزول القرآن الكريم. هذا أمر بدائي لدرجة أنه يكفي وحده أي عاقل دليلاً على الأفضلية.

باختصار، أُعلن في هذه الآية أنه قد استخرجت بواسطة القرآن الكريم أخطاء كل دين وملة وكل فلسفة وفكرة وأعطي مقابلها تعليم صادق. ثم يقول الله تعالى إن حدوث ذلك كان ضرورياً. ولا يصح القول: ماذا كانت حاجته إلى استخراج

أخطاء الآخرين، بل كان يكفيه أن يقدم تعليمه؟ يقول الله تعالى إن ذلك كان ضروريًا: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي قد أنزلنا القرآن للعالم كله، فهو ليس موجّهاً إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى الهندوس فقط، وهو ليس لأهل الأديان فقط بل موجّه إلى أصحاب الفلسفات أيضًا. وما لم تتم الحجة لا يمكن أن يكون نذيرًا. فكان ضروريًا بواسطته تدارك الأديان الباطلة والفلسفات الباطلة وإزالة الأوهام الباطلة والوساس كلها، وإلا لما جاز إرساله إلى العالم كله.

انظروا الآن، ما أعظم هذا الإعلان الذي قام به القرآن! لا يسع كتاباً آخر أن يعلن ما أعلنه القرآن الكريم. بل الحق أنه لا يمكن لأحد أن يعلنه ما لم يتحلى بست مزايا. الأولى: أن يكون مطلعاً على جميع الكتب. وعندما لا يعرف أحد عن الفيديا والدساتير فكيف له أن يستخرج أخطاءهما؟ كذلك إن لم يطلع على أفكار الفلسفه أنى له أن يدحضها؟ فلا يمكن أن يدّعى ذلك إلا من كانت لديه مكتبة كاملة تشمل كتب أديان العالم كلها وكتب الفلسفه كلهم. ولكن المكتبة مثلها لم تكن موجودة عند رسول الله ﷺ بل لم يعلم عن عشرات الأديان شيئاً.

الميزة الثانية التي يجب أن يتحلى بها هذا المدعى هي أن يكون قادرًا أيضًا على العثور على الأخطاء، وكانت لديه معلومات تشمل مضمون الكتب كلها. لم يكن لرسول الله ﷺ أن يدّعى ذلك لأنه لم تكن لديه كتب أديان العالم، فلا ينشأ سؤال قراءته إياها.

الميزة الثالثة المطلوبة هي أن يكون مطلعاً على كافة أنواع الفلسفات. والميزة الرابعة المطلوبة هي أن يكون لديه إلمام بكلفة أنواع الأوهام والوسوس، لأنه قد أُعلن أن القرآن الكريم يدحض الوسوس أيضًا، وليس بوسع إنسان أن يعثر على وسوس الناس. فلا يسع بشراً أن يدّعى أنه قادر على إزالة وسوس الناس ما لم يكن مطلعاً على أفكارهم جميعاً. والمعلوم أن الاطلاع عليها يفوق قدرة البشر.

وخامسًا لو فرضنا جدلاً أن أحداً اطلع على كافة أنواع الأوهام والوسوسات وما شابها، فمع ذلك لن يقدر على دحضها ما لم يكن قادراً على الرد أصلاً. لذا يجب أن يتحلى المدعى بميزة خامسة وهي قدرته على الرد على كل اعتراض. والميزة السادسة المطلوبة هي أن يرد في كتاب صغير مثل القرآن الكريم على أخطاء الكتب كلها، وبين جميع الأمور الحسنة. يعترف المسيحيون أن القرآن الكريم أقل حجماً من الكتاب المقدس، ومع ذلك لم يرد في الكتاب المقدس ادعاء إلا أن الله محبة. هذه الميزات الست لا توجد إلا في الله تعالى. والله تعالى وحده يعلمكم يوجد في العالم من الأديان والفلسفات، ونظره الدقيق فقط يصل إلى أدق الأمور، وهو وحده يرى أوهام البشر ووسوساتهم. وهو وحده قادر على أن يدحض الأمور الخاطئة كلها، ويدرك كل شيء في كتاب صغير. إذن، لا يمكن أن يعلن ذلك إلا الكتاب الله، كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ حَلَقْنَا إِلَيْنَا وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد﴾ (ق: ١٧). في الآية المذكورة سابقاً جاء الادعاء عن استخراج أخطاء أتباع الكتب الدينية، أما في هذه الآية فقد أعلن عن بيان أخطاء الناس كافة سواء كانت لهم علاقة بالكتب الدينية أو كانت أفكارهم مبنية على الأدلة العقلية فقط. الكتب الأخرى لم تقدر حتى على بيان الاعتراضات التي تطل برأسها ضد الدين، ناهيك أن تدعى الرد عليها.

### التحدي للعالم

هذا إعلان عظيم لدرجة أنْ أراه وحده يستطيع إثبات أفضلية القرآن الكريم، وإن اختبار مصداقته أيضاً سهل جداً. فليقدم الناس بعض الاعتراضات الغربية عن الدين ثم لينظروا هل الردُّ عليها موجود في القرآن الكريم أم لا. وقد سبق أن تحدثت العالم كله أن يعترضوا على الدين كما يحلو لهم وأنا مستعد للرد على كافة اعتراضاتهم من القرآن الكريم نفسه. فلينشروا اعتراضاتهم في كتاب وسأفرض على نفسي أن أردّ

عليها من القرآن الكريم حسرا. وإن لم أستطع يمكنهم أن يقولوا إن قولك بأن القرآن الكريم رد على كل اعتراض باطل. ولكنني واثق من أنه إذا استعد أحد لهذا الاختبار سيجعلني الله تعالى ناجحا فيه. لقد علمني ملائكة الله سورة الفاتحة التي هي أصل القرآن الكريم وأطلعوني على معارفها. وإنني موقن بأنه ما دام ملائكة الله، منزّل القرآن، علموني سورة الفاتحة ومعارفها وقال لي الملائكة أيضا إنه علمني ما لا يعرفه أحد. فلا يمكن أن يأتي معارض باعتراض لا أستطيع الرد عليه من القرآن الكريم فقط. لذا أتحدى مرة أخرى معارضي الإسلام كافة أن يطروحوا شيئاً معاذياً وسأرد عليه مبدئياً من القرآن الكريم فقط. قبل بضعة أيام جاءني شخص وقال: أريد أن أسألك بعض الأمور الدينية، قلت: تفضل بكل سرور. قال: هل يصدق القرآن الكريم ادعاء المرزا الخاتم؟ قلت: نعم. قال: أخبرني عن آيةٍ تصدقه؟ قلت: القرآن كله يصدقه. قال: كيف ذلك؟ قلت: هذا ما أراه أنا، ولكن يمكنك أن تقرأ أي آيةٍ تشاء وسأثبت صدقه منها، وسأوضح الموضوع بواسطتها بفضل الله تعالى. ثم قلت: يمكنك أن تقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مثلا. فتردد قليلاً على ذلك وظنّ لعلني سأثبت له ادعائي من هذه الآية، فأهملها وقرأ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩)، قلت: المؤمنون قسمان. الأول: هم الذين يظنون أنهم مؤمنون ولكنهم يكذبون، والقسم الثاني هم الذين يؤمنون في الواقع. فالذين يزعمون أنهم يؤمنون ولكنهم ليسوا بمؤمنين في الحقيقة عندما يمثلون أمام الله تعالى يقول لهم إنكم ادعتم الإيمان ولكن لم تؤمنوا في الحقيقة. فيقولون: لماذا إذن لم تنبهنا بواسطة رسول؟ ثم سأله الزائر: كم من الناس يصلّون الصلاة في هذه الأيام؟ قال: عدد قليل جداً. قلت: الناس من هذا النوع هم الذين يقولون إننا آمنا ولكنهم لا يؤمنون في الحقيقة. ما الذي سيحدث لهم؟ لا يمكن أن يكون بيان القرآن صادقاً ما لم يعالجهم. فإذا كان الناس من هذا النوع موجودين فهل يجب أن يأتي من الله مبعوث أم لا لإرشادهم إلى الصراط المستقيم؟

الإصلاح المبدئي الأول الذي قام به القرآن عن وجود الله تعالى والآن أتناول على سبيل المثال أموراً مبدئية وأبين كيف استخرج القرآن الكريم أخطاء الأديان الأخرى وأفكار الفلاسفة وأصلاحها. أول ما يخطر ببال الإنسان فور تفكيره في موضوع الدين هو: هل لهذا العالم إله أم جاء العالم إلى حيز الوجود تلقائياً وليس له خالق؟

لقد أقرَّ القرآن الكريم بأن هناك أنساناً يزعمون أنه ليس هناك إله، ثم شرح مصدر علمهم أيضاً. ولكنني سأقدم دليلاً واحداً حول هذه الأمثلة دون الخوض في التفاصيل. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَنَحْنَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٥)، يقولون إننا نموت ونتولد بحسب قانون ثابت وإنما ليس هناك من يعمل ذلك.

إن كثيراً من الملحدين يشرعون في تقديم الأدلة ضد وجود الله، ولكن كبار الملحدين والشاطرين منهم مثل "هكسلي" وغيره يقولون إنهم لا يجدون دليلاً على وجود الله. فحين سُئل "هكسلي" عن دينه قال: لا أعلم. إذن، إن أساسهم هو على الإنكار. وهذا ما أخبر به الله قبل ١٣٠٠ عام حين قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٥) كل ما يستطيع الملحدون قوله هو إننا نظن أنه ليس هناك إله، وليس لديهم دليل إيجابي على ذلك، بل إنما ظنهم ووهمهم أنه ليس هناك إله. والقطعية لا يمكن أن تؤسس على النفي. فهذا ذكر الإلحاد.

والآن أبين كيف دحض القرآن الكريم الإلحاد. ولكن سأكتفي بدليل واحد، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الجاثية: ٢٨)، أي في العالم ملِك يتصرف في السماوات والأرض، وتنجلى قدراته دائماً. المراد من السماء هنا هو النظام الشرعي. المراد من الأرض هو النظام الطبيعي. والآية تعني أن هناك انسجاماً عظيماً بين الأنظمة السماوية أي الشرعية، والأنظمة الأرضية أي الطبيعية.

فلا يسع أحداً أن يقول نظراً إلى هذا الانسجام إن كل هذا جاء إلى حيز الوجود صدفة ومن تلقاء نفسه. فلو كان النظام الطبيعي من تلقاءه لما حدث التوافق بينه وبين كلام الأنبياء؟ بينما تلاحظ في هذين النظامين وحدة لا يسع أحداً أن يقول نظراً إليها إنه ليس هناك من يدير هذا العالم. إن أدلة المشاهدة ونظام العالم مذكورة بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: "وجود البارئ تعالى". أي أن هناك انسجاماً بين كلام الله والنظام الطبيعي بحيث لا يمكن لأحد أن يقول نظراً إليه إن كل هذا وجد تلقائياً. إذا كان النظام الطبيعي موجود تلقائياً فلماذا يتوافق مع كلام الأنبياء. إذن، إن تأييد النظام الشرعي والنظام الطبيعي لبعضهما، بل إن سير النظام الطبيعي تحت النظام الشرعي يدل على أن هناك من يدير هذا العالم حتماً. وهذا الدليل مجموع دليل المشاهدة ودليل النظام، وهو أقوى الأدلة كلها في رأيي. إن دليل النظام يبيّن أن العالم كله خاضع لنظام، أما دليل المشاهدة فيقول إن مع الشريعة أدلة لها. ومجموع هذين الدليلين يوحى بأن كلاً النظامين متّحد مع بعضه البعض. وهذا الاتحاد أقوى دليل على وجود الله تعالى. أُقْدِم على ذلك دليلاً من القرآن الكريم نفسه، وأبيّن كيف تتوافق النظم السماوي مع النظام الأرضي.

لقد ادعى النبي ﷺ قبل ١٣٠٠ عام أنه جاء من الله تعالى، وأعلن أن خالق الأرض والسماء هو إله واحد، وادعى أيضاً أن آيات الله تؤيده. فنرى أن العالم الذي كان يجري تحت نظام، فإنه بعد ولادة رسول الله ﷺ فوراً بدأ التغييرات تحدث فيه تحت الكلام السماوي. يتبيّن من ذلك بخلاف أن العالم يجري تحت أحكام الذي جاء منه القرآن الكريم.

### دعاة إبراهيم عليه السلام لبعثة محمد ﷺ

أعود إلى الوراء بقدر أربعة آلاف عام من اليوم لإثبات كيف يجري ملوكوت السماء والأرض تحت ملك ذات واحدة. فقبل أربعة آلاف عام، عند رفع قواعد

الكعبة دعا إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَّلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرِيكِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٠)، أي ندعوك يا رب أن تبعث في ذريتنا التي ستنتشر في هذا البلد في المستقبل رسولا تكون مهامه: (١) ﴿يَتَّلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، (٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي الشريعة، (٣) ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، أي يوضح لهم حكم الأحكام. (٤) ﴿وَيُرِيكِهِمْ﴾، أي يطهّرهم وينقذهم من السيئات. لقد دُعى هذا الدعاء قبل أربعة آلاف عام في مكان غير ذي زرع. إن بغر زرم الذي انفجر هنالك كمعجزة كان مأوه مالحا نسيئاً، فلا يستسيغ الهندو شربه، وحول هذه البئر سكنت بعض العائلات. وفي ذلك المكان، عند بناء بيت من الحجارة دعا إبراهيم اللهم إجعل أن ابعث يا ربنا إلى من يولدون هنا رسولا يعلمهم أدلة على وجودك ويعلمهم شريعتك و دقائقها؛ أي يطلعهم على الفائدة من العمل بحاجة، ويزكيهم.

لو تأملنا في هذا الدعاء جيداً لتبيّن لنا أنه قد أُخْبِرَ فيه عن الأمور التالية:

الأول: ستبقى مكة قائمة إلى وقت تظُهر للعيان ضرورة بعثة هذا النبي. الأمر الطبيعي في تلك المنطقة هو أن الرياح العاصفة تهب، وتحدث الزلزال وتدمّر مدننا كبيرة، ولكن قد أُخْبِرَ هنا أن كل هذه الحوادث لن تقدر على خراب هذا العمّان، وهكذا كان بالفعل.

الأمر الثاني المذكور هنا هو أن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ستستمر إلى الأبد لأنه قيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾. يتضح منه أن ذريتهما ستكون موجودة إلى بعثة ذلك الرسول. إن نسل معظم العائلات في العالم يجري إلى ثلاثة أو أربعين إله على أكثر تقدير ثم ينذر، ولكن قيل هنا إن نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سيستمر إلى ألفي عام في كل الأحوال أي إلى بعثة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وستتحكم هذه النبوة في الأمراض حتى لا تقضي على هذا النسل، وستتحكم بكلّة أنواع الحوادث لكثلاً تقضي على هذا النسل، وستولد ذرية بعد ذرية وسيستمر هذا النسل إلى الأبد.

الأمر الثالث الذي يثبت من هنا هو أن رسولاً سيأتي من نسل إبراهيم، مع أنه لا يسع أحداً أن يدّعى أيّ نوع من الناس ستكون ذريته.

الأمر الرابع المذكور هو أنه سيقلب حالة هذا القوم رأساً على عقب، وينتقلون من حالة دنيا إلى حالة عليا. كم من أناس يقدرون على تزكية الآخرين؟ الأستاذ لا يستطيع أن يزكي حتى تلميذا واحداً! يروي عن أبي علي بن سينا أنه كان ذات مرة يدرس تلاميذه كتاباً فقال أحدهم في أثناء الدرس: أنت أفضل من محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كان ابن سينا مؤمناً صادقاً وكان يتقن علم النفس، فطن أنه لو شرح له الموضوع الآن فقد لا يفهمه ولعله يضلّ أكثر بسبب عناده، فلزم الصمت. ولكن في أحد الأيام حين كان الطقس بارداً وماء البركة متجمداً بسبب البرد قال لذلك التلميذ: أخلع ثيابك واقفراً فيها. قال التلميذ: ما أبغى هذا الكلام الذي تقوله! هل تريدين أن أموت بالقفز في الماء البارد؟ قال ابن سينا: كنت يوماً تفضلني على محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أما اليوم فلا تطع أمرى البسيط. بينما لم يقل أتباع محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إننا سنموت إذا أطعنا أمرك كذا وكذا. بل كانوا ينفّذون أمره (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فوراً وإن رأوا الموت محدقاً بهم، فكانوا يضّحّون بحياتهم من أجله بكل سرور.

إذن، ما أعظم هذا الكلام القائل إنه لن يغيّر شخصاً أو شخصين بل يقلب حالة القوم كله رأساً على عقب. فنرى أن مكة كانت موجودة بعد ألفي عام من هذه النبوة، وذرية إبراهيم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) موجودة. كان ممكناً أن يكون النسل موجوداً دون أن يعرفوا من أبوهم، ولكن الله تعالى قدر أن يذكر في الكتاب المقدس إنها ذرية إبراهيم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ثم ولد فيهم رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأعلن النبوة وقلب حالة القوم رأساً على عقب.

### نبوة موسى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

ثم نأتي إلى فترة تالية ونرى أن محمداً (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يؤتى به أئمّاً العالم مرة أخرى. وبعد مرور ٦٠٠ عام من إبراهيم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعث موسى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأئمّاً عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بما يلي:

أَقِيمُ لَهُمْ نَيْنًا مِنْ وَسْطِ إِخْرَقِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ<sup>١</sup> بِهِ. (الْتَّثْنِيَةُ ١٨ : ١٨)، وبذلك تم تصديق دعاء إبراهيم عليه السلام. كان إسحاق أخو إسماعيل، وكان موسى من أولاد إسحاق عليهم السلام، وكان رسول الله ﷺ من أبناء إسماعيل عليه السلام. أي أقيمت رسول الله ﷺ من إخوته، وبذلك تكرر بعد ٦٠٠ عام وعدُّ أعطيه إبراهيم عليه السلام، وهذا يعني أنه قد أنجب -لقاء نسل إسماعيل- بعثة نبي من نسله. ثم ذُكر أمر آخر عن ذلك الشخص وهو: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلَّأَّ مِنْ جَبَلٍ فَارَانَ، وَجَاءَ مَعَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ قَدِيسِينَ. وَأَتَى مِنْ رِبُوَاتِ الْقُدُسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ. (الْتَّثْنِيَةُ ٣٣ : ٢)

سيناء هو الجبل نفسه الذي ذُكر في القرآن الكريم باسم "الطور" والمراد منه هو ظهور موسى عليه السلام؟ يقول البعض إن المراد من "سعير" هو المسيح الناصري عليه السلام، ولكنهما اسمان للجبلين اللذين مر بهما موسى وانتصر على الأعداء، لذا المراد هنا أيضا هو موسى عليه السلام. ثم قيل: وَتَلَّأَّ مِنْ جَبَلٍ فَارَانَ، وَجَاءَ مَعَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ قديسين. هنا أيضا ذُكر أمران. الأول: سيتجلى من جبل فاران. الثاني: سيأتي معه عشرة آلاف من القديسين. وكلا هذين الأمرين يتعلق بشخص واحد، كما كان الأمران المذكوران من قبل عن شخص واحد.

ثم قال: ستكون معه شريعة نارية. وقد أُخبر في ذلك أنه سيأتي معه عشرة آلاف قديس من جبال فاران التي تحيط بمكة وفي يده شريعة نارية. قيل في هذه النبوة، (١) سيخرج ذلك النبي من مكة، لأنه قيل من قبل إنه سيولد في مكة، ثم قيل: جاء معه عشرة آلاف قديس. فيتضح من ذلك أنه سيخرج من مكة أولا. (٢) وبعد فترة من الزمن سيهاجم مكة بجيش. (٣) يكون معه عشرة آلاف

<sup>١</sup> حُرِفت هذه الكلمات في بعض الطبعات الجديدة خاصة العربية، ولكنها موجودة في الطبعة الأردنية British And Foreign Bible Society لاهور ١٩٠٨ و ١٩٢٢ . وفي الطبعة الإنجليزية " Oxford Univ. Press London New York , Toronto " (المترجم)

جندى. (٤) يكون هؤلاء قد يسون؛ أي مصادقو **﴿يُرَكِّبُهُم﴾** (٥) ستكون معه شريعة تحرق الذنوب. هذه ترجمة آية: **﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** فحين يعلم الإنسان أن في طاعته أمرًا كذا مصلحته، سيعمل به. إن معنى الشريعة يُستمدّ من "الكتاب" وحارقة الذنوب تُستمدّ من "الحكمة" لأن الإنسان يجب تجنب ارتكاب الذنب بعد تعلم الحكمة.

يعلم الجميع أن ما ذُكر في هذه النبوة قد تحقق. وثبتت تارينيا أن جبل فاران هو جبل مكة. كان الخليفة الأول لل المسيح الموعود **الصلوة** يقول: "لو سألتم بائعي زهور الخزامي في وادي فاطمة (هذا منزل بين مكة والمدينة) من أين أتيتم بهذه الزهور؟ لقال المراهقون والأولاد الصغار أيضًا: "من بريّة فاران". (فصل الخطاب: المجلد ٢، ص ٣٨) وفي الكتاب المقدس أيضًا مراجع تشير إلى أن هذا هو وادي فاران.

### نبوة سليمان **الصلوة**

مضت على ذلك أربعين عام، وبُعث سليمان **الصلوة** وتغنى في مدح محمد رسول الله **صلوة** فقال: **أَحَلِّفُكُمْ يَا بَنَاتِ أُورُشَلَيمَ** (أي بنى إسرائيل) **إِنْ وَجَدْنَا حَبِيبِي أَنْ تُخْرِنَهُ يَا أَنِّي مَرِيضَةُ حُبًا.** \*

فردحن: **مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ أَيْتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ!** **مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ حَتَّى تُخَلِّفَنَا هَكَذَا!** \* فقال: **حَبِيبِي أَيْضُ وَاحْمُرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَوْقَةَ.** \* **رَأْسُهُ دَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قَصَصُهُ مُسْتَرْسَلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْعَرَابِ.** \* **عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِي الْمِيَاهِ،**

١ إن المقصود بـ"روبة" عشرة آلاف، وفي الترجمة الانجليزية ورد: (Chief among ten thousand) أي "علم بين عشرة آلاف" في النص الأردي المترجم لهذه الجملة (بين عشرة آلاف رجل). إن ترجمة هذه العبارة هي من إصدارات (كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت - الإسكندرية - مصر) وأما في إصدارات (دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط / جمعية الكتاب المقدس في لبنان) وهي الأكثر انتشارا، فإن هذه العبارة هي: "حبيبي سليم وأسمّر لا عيّب فيه، عَلَمٌ بَيْنَ عَشَرَةَ آلَافِ". (المترجم)

مَعْسُولَتَانِ بِاللَّبْنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَفْبَيْهِمَا. \* خَدَاهُ كَحَمِيلَةِ الطَّيْبِ وَأَتَلَامِ رَيَاحِينِ ذَكِيَّةِ. شَفَتَاهُ سُوْسَنْ تَقْطُرَانِ مُرَّا مَائِعَا. \* يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالْتَّرْجِدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَيْضُ مُعَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الْأَرْقِ. \* سَاقَاهُ عَمُودًا رُحَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزِ. طَلْعَتُهُ كَلْبَنَانَ. فَتَّى كَالْأَرْزِ. \* حَلْفُهُ حَلَاؤَةُ وَكُلُّهُ مُشْتَهِيَّاتٍ. (مكتوب في العبرية: محمد يم) هذا حَبِيبِي، وهذا حَلِيلِي، يا بَنَاتِ أُورُشَلَيمِ. (نَشِيدُ الْأَنْشَادِ ٥ : ٦-١٦)

إذن، نصح سليمان عليه السلام أيضا للإيمان بهذا الحبيب عند ظهوره، ثم طرح بنفسه سؤالا وقال إنه سيتحلى بمزايا كذا وكذا. تبدو بعض العبارات في هذا النص كأنها كلام شاعر وبعضها تطابق ملامح رسول الله عليه السلام تماما، مثل: "فُصَصُهُ مُسْتَرِّسَلَةٌ". وقد جاء في الكتاب المقدس بالإنجليزية: His locks are wavy. وعلى هذا النحو ذكرت ملامح النبي عليه السلام في الأحاديث. يقول علي عليه السلام: "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ بِالظَّوِيلِ الْمُمَعَطِّ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبِيعَةُ مِنَ الْقَوْمِ، لَمْ يَكُنْ بِالْجُعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبِطِ، كَانَ جَعْدًا رَجَلًا". (سنن الترمذى، أبواب المناقب عن رسول الله عليه السلام) وهذا ما قاله سليمان عليه السلام إن: "فُصَصُهُ مُسْتَرِّسَلَةٌ". فكانت لمة النبي عليه السلام تضرب منكبيه. أي جاء في النبوة أن شعره لن يكون جعدا ولا مسترسلاما وهذا ما ذكره علي عليه السلام.

ثم بين سليمان عليه السلام أن لونه أبيض وأحمر، وقال علي عليه السلام عن لونه عليه السلام: "أَيْضُ مُشَرِّبٌ". (المرجع السابق) ومعنى "مشرب" في اللغة: لون أبيض تحالطه حمرة. ثم قال سليمان عليه السلام: "مُعَلَّمٌ" أي يقوم بارزا مثل العلم ولن يكون قصير القامة. وقد جاء عن رسول الله عليه السلام أن قامته كانت أقرب إلى الطول. باختصار، كان النبي عليه السلام يتحلى بجميع الملامح التي ذكرها سليمان عليه السلام. كانت لمة شعره معروفة حتى نظم الناس شعرا في صفتها.

## نبوءة النبي إشعيا

نتنقل الآن إلى فترة تالية ونصل إلى زمن النبي إشعيا، أي سبعمئة عام بعد موسى و ١٣٠٠ عام بعد إبراهيم عليهم السلام. فنراه يعيد ما قاله إبراهيم وموسى وسليمان عليهم السلام ويقول: "اللَّهُ يُولُدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كُلِّهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلَهًا قَدِيرًا، أَبَا أَبْدِيًّا، رَئِيسَ السَّلَامِ \* لِنُمُرُّ رِيَاسِتِهِ، وَلِلسَّلَامِ لَا نِهَايَةٌ عَلَى كُرْسِيٍّ دَاؤِدَ وَعَلَى مُلْكَتِهِ، لِيُشَيِّهَا وَيَعْضُدُهَا بِالْحَقِّ وَالْبَرِّ، مِنَ الْآنِ إِلَى الأَبَدِ". عَيْرَةُ رَبِّ الْجَنُودِ تَصْنَعُ هَذَا." (إِشْعَيَا ٩ : ٧-٦)

قيل في هذه العبارة إنه عندما يأتي هذا الرسول "يُدعى اسمه عجيباً". فكان الناس يقولون عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فُرَّانًا عَجِيبًا﴾ (الجن: ٢)، وفي إنجيل متى سمى المسيح عليه السلام رسول الله ﷺ "عجب" فقد جاء فيه: "مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا". (إنجيل متى ٤٢ : ٤٢)

الأمر الثاني المذكور هو أن اسمه سيكون "مشيراً"، لنرى هل هناك أحد سوى رسول الله ﷺ قيل بحقه أن الناس كانوا يستشروننه؟ يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ حَيْرَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَنْجُدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٣). أي أيها المؤمنون إنكم معتادون على استشارة الرسول، فاعلموا أن وقته ثمين جداً، لذا عليكم أن تتصدقوا على المساكين قبل استشارته، هذا خير لكم. وإن كان منكم من لا يستطيع ذلك، فالله سيزييل هذا الضعف. لقد جاء في الأحاديث أن عجوزاً كانت تمسك بيده ﷺ ل تستشيره وهو يمشي في طريقه، وكان الناس يستشروننه في المسجد أيضاً. وحدث ذات مرة أن شخصاً ظل يحاوره ﷺ في المسجد لفترة طويلة حتى قام القادمون للصلوة.

<sup>١</sup> وفي الترجمة الإنجليزية: Everlasting Father، منه.

والاسم الثالث المذكور هو: "إِلَهًا قدِيرًا". والعلوم أن اسم "إِلَه" قد استخدم في التوراة بالمعنى المجازي أيضاً. فقد ورد: "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ". (آلُّهُرُوجُ ٧ : ١)، وقال المسيح عليه السلام: "فَمَتَّ جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَامِينَ؟" (إنْجِيلُ مَتَّى ٤٠ : ٢١)، أي عدد المسيح مجيء رسول الله عليه السلام بمنزلة مجيء الله.

عندما نتأمل في القرآن الكريم نجد أنه كما جاء عن موسى عليه السلام: "أَنَا جَعَلْتُكَ إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ"، كذلك جاء عن رسول الله عليه السلام: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمول: ١٦)، والصفة التي أرسلنا بها موسى رسولًا إلى فرعون أرسلناك بالصفة نفسها رسولاً إلى العالم.

الاسم الرابع المذكور للنبي عليه السلام هو: "أَبَا أَبْدِيَا"، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿النَّبِيُّ أُولَئِي بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَا هُنْ﴾ (الأحزاب: ٧)، أي أن علاقة النبي عليه السلام بالمؤمنين أقوى حتى من علاقة الآباء، وأزواجها أمهات المؤمنين. فلما كانت أزواجه عليه السلام أمهات المؤمنين فكان رسول الله أبوهم. وقد جاء في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدُ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾ (الأحزاب: ٤)، أي أن محمدًا عليه السلام ليس أباً أحد من الرجال ظاهرياً ولكنه أباً روحانياً بصفته نبياً، بل هو أباً إلى الأبد لكونه خاتم النبيين.

الاسم الخامس المذكور هو: "أَمِيرُ السَّلَامِ" لِأَنَّهُمْ - بهذه المناسبة - يستخدمون في العبرية عبارة "أمير السلام" بدلاً من "رئيس السلام". والإسلام هو السلام. فعليه كان الاسم هو رئيس السلام. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّا كُمُّ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج: ٧٩)، والحق أن النبي عليه السلام كان رئيس السلام فعلاً، فقد دعا عليه أهل مكة عند فتحها وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٣).

رئيس السلام \* لِمُؤْمِنِ رِيَاسَتِهِ، وَلِالسَّلَامِ لَا يَحْمِيَهُ عَلَى كُرْسِيٍّ ذَاوِدَ وَعَلَى مُلْكَتِهِ، لِيُثْسِتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الْآنِ إِلَى الأَبَدِ.

الأمر السادس المذكور بمحققه بِكَلِيلٍ هو: لِنُمُّوْ رِيَاسِتِهِ، وَلِلسَّلَامِ لَا نَهَايَةَ عَلَى كُرْسِيٍّ  
دَاؤَدَ وَعَلَى مُمْلَكَتِهِ، لِيُشَيَّهَا وَيَعْصُدَهَا .. مِنَ الْآنِ إِلَى الأَبَدِ. (إِشْعَيَاءٌ ٩ : ٧) هذه أيضًا  
نبوءة عن أمة محمد رسول الله بِكَلِيلٍ، وقيل فيها إن أمتها ستسيطر على الشام وفلسطين.  
ثم نقرأ في الكتاب نفسه كلاماً إلهامياً عن بلاد العرب: "فِي الْوَعْرِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ  
تَيِّبَيْنَ، يَا قَوَافِلَ الدَّدَائِيْنَ \* هَاتُوا مَاءً لِمُلَاقَاتِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيِّمَاءَ.  
وَأْفُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ \* فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَّامِ السُّلُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَّامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ،  
وَمِنْ أَمَّامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَّامِ شِدَّةِ الْحَرَبِ. \* فَإِنَّهُ هَكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ:  
«فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الْأَحَيْرِ يَقْنَى كُلُّ مَجْدٍ قِيَدَارَ \* وَبِقِيَّةِ عَدَدِ قِسْيٍ أَبْطَالٍ بَنِي قِيَدَارِ  
تَقْلُ، لَأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ. (إِشْعَيَاءٌ ٢١ : ١٣-١٧)

في هذه العبارة بين نبوءة أن ذلك النبي القادر سيخرج من وطنه وبعد عام من  
هجرته سيهاجم قومه. سيبيتون ليلاً في الصحراء وستندلع الحرب صباحاً، سيهزم  
فيها العدو ويهلك كبار أبطالهم. فهذه النبوءة أيضاً تحققت في شخص رسول الله  
بِكَلِيلٍ في معركة بدر.

انظروا الآن، كم من أمور ذُكرت في هذه العبارة! فقد قيل: (١) سيخرج أهل  
مكة ذلك الرسول من مدينته أولاً، ثم (٢) سيغزو أهل مكة للحرب. فإذا الذي  
أنزل كلامه على إشعيا ما كان متصرفًا على العالم ولم يكن العالم تحت سيطرته  
فلماذا جعل أهل مكة يخرجون رسول الله بِكَلِيلٍ من مكة أولاً، ثم من أخرجهم للهجوم  
عليه بعد عام؟ (٣) وعندما هاجموا شاركهم الزعماء كلهم. يقال إنه لم يكن في مكة  
بيت إلا واشترك أحد من سكانه في تلك الحرب. (٤) قُتل في هذه الحرب كبار  
الزعماء. يتبين من كل هذه الأمور أن المتصرِّف على الأفكار والسيوف كان ذلك  
الذي أدلَّ بهذه النبوءة بواسطة النبي إشعيا. لقد عمَّ مكة دمار شامل نتيجة هذه  
الحرب لدرجة أن ساد المأتم كل بيت من بيوها. ومنع الناس من الندب والبكاء

خشية أن تحيط همهم. وكان لشخص ثلاثة أبناء وقتلوا جميعاً في الحرب، فكان يبكي مختفياً في البيت ولكن لم يهدا قلبه. فحدث ذات يوم أن فقد بغير أحد الناس وببدأ يبكي. سمع الأول صوت بكاء الأخير وقال لأحد: تفقد، هل أذن بالندب؟ ثم خرج من بيته فوراً وببدأ يضرب على وجهه ويندب بشدة.

اندلعت معركة بدر بعد الهجرة بعام واحد بالتحديد، وقتل فيها كبار محاربي قيدار وأبطالهم، وفروا مهزومين. وعمّ المأتم في "تيماء"، التي يسميها العرب تهامة. ثم يقول النبي إشعيا: هُوَذَا قَدْ جَعَلْتُهُ شَارِعًا لِلشُّعُوبِ، رَئِيْسًا وَمُوْصِيًّا لِلشُّعُوبِ هَا أُمَّةٌ لَا تَعْرِفُهَا تَدْعُوهَا، وَأُمَّةٌ مَمَّ تَعْرِفُكَ تَرْكُضُ إِلَيْكَ، مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ إِلَهَكَ وَقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ لَأَنَّهُ قَدْ مَجَّدَكَ. (إشعيا ٥٥: ٤-٥)

لقد ذُكرت في هذه العبارة الأمور التالية: (١) سيكون ذلك النبي شاهداً على الناس، (٢) وإماماً للناس، (٣) ومقتدى الناس. (٤) سيؤمن به أقوام لم يسمعوا بأسماء بني إسرائيل ولم يسمع بهم بنو إسرائيل.

يقول القرآن الكريم عن كون النبي ﷺ شاهداً على الناس: ﴿هُوَ سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٩٨) ... لتأخذوا هذه الرسالة إلى يوم القيمة. إذن، الأمر الأول هو أن الكلمات التي وردت في الكتاب المقدس جاءت نفسها في القرآن الكريم.

والأمران الثاني والثالث ورداً في القرآن الكريم عن كونه ﷺ إماماً للناس ومقتداهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّنِكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٢)، أي اتبعوني في هذا المجال فأنا إمامكم ومقتداً لكم.

والأمر الرابع المذكور هو أن الأقوام الأخرى ستؤمن بذلك الرسول، فقد جاء بهذا الشأن في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩)، انظروا الآن أننا المسلمين ننحدر من أقوام مختلفة، وهذه الأقوام

لم تعرف العرب ولم يعرفهم العرب ولكن صاروا جميعاً قوماً واحداً نتيجة الإيمان  
بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثم ورد في سِفَرِ النَّبِيِّ إِشْعَيَّاً: "فَتَرَى الْأَمَمُ بِرَبِّكُمْ، وَكُلُّ الْمُلُوكِ مَجْدَكُ، وَتُسَمَّيْنَ  
بِاسْمٍ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فِيمَا رَبَّكُ ... تُدْعَيْنَ: حَفْصِيَّةً، وَأَرْضُكُ تُدْعَى: بَعْلَةً. لَأَنَّ  
الرَّبَّ يُسَرِّبِكُ، وَأَرْضُكُ تَصِيرُ ذَاتَ بَعْلٍ". (إِشْعَيَّاً ٦٢: ٤-٦) لقد قيل في هذه  
العبارة إن في زمن ذلك الموعود سيُدعى قوم باسم "حَفْصِيَّةً" وأرضها ستُدعى  
بَعْلَةً. وسيُرى الملوك كلهم شوكته، وسيُسمى باسم جديد.

وورد أيضاً: وَيُسَمُّوْهُمْ: شَعْبًا مُقَدَّسًا، «مَقْدِيَّ الرَّبِّ». وَأَنْتَ تُسَمَّيْنَ:  
«الْمَطْلُوبَةً»، «الْمَدِينَةُ عَيْرُ الْمَهْجُورَةُ». (إِشْعَيَّاً ٦٢: ١٢) كل هذه الأمور  
ملحوظة في شخص النبي ﷺ. فمثلاً قيل هنا: (١) سيأتي باسمِ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فِيمَا  
الرَّبِّ. فالإسلام اسمُ جديد اختاره الله تعالى بنفسه على لسان إبراهيم. فقال: ﴿هُوَ  
سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الحقيقة أنه ما من دين سوى الإسلام سماه الله تعالى بنفسه، فلم يسمَ دين  
موسى، ولا دين عيسى - عليهما السلام - بل لم يخطر ببال أتباعهما أيضاً اسمَا  
لأنفسهم قط. ولكن قيل في العبارة المذكورة إن الله تعالى سيسميه بنفسه، وهذه  
الميزة لا توجد إلا في الإسلام وحده.

والأمر الثاني هو أن قومه سينال رضا الله تعالى. فقد قيل إن ذلك القوم سيسمى:  
حَفْصِيَّةً، وهذه الكلمة عبرية وتعني: رضي الله بك. وقد جاء في القرآن الكريم:  
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبه: ١٠٠)، فالقرآن الكريم لا يقول فقط إن الله رضي عن  
المسلمين بل يقول أيضاً إنهم أيضاً رضوا عنه.

الأمر الثالث المذكور هو أن بيته يُدعى بَعْلَةً (أي سُيْحَفَظُ)، وأرضه تُسَمَّى  
ذات بَعْلٍ، أي لن تُدَمَّرَ. وقد جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿وَالظُّرُورِ \* وَكِتَابِ﴾

مَسْطُورٍ \* فِي رَقٍ مَنْشُورٍ \* وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورٍ \* وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ \* وَالْبَخْرِ الْمَسْجُورُ》 (الطور: ٢-٧)، أي نقدم جبل الطور شهادة كما نقدم هذا الكتاب المكتوب الذي سيكتب دائماً، ونقسم بالكعبة التي ستكون عامرة دائماً، وسيأتيها الناس من مسافات بعيدة، ونقدم شهادة السقف المرفع؛ أي الذي يبقى احترامه قائماً إلى الأبد. فقال هنا إن هذا البيت لن يبقى معهوراً فقط إلى الأبد بل ملائين الناس من الحائزين على درجة علياً سيبقون على علاقة به دائماً، ويبقى احترامه قائماً إلى يوم القيمة. باختصار، لقد أخبر الله أن بيت الله سيبقى قائماً، وسيكون أنساً من الدرجة العليا على علاقة به، ولن يجف ينبوع الكتاب ذي العلاقة بهكة.

الأمر الرابع المذكور هو أن ذلك القوم سيسمى مقدساً دائماً. هذا أيضاً ما ادعاه القرآن الكريم حيث قال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامَ بَرَّةٍ﴾ (عبس: ١٦-١٧)، أي سيبقى القرآن الكريم بأيدي أنساً محترمين وصالحين من الدرجة العليا. قد يقول قائل: يمكن أن يتطرق إليهم الفساد في وقت من الأوقات، فكيف سيبقى هذا الكتاب في أيدي المقدسين دائماً؟ فقد رد القرآن الكريم على ذلك أيضاً وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَفُوا إِلَيْهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٤-٣)... وإذا حدث الفساد في المسلمين سيبعث الله تعالى هذا الرسول في قوم آخرين بحسب وعده: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَفُوا إِلَيْهِمْ﴾ وسيبقى هذا القوم مقدساً دائماً لأن المصلحين سيأتون فيه باستمرار.

الأمر الخامس المذكور هو أئمهم سيسمون: "مَفْدِيَ الرَّبِّ". وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، أي أنَّ مُحَمَّداً ﷺ سيقطع السلاسل والأطواق في أرجلهم وأعناقهم ويخلصهم من القيود فيسمون: "مَفْدِيَ الرَّبِّ".

الأمر السادس المذكور هو أن تلك القرية تسمى "مطلوببة"، ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، أي قد قُدِّر إلى يوم القيمة أن يقصدها ويحج فيها من استطاع إليها سبيلاً، لأنها قرية مطلوبة.

## نبوءة النبي حبقوق

ثم نتقدم أكثر ونرى النبي حبقوق يقول: "اللَّهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. جَلَالُهُ عَطَى السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضُ امْتَلَأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ... فُدَّامَهُ دَهَبَ الْوَبَأُ، وَعِنْدَ رِجْلِهِ حَرَجَتِ الْحَمَّى. وَقَفَ وَقَاسَ الْأَرْضَ. نَظَرَ فَرَحَفَ الْأَمْمُ وَدُكَّتِ الْجَبَلُ الدَّهْرِيُّ وَحَسَقَتْ أَكَامُ الْقِدَمِ. مَسَالِكُ الْأَزْلَ لَهُ. رَأَيْتُ حِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلَيَّةِ. رَجَفَتْ شُقُقُ أَرْضِ مِدْيَانَ. هَلْ عَلَى الْأَنْهَارِ حَمَيٌّ يَا رَبُّ؟... الْشَّمْسُ وَالْقَمْرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سَهَامِكَ الطَّائِرَةِ، لِلْمَعَانِ بَرْقِ مَجْدِكَ. بَعْضَ بَحَرَتِ الْأَرْضِ، بِسَخَطِ دُسْتَ الْأَمْمَ. حَرَجَتْ لَحَلَاصِ شَعِيَّكَ، لَحَلَاصِ مَسِيحِكَ. سَحَفَتْ رَأْسَ بَيْتِ الشَّرِيرِ مُعَرِّيَا الْأَسَاسَ حَتَّى الْعُقْنِ. سِلَاهُ. ثَقَبَتْ بِسَهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. عَصَمُوا لِتَشْتِيَّتِي. ابْتَهَاهُمْ كَمَا لَأَكْلِ الْمِسْكِينِ فِي الْحَقْيَةِ... فَمَعَ أَنَّهُ لَا يُزْهِرُ التَّيْنُ، وَلَا يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ... فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرُخُ بِإِلَهِ حَلَاصِي. (حبقوق: ٣)

النبوءة الأولى في هذا النص هي أن الله جاء من تيمان. يقول المفسرون إن معنى تيمان بالعبرية أرض الجنوب، وجزيرة العرب تقع في جنوب فلسطين، ولكن العرب يسمون واديا معينا وادي تهامة، ويحسبون مكة داخل هذا الوادي. لقد جاء في القاموس: "وَتَهَامَةُ، بِالْكَسْرِ: مَكَّةٌ شَرْفَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَأَرْضٌ مَعْرُوفَةٌ". وفي تاج العروس: "وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَهَامَةُ التَّهَامِيُّ، لِكُونِهِ وُلْدَ بِمَكَّةَ". يحسب أهل الكتاب المقدس تيمان أرض الجنوب فقط. ويقولون إن تيما هو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام وقد سكن بلاد العرب. لو لم يحسبوا مكة تهامة إلا أنهم لا ينكرون أنها جزء من جزيرة العرب. ومن

الممکن جداً أن يكون قوم قد سکن هناك في وقت من الأوقات ثم انتقلوا إلى مكان آخر على بعد بسيط منها.

ثم قيل في النص إنه ظهر من فاران، علماً أن فاران أيضاً اسم أحد أبناء إسماعيل الصَّلَوةُ عَلَيْهِ، وكان يسكن جزيرة العرب. ويعترف علماء الجغرافيا الأوروبيون بأن تلك المنطقة كانت في بلاد العرب وكانت قرب فلسطين، غير أن شهادة العرب بهذا الشأن أكثر ثقة من شهادة قوم آخرين. والعرب يسمون الصحراء الكائنة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة "برية فاران". فكما سبق الذكر أنه لو سئل بائعو زهور الخزامي في وادي فاطمة: من أين أتيتم بها؟ لقالوا: أتينا بها من برية فاران. وورد في تاج العروس: "وفي الحديث ذكر جبال فاران، وهو اسم لجبال مكة بالعبراني".

النبوةتان الثانية والثالثة المذكورتان في النص هما: "جَلَّهُ عَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضُ امْتَلَأْتُ مِنْ تَسْبِيحِهِ". هذه النبوة أيضاً تتحقق في شخص النبي صَلَوةُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ، فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا﴾ (الأحزاب: ٥٧)، أي كأن السماء ملئت بشوكته، إذ ليس في السماء مكان ولو بقدر شبر إلا وفيه الملائكة. وما دام جميع الملائكة يصلّون على النبي صَلَوةُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ لذا عُطِّيت السماء بشوكته صَلَوةُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ. ثم قيل: علينا نحن المسلمين أيضاً أن نملأ الأرض بحمده. فيا أيها المسلمين يجب عليكم أن تصلّوا على هذا النبي. كانت مهمتنا أن نملأ السماء بالشوكة فأنجزناها، أما ملء الأرض بالحمد فهو مسؤوليتكم، وعليكم أن تصلّوا على محمد صَلَوةُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ قياماً وقعوداً بحسب ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا﴾.

إذاً، فقد تحقق كلا الأمرتين؛ إذ إن الملائكة يصلّون على النبي في السماء، والمسلمون في الأرض. ليست في الأرض منطقة ليس فيها المسلمون، وبذلك امتلأت الأرض أيضاً بحمده صَلَوةُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ.

النبوءة الرابعة المذكورة هي: قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ. معنى ذلك أنه حيثما توجه ذلك النبي هلك أعداؤه. هذه النبوءة لا يمكن أن تنطبق على عيسى عليه السلام، لأن الوباء لم يذهب قدّامه، بل المسيحيون ذهبوا قدام الوباء بحسب قول المسيحيين. نحن نقول إنه عليه السلام أُنْقَدَ مِنْ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ وَلَكِنَّ الْمُسِيْحِيِّينَ يَقُولُونَ إِنَّ أَعْدَاءَهُ قُتِلُوا عَلَى الصَّلِيبِ.

النبوءة الخامسة هي: على قدميه يمشي الوباء الناري. يقول مفسرو الكتاب المقدس: معنى ذلك أن الوباء يذهب حيثما ذهب. ولكن هذه ليست عالمة عبد الله المقدس. وقد ورد في بعض نسخ الكتاب المقدس ولا سيما العربية: "وَعِنْدَ رِجْلِهِ حَرَجَتِ الْحَمْىٌ". (حقوق: الأصحاح ٣، العبارة ٥) أي حيثما تقع قدمه تخرج من هناك الحمى. فالمراد من الوباء الناري هو الحمى. هذه النبوءة أيضاً تحققت في شخص رسول الله عليه السلام بكل وضوح، إذ قد جاء في الأحاديث أنه عليه السلام حين جاء إلى المدينة كانت الحمى الشديدة متفشية هنالك، حتى كانت المدينة تسمى "يُشَرِّبُ" لكثره تفشي الملاريا فيها. عندما هاجر الصحابة إليها بدأوا يصابون بها كلهم. وهذا الأمر آذى النبي عليه السلام كثيراً. وجاء اسم المدينة المنورة "يُشَرِّبُ" في القرآن الكريم أيضاً. فقد جاء فيه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُو﴾ (الأحزاب: ١٤)، من معاني "يُشَرِّبُ" العيب والهلاك أيضاً. عندما وصل النبي عليه السلام المدينة وأصيب الصحابة بالحمى، قلق رسول الله كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها، فدعا عليه السلام: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ حَلَفٍ كَمَا أَخْرَجْنَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ. ثم قال: وَصَحَّحْنَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ. (صحيف البخاري، كتاب الحج)، وورد في الأحاديث أن الحمى زالت من المدينة بعد ذلك، وقال النبي عليه السلام ما مفاده: لا تسموها يُشَرِّب لأن في هذا الاسم معنى العيب والعقوبة والتوبيق، بل سموها "طيبة". (صحيف مسلم: كتاب الفتن، باب قصة الجساسة)

باختصار، عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة خرجت منها الحمّى، ويُعدّ منا خها جيداً إلى اليوم. فهذا كان ما أُخْبِرَ به في النبوة.

النبوة السادسة المذكورة هي ما مفاده: إنه قام وأحدث الرجفة في الأرض. المعنى الظاهري لهذه الجملة هو كما جاء في ذكر ملامح النبي ﷺ: إِذَا مَسَى تَقْلَعَ كَانَمَا يَمْسِي فِي صَبَبٍ. (سنن الترمذى، أبواب المناقب عن رسول الله). والمعنى الثانى للرجفة هو أن رعبه ﷺ كان كبيراً، فقد قال النبي ﷺ بنفسه: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. (البخارى) أي كان الناس إلى مسيرة شهر يرتجفون بربعه. وجاء هذا الذكر في القرآن الكريم كما يلى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوْلَى الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَنُوا أَهْمَمُ مَا نَعْتَهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُو وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَرِبُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٣) ... إن رعب النبي ﷺ أهلتهم إذ جعلوا يخربون بيونهم بأيديهم وفروا فراراً. فقد رزق الله تعالى النبي ﷺ قوّةً لدرجة أنه حيّثما ذهب لمواجهة العدو كان الناس يرتجفون رعباً منه.

النبوة السابعة المذكورة هي: نَظَرَ فَرَجَفَ الْأَمْمُ. يتبيّن من ذلك أن الأقوام تغزوه ولنّهم يفرون عندما يتصدى لهم. هذا ما حدث تحديداً عند غزوه الأحزاب، وقد أُخْبِرَ بذلك سلفاً في قوله تعالى: ﴿سَيِّهِمْ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٤)، أي ستهاجمه الأقوام مجتمعة ولكنها ستفرّ فراراً.

النبوة الثامنة هي: وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَقَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. المراد من الجبال هم كبار الناس والملوک والحكّام. لقد تصدى قيصر وكسري للنبي ﷺ ثم انظروا كيف محيت آثارهم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ \* مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ \* يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا \* وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا \* فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الطور: ٨-١٢)، أي الأخبار التي نبيّنها عن تقدّم الإسلام سوف تتحقق لا محالة، ولا يمكن لأحد أن يحول دون تحقّقها... إذن، فالقرآن الكريم يؤيد النبوة المذكورة آنفاً.

يبدو أن نبوة النبي حبوق كانت في بال الناس لأن القرآن الكريم يقول في بيان مشهد القيامة: ﴿مَنْ أَغْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَكْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (طه: ١٠١) أي أعطيناك قرآناً ومن أنكره يواجه عقوبة إنكاره يوم القيامة. ثم يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا \* فَيَدْرِهَا قَاعًا صَفَصَفًا \* لَا تَرَى فِيهَا عِوْجًا وَلَا أَمْنًا \* يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عَوْجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٦-١٠٩) .. أي لن تسمعوا صوتاً سوى صوت مؤدب.

يقول المفسرون إن هذه الآيات تعني أن الجبال تُنسف يوم القيامة، ولكن القيامة ذُكرت من قبل في هذه الآيات وقيل فيها إن الأرض والسماء لن تبقيا حينذاك. فإذا لم تبق الأرض والسماء فما معنى ذكر الجبال على حدة؟ معنى ذلك أنه عندما أُعلن أن الحكومة الإسلامية ستقوم، سُئل: ماذا سيكون مآل هذه الحكومات الكبيرة الموجودة الآن؟ فقال عليه السلام في الجواب: ستُدمر تدميراً. يتضح من ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أنه ليس المراد هنا هو العالم الآخر، لأن المؤمنين يتبعون داعياً مثله في هذا العالم. وجاء عن الكفار أنهم سيودون الصحبة في الآخرة ولكنهم سوف يُرددون. ثم قال عليه السلام: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَيِّلًا﴾ (الإسراء: ٧٣). أقول: كيف سيؤمن الكفار يوم القيامة؟ بل سيقولون ضالين هنالك أيضاً، فكيف إذاً يتبعون الداعي؟ فالمراد هو أن الحكومات الكبيرة ستُدمر، والذين يناصبونه عليه السلام العداء الآن سيؤمنون. فحين فُتحت مكة آمن الأعداء كلهم. إذًا، المراد من الجبال هم كبار الناس وزعماء القوم والسلطين العظام، فكان انتشار الإسلام مقدراً نتيجة هلاكهم وتدمير نظامهم.

النبوة التاسعة هي: رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلَيَّةً. رَجَفَتْ شُقُّقُ أَرْضِ مِدْيَانَ.

ورد في الترجمة الإنجليزية Did Tremble لبيان معنى: رَجَفَتْ. والآن يجب أن نرى معنى "كوشان"؟ يقول أصحاب الكتاب المقدس إن المراد قبيلة ساكنة في "كوش"، وهي اسم منطقة في العراق. كذلك ذُكر في الكتاب المقدس أن كوش كان اسم والد

نمرود. وثبتت من التاريخ أن قبيلة كوش حكمت العراق إلى ٦٠٠ عام. وأما "مِدْيَان" فهي مدينة قرب شاطئ البحر في شمال جزيرة العرب وتقع في الطريق من مصر إلى الشام أو إلى جزيرة العرب. وسميت في القرآن الكريم "مَدْيَن". وكانت في عهد النبي ﷺ في حكومة قيصر، وتحت إقليم الشام. وهو جم هذان البلدان في عهد الخليفة الثاني للرسول ﷺ أي في عهد عمر رض ودُمرت الحكومتان وأقيمت بدلاً منهما حكومة إسلامية، علماً أن انتصار عمر رض كان انتصار رسول الله ﷺ في الحقيقة، لأنه ﷺ قال بأنه أُعطي مفاتيح كنوز قيصر وكسرى. وقد وردت رواية عن غزوة الأحزاب أن صخرة لم تتكلسْر فذكر الصحابة هذا الأمر للنبي ﷺ فجاء فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة. (مسند أحمد بن حنبل، والنسائي، نقلًا عن شرح الزرقاني على المawahب اللدنية)

باختصار، قيل في نبوة النبي حقوق إن النبي القادم سيفتح الشام وال伊拉克 والمدائن. يقول القرآن الكريم في ذكر هذه النبوءات: ﴿فَلَنِّلْمَحَّلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَنُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوْنَ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلُّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلٍ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ١٧).

لقد قيل في هذه الآية الكريمة إن حرب العرب قد انتهت الآن وستغزو الآن أقوام من الخارج وهي أكثر من العرب قدرة على الحرب، وستواجهونهم، والنتيجة النهائية لهذه المواجهات ستكون اضطرار تلك الأقوام للاستسلام. يثبت من ذلك أنه كان ضروريًا أن تندلع الحروب خارج الجزيرة العربية أيضًا، فقد حاربت جيوش المسلمين قيصر وكسرى وجعل الله تعالى الإسلام غالباً.

النبوة العاشرة هي: الشَّمْسُ وَالْقَمْرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سَهَامِكَ الطَّائِرَةِ، لِمَعَانِ بَرْقٍ مَجْدِكَ. بِعَضَ بَحْرَتِهِ فِي الْأَرْضِ، بِسَخَطٍ دُسْتَ الْأَمَمَ.

إن توقف الشمس والقمر كناء عن انفكاك نظام الحكومات الروحانية والمادية.

الشمس يَعْبَرُ بها عن حكومة دنيوية، والقمر تعبير عن حكومة روحانية. عندما فُتحت خبر وتنزّق النبي ﷺ من السيدة صفية التي قالت له: كنت قد أخبرت سلفاً أنني سأتزوج منك. سأله ﷺ: كيف ذلك؟ قالت: كنت قد رأيت في المنام أن قمراً سقط في حضني، فذكرت ذلك لأبي فلسطيني وقال: أتريدين أن تتزوجي من ملِك العرب؟ (الإصابة في تمييز الصحابة) إذن، المراد من القمر هو الحكومة الدينية، ومن الشمس الحكومة الدنيوية. وعليه فكان معنى النبوة المذكورة أن النظمتين الروحاني والمادي الموجودتين قبل النبي ﷺ سوف يتمزقان، وهذا ما حدث بالفعل إذ تمزق النظمتين السابقتين بعد بعثة النبي ﷺ، وانقطعت البركات الروحانية السابقة كلها بعد بعثته ﷺ. ومن الناحية المادية أيضاً دمر أتباعه ﷺ الحكومات كلها لأي بلد كان وغيروا نظام العالم كله. والعبارة التالية للكتاب المقدس تفسر ذلك.

النبوة الحادية عشرة هي: حَرَجْتَ لِخَلَاصِ شَعِيلَةَ، لِخَلَاصِ مَسِيحَكَ. سَحَفْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشَّرِيرِ مُعَرِّيَا الْأَسَاسَ حَتَّى الْعُقَيْقَ. سِلَاهُ. ثَقَبْتَ بِسَهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. عَصَفُوا لِتَشْتِيَّيْ. ابْتَهَاجُهُمْ كَمَا لَأَكْلِ الْمِسْكِينِ فِي الْحُقْيَةِ.

قيل في هذه العبارة إن ذلك الموعود سيخرج للحرب لينقذ قومه الضعيف من الظالمين. وقيل أيضاً إن العدو أيضاً سيخرج للحرب لأنه ورد: "عَصَفُوا لِتَشْتِيَّيْ" ، أي سيخرج هذا الموعود من جانب، ومن جانب آخر سيخرج عدوه وستتم المواجهة. ويحاول العدو أن يبيد قوماً فقيراً وضعيفاً خدعةً، ولكنه سيriad بنفسه وسينتصر الموعود. انظروا الآن كيف ذكرت بالتفصيل ظروف النبي ﷺ ووقائع معركة بدر! خرج أهل مكة لمبارزة النبي ﷺ تحت قيادة عتبة، وكان أبو جهل نائب القائد. حين قُتل عتبة أخذ أبو جهل القيادة بيده. باختصار، خرج أهل مكة لإبادة النبي ﷺ والمؤمنين

به. وعندما علم ﷺ نيتهم خرج هو أيضاً كيلا يهاجم العدو المدينة ويدمرها. يقول الله تعالى في القرآن بهذا الشأن: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٦)، ويقول أيضاً: ﴿فَقَاتَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُرَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ تَنْكِيلًا﴾ (النساء: ٨٥)، أي أخرج أنت يا محمد ﷺ سواء خرج غيرك أم لم يخرج، وحرّض المؤمنين أيضاً على الخروج، فإن خرجوا استحقوا الثواب وإلا فالعذاب، ولكن أخرج أنت في كل الأحوال.

لقد قيل في النبوة المذكورة آنفاً إن الكفار خرجوا معذبين بنية قتل الضعفاء بالهجوم عليهم خفية. وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٤٧).

أي أيها المسلمين لا تكونوا كالكفار الذين خرجوا بمناسبة بدر مستكرين... كانوا يُظهرون أنهم خرجوا لإنقاذ قافلة ولكنهم كانوا ينونون تدمير المدينة المنورة. يقول بعض المؤرخين إن النبي ﷺ كان قد خرج لنهب قافلة، والعياذ بالله. فإذا كان الأمر كذلك وخرج الكفار لإنقاذهما فما معنى خروجهم مستكرين، ولماذا أظهروا شيئاً وأبطنوا شيئاً آخر. الحق أنهم كانوا يودون أن يلتحقوا بالإسلام ضرراً. ولكن كيف يتضرر الإسلام بإنقاذهما القافلة فقط؟ الأمر غريب حقاً إذ يقول الكتاب المقدس إن العدو خرج خفية وكان يريد أن يهلك غيلةً هذا القوم الضعيف. والقرآن أيضاً يصدق بيان الكتاب المقدس قائلاً: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولكن المؤرخين يقولون إن الكفار خرجوا لإنقاذهما قافلة وخرج رسول الله لنهايتها. إن بيان الكتاب المقدس والقرآن الكريم هو هو، أما ما يقوله المؤرخون فباطل تماماً. لقد اتخذ الكفار إنقاذهما عذراً فقط بينما كانوا ينونون شن الهجوم على المدينة ليهلكوا المسلمين.

## النبوة عن قتل أبي جهل تتحقق بعظامه خارقة

النبوة الثانية عشرة: الآن أتناول من تلك النبوة جملتين تركتهما من قبل وهما: سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًّا الْأَسَاسَ حَتَّى الْعُنْقِ. سِلَامٌ. ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ.

لقد استُخدمت في هذه النبوة استعارات لدرجة يصعب عندها فهم المضمون ظاهرياً. ولكن عندما نتأمل فيها يتضح المعنى. من الواضح أنه ليس للأساس عنق كما ليس لبيت الشرير رأس. فلا بد من أن نستنتج هنا معنى آخر. فعندما نقرأ الجزء الثاني نجد فيه شرحه. ويتبين أن المراد من رأس البيت هو زعيمه. وإذا اتضح هذا الأمر سهل فهم المراد من تعري عنق الأساس أيضاً. فلو تأملنا في هذه النبوة من هذا المنطلق لوجدنا أن الجملة الأولى الواردۃ فيها هي: سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًّا الْأَسَاسَ حَتَّى الْعُنْقِ. والآن يجب أن نرى ما معنى "تعري الأساس حتى العنق".

يقول أتباع الكتاب المقدس إن معناه التعري إلى الأساس. أقول: ما دامت الكلمة الأساس مذكورة فما معنى القول "حتى العنق" ، إذ ليس هناك تعبير متداول يعبر به عن "أساس العنق". فما دام العنق مذكوراً فلا بد من الاعتراف بأن الكلام يتعلق بإنسان. والأساس في العرف يطلق على ما كان في التحت وما يوضع عليه شيء. وفي الإنجليزية يقال للأساس *Base*، ويُطلق على أساس الرأس أيضاً حيث يلتقي الرأس مع العنق. والكلمة *Base* نفسها مستخدمة في العبرية أيضاً. ولما كان الجزء الأسفل من الرأس موضوعاً على العنق لذا فهو أساس. والمعنى هو أن الجزء الأسفل سيعري إلى العنق. والمراد من رأس بيت الشرير هو زعيم البيت لأنه ليس لبيت الشرير رأس. فكان المعنى أن هذا الموعود سيعري رأس زعيم قبيلة معادية إلى العنق ثم يقطعه من الأساس. وهذا المعنى تصدقه الجملة التالية أيضاً حيث جاء فيها: ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. يتبين منها أن الجملة السابقة تتحدث عن كيفية قتل

عدٍّ. فلا شك أن معنى تعرية الأساس إلى العنق هو تعرية الرأس إلى القفا. وقيل هنا إن ذلك النبي عندما خرج من جانب الإنقاذ الضعفاء وخرج العدو من جانب آخر مستكيرا بنية قتل الضعفاء اندلع القتال بينهما. وفي هذا القتال قتل ذلك النبي أو أحد أتباعه زعيم الأعداء بسلاحه هو معريّا رأسه إلى العنق.

والآن نرى هل حدث في معركة بدر التي سبق ذكرها حادثٌ من هذا القبيل حيث قُطع رأس زعيم من القفا بعد تعريته عنقه؟ فحين نقرأ وقائع معركة بدر نجد فيها هذا الحادث حرفياً. فقد ورد في كتب التاريخ أنه عندما بدأت معركة بدر واصطفَ الصحابة، كان بينهم طفلان صغيران. إن قانون الحرب هو أن الأبطال البواسل يهتمون بأن يكون على يمينهم ويسارهم أبطال بواسل، ليسهموا في الحرب بكل قوة وشدة بغير خوف ووجل. يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إن قلوبنا كانت زاخرة بما صَبَ علينا الكفار من المصائب فيما مضى وكنا نريد أن ننتقم منهم اليوم جيداً، ولكن عندما رأيْتُ عن يميني ويساري هذين الفتىَن ثبَطَ همي وقلت في نفسي: كيف سأقاتل وجانيَ ضعيفان. وما لبث أن خطرت بيالي هذه الفكرة إلا وغمزني أحدهما بمرفقه وهمس في أذني حتى لا يسمع صاحبه وقال: يا عم سمعت أن أبا جهل شير جداً و يؤذى المسلمين كثيراً، أين هو؟ أريد أن أقتله. يقول الراوي إن فكرة قتل أبي جهل لم تخطر حتى بيالي مع بسالي وشجاعتي. بينما كان الطفل الأول يكلمني إذ غمزني صاحبه بمرفقه وهمس في أذني: يا عم أين أبو جهل الذي يؤذى المسلمين، أريد أن أقتله. يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأنني استغربت من كلامهما ما بعده استغراب. بعد بدء الحرب بفترة وجيزة قُتل عتبة وصار أبو جهل قائداً للجيش. فأشرت إليه بإصبع، وما إن أشرت إليه إلا وشق الفتىَان طريقهما من وسط الجيش وانقضا عليهما كما ينقض الصقر على فريسته وأسقطاه جريحاً. هجم عليهما حرس أبي جهل وقطعوا يد أحدهما فكانت تتدلى بحبل ففصلها الطفل بوضع قدمه عليها حتى لا تمنعه من القتال.

سقط أبو جهل جريحاً ولكنه ما كان قد مات إلى وقتها. حين سُأله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا أرى أثراً لأبي جهل، خرج عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما للاستطلاع، ووجد أبو جهل طريحاً جريحاً. قال: يا عدو الله هل أصابتك الذلة اليوم أم لا؟ قال: أية ذلة إذا قتل الزعيم قومه؟ فهاجمه عبد الله بن مسعود، ولما كان سيفه صغيراً - وكان لدى أبي جهل أيضاً سيفاً - لم ينجح في قتله بل أصابت سيفه يد أبي جهل وسقط سيفه من يده. أخذ عبد الله بن مسعود سيف أبي جهل وهم بقتله فقال أبو جهل نظراً إلى الموقف: أنا زعيم القوم فأرجو أن تقطع عنقي طويلاً حتى يخاف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظراً إليه. غضب عبد الله بن مسعود على ذلك أكثر وأخذ بعنقه من الوراء وعراه بإزالة الخوذة عنه وقطعه من أقرب ما يكون من الرأس بسيف أبي جهل نفسه، فلم تتحقق أمنيته الأخيرة أيضاً. وبذلك تحققت حرفياً نبوة النبي حقوق القائلة: سَحْفَتْ رَأْسَ بَيْتِ الشَّرِّيرِ مُعَرِّيَ الْأَسَاسَ حَتَّىَ الْغُنْقِ. سِلَادَةُ تَقْبَتْ بِسَهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ.

بقي الآن هناك أمران جديران بالتأمل، أحدهما: جاء في النبوة أنك قتلت العدو بينما قتله عبد الله بن مسعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الجواب هو أن عمل أتباع النبي يُعدّ عمل النبي في الحقيقة. والأمر الثاني هو، جاء في النبوة الكلمة السهام بينما قتله عبد الله بن مسعود بالسيف. والجواب عليه أن الكلمة الورادة في الترجمة الأردنية للكتاب المقدس هي "الخشب المعوج" وفي الفارسية "عصا"، وفي العربية "سهام". وبيدو من هذا الاختلاف أن الكلمة الأصلية العبرية لا تعني الخشب ولا السهام ولا العصا بل تعني السلاح، وقد اختلف المترجمون في ترجمتها. وهذا ليس قولي فقط بل يقول أحد مفسري الكتاب المقدس في تفسيره:

This were later translated thou didst smite through with his own weapons the head of his chieftains.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> The Old Testament with a brief commentary by varios authors Londo, Habakkuk Chapter 3 Verse 14.

أي المعنى الصحيح هو أنه عنقه قُطع بسلامه هو.

النبوة الثالثة عشرة هي: فَمَعَ أَنَّهُ لَا يُزْهِرُ التَّيْنُ، وَلَا يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرْوُمِ... فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ. قيل فيها إن ذلك النبي لن يكون من بني إسرائيل. وقد ضُرب مثل بني إسرائيل في الكتاب المقدس بالتين، فقد جاء في الإنجيل أن المسيح لعن شجرة تينٍ كيلا تحمل ثمارا. (متى ٢١: ١٩ و مرقس ١١: ١٢) ويقول المفسرون المسيحيون في تفسير ذلك إن علاقة اليهود مع الله تعالى ستقطع. معنى ذلك أن النبي حبقوه يقول: مع أن اليهود -وهو منهم- سيهلكون، فإنه مع ذلك يحب ذيوع اسم الله تعالى بواسطة ذلك النبي مقابل تقدم قومه، وأنه يقبل دمار قومه بكل سرور مقابل جلال يظهر بواسطة محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

### نبوة المسيح الناصري صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثم نذهب إلى ما بعد بضعة قرون أخرى، أي إلى زمن المسيح الناصري صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فنراه يقول ضاربا مثل الكرم:

فَمَتَّ جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَامِينَ؟ \* قَالُوا لَهُ: أُولَئِكَ الْأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلَّا كَرِدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُمُ الْأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا \* قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! \* لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ \* وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّصُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْخَفُهُ! (إنجيل متى ٢١: ٤٠-٤٤)

يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضوع آخر: لَكِيٰ أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ حَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لَأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيَكُمُ الْمُعَزِّي، وَلَكِنْ إِنْ دَهْبَتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. وَمَتَّ جَاءَ ذَاكَ يُبَيِّكِثُ الْعَالَمَ عَلَى حَطِّيَّةٍ وَعَلَى بَرٍ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ: أَمَّا عَلَى حَطِّيَّةٍ فَلَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِي. وَأَمَّا عَلَى بَرٍ فَلَأَيِّنِي دَاهِبٌ إِلَيْ أَيِّي وَلَا تَرَوْنِي أَيْضًا. وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلَأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمَ قَدْ دِينَ. إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لَا قُولَ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَسْتَطِيُونَ أَنْ

تَحْتَمِلُوا الْآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لَأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخَبِّرُكُمْ بِأُمُورٍ آتَيْتُهُ. ذَاكَ يُمْحِدُنِي، لَأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخَبِّرُكُمْ. (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١٦ : ٤-٧)

في هذه النبوءات ذكر المسيح الناصري اللَّهُمَّ الأمور التالية: (١) سيأتي مثيل المسيح لأن مجيء الله يدل على مجيء النبي مشرع مثيل موسى. (٢) ذلك النبي لن يكون من بني إسرائيل. (٣) سيأتي في أمته صلحاء ويكونون وسيلة لهدایة القوم. (٤) ذلك الموعود سيكون حجر الزاوية، أي ستم عليه الشرائع كلها. (٥) سوف يواجه أقواماً آخرين، ولكن سواء أهاجمه قوم أو هاجم هو قوماً سيكون هو الغالب والمنتصر في كلتا الحالتين. (٦) يكون معزياً. (٧) يُعَدُّ العالم مقصراً في ثلاثة أمور؛ بسبب خطيئة، أي سيشجب الناس بسبب عدم إيمانهم باليسوع. أخذت الخطية هنا بمعنى محدود، والمراد هو أنه سيخطئ قوماً على إنكارهم المسيح، وقوماً آخرين على بُرٍّ، أي على خذلانهم للمسيح، ويُعَكَّرُ قوماً ثالثاً على دينونه، أي يُعَكَّرُ ذوي العلاقة بالشيطان. باختصار، عُدَّ اليهود مجرمين بسبب إنكارهم المسيح، والنصارى بسبب غلوتهم بحقه، والأقوام الأخرى بسبب علاقتهم بالشيطان. فيُعَدُّ العالم كله مجرماً عند مجيهه. (٨) سيقول ما لم يقله أحد قبله. (٩) سيقول الحق كله ولن تبقى حاجة إلى أي حق بعده. (١٠) سيحتوي كتابه على كلام الله فقط الذي سيفتح طريقاً للتقدم الروحاني في المستقبل. (١١) يُرِئِ كتابه ساحة المسيح اللَّهُمَّ. (١٢) ويقدم دليلاً عملياً على صدقه، أي يتحقق كلامه، وبذلك يثبت كونه واصلاً إلى الله. فكل هذه الأمور تحققت في شخص رسول الله اللَّهُمَّ بكل جلاء. الأول: كان اللَّهُمَّ مثيل موسى، وادعى أن الله تعالى قد تجلى فيه. فيقول الله بِسْمِ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَاِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَاِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ﴾ (الفتح: ١١).

الأمر الثاني المذكور هو أن ذلك الموعود لن يكون من بني إسرائيل، ولم يكن النبي

اللَّهُمَّ من بني إسرائيل بل كان من بني إسماعيل.

الأمر الثالث المذكور هو: تكون هناك وسائل هداية قومه دائماً. يقول الله تعالى مشيراً إلى هذا الأمر: ﴿وَأَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يُلْحِفُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٤)، أي سيعشه الله تعالى في قوم يأتون فيما بعد. وجاء في الأحاديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهِنَّهُ الْأُمَّةَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَيَّةٍ مِنْ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا. (سنن أبي داود، كتاب الملاحم)

الأمر الرابع هو أن ذلك الموعود سيكون حجر زاوية رفضه البناءون. وهذا صحيح من ناحية أخرى أيضاً إذ أن بني إسرائيل كانوا يُعدّون بني إسماعيل محرومي الإرث دائماً. ولكن رسول الله ﷺ أدعى بنفسه أنه حجر زاوية فقال: إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَّةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ الْلَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا الْلَّبِنَةُ وَأَنَا حَاتِمُ النَّبِيَّينَ. (صحيح البخاري، كتاب المناقب)

إن معنى حجر الزاوية أنه يجعل الجدارين يلتقيان. المراد من الجدار في القرآن الكريم هو الجماعة الروحانية. فقد ضرب موسى عليه السلام في سورة الكهف مثل بني إسرائيل بالجدار. ولكن يجب أن نرى ما المراد من الجدارين اللذين ألقهما النبي ﷺ ببعضهما البعض بصفته حجر الزاوية. الجدار الأول هو جدار الأنبياء السابقين الذين كانوا يتبعون شرائع مختلفة. والجدار الآخر كان للقرآن، والنبي ﷺ سبب للاتصال بينهما، لأن أمته ﷺ تؤمن بالأنبياء السابقين بواسطته. وب بواسطته يخلق المبعوثون القادمون أيضاً علاقتهم بالأنبياء السابقين. انظروا مثلاً أنه ليست بين الأقوام الأخرى علاقة متبادلة، بينما علاقة المسلمين بأقوام العالم كلها قائمة بواسطة رسول الله ﷺ. ليس لأي قوم سوى الهندوس علاقة مع كرشنا عليه السلام، بينما علاقة المسلمين قائمة به أيضاً بواسطة رسول الله ﷺ، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، لو لم يتبيّن بواسطة رسول الله أنه قد بعث الأنبياء في كل قوم لما علمنا أن كرشنا عليه السلام كان من الله تعالى. ثم انظروا إلى أنه لا

علاقة لليهود مع أتباع زرادشت، الذي هو جدار قائم بحد ذاته، ولكن النبي ﷺ أدى إلى التحاق كل جدار من هذا النوع. إن جداراً أقامه زرادشت مرتبط بجدار الإسلام، كذلك يرتبط الجدار الإسلامي بجدران الأنبياء الآخرين. إذن، إن معنى حجر الزاوية هو أنه ﷺ سوف يقيم الربط بين الأمم السابقة والقادمة. كانت الجدران السابقة قائمة منفصلة بحد ذاتها، فكان جدار موسى منفصلاً وجدار عيسى منفصلاً وجدار كرشاً منفصلاً. ولكن النبي ﷺ صار حجر زاوية كل جدار ووصل بينها كلها بالقول إن الأنبياء كلهم من الله تعالى ومرتبطون جميعاً بسلسلة واحدة.

الأمر الخامس المذكور هو أنه ستتم المواجهة بينه وبين العالم كله، فيهاجم ويهاجم، ولكنه يكون هو المنتصر في كلّي الحالتين. لم يذكر في هذه العبارة أنه ينتصر بل قيل إنه إذا هاجم فسينتصر وإذا هاجمه الأعداء بالعدة والعتاد يكون هو المنتصر. فقد غزا العدو في معركة الأحزاب وأُحد وبدر وسُحق. وغزا النبي ﷺ في معركة فتح مكة وخير وتبوك وسُحق العدو هذه المرة أيضاً.

الأمر السادس المذكور هو أنه سيكون معزياً. يجب أن نرى بهذا الشأن هل كان العالم بحاجة إلى التعزية قبل بعثة رسول الله ﷺ أم لا؟ وإذا كان العالم محتاجاً إليها فهل كانت أديان تلك الأقوام قادرة على تعزيتهم؟ فيتبين من التأمل في الموضوع أن تلك الأديان لم تكن مدعاة لتعزية أتباعها، وفي زمن النبي ﷺ بالذات كانت الأديان كلها عاجزة عن ذلك ولم يكن أحد من أهلها حائزًا على سكينة قلبية. فلم يكن أيّ قوم قبل بعثة النبي ﷺ قائلين بالغفو عن الذنب. كان الهندوس يقولون إن الإله لا يستطيع أن يعفو عن ذنب أحد، بل يعاقب على كل ذنب صغيراً كان أم كبيراً ويضطر الإنسان إلى المرور بدوامة التناصح. وبعد تحمل العقوبة على كل ذنب أيضاً بالمرور بدوامة التناصح يُعيق الإله ذنبًا واحدًا على الأقل، ويحرم صاحبه من النجاة مغبة له. فلم يكن للهندوس أن يطمئنوا بدينهم. كان أتباع الزرادشتية والمسيحية يعتقدون بأبديّة الجحيم نتيجة اعتقاد أنه إذا صدر من أحد ذنب مرة سيدخل

جحيمًا أبدية لا محالة. فما كان لهم أن يطمئنوا. كما لم يعُز اليهود أحدًا بل قالوا إن النجاة مقتصرة على اليهود حصرا والآخرون كلهم معرضون للهلاك.

باختصار، كان العالم كله قبلبعثة النبي ﷺ فاقد الأمل كليا. ومن الأديان ما كان يلقي بأتباعه في هوة اليأس من البداية، ودين آخر يُسقط أتباعه في الزوبعة في وسط المسيرة، وغيره يلقي بأتباعه في جحيم أبدية في نهاية المطاف. ولكن النبي ﷺ عَزَّى الجميع كما يلي: (١) الذين ما كانوا يعتقدون بالغفوة عن الذنب قال لهم بأنه لا حاجة إلى المرور بدوامة التناصح، بل الله تعالى رحيم وكريم ويعفو عن الذنوب. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فُلْ يا عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَفْنِطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٤٥)، أي يا أيها الرسول قل للناس جميعا إن الله تعالى جعلك معزيا، لذا فقل للذين صدر منهم الذنب ألا ييأسوا من رحمة الله وتوبوا إلى الله يغفر لكم لأنه غفور رحيم. (٢) ثم توجه إلى أقوام يقولون: الذين ماتوا مذنبين لهم جهنم أبدية، وأخبرهم يقول الله تعالى: ﴿رَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، قوله: ﴿أَمْهَ هَاوِيَةً﴾ (القارعة: ١٠). أي إن جهنم بمنزلة الأُمّ. لا يبقى الجنين في بطن الأم إلى الأبد بل يبقى فيه ما دام ناقصا، وعندما يكمل يخرج من البطن. فيقول الله تعالى إن جهنم مثل الأُمّ، وعندما تزول أو ساخ الذين أُلْقُوا فيها ويتطهرون سندوهم إلى الجنة، لأن جهنم مكان للتكميل والعلاج، وفي نهاية المطاف يحظى الجميع بعفوة الله. هكذا عَزَّى النبي ﷺ أقواما كانت تعتقد أن المذنبين سيفون في جهنم أبدية بعد ماتهم.

(٣) ثم كانت هناك أقوام تقول: لا نجاة لمن سوانا، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعرّيهم أيضًا بأن أفكارهم هذه خاطئة، مثل قول اليهود جهلا منهم إنه لن ينال النجاة أحد سوانا، وأن النجاة في نصيحتنا فقط كابرًا عن كابر. فقال الله تعالى: من الخطأ الاعتقاد بأن النجاة خاصة بقوم، بل النجاة ييادنا وبابنا مفتوح للجميع. فقال

بِسْمِ اللَّهِ: ﴿فُلُونَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩)، إذن، الهدایة ليست حکراً على قوم دون قوم، بل كل قوم يستحقها على قدم المساواة. قد ينشأ في قلب الإنسان خوف فيقول في نفسه: حسناً، ها قد جاء النبي ﷺ وبواسطته فتح باب النجاة على الجميع، ونحن متندون له على ذلك، ولكننا نحب آباءنا أيضاً ونقلق على ماذا ستكون حالتهم؟ تقول المسيحية إنهم سيدخلون جهنم لأنهم لم يؤمنوا بالكافرة. يقول اليهود إنهم سيدخلون جهنم لأنهم لا نجاة لأحد سوى اليهود. يقول أتباع الزرادشتية والهندوس أيضاً إنهم يدخلون جهنم. ولكن الله تعالى أمر محمداً ﷺ أن يعلن: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، أي لا تقلقاً بشأن آباءكم فقد أرسلنا الرسل في زمنهم، فإن آمنوا بهم فسيدخلهم الله الجنة. وهكذا عزّاهم النبي ﷺ عن آباءهم.

والآن تبقى وسوسة أن الإنسان لا يمكن أن يجتنب الذنب، فكيف ينال النجاة؟ فامر ﷺ أن يزيل هذه الوسوسة أيضاً ويعلن لهم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَفْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ عَيْرٌ مَّنْوَنٌ﴾ (التين: ٧-٥)، أي طمئنهم يا محمد ﷺ وأعلن أن الذي يقول بأن الفطرة سيئة فهو يكذب لأننا خلقنا الإنسان بفطرة حسنة، ولكن عندما يخطئ الإنسان نرسله إلى درجة دنيا، وإنما نعطيه إنعامات كبيرة. الذنب شيء يأتي من الخارج، والأصل هي الحسنة المودعة في الإنسان.

باختصار، هكذا عزّى النبي ﷺ الجميع. والذين يعتقدون أن باب النجاة موصد دونهم فقد دعاهم ﷺ ليدخلوا ملکوت الله، ومن كانوا يظنون أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا صالحين أبداً فقد أعطاهم أمل الحسنة. ومن كان يحسب أنه إذا ارتكب المرء ذنباً مرة فلا خلاص له من مغبته، فقد أعلن ﷺ لهم أن فرصة التوبة مهيئة لهم. ومن كانوا يظنون أنهم إن ماتوا مذنبين فسيدخلون جهنم أبداً، فأخبرهم النبي ﷺ أن جهنم مرحلة عابرة فقط. فكان ﷺ معزّى العالم بالمعنى الحقيقي.

ما ذُكر إلى الآن كان يتعلق بالآخرين، ثم جاءت نوبة أتباعه عليه السلام فأعلن اطمئناناً لهم أمر الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهُمْ بِهَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبه: ١٠٣)، أي عندما يُعرّي ذلك الرسول العالم سيقول أفراد أمته بأننا مطمئنون سلفاً بما الذي سنحصل عليه؟ فقال عليه السلام: خذ منهم صدقات من أجل المساكين وهكذا تطهّرهم، وادع لرفع مدارج تقدّمهم؛ لأنّ الذي تدعوه له سيحظى بالعزاء والطمأنينة الكاملة. وقد قدر الله تعالى أن يسمع دعاءك لأنّه سميع. وإذا قال قوم يأتون فيما بعد: ماذا لنا؟ فقل لهم إن الله علیم، وإن ذلك الدعاء موجود لكم الآن أيضاً، ويمكنكم أن تناولوا نصيباً منه، وبذلك أجري سلسلة التعزية لهم أيضاً.

الأمر السابع المذكور هو أن ذلك الرسول سيُبَكِّتُ العالم على ثلاثة أوجه: (١) على خطيئة. (٢) على بَرٍ. (٣) على دينونة، أي (أ) سيقول لقوم إنكم أخطأتم بإنكاركم المسيح فصرتم مجرمين. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٩)، وكذلك قال ﴿غَيْرُ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي عُدّ منكرو المسيح عليه السلام مغضوب عليهم واستعيد منهم. (ب) بَكَّت عليه السلام على بَرٍ، لأن النصارى اخْتَدُوا المسيح عليه السلام، ولكن تركتم السبيل قائلاً ما مفاده: صحيح إنكم اخترتم بِرًا أي آمنتُم باليسوع عليه السلام، ولكن تركتم السبيل بعد ذلك وتهتمُّ في متأهات شاسعة الأبعاد. لذا سَيَّتم ضالين كما هو واضح من: ﴿غَيْرُ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، (ج) وبَكَّت عليه السلام الأقوام الأخرى على دينونة، لأنّهم ارتكبوا الشرك، وتركوا طريق العدل أي التوحيد لذلك اعتُبر الشرك في القرآن ضد العدل. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام: ٩٢)، أي لم يقدروا صفات الله كما يجب. وقال عليه السلام في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَمَمْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْمُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٣)، وجاء في الأحاديث أن الصحابة عليهم السلام قالوا للنبي عليه السلام: يا رسول الله، أئْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قال: لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشَّرُكُ.

باختصار، بحسب هذه النبوة عَدَ النَّبِيُّ كَلِيلٌ كُلُّ قَوْمٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ "المغضوب عليهم" لكونهم مثيل اليهود أو "الضالين" لكونهم مثيل النصارى. أما الأقوام التي لم تكن من أهل الكتاب فقد استخدم الدينونة بحقهم إذ قال بأنهم لم يعدلوا في حق الله بل انحرفو عن الصراط المستقيم بارتکابهم الشرك. إذن، إن كلمة الذنب المستخدمة في الإنجيل ترافق التفريط، والبر يرافق الإفراط، والدينونة ترافق العدول عن التوحيد. وقد عَدَ القرآن الكريم أيضاً ثلاث فئات.

الأمر الثامن هو أنه سيقول ما لم يقله أحد قبله. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آباؤُكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٢)، علمًا أن موسى عليه السلام أيضاً من هؤلاء الآباء.

الأمر التاسع المذكور هو أنه سيقول كل الحق، ولن تكون هناك حاجة إلى أي حق بعده. وهذا الإعلان أيضاً جاء في القرآن الكريم في: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَكْمَلْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ (المائدة: ٤).

الأمر العاشر هو أنه لن يقول شيئاً من عنده بل سيقول ما يسمعه، أي سيكون كلامه مبنياً على الإلهام كلياً. هذه النبوة تنطبق على القرآن الكريم فقط، لأنه جاء في الإنجيل والتوراة كلام الحواريين أيضاً. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥)، وجاء فيه أيضاً: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبه: ٦)، أي إذا طلب أحد من المشركين الملاذ وقال بأنه يريد أن يسمع كلام الله فناده ليسمعه.

الأمر الحادي عشر هو: ذَاكَ يُمْجِدُنِي. هذا أيضاً ملحوظ في شخص النبي عليه السلام، فقد جاء في سورة البقرة: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدْسِ﴾ (البقرة: ٨٨)، وجاء أيضاً: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُيَّهُهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ احْتَلَفُوا فِيهِ لَفَيْ شَكٍّ مِنْهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عَلِمٍ إِلَّا ابْتَاعُ الظُّنُونَ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا \* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٨-١٥٩).. أي أنهم علقوه على الصليب بلا شك ولكن

لم يقتلوه عليه، بل رفعه الله إليه؛ أي رفع مكانته عنده وأكرمه (أي أنه عَزَّلَهُ اللَّهُ أظهر عظمة عيسى الْعَلِيُّ المذكورة في هذه النبوة)، فكيف كان مكناً ألا يفعل الله ذلك وهو عزيز حكيم؟ أي كان ضروريًا لأعداء المسيح الْعَلِيُّ أن يعلقوه على الصليب، وكان ضروريًا أيضًا ألا يموت عليه لأن الله تعالى عزيز وحكيم. فكان ضروريًا أن يُشعر اليهود بأنه عزيز أي غالب: فلا يمكنهم أن يقتلوا عيسى الذي أرسله هو. وهو حكيم، لذا كان ضروريًا أن يعلق اليهود عيسى الْعَلِيُّ على الصليب لأنه لو قال النصارى فيما بعد إن المسيح إله، لأتمكن للمسلمين أن يقولوا: أي نوع من إله هذا الذي علقه اليهود على الصليب. فقال: أنا عزيز (أي غالب) فكان واجباً علىي أن أنقذ عيسى من الموت على الصليب. وأنا حكيم؛ فكان ضروريًا أن يعلقوه على الصليب.

الأمر الثاني عشر المذكور في النبوة هو أن ذلك الرسول سَيُّبَّتْ صدق المسيح عملياً. ومعلوم أن الذي سبق أن مات لا يستطيع النبي عَزَّلَهُ اللَّهُ أن يُرِيه عياناً، فقد أراه بأسلوب حيث قال إنه سيقوم من أموتي قائد باسم المسيح، وبذلك سَيُّبَّتْ صدق المسيح الناصري عملياً لأن تشبيهه بإنسان كبير يعني أن المسيح كان إنساناً صالحاً ومن أصفياء الله. فكان سيدنا مرتضى غلام أَحْمَد الْعَلِيُّ الذي هو المسيح الموعود قد رسم صورة المسيح الناصري الْعَلِيُّ.

### التوافق الغريب بين قانون الشريعة وقانون الطبيعة

انظروا ما أعظم هذه المعجزة! كم تطول هذه السلسلة إذ تبدأ من إبراهيم الْعَلِيُّ وتظل التغيرات تحدث فيها إلى زمن المسيح الناصري الْعَلِيُّ أي إلى مدة ألفي عام. ثم حدثت التغيرات في سلسلة المسيح الْعَلِيُّ الممتدة إلى ٦٠٠ عام، ثم يظهر في الأخير ذلك الشخص الذي كان مصداقاً لها. لو أدعى رسول الله عَزَّلَهُ اللَّهُ وجاء بالشريعة لقال الناس: لقد اخترع هذا الكلام من عنده. ولكن قانون الشريعة وقانون الطبيعة يمشيان معاً يداً بيد منذ عدة قرون، ويثبت بخلافه أن إلينا ليس ملك السماوات فقط بل هو ملك الأرض أيضًا.

يقول قانون الشريعة إن نبياً سُيُّعِثُ في مكة، وقانون الطبيعة يهيء له أسباباً. تجري عواصف الدمار والهلاك، تُدَمِّرُ أقوام بعد أقوام، تتفشى الأوبئة وتُهلك الأمم، تحدث صروف الدهر وتُمحو آثار الأقوام. يحدث كل هذا ولكن كل هذه الآفات لا تمس قريشاً بسوء بل تؤيدهم. يغزو أَبِرَهُهُ مكةً مهدداً أنه سيدمّر مكة وأهلها ويُهلكُهُمْ، ولكن أُبِيَدَ جيشه وعاد خائباً خاسراً وهلك في الطريق لأن قانون الطبيعة يقول بأنه لن يسمح بهلاك هذا القوم. تحدث في الأقوام تغييرات، يولد الذكر عنَّيين أحياناً وبذلك تدرس آثار العائلات ولكن هذا التغيير لم يحدث في ذرية إبراهيم الْكَلِيلُ، وذلك كي يزدهر نسله ويزداد. يقول النصارى إن الإناء بدمار قيسرو كسرى ليس بأمر ذي بال، لأن آثار الدمار كانت قد ظهرت فيهم. ولكنني أقول: إن النبي إِشْعَيَّا والنبي حبِّوق أَيْضًا أَبْنَاءَ بَدْمَارِهِمْ قبل آلاف السنين، وذلك حين لم يكن لقيصر وكسرى أدنى أثر، ولكن قانون الطبيعة قدّر دمارهما حين ظهر

محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كذلك عندما بُعِثَ النبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مكناً أَلَا يُخْرِجَ من مكة، وإذا أُخْرِجَ كان مكناً أَلَا يهاجمه قومه، أو لا يُهَزِّمُوا إن هاجموا. ولكن كل ذلك قد حدث على صعيد الواقع. ففَكِّرُوا مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؟

كذلك كان مكناً أَلَا يهاجم أبو جهل، وإذا هاجم هو كان بالإمكان أَلَا يغضب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلا يقطع عنقه قصيراً، ولكن نشأت أسباب لذلك. فمن خلق هذه الأسباب؟ يتبيّن بخلافه أن ملَكوت السماوات والأرض كانا يمشيان معاً منذ أَفْيَ عَامٍ. صدر الحكم من السماء ببقاء ذرية إبراهيم الْكَلِيلُ، وكلما هبّت عواصف الدمار والهلاك أُمِرَتْ بِأَلَا تمس مكة بسوء.

كذلك ذُكِرَت ملامح النبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مدة طويلة ثم تحقّق ذلك البيان، فكل ذلك كان يحدث تحت قانون الطبيعة. يقول الله تعالى نتائجه كل هذه الأمور: وَإِلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أي يا من تنكرون وجود الله، فَكِّروا هل يمشي هذا القانون

على هذا النحو من تلقائه؟ أقدم الآن تاريخاً يعود إلى ألفي عام وأبين أن الله تعالى موجود، وإن قوله: ﴿وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثبت وجوده بِهِ. قال المسيح عليه السلام عن زمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن الله سينزل بنفسه في زمانه، أي بوجوده بِهِ سيثبت وجود الله تعالى. وإلى جانب ذلك قال لأتباعه أن يدعوا الله تعالى: "إِلَيْا تَرْكُوكُنْ مَشِيَّتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذِيلَكَ عَلَى الْأَرْضِ." (إنجيل متى ٦: ١٠). أي استمروا في الدعاء ليُبعث محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستمروا في الدعاء ليعلم العالم في زمن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن للسماء والأرض إليها واحداً.

ليس في ذلك دحض للملحدين فقط بل فيه تفنيد لأتباع مذهب الجنية والآرايا أيضاً. يقول أتباع الجنية إن الأرواح تظل تتقدم بنفسها فترتقي تلقائياً، ولكن الله تعالى يقول: هذا قول خاطئ، بل نحن نُحدث التغيرات رويداً رويداً حتى خلق روحنا كاملة. يقول الآريون: ليس الله أيّ تصرف في العالم، بل المادة والروح تفعلان كل شيء بأنفسهما، ولكن الله تعالى يقول: إن نظام العالم كله يمشي تحت أوامرِي وأنا الذي أُحدث كل تغييرٍ.

### حكم الله الواحد على قانون الطبيعة

فَكَرُوا قليلاً، كيف تماشى قانون الطبيعة مع قانون الشريعة إلى زمن طويل وكيف عمل تحته! لقد ولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد إبراهيم عليه السلام بـ٢٧٥٠ عاماً تقريباً. لا يمْثل سيطرةً على قانون الطبيعة الإنباءُ أن ذرية إسماعيل عليه السلام ستستمر إلى ذلك الحين وسيذيع اسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بحيث تذكر ذريتهما أئمَّاً ولادهما؟ وستبقى مكة قائمة، وسيولَد فيها شخص بلامح معينة، ويبارزه قومه ويُخرجه من بيته. ويكون ذلك النبي مشرعاً مثل موسى عليه السلام، وسيكون ضعيفاً في البداية وينفي من وطنه ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ سيعطيه جماعة. سيتحمل المصائب ويصبر ولكن قومه يزداد ظلماً له. وفي نهاية المطاف يكيد العدو خطة سرية ليهلك أصحابه الضعفاء، وسيغزو مستكبراً. وهذا سيحدث بعد عام واحد من هجرته. وعنده المواجهة يكون

هو المنتصر وسيُقتل معظم الزعماء المعاندين. ورئيس المُكفرِين منهم والمنحدر من عائلة عريقة سيُقتل على يد أصحابه بحيث يقطع أحدهم رأسه معريًا إياه إلى العنق. لن يكون ذلك الرسول طويلاً مُمْغطاً، ويضرب عند المشي بقدميه الأرض بقوة حتى ترتجف الأرض. يكون لونه أبيض مائلاً إلى الحمرة. لن يكون جعداً قططاً ولا سبطاً بل يكون جعداً رجلاً. سيكون كلامه عذباً، ولكن الناس سيرونه مُرّاً لكونه محبولاً على الصدق. يكون اسمه محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وفي نهاية المطاف سيغزو يوماً مكةً قادماً من جبال فاران، ويكون معه عشرة آلاف جندي صالحين وورعين جداً. سيفتح مكة وتومن به بلاده بعد ذلك.

تكون أعماله عظيمة الشأن، فالنظر إليها ينادي الناس عفويًا "عجب". يكون على حُلُق عظيم، لن يتعدد الفقراء والمساكين من استشارته. ويسمى مثيل موسى في كلامه. وسيرضي الله بأعمال قومه، ويجعلهم مقدسين، وبهيء أسباباً لجعلهم مقدسين على الدوام. يكون اسم دينه جديداً، وسيختار الله هذا الاسم بنفسه، يشمل هذا الاسم كلمة "سلام". (إن "أمير السلام" ترجمة حرفية للإسلام) ستعمّر مدینته دائماً، ويتوافد إليها الناس من أبعد شاسعة.

حيثما يتوجه هذا الرسول يُرعب به الناس. تهاجمه الأقوام مجتمعة ولكنها ستنهزم. ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُر﴾ (القمر: ٤٦)، سيهلك أعداؤه. من ناحية تكون مواجهته مع حكومة الشام، ومن ناحية أخرى مع حكومة الفرس؛ أي مع قيصر وكسري، وستهزمان.

بعد مجيئه ستتلاشى الحكومات السابقة وبركات الأديان السابقة ويتوقف تقدمها. (لقد أحرزت المسيحية التقدم ظاهرياً ولكنها أرادت في البداية أن تنتشر بقوة السيف فمنعت بالسيف، أما الآن فتحاول الانتشار عن طريق تبليغ الدعوة، فبعث المسيح الموعود ﷺ لمبارزتها). سيأتي المصلحون في قومه دائماً، وسيكون بمنزلة همزة وصل بين الأولين والآخرين. تعليمه يكون مبنياً على السلام والأمن ولن

يكون خاصاً بقوم دون قوم بل يكون للجميع. يكون سلوكه أسوة للآخرين. وستُحدث الأقوام الأخرى في نفسها تغييراً حسناً نتيجة تأثيره. وبواسطة تعليمه ثمحي الأحكام التقليدية وعديمة الحكمة ويعطى تعليم حكيم. بين تعليمه أموراً ضرورية من كل نوع ويكون كاملاً تماماً فلن تبقى هناك حاجة إلى تعليم آخر. سيتلخص تعليمه في أنه سيفتح طريق النجاة لكل قوم وأناساً أيًّا كانت حالتهم. ينقد ذلك الرسول الناس من الإفراط والتفرط ومن عبودية الشيطان. (المذاهب غير الإلهامية أُسيرة في قبضة الشيطان كلياً) سيثير الحسنان الكامنة في فطرة الإنسان. يكون كتابه محتواها على الإلهام الخالص، ولن يكون فيه حرف سواه. يبرئ ذلك الرسول ساحة الأنبياء السابقين من التهم الموجَّهة إليهم، وخصوصاً سُيُّظُرُ للناس عملياً طهارة المسيح عليه السلام من خالل الأسوة.

لم يُدلَّ بهذه الأخبار في وقت واحد ولم تُهْيَّأ الأسباب لها في وقت واحد. إن استمرار بقاء الأقوام وعمارة المدن نتيجة تصرفاتٍ طبيعية متعددة إلى آلاف السنين، وإن ولادة شخص بلامح معينة نتيجة علمٍ معين في مجال علم الحيوانات، وإن نشوء الأفكار المذكورة في قلب الأصدقاء والأعداء نتيجة تغييراتٍ تحدث تحت مبدأ معين في علم النفس، وهنمة الأعداء نتيجة تغييراتٍ سياسية، (يقول المسيحيون إن قيصر وكسرى كانوا ضعيفين من قبل، فنقول: هذا ثابت أن الأسباب لنصرة رسول الله ﷺ كانت ثُهِيًّا حتى منذ فترة ما قبل ولادته) وكذلك إن التعليم الخاص وتفاصيله إنما هي نتيجة تدابير سماوية خاصة.

باختصار، إن هذه السلسلة تدل بكل وضوح على وحدة الملوك السماوي والأرضي، وتسفر عن نتيجة واحدة وهي: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأن وحدة الملوك السماوي والأرضي تدل على وجود أعلى قادر. فسبحان الله الملك القدس. هذا لا أقوله أنا وحدي بل ما قاله المسيح الناصري عليه السلام أيضاً يتفق مع هذا الدليل، لأنه لا يقصد من دعائه القائل: لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتُكْنُ مَشِيَّتُكَ كَمَا

في السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ. (إِنْجِيلُ لُوقَاءِ ١١: ٢) إلا أنَّ ادْعُوا لِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ مُلْكَوْتَ السَّمَاءِ فِي الْأَرْضِ سِيقُومُ بِوَاسْطَتِهِ.

انظروا كيف تحققت الأنباء الواردة في (إشعياء: ٩) ونبوءة المَسِيح الْعَلِيَّةُ في (متى: ٢١). لقد قيل عن مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّهُ سِيَكُونُ إِلَهًا قَادِرًا وَمَالِكَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، (أي: "صَاحِبُ الْكَرْمِ") وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الدَّلِيلَ الْقَوِيَّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ وَعَلَى كَوْنِ أَنْظَمَةِ سَمَاوَيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ بِيَدِ وُجُودٍ أَعْلَى سِيَلَاحَظَ فِي شَخْصِهِ، وَبِوَاسْطَتِهِ يَعْلَمُ النَّاسُ عِلْمًا قَطْعِيًّا عَنْ وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى. إِذْن، إِنْ مَجِيَّئَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيَكُونُ مَجِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى.

## إصلاح القرآن المبدئي الثاني عن صفات الله

الإصلاح الثاني الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفات الله تعالى. فالخطأ المبدئي الثاني عن الله تعالى أيضاً نشأ في فئة من المؤمنين بالله الذين يؤمنون بوجوده ولكن ينكرون قِيَومِيَّتِهِ بِهِ. فيُظْنُونَ أَنَّ اللَّهَ بِهِ خَلَقَ الْعَالَمَ وَلَكِنَّهُ تَنْحَى عَنْهِ الْآنَ، وَجَمِيعُ التَّغْيِيرَاتِ الْمَلْحوِظَةِ الْآنَ تَحْدُثُ مِنْ تَلْقَائِهِ، بَعْنَى أَنَّهُ لَوْ تَلَّا شَيْءٌ وَجَدَ اللَّهُ الْآنَ، وَالْعِيَادَ بِاللهِ، لَظَلَّ الْعَالَمُ سَارِيَاً عَلَى حَالِهِ دُونَ أَنْ يَحْدُثَ أَيِّ خَلْلٍ فِي نَظَامِهِ. الْقَاتِلُونَ بِهَذَا الْكَلَامِ هُمُ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الدُّعَاءَ وَيَحْسِبُونَ كُلَّ شَيْءٍ تَابِعًا لِقَانُونِ الطَّبِيعَةِ. الْقَاتِلُونَ بِهَذَا ظَلُوا مُوْجَوْدِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ. وَفِي الْعَصْرِ الْراهنِ كَانَ السَّيِّدُ "سَيِّدُ أَحْمَدَ خَانٌ" مِنْ عَلِيِّغَرِهِ يَعْتَنِقُ الْأَفْكَارَ نَفْسَهَا. وَكَانَ فِي كُلِّ عَصْرٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَدَخُلُ فِي أَمْوَارِ الْعَالَمِ الْآنَ. فَقَدْ أَصْلَحَ الْإِسْلَامُ خَطَأَهُمْ حِيثُ يَقُولُ الْقَرآنُ الْكَرِيمُ: ﴿فَلِلَّهِمَ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْزُزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْحَمْرَاءِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٢٧-٢٨).

نرى الآن كيف نشأت فكرة أن الله تعالى وضع قانوناً ولم يُعد يتدخل فيه الآن قط؟ الحق أنها نشأت من قلة المعرفة، ولكن الفلسفه يقدمون بعض الأدلة بشأنها وهي:

الأول: إذا كان تصرُّف الله ينافي قانون الطبيعة فينشأ اعتراض أن هذا يُبطل الغاية من قانون الطبيعة. فمثلاً قد وضع الله تعالى قانوناً أن النار تحرق. فإذا دعا الله أحداً إلا تحرق النار وأُجِيب دعاؤه لسادت العالم فوضى ولما حصل أي تقدّم أبداً. يُتَّبع قانون الطبيعة لأنَّه يسفر عن نتيجة يقينية. يُشعل الناس النار لأنَّها تحرق، ويشربون الماء لأنَّه يخمد العطش، فلو صعد اللهيب نتيجة شرب الماء لما شربه أحد أبداً.

الثاني: التصرُّف ضد القانون ينافي العدل. فمثلاً إذا جهز أحد أسلحة للحرب وكون جيشاً، ففي هذه الحال يكون قد أطاع قانون الطبيعة للفوز في الحرب. ولو هزمه غيره نتيجة الدعاء فقط لكان منافياً للعدل أن يخسر من عمل بحسب قانون الطبيعة وينجح من عمل خلافه.

الثالث: إذا كان التصرُّف مطابقاً لقانون الطبيعة كان بلا معنى، وكيف يمكن إجابة دعاء أحد في هذه الحالة؟ إنَّ مثل ادعاء قبول الدعاء في هذه الحالة كمثل الذي يقول: لقد أكلت طعاماً، ولكنني دعوت وأُجِيب دعائي وشبعتُ. ما هو تأثير الدعاء في هذه الحالة؟ بل الطعام أبدى تأثيره.

والاعتراض الثاني هو أننا نرى لكل شيء سبباً، بل ما يسمونه نتيجة الدعاء يمكننا أن نثبت سبباً له أيضاً. فمثلاً يقولون: لقد دعونا ورُزقنا ولداً ذكراً، بينما الحقيقة أنَّ الولد يولد نتيجة اجتماع الزوجين. وهكذا يولد الأولاد على جاري العادة. فأرَوْنا شيئاً بعيداً عن الأسباب، أَنْبَأْوا بعيدين عن الأسباب. فمثلاً إذا قلتم: لقد أَخْبَرْنا سلفاً بأنه سيولد ولد ذكر وها قد ولد، فهذا إظهار لواقع الحال، إذ كان مقدراً أن يولد ولد ذكر وعُلِّم به وأُخْبِرْتم بذلك سلفاً، فما علاقة هذا الأمر بالدعاء؟

الرد على الاعتراض الأول هو أن هذا لا يُبطل الغاية من قانون الطبيعة، لأن الله أيضاً يخلق الأسباب عادة و بواسطتها ينال الإنسان هدفه، ولا يتصرف الله تعالى بغير الأسباب بل يخلق لتحقيق مشيئته أسباباً جديدة تكون خافية عن أعين الناس.

الجواب الثاني هو أن كل سبب في العالم ليس يقينياً، ومع ذلك يختار الناس أسباباً، فمثلاً يبذلون جهودهم لعلاج الأمراض، ولكن هل هناك علاج يقيني وقطعي؟ لا يُشفى كل مريض، مع ذلك ينفق الناسآلافاً مُؤلفة على العلاج. فهذا يعني أن هناك استثناء في كل مجال. والاستثناء لا يُضعف القاعدة بل يقوّيها.

كذلك: (١) إذا نَفَدَ الله قدره الخاص فهذا لا يؤدي إلى أي خلل في قانون الطبيعة بل تُنال به فائدة إضافية أن الناس يرون جلال الله تعالى، ويزدادون إيماناً بربهم. (٢) التصرُّف لا ينافي العدل أياًًضاً لأنَّه ليس ضرورياً أن يتماشي العدل دائمًا مع قانون الطبيعة. فمثلاً يقطع قاتل عنق طفل صغير بالسيف. هنا يقتضي قانون الطبيعة أنه إذا وقع السيوف على العنق يجب أن يُقطع العنق، ولكن هل هذا هو العدل؟ تتراءى في العالم ملايين المناسبات حين يستخدم الناس قانون الطبيعة استخداماً خاطئاً تماماً، فكان ضرورياً أن يُري الله معجزات تحول دون استخدام قانون الطبيعة استخداماً خاطئاً. فعندما يمنع الله تعالى بتصرُّفه استخدام قانون الطبيعة بصورة خاطئة فلا يفعل ذلك بصفته قاضياً بل بصفته مالكاً. والدعاء لا يجap إلا إذا كان الداعي على الحق، وإلا يُرَدُّ عليه. فبذلك قد منع الله تعالى سوء استخدام قانون الطبيعة فقط، وهذا ليس ظلماً بل هو عدلٌ بعينه. (٣) يقال: إذا كان تصرُّف الله مطابقاً لقانون الطبيعة فما معنى هذا التصرُّف؟ هذا الكلام أياًًضاً ليس صحيحاً لأنَّه لو مشى التصرُّف مع قانون الطبيعة فقط لكان بلا فائدة دون شك، ولكن إذا ظهر التصرُّف بواسطة جعل القانون تابعاً له فكيف يكون دون فائدة؟ لأنَّه لو لم يكن هناك تصرُّفٌ في هذه الحالة لظهر القانون بشكلٍ مخالفٍ ولتسبب في خسارة.

الرد على الاعتراض الثاني هو أنه لا شك أن لكل شيء سبباً ولكن القائلين بتصرُّف الله لا يقولون إنه يتصرُّف بغير الأسباب، بل يقولون إنه تعالى يخلق الأسباب في حق الذي يدعوه. والحق أن خلق الأسباب رحمة للعالم وإنما فالتصريف بغير الأسباب الظاهرية يُتّبع الفساد أحياناً. فنرى أنه حيّثما جعل الله تعالى الأسباب خافية تُعَرَّفُ الناس في ذلك المقام. انظروا مثلاً أن ولادة المسيح صلوات الله عليه وآله وسلامه كانت مدعوة لعثار اليهود، فاتّهموا مريم عليها السلام بالزناء، ولكن ولادة يحيى لم تكن حجر عثرة لهم.

كذلك ولادة ابن عبد السيدة سارة أيضاً لم تكن سبباً لعثار أحد. والسبب هو أن الأسباب الظاهرية وراء ولادة إسحاق ويحيى عليهما السلام كانت ملحوظة، ولكنها لم تُوجَد في ولادة المسيح صلوات الله عليه وآله وسلامه، لذا تُعَرَّفُ اليهود؛ مع أن خلق صفة الإنجاب في مريم أو في زكريا أو سارة كان شيئاً واحداً تماماً. إذن، إن إخفاء الأسباب يؤدي أحياناً إلى الفساد بدلًا من فضل الله تعالى. لذا إن خلق الأسباب رحمة للناس ولإنقاذهم من الفتنة. لا نقول فقط إن الله تعالى لا يقدر على فعل شيء بغير الأسباب أو لا يتصرُّف حيّثما كانت الأسباب موجودة. بل نقول إنه تعالى يخلق نتيجة الدعاء أسباباً تؤدي إلى أن تتم الأمور نتيجة دعاه. في البداية لا يرى أحد تلك الأسباب، ولكنها تنشأ نتيجة الدعاء. فمثلاً قد خلق الله تعالى عدة أسباب ليتقدم الإنسان في التجارة، ولكنها لا تتيسر كاملاً لشخص، أما إذا دعا أحد تيسير له الأسباب وينكتب له التقدم. ولكن لو أُسقط الله في بيت أحد عشرة آلاف روبيه بصورة ظاهرية لقبضت عليه الشرطة على أنه سرقها. إذن، إن خلق الأسباب يكون في معظم الأحيان مفيداً لمن يتصرُّف الله من أجله.

يقال: نقبل أن الله يخلق الأسباب، ولكن كيف تُعَنِّفون منكراً أن الله خلق الأسباب وهكذا ظهر تصرُّفه، أو جرى قانون عام بمناسبة كذا وظهر التصرف بمناسبة كذا؟ لهذا السؤال جوابان، الأول: من يصبح الله يخضع كل فعل من أفعاله تحت تصرُّف الله قليلاً كان أم كثيراً. ولكن في بعض الأحيان يخلق الله بحسب تصرُّفه

الخاص أسبابا لا يمكن أن يقع بسببيها على العبد أي اعتراض وتظهر قوته كما حدث في معركة بدر، إذ أطلق الله رحمة عاتية في الوقت نفسه الذي رمى به رسول الله ﷺ الحجارة. فلم يقدر الكفار على الرؤية بسبب الريح العاتية لأنها كانت متوجهة إليهم، بينما استطاع المسلمون أن يشنوا الهجوم بشدة. فمن هذه الأمثال يضطر العدو أيضا إلى الاعتراف بأنه كان تصرفا خاصا، ولا يقع أي اعتراض على الذي ظهرت هذه الآية لتأييده. ولكن الأمثلة من هذا النوع تحدث نادرا وتقدم دليلا إلى زمن طويل. ثم يرسل الله تعالى إنسانا آخر وتظهر معجزات مثلها تأييدها له.

أما السؤال: لماذا لا نقول إن النبوءات تفيد إظهار الحقيقة فقط ولا يكون فيها أي تصرف لله؟ فجوابه أن إظهار الحقيقة أيضا يكون هدف معين. عندما يخبر الله أحدها أنه سيرزق ابنا فلماذا يخبره قبل الأوان؟ لا بد أن يكون وراءه سبب معين. أو إذا أخبر أحدها أنك ستموت فلا بد أن تكون وراء هذا الإخبار حكمة. وتلك الحكمة هي أن الله يبشر أحدها ببشرى حتى يسعى لإنفاقها. وينذر بغيره ليحاول اجتناب مصيبة مoshka، وإلا إذا كانت النبوءة بلا هدف فهي لغو. فلو لم تكن هناك وسيلة للحصول على الخير واجتناب الشر فما معنى الإخبار أصلا؟ وإذا قلتم إن الهدف من الإخبار قبل الأوان هو التنبية لقلت: هذا أيضا تصرف. إن إخبار أحد أن أسبابا كذا ناشئة فاستعد لها، فهذا أيضا تصرف وإن كان غير مباشر. هذا كان سؤال الفلسفه وقد ردت عليه. أما السؤال الثاني فهو من الناس العاملين إذ يقولون إننا ندعوا ولا يجأب دعاؤنا. فمثلا دعونا أن تُرزق ولدًا ولم تُرزق به. ودعونا لنربح قضية ما ولكن لم نربحها. لقد رد القرآن الكريم على كل هذه الأمور وقدم دليلين على ادعائه؛ أحدهما من منطلق الفلسفه والآخر من منطلق المشاهدة.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُونٍ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ \* رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيَا يُنَادِي إِلَيْهِمْ أَنْ أَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنُوا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَا سَيِّئَاتَنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ \* رَبَّنَا وَأَنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ \* فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْلَى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَيِّلٍ وَفَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الشَّوَابِ \* لَا يُغَرِّنَكَ تَقْلُبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩١-١٩٨﴾ (آل عمران: ١٩١-١٩٨).

في هذه الآيات بين الله تعالى عدة أدلة على تصرّفه. (١) لا يعمل في خلق العالم القانون الطبيعي فقط، بل يعمل القانون الروحاني والأخلاقي أيضاً. يقولون إن التدخل لا يليق بالله ولكننا نقدم نكتة أخرى وهي أن تتأملوا لماذا خلق هذا العالم؟ هل السبب وراءه هو أن يأكل الإنسان ويشرب ويموت؟ هذه ليست الغاية المنشودة، أو هل ليوصل الإنسان إلى مدارج عليا ومراتب سامية من التقدم؟ إذا كان الأمر كذلك فتبين أن المدّف من وراء خلق العالم ليس إجراء القانون الطبيعي بل هو إجراء القانون الأخلاقي. والمدّف من خلق العالم هو أن يولّد فيه الإنسان ويصبح إنساناً ربانياً، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا حَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

انظروا الآن إن قانون الطبيعة يراه الجميع، فما حاجة التأمل والتدبر فيه إذن؟ ولكن الله تعالى يقول إن أولي الألباب يفكرون فيه ويتوصّلون إلى نتيجة أن العالم لم يخلق بلا هدف، ثم يقولون: وفينا يا ربّ لعيش بحسب هذا الهدف. وما هو ذلك الهدف يا ترى؟ هو: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ \* رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًّا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ أَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمِنَّا رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١﴾، أي هب لنا مدارج عليا من التقدم الروحاني والأخلاقي التي بسببها يصبح الإنسان إنسانا ربانيا، وأنقذنا مما يُعدنا عن الله تعالى. لقد بدأنا السعي لهذا الغرض فوَفَقْنَا أن ننجح في مسعانا.

(٢) الدليل الثاني هو: من الممكن بل على الأغلب أن يندرس القانون الروحاني والأخلاقي إن لم يتصرف الله فيه، لأن النبي يأتي لإظهار جلال الله تعالى في الدنيا، ومع كونه ضعيفاً يُرى العالم كمال تصرف الله. في ذلك الوقت يكون العالم كله ساريا تحت قانون الطبيعة، لذا تكون المفاسد كلها على أوجها. فعندما تحدث المفاسد بسبب قانون الطبيعة يقيم الله تعالى بواسطة النبي قانون الأخلاق والروحانية. كما أنه عندما يتصارع المصارعان يدعم المرء من كان أقرب إليه ليجعله غالبا. كذلك عندما يجري قانون الطبيعة ضد القانون الأخلاقي و يحدث الفساد يبعث الله تعالى من عنده نبيا و يؤسس القانون الأخلاقي.

فلو أُريد تحقيق المدف من خلق العالم لكان تصرف الله ضروريا ليعيّر مسار الأحداث كلما استعان فرد قوي أو فتة بقانون الطبيعة للقضاء على القانون الأخلاقي والروحاني. لذلك قال الله تعالى: ﴿أَيَّ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٦)، أي خلقتُ العالم بُغية التقدم الروحاني، فلا أُدْعُ هذا المدف يضيع.

والآن نعود إلى المشاهدة، يقال إن الدعاء لا يُقبل. فيقول الله تعالى بأنه لا يجيز كل دعاء ولكن ليس صحيحا القول إنه لا يجيز أي دعاء. فإذا أردتم مشاهدة نموذج تصرف الله تعالى فشاهدوه من خلال تعامله مع الكفار. يقول تعالى: ﴿لَا يَعْرِلَنَّكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَادِ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩٧-١٩٨)، فإذا نظرتم إلى الوسائل فكان أعداء محمد ﷺ يملكون الوسائل كلها، وكان قانون الطبيعة أيضا يغضدهم تماما. ولكن ما دام قانوننا

الأخلاقي مقدماً عليه فنحن نخبر أن الذين يجعلون جيوشهم ووسائلهم وسيلة للترهيب، قدّر الله تعالى أن يبيّد وسائلهم ويُنْلِحَّ محمداً رسول الله ﷺ. صحيح أنه **وعَجَّلَ** يقول إنه ما دام قانون الطبيعة أيضاً مما وضعه **وعَجَّلَ**، لذا يجب أن تبقى شوكته قائمة، ويجب ألا يُنْبَذَ وراء الظهر بالاعتماد على قانون شرعي وأخلاقي، لأن في ذلك إساءة لله تعالى، فيقول **وعَجَّلَ**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠١).

يا أيها الذين آمنوا قد ردّنا على اعتراض الأعداء القائل إن الله لا يحب الدعاء، فقد أخبرناهم أننا نحب الأدعية وستصرف بحثك لن تنجحوا مع امتلاكم عدّة وعتاداً بل سيفوز مقابلكم العَزَلُ. ولكن يجب ألا ترتكبوا الخطأ فتقولوا بأنكم لستم بحاجة إلى الالتزام بقانون الطبيعة، لأن ذلك القانون أيضاً وضعه أنا. فيا أيها المؤمنون اصبروا ورابطوا وأعدوا عدّتكم حتى تفلحوا.

في بعض الأحيان تقتضي مشيئة الله أن يترك المرء استخدام قانون الطبيعة تماماً. وذلك كما حدث ذات مرة حين أصيب المسيح الموعود **الغَيْلَانَ** بالسعال، وكان شديداً لدرجة أنه عندما نُشر خبره في الجرائد تنبأ الدكتور عبد الحكيم أن المرازا أصيب بالسل وسيموت بهذا الداء. عندما نُشرت هذه النبوة كنت أنا المكلّف بالاعتناء بحضرته **الغَيْلَانَ** وإعطائه الدواء وما إلى ذلك. وكنت أرى أنه يجب على المسيح الموعود **الغَيْلَانَ** أن يلتزم بتعليماتي بهذا الشأن بصفتي مكلّفاً بالاعتناء به. في تلك الأيام جاء أحد الإخوة زائراً وجاء ببعض الفواكه هدية. عندها كان المسيح الموعود **الغَيْلَانَ** مستلقياً، وقبل هنيئة كان قد أصيب بنوبة سعال شديدة. ثم سُأله **الغَيْلَانَ** ما هي الفواكه؟ قلت: الموز والبرتقال. وقلت: يجب ألا تأكلوا لأنكم مصابون بسعال شديد. فوضع **الغَيْلَانَ** الفواكه بجانبه وبدأ يأكل وهو يبتسم. شعرت بالانزعاج على ذلك وفكّرت في نفسي: ماذا عساي أن أردّ إذا سألني المولوي نور الدين (الذي صار الخليفة الأول لل المسيح الموعود **الغَيْلَانَ** فيما بعد)؟ توسم المسيح الموعود

الليلة حالي وقال مبتسماً: أنت تستاء من أكلني الفواكه، ولكنني تلقيت إلهاً ماماً أَن السعال قد زال.

باختصار، في بعض الأحيان يخلق الله تعالى أسباباً بحيث لا يحتاج الإنسان إلى الالتزام بقانون الطبيعة. توجد أحداث من هذا القبيل في حياة النبي ﷺ أيضاً؛ فعندما فرت مطايياً الصحابة ﷺ في غزوة حنين، ولم يبق حوله إلا ١٢ شخصاً، قالوا له: يمكنك أن تتأخر قليلاً لأن هجوم العدو شديد الوطأة. فقال للصحابي الذي كان يمسك زمام مطيته: اتركها وشأنها، ثم ركل المطية وتقديم وهو يقول:

أنا النبي لا كذب \* أنا ابن عبد المطلب.

مع أن السهام كان تنزل مثل المطر ولكنها لم تُصبِّه ﷺ. إذن، يحدث أحياناً أن الأسباب التي تنشأ تحت تصرُّف الله تعالى لا تُرى.

هذا الجواب يشمل جواب الاعتراض على الدعاء أيضاً، أي أن قوانين الله الطبيعية والأخلاقية تمشي جنباً إلى جنب. لذا الدعاء يحاب بحسب مبادئ كلام القانونيين، ومن أراد خلاف ذلك فهو سفيه. باختصار، ليس هناك فوضى في القانون الأخلاقي والروحي.

### الإصلاح المبدئي الثالث عن التوحيد

الإصلاح الثالث الذي قام به القرآن الكريم هو عن التوحيد. إن أول فساد نشأ في هذا الموضوع كان أن اخْتَذَت آلهة أخرى مقابل الله تعالى. سواءً أكان هذا الفساد بصورة الشرك في الذات -كما هو ملاحظ في المسيحيين والهندوس والزرادشتين- أو بصورة الشرك في الصفات كما في اليهود حيث يقولون إن عزيزاً ابن الله، ويحسبون "ملكي صادِق" والي شاليم، أزلياً وأبداً وبدون أبوين، ويعتقدون أن إلياساً (إيليا) وغيره الكثرين أحياء في السماء. ولكن الإسلام قضى على كل هذه الأنواع من الشرك وأقام توحيداً خالصاً. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾ (الزمر: ٦٤).

في هاتين الآيتين قدمت أربعة أدلة لتفنيد الشرك، (١) يتبعن بكل جلاء بالنظر إلى جميع الأشياء أنها لم يخلقها وجودان بل خلقها وجود واحد، وخلق كلها بحسب قانون واحد. لم يخلق الطفل كيانٌ وخلق الغذاء كيانٌ آخر بل الطفل أيضاً يولد من غذاء تأكلونه. والماكولات خلقها الله تعالى، فقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كون الله خالق كل شيء دليل على أنه ليس هناك إله آخر.

(٢) الدليل الثاني هو: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أي أن الله تعالى محافظ على كل شيء، بمعنى أن حفظه الأشياء كلها يعمل تحت قانون معين. فمثلاً يُشفى ابنٌ مريضٌ لأحدٍ، فلو شُفي دونما سبب لقيل إن الذي شفاه غير الذي خلق الشمس والقمر. وما دام للشمس والقمر أيضاً دخلٌ في شفائه لذا لا بد من الاعتراف بأن الذي خلق الشمس والقمر هو الذي شفاه.

(٣) هو القادر الوحيد على سد جميع الحاجات الروحانية والمادية، كما يقول: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فما دام الله هو الذي يقضي حاجات الناس كافة، مادية كانت أم روحانية فلم يُعُد هناك حاجة إلى عزيز ويسوع وملكي صادق وغيرهم. فأين الحاجة إلى إله آخر ليُتَحَدَّدَ معهداً؟

(٤) الدليل الرابع هو: إن مؤيدي التوحيد يفلحون دائماً، وأعداء التوحيد يفشلون دائماً. فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين ينكرون التوحيد يفشلون دائماً مقابل المؤمنين به، وهذا دليل عملي على وحدانية الله تعالى. إذن، إن فكرة الشرك في الذات والشرك في الصفات كلتيهما خاطئة. فمن ناحية جعل بعض الناس خللاً في التوحيد بأفكارهم الشركية، ومن ناحية ثانية اعتنق بعضهم عقيدة وحدة الوجود نتيجة إفراطهم في التوحيد، واتخذوا كل ذرة إلهاً. وقد فند القرآن الكريم هذا السلوك أيضاً. لقد أيد هؤلاء الناس التوحيد

بحسب زعمهم وقالوا: إذا اعتقدنا بوجود آخر سوى الله فهذا يستلزم الشرك. ولكنهم لم يفكروا أنهم اتخذوا كل شيء إلها. ففند الله تعالى ذلك أيضاً قائلاً: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٩)، أي تقولون إن كل شيء إله ولكن لا ترون أن كل ما يولد يهلك يوما، فإذا كان كل شيء إلها فلا يمكن أن يحدث فيه تغيير. وحدوث التغيير فيه دليل على أنه ليس جزءاً من الإله، لأنه لو أمكن حدوث التغيير في جزء لأمكن حدوثه في الكل أيضاً.

لقد لعن القرآن الكريم كثيراً من الناس، وهذا أيضاً يفتّن المعتنقين بعقيدة وحدة الوجود. معنى اللعنة هو الإبعاد، فإذا كان كل شيء جزءاً من الله، فلماذا أبعد هؤلاء الناس؟ يقول بعض الناس إنها قسوة، ولكن الحق أن عقيدة وحدة الوجود قد استُحصلت بهذه الطريقة. فإذا قيلنا أن كل شيء جزء من الله فلا بد من القبول أن أجزاءه ونسخة ونحسة جداً، والعياذ بالله، وهذا لا يليق بالله تعالى. لو قلنا للقائلين بوحدة الوجود بأنكم جيدون ولكن قلوبكم نحسن لاختصموا. ولكن الأشياء التي يُعدونها جزءاً من الله يقولون بأنها نحسنة.

لقد تبني بعض الناس نظرية تناقض العقيدة المذكورة آنفاً وفصلوا العالم عن الله كلياً، وقالوا إن الإله موجود على العرش وبعيد عن الخلق تماماً وجالس في السماء ويحكم العالم من هناك. هذا الاعتقاد يعتقد اليهود والمودعون والزرادشتيون، ويعتقدونه أهل الحديث أيضاً لسوء الحظ. لقد دحض الإسلام هذا الاعتقاد أيضاً وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٤)، ولكن الجالس على العرش بعيداً لا يمكن أن يكون الأول والآخر والظاهر والباطن، ولا يمكن أن يكون بكل شيء علیماً.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧). كيف يمكن له أن يكون أقرب من حبل الوريد ما لم يكن قادراً على التصرف في الجسم كله.

باختصار، إن تعليم الإسلام هو أن ليس كل شيء إلهًا، كما أن الله ليس محصوراً في مكان معين. ولما لم يكن كل إنسان قادراً على إدراك مسألة أن الله تعالى موجود في كل مكان ومع ذلك هو بعيد أيضاً، لذا فقد رد الله تعالى على ذلك في سلسلة الردود على احتجاجات أخرى، فقال: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (الشوري: ١٢)، أي هذا الاحتجاج ناتج عن الجهل. يمكن الظن بالمخلوقات أنها ليست مما لا مثيل له ولكن ليس الله أية مثيل مطلقاً، لذا فإن قياسكم أنفسكم على الله **﴿عَلَيْكُمْ لَيْسَ إِلَّا غَبَاوةٌ وَحَمْقَا﴾**، فلا تقيسون على أنفسكم. ما كان يفوق قدرتكم كان السعي نحو إدراكه عبثاً. تقولون إن الله سميع، فهل تقولون أيضاً إن له آذاناً مثلكم؟ فعندما تقولون إنه تعالى يسمع بغير الأذنين ويرى بغير العينين، وإن القانون الذي ينطبق علينا بشأن الرؤية والسماع لا ينطبق على الله **﴿عَلَيْهِ﴾**، فلماذا تطبقون بشأن المكان قانوناً ينطبق عليكم. فمن كان أعلى منكم كان السعي لفهمه عبثاً. يقول الله تعالى: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادُ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾** (الإسراء: ٣٧). يقول الناس إن العين والأذن وحدهما أداتان للتجسس، بينما يقول الله تعالى بأنه إذا تجسس القلب أيضاً عُلِمَ به. ليس ضرورياً لفهم شيء أن يفهم كنهه أيضاً، فالإنسان يقدر على الفهم بقدر ما هو في قدرته. إن علم الإنسان نوعان، فهو لا يعلم عن بعض الأشياء إلا وجودها فقط ولا يعلم كفيتها. ولكنها يعلم عن كيفية بعض الأشياء الأخرى وحقيقةها، ويعلم منبع بعضها. باختصار، الإنسان يتقدم بقدر ما يتقدم إدراكه. فيقول الله تعالى: **﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء﴾** (البقرة: ٢٥٦)، ولو تقدمتم على ذلك أكثر لتعترضتم.

#### الإصلاح المبدئي الرابع عن العلاقة بين الله وعبد

الإصلاح المبدئي الرابع الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بالعلاقة بين الله والعبد.

تثار بهذا الشأن وسوسة أن الله تعالى لم ينزل كلاماً لهداية العبد، بل الإنسان يختار لنفسه سبيلاً بناء على تجربته. يعتقد الفلاسفة ومن على شاكلتهم بوجود الله ولكنهم

يعتنقون العقيدة المذكورة آنفاً عن الإلهام والشريعة، ولكن القرآن الكريم يدحضها ويقول: ﴿فَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِهُوَ الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٧٢) أي اعلموا أنه لا يمكن للإنسان أن يشق طريقه بنفسه في أمور روحانية، بل الله وحده قادر على إرشاده إلى هذا الطريق. ثم ذكر الله سبباً لذلك وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ٧٤).

في هذه الآية قدم **بعض** الأدلة التالية:

الأول: إن كلام الله يكون مبرئاً من الخطأ. والبراءة من الخطأ ضرورية للهداية، غير أنه من الممكن أن يقبل في أمور دنيوية خطأ لا يسفر عن خسارة. فمثلاً ظلّ آباءُنا يعتقدون أنّ الماء عنصر واحد وهذا لم يسفر عن أية خسارة، ولكن لو صدر الخطأ بحق الله فلم نؤمن به واحداً، ستكون النتيجة جهنم. لذا من الضروري أن يعطي الله وحده هدايةً روحانية لتكون نزيهة عن الخطأ، ويجب ألا نبحث عنها بتجربتنا.

الثاني: هو الهدف الذي من أجله نحتاج إلى كلام الله أي التقدم الروحاني بعد الموت، ولا يعلم أسراره إلا الله تعالى. فالغاية التي لا يعلمها الإنسان أنّى له أن يضع قوانينها لنفسه؟ الأفعال التي تكسبونها في هذا العالم يكون الهدف منها الحصول في الحياة الأبدية على قوة تستطيعون العمل بسببها في الآخرة. وما دمتم لا تعلمون كيفية العالم الآخر فأنّى لكم أن تحييوا له أسباباً؟ والله تعالى وحده متصرف على ذلك العالم، فهو وحده يستطيع أن يعطيكم قوة على الاستعداد له.

الثالث: هو أنه **بعض** عالم الغيب والشهادة، أي يعلم الأمور الظاهرة والخافية. اتركوا العالم الآخر جانباً وخذلوا هذا العالم، فإن فطرتكم مودعة قوى كبيرة ولكن الإنسان لا يعلمها بنفسه بل الله وحده يعلم كل هذه الأمور، لذا هو وحده قادر على توفير أسباب التقدم، وليس لأحد سواه أن يوفرها.

الرابع: هو أنه **بعض** عالم وحبي، فهو مطلع على قدرات الإنسان وكذلك على نقاط ضعفه. فيقول: ما دمْتُ أعلم ما هي السبل التي يجب إخباركم بها لذا أنا

الذي أهيء الأسباب لأن الحكيم والخبير هو الذي يقدر على وضع القواعد. لذلك كان الخليفة الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إنه ضروري للزعيم الروحاني أن يكون طيباً أيضاً، وإلا يمكن أن يخبر الناس بما يضر بصحة الإنسان.

الوسوسة الثانية المثارة عن كلام الله تعالى هي قولهم إن الله تعالى ينزل الكلام ولكن ليس بصورة الألفاظ بل يخلق الأفكار في القلوب. هذا الخطأ يرتكبه أتباع برهوم سماج والمسيحيون واليهود والهندوس أيضاً في هذه الأيام، ويقولون: هل الله فُم ولسانٌ حتى يتلفوه بالألفاظ؟ جوابه الأول هو: ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فكما يسمع بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ غير أذن ويرى بغير العين كذلك هو قادر على الكلام بغير اللسان. ما دام هؤلاء المعترضون يعترضون بقدرة الله على الرؤية والسماع، فما معنى هذا الاعتراض. هذا جواب إلزامي، أما الجواب الحقيقي الذي قدّمه الله تعالى فهو: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَعْلَمُونَهُ فَرَاطِيسَ تُبَدُّوْهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا أَبَاوْكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرُهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ﴾ (الأنعام: ٩٢)، هنا تم تفريغ حجاج الذين ينكرون الكلام، وضرب مثل موسى العظيم. والسبب في ذلك أن اليهود كانوا يعتقدون أن الله كلام الأنبياء الآخرين بصورة الرؤى أو بواسطة الوحي الخفي القلبي أو ما شابهه، ولكنه كلام موسى بالكلمات. فقد ورد في سفر العدد: ﴿تَكَلَّمَتْ مَرْءَةٌ وَهَارُونُ عَلَى مُوسَى بِسَبَبِ الْمَرْأَةِ الْكُوْشِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا، لَأَنَّهُ كَانَ قَدْ اتَّخَذَ امْرَأَةً كُوْشِيَّةً. فَقَالَا: هَلْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَحْدَهُ؟ أَمْ يُكَلِّمُنَا نَحْنُ أَيْضًا؟ فَسَمِعَ الرَّبُّ﴾. (العدد ١٢ : ٢-١)

فسخط الرب على ذلك فناداهما مع موسى وقال: اسمعوا كلامي. إن كأن منكم نبي للرب، فبإرؤيا استعمل له. في الحلم أكلمه. وأماما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين في كليل بيتي. فما إلى فم وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز. (العدد ١٢ : ٨-٦)

يقول بنو إسرائيل إن الله لم يكلم على النحو المذكور الأنبياء قبل موسى عليه السلام فحسب بل بقي هذا الفرق قائماً مع الذين جاؤوا بعده أيضاً. فقد جاء في سفر التثنية بعد ذكر وفاة موسى عليه السلام: "لَمْ يَقُمْ بَعْدَنِي في إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ" (التثنية ٣٤: ١٠) يقر القرآن الكريم ببعض الصفات الفريدة لموسى عليه السلام إذ قد جاء فيه عن الأنبياء: ﴿وَكَلَمُ اللَّهِ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥). التكليم هو الكلام وجهاً لوجه. لقد ذُكرت في الكتاب المقدس رؤى الأنبياء بوجه عام، وهذا الأمر أدى رويداً إلى إنشاء الفكرة في اليهود أيضاً - كما في بعض المسلمين - أن الإلهام هو ما يُلقى في القلب ولا يكون لفظاً. وبناءً على هذه الفكرة لا يزال النصارى يعترضون على القرآن إلى اليوم، مع أنه قد ورد في كتبهم أن موسى تلقى إلهاماً لفظياً. فقال الله تعالى لهم: اتَّكَلُوا إِلَيْنَا أَنَّا أَنَا أَنْهَاكُمْ (الأنبياء: ٩٢)، تتحدثون عن الوحي القليبي، فهذا النوع من الوحي ما زال جارياً منذ البداية، ولكن هل من وحي يذكر علمًا جاء في القرآن الكريم؟ فإذا بقيتم محروميين من علوم القرآن على الرغم من الإلقاء في قلوبكم، وعلّمنا محمداً ﷺ علمًا لم يعلّمه آباؤكم، فكيف يمكنكم إنكار أفضلية الإلهام الحقيقي وضرورته؟

### الإصلاح المبدئي الخامس عن صفة الله "الخالق"

الإصلاح المبدئي الخامس الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "الخالق". بعض الناس يؤمنون بوجود الله ولكن لا يؤمنون به خالقاً، بل يقولون إن كلاماً من الروح والمادة جاء إلى حيز الوجود من تلقاءه. هذا ما يعتقد به بعض الفلاسفة والهندوس أيضاً. ولكن القرآن الكريم دحض هذه الفكرة بالأدلة وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٥٠)، أي الاعتقاد بأن كلاماً من الروح والمادة لا زال موجوداً من تلقاءه خاطئ تماماً، إذ لم يخلق أي شيء فرداً بل

خلقنا كل شيء زوجا. فامعنوا النظر في كل شيء في العالم لن تجدوا أي شيء فردا، بل كل ما ترون إما هو مركبات. ولكل شيء جهة ولون وقمام. فلما لم يخلق الله أي شيء فردا بل خلقه مركبات فكيف يصح القول إن المادة موجودة منذ الأزل؟ العلوم أيضا تؤيد فكرة أن الله تعالى خلق كل شيء زوجا.

(٢) ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٩)، بين الله تعالى في هذه الآية أن كل شيء هالك لا محالة، أروني شيئا لا يندرس؟ الأشياء التي ظهرت عنها من قبل أنها لا تباد تبين الآن أنها أيضا هالكة. والأشياء التي يُظن اليوم أنها لا تندرس سيعلمون عنها غدا أنها أيضا هالكة. فهلاك الأشياء يثبت أنه ما من شيء قائم في حد ذاته. ثم قال الله تعالى بأنه حاكم على كل شيء، ولكن السؤال هو: ما دام لم يخلق المادة والروح فكيف يكون حاكما على أشياء تُصنع أو صُنعت بواسطتهم؟ هل تقبلون أم لا أن الله تعالى يتحكم في الروح والمادة؟ إن كنتم تعترفون بتحكمه تعالى فيهما فكيف يمكن القبول أن الذي ليس ظالما يحكمهما بغير سبب، مع أنه ليس له دخل في خلقهما؟ باختصار، إن وجود شيء زوجا يدل على نقص فيه وهلاكه وكونه مخلوقا. كذلك إن حكمة الله والرجوع إليه دليل على كونه خالقا.

### الإصلاح المبدئي السادس عن مالكية الله

الإصلاح المبدئي السادس الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "المالك". لقد نشأ بهذا الشأن خطأ؛ أو همما عقيدة التناصح التي أمسك بها بكل شدة. وقيل إن بعض الناس في هذه الدنيا في حالة دنيئة وحقيقة، وبعضهم يحظون بحالة أفضل. وهذا الفرق هو بسبب أعمالهم السابقة. كذلك بعض الناس يواجهون مصائب وبعضهم يتمتعون بالراحة والنجاة، وهذه أيضا مغبة أعمالهم السابقة. ولكن القرآن الكريم يعلن أن زعمهم هذا باطل فيقول: ﴿خَتَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونَ \* لَعَلَّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّمَا كَلِمَةُ هُوَ قَائِلُهَا﴾

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرَزَّحٌ إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ ﴿المؤمنون: ١٠١ - ١٠٠﴾، أي يقول الكفار عند موقعم: أعدنا يا ربنا إلى الدنيا لنتفق في سبيلك ما تركناه وراءنا ونعمل صالحا... يقول الله تعالى بأن هذا كلام محض، لأن المجرم عندما يدخل الجحيم يقول قلقا: أعدني إلى الدنيا. وبناء على هذا الاعتقاد اتخذت عقيدة التناسخ. يقال: الحاجة ألم الاختراع، وإن عقيدة التناسخ نتاج الذُّعْر المذكور آنفا، بمعنى أننا لو متنا كاسبين أ عملا سيئة فما الذي يمكن أن يحدث معنا؟ الحق أن هذا اختراع ذهنية جاهلة و مجرمة. يقول الله تعالى بأن هذا قول تقوله روح مجرمة في بيئتها، وهذه أمنيتها الطبيعية، ولكنها لن تتحقق. لماذا لن تتحقق؟ يقول الله تعالى ردّا على ذلك: ﴿فُلِمْنَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فُلِمْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبِّ فِيهِ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٣)، أي لقد قدّر تعالى أنه لن يدخل الأرواح في دوامة التناسخ، بل سيظل يجمعكم إلى يوم القيمة. والذين ألقوا أنفسهم في التهلكة لا يؤمنون بالقيمة بسبب سوء أعمالهم. يتبيّن من ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أن فيها تفنيد التناسخ، لأن الله تعالى لم يقل إنه يُقيّمكم إلى يوم القيمة ولن يعيدكم.

هنا قدّم تعالى دليلاً أن الله مالك، وللملك خيار أن يحفظ شيئاً في المقام الذي يريده. هل لأحد أن يقول مالك مثلاً: لماذا صنعت من هذا الجلد حذاء ولماذا لم تصنع حزاماً؟ أو هل لأحد أن يعتريض قائلاً: لماذا قررت خياطة سروال من هذا القماش ولماذا صنعت من الآخر قميصاً؟ يقول الله تعالى: تقولون إنه لظلم عظيم إذ جعل أحد غنياً والآخر فقيراً، ولكن قولوا: هل أنا مالك كل شيء أم لا؟ فإذا كنت مالكاً فما كلفت به أحداً هو الصحيح.

هنا ينشأ سؤال: هذا يعني أنه يمكن لله أن يدخل من يشاء في الجنة ويندّخل من يشاء في الجحيم. يقول الله تعالى بأن هذا من حقي، ولكنني فرضت على نفسي ألا أفعل ذلك. فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٣)، فلا يقع تعالى

أحدا في مشكلة مع كونه مالكا. ولهذا السبب لا يعيد الأموات إلى هذا العالم، بل قدّر أن يكون يوم القيمة هو يوم الفصل، وقد حدد طریقا آخر للحكم. وعندما نتأمل نجد التناصح ينافض الرحمة في الحقيقة، أما القيمة فتطابق الرحمة تماما.

والآن نرى كيف يحدث الخلل في رحمة الله بسبب التناصح. يقال إن الهدف الحقيقي من التناصح هو الإصلاح ويقال إن الروح تحظى بالإصلاح نتيجة المرور بدوامة التناصح. ولكن الحق أن إصلاح البشرية يتم نتيجة العلم بالحقيقة وليس نتيجة الجهل. فـگروا الآن هل جعل الإنسان حيواناً أو طيراً أو سبعاً بواسطة التناصح يصعب إصلاحه أم يسهّله؟ لقد وهب الله تعالى الإنسان عقلاً، وثروة ومعرفة الحسنة والسيئة، وأعطاه قوة لاجتناب السيئات، ولكنه أذنب فحرمه الله العقل وجعله حيواناً غبياً لا عقل له، وبذلك جعل كسب الحسنة أصعب عليه من ذي قبل. إذن، إن إخراج الإنسان من حال أفضل ودفعه إلى حال أسوأ ينافي رحمة الله ويُبعده عن الإصلاح. أما إذا جعل إنساناً ثم أعيد إلى هذا العالم فستكون هناك حالتان: إما تكون لديه معرفة بالحياة السابقة أو سيكون جاهلاً بها. إذا كان يعرفها فلم يبق الإخفاء، فما معنى النجاة في حال انكشاف الحقيقة عليه وعلمه أنه عُوقب بسبب كذا وكذا. أما إذا كان جاهلاً بها فكيف يمكنه أن يصلح نفسه؟ بل سيقى دائراً في هذه الحلقة الفارغة على مدى الحياة، ومن الممكن أن يزداد سوءاً بدلاً من كسب الحسنات.

إذن، إن طريق الرحمة هو الذي بيّنه الإسلام، وهو أنه من كسب الأعمال الصالحة في هذه الدنيا يعطى فرصة للتقدم فيها في العالم الآخر. أما من اكتسب الذنوب فسيُزال صداؤه في جهنم حتى تكون له فرصة للنجاة في المستقبل على الأقل، وألا يدور في دوامة الولادات المتعددة دائماً.

الأمر الثاني المتعلق بالملكية الذي تعّرّ الناس بشأنه هو الكفارة. وهذا الخطأ أيضاً نتج عن عدم معرفة صفة الله "الرحيم". يقول النصارى: لو غفر الله للمذنبين لكان ذلك ظلماً، وما دام الله لا يستطيع أن يغفر لأحد ذنبه فلذا أرسل ابنه ليُصلب

تكفيراً عن ذنوب الناس. هذا الاعتراض أيضاً ناتج عن عدم معرفة صفة مالكية الله تعالى، لأن المالك يستطيع أن يغفر لمن يشاء، ومن ليس مالكا فهو الذي لا يستطيع أن يغفر. غير أنه يمكن أن يشار اعتراضً أن الإسلام يقبل أن الله لن يغفر بعض الذنوب. ولكن معالجة هذا الاعتراض هي أيضاً تحت صفة المالكية. فيقول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَيِّلٍ وَقَاتَلُوا وَقُتُلُوا لَا كُفَّرٌ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَكْهَارُ﴾ (آل عمران: ١٩٦)، أي لأن حون آثار سيئاتهم ولأسددهن من عندي ما عليهم من ديون. فائي اعتراض يقع إن أديّنا الكفارة عنهم؟ أقول: هناك فرقٌ بين هذه الكفارة والكافرة التي يؤمن بها المسيحيون؛ إذ يرى النصارى أنه ما دام الله لا يستطيع أن يغفر فقد ضحى بابنه، بينما يقول الإسلام إنه بِنَفْسِهِ مالك ويستطيع أن يغفر، ولكنه لا يضيع حق أحد بل يؤتي الأجر من عنده.

### الإصلاح المبدئي السابع عن صفة الله "رب العالمين"

الإصلاح المبدئي السابع الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "رب العالمين". كان كل قوم ينكر صفة الله "رب العالمين" وحصروا الهدایة في بلدتهم وقومهم فقط لدرجة أن المسيحية التي هي ديانة تبشيرية، كانت قد فتحت الباب للمستقبل، أما فيما يتعلق بالزمن الماضي فكانت تُحسب الهدایة منوطه باليهودية حصراً. ولكن القرآن الكريم أعلن عن المستقبل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩) وقال عن الزمن الماضي: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥).

(٢) كانت بعض الأقوام تُفضّل على أقوام أخرى، فكان قوم يُحسبون محترمين وغيرهم أذلاء مهانين. كان الهندوس قد حموا المساواة بواسطة التفريق بين الفئتين العرقيتين "برهمن" و"شودر"، وفعل اليهود الشيء نفسه بحصْر الكهنوت في بني لاوي. كذلك عدّ بعض الأقوام أنفسهم أحق بالأفضلية بسبب الحكومة. ولكن الإسلام

عد هذا الأمر أيضاً منافياً لصفة الله "رب العالمين" وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَأْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٤)، أي أن تقسمنا إياكم إلى فئات وقبائل لا يعني أن بعضكم كبار وبعضكم صغار، بل التقسيم يفيد التعارف فقط، وإنما أكرمكم هو أتقاكم، والله أعلم من يعمل بالتفويى ومن يختار طريق الاستكبار والتفاخر. وقد منع الله تعالى في هذه الآية من احتقار الآخرين بناء على التفوق الاجتماعي، وقال ﷺ إن الأفضلية تكمن في التقوى لا في الفئات العرقية والأقوام.

كذلك فند الله تعالى التفوق السياسي أيضاً وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٥)، أي كان يُعد بعضاً حاكمين ويقول عن غيرهم إنهم من قوم محكومين، ولكننا لم نضع أي قانون مفاده أن يكون قوم معين حاكمين إلى الأبد وقوم آخرون محكومين دائماً. الناس الآخرون أيضاً مثل الإنجليز تماماً، ولا يحق لهم أن يقولوا إننا سنجعلكم إلى الأبد، وغيرهم سيكونون محكومين دائماً.

### الإصلاح المبدئي الثامن عن صفة الله "الحكيم"

الإصلاح الثامن الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "الحكيم". كان في الأديان كلها قبل القرآن الكريم شعور أنه لا هدف من خلق هذا العالم. لا شك أن الهندوس والبوذيين كانوا يعتقدون بالنجاة وكان اليهود ينتظرون تلقي الحكومة والسلطنة، وكان النصارى يعتقدون بالنجاة من الموت والحصول على الأمن، وكان الزرادشتيون ينتظرون الجنة، ولكن لم يكن منها شيء يمكن عدده هدفاً لخلق العالم بل هي أهداف محدودة كلها لا توضح حقيقة الخلق. بينما حل القرآن الكريم هنا السؤال أيضاً وقال إن الهدف من خلق العالم هو أن ينال الإنسان -الذي هو عالم صغير - معرفة الله، التي تسمى اللقاء أيضاً بتعبير آخر، لأن الإنسان يعرف ما كان موجوداً بداخله. فمثلاً إذا كان زيدًّا يعرف بكرًا فهذا يعني أن صورة بكرٍ موجودة

في تكوين زيدٍ، وإلا لا يمكن أن يعرفه. فالمعرفة تعني أن الله تعالى قد حلَّ بالإنسان. يقول هنودسي إن الله دخل الإنسان، ولكن لو حصل ذلك لما بقيت لدى الإنسان أية حاسة ولن يستمتع بشيء أبداً. فمثلاً إذا أكل أحد جزراً فهل يستمتع الجزر بشيء؟ يقول الإسلام إن الله تعالى يحلُّ بالإنسان ومع ذلك يُقيِّ حواس الإنسان قائمة على حالمها. ويقول الإسلام إن هذا الأمر ليس خاصاً بِإنسان معين بل كل إنسان سيوصل إلى هذا المقام. فيقول: ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ (الذاريات: ٥٧)، أي قد خلقت الجن والإنس لعبادتي والتذلل لي لينصبعوا بصبغتي ويتصفوا بصفاتي. ولكن يكون هناك أناس لا ينالون هذه المرتبة، أي مرتبة لقاء الله تعالى. فيقول ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِأَيَّاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، أي أعذب من أشاء، ولكن هذا لا يعني أنني سأبقيه في العذاب إلى الأبد بل ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي قد خلقت رحمتي له أيضاً، وقد فرضتها للمؤمنين الذين يتقوون ويؤدون الزكاة ويؤمنون بأياتنا.

باختصار، إن المدف من خلق البشر -أيا كانوا؛ سواء يهوداً أو نصارى أو هنوداً أو مسلمين- أن ينالوا معرفة الله تعالى عاجلاً أو آجلاً، ويخلقوا صفاتَه ﴿كَذَلِكَ خَلَقَ أَبَا جَهَلَ﴾ كما خلق الله مهداً ﴿كَذَلِكَ خَلَقَ أَبَا جَهَلَ﴾، ولكن الفرق الوحيد هو أن مهداً ﴿كَذَلِكَ نَالَ هَذِهِ الْهَدْفَ بِإِخْتِيَارِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، بينما سُيُقَادُ أبو جهل إلى المدف نفسه بعد مروره بِأَنْوَاعِ الْعَقُوبَاتِ.

باختصار، من كان سباقاً في نيل هذا المدف سيفي في الأمام، ومن مشي في الخلف يُقيِّ في الخلف دائماً.

# فضائل القرآن (٦)

## ترتيب القرآن وحقيقة الاستعارات

### طريق إزالتة سوء الفهم الناتج عن الاستعارات والتشبيهات

(خطاب ألقى في ٢٨/١٢/١٩٣٦)

(بمناسبة الجلسة السنوية بقاديان)

بعد التشهيد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ عليه السلام الآيات التالية من الذكر الحكيم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَأْوَدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ \* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَأْوَدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ \* وَحُشِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلَ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ رَبِّ أَوْرِغْنِي أَنْ أَشْكُرْ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالْدَّيْرِ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ \* وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرِي

اَهْدَهُدَ اُمَّ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ \* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا اَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ اَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَمَكَثَ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَخْطَثُ بِمَا لَمْ تُحْكِمْ بِهِ وَجْهُنَّكَ مِنْ سَيِّئَاتِنِي يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ اُمْرَأً مَلِكُكُمْ وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ \* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ \* اَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُنْجِحُ الْحَبْءَةَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَحْمُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* قَالَ سَنَنْظُرُ اَصَدَقْتَ اُمَّ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ \* اَذْهَبْ بِكَتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿النَّمَلٌ: ٢٩-٣٦﴾

إن موضوع محاضري اليوم حلقة من سلسلة المحاضرات التي كنت ألقاها ما قبل ثلاثة سنين، أي "فضائل القرآن". ثم انقطعت هذه السلسلة لثلاثة أعوام لأن إلقاء محاضرة طويلة لم يكن ممكناً بسبب شهر رمضان. وهذه المرة أيضاً لا أستطيع أن أخطب طويلاً بسبب اعتلال صحتي. ولكن لما كنت قد عزمت على بيان هذا الموضوع سلفاً لذا رأيت من المناسب أن أبين جزءاً منه بمجاز.

### لِمَ يَدْعُ كِتَابَ سَوْيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَوْنَهُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ

إن جميع الأديان الموجودة في العالم يدعى أهلها أفضليتها وتقول عن كتبها الدينية أيضاً إنها أفضل الكتب، ولكن كتبهم لا تدعى ذلك. لم أر إلى يومنا هذا كتاباً سوياً القرآن الكريم ورد فيه أنه أفضل من كتب دينية أخرى. غير أن القرآن يدعى دون أدنى شك أنه أفضل من جميع الكتب الإلهامية. ولكن ما هو وجه أفضليته؟ يجب على المسلمين أن يرددوا على هذا السؤال. أصحاب الأديان الأخرى إما لا يقرأون القرآن الكريم أو يقرأونه بنظرة العناد ولا يقرأونه بقلب نزيه، أو لأنهم لا يملكون قلوباً مطهّرة - ويقول القرآن الكريم عن نفسه: ﴿لَا يَمْسِهُ اِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ - فلا تنكشف عليهم مفاهيم القرآن الكريم. فمن واجبنا نحن أن نوصل إليهم

معارف القرآن الكريم، وثبتت لهم أن القرآن الكريم ليس كتاباً أعلى فقط بل هو أفضل من جميع الكتب الإلهامية. لقد أقيمت خمس محاضرات من قبل حول هذا الموضوع، إذ قد أقيمت محاضرة تمهيدية في عام ١٩٢٨م، ولكن صحتي كانت معتلة جداً حينذاك لذا بيّنت بعض الأشياء في غضون ساعة أو ساعتين ونصف فقط. ثم أقيمت محاضرات مفصلة حول فضائل القرآن الكريم في الأعوام ١٩٢٩م، ١٩٣٠م، ١٩٣٢م، ١٩٣١م وقد اضطررت عندئذ أيضاً أن أترك بعض الأشياء.

لقد ألف المسيح الموعود عليه السلام كتاباً بعنوان "البراهين الأحمدية" وأبدى فيه نيته أنه سيبيّن فيه ٣٠٠ دليل لإثبات صدق الإسلام وأفضليته. ولكن عندما تأملتُ في الموضوع قيد البحث رأيتُ أن ٣٠٠ دليل - وإن لم أعدّدها - على أفضلية الإسلام وتفوّقه موجودة في رؤوس الأفلام التي أعددتها لهذا الموضوع. وإذاقرأ أحد رؤوس أفلامي لاتضحت له بحسب رأيي أمور كثيرة. أقول ذلك لأن الإنسان لا يعرف متى تنقطع سلسلة أنفاسه وتنتهي حياته، فلا أدرى هل سأقدر على بيان هذا الموضوع كاملاً أم لا، لذا ذكرتُ هذا الأمر. لقد جمعتُ هذه المادة كلها باختصار شديد، بل كنت في بعض الأحيان - في العامين ١٩٢٨م، ١٩٢٩م - أجمعها في إشارات فقط، وبّيّنتها أيضاً بمناسبة الجلسة السنوية. لا أذكر عدد الأدلة التي بيّنتها لذا لا أستطيع أن أذكر العدد بل سأتناول اليوم ضمنياً فقط جانباً خاصاً من أفضلية القرآن الكريم دون وضع العدد له. وإذا وفّقني الله تعالى لإكماله سيكون مقدمة جميلة لتفسير القرآن الكريم، وثانياً سيكتمل كتاب "البراهين الأحمدية" أيضاً، وذلك بالأسلوب الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام في بداية الكتاب، وإن أكمل فيما بعد بأسلوب آخر، أي بالأسلوب الذي أثبتت به الوحي والإلهام. وإن ما أثبتته بعثته وعظمة نبوته من غلبة الإسلام على الأديان كلها هو أكثر بكثير من تأثير ثلاث مئة دليل. وكتب المسيح الموعود عليه السلام بنفسه أيضاً أن سلسلة التأليف هذه قد

اختذت الآن أسلوبا آخر بسبب الإلهمات من الله تعالى، ولم يُعد من قبلنا أي شرط بل سيتّم الله تعالى هذا الأمر كما يشاء بغير الاهتمام بالشرط السابق، لأن الله تعالى بنفسه هو الكفيل لهذا الكتاب الآن، وإن مشيئته تريد إكماله بطريقة أخرى. ولكن لو تحققت أمنية المسيح الموعود الغٰيْلَةُ الأولى أيضا لتناشى اعتراض المعارضين أنه الغٰيْلَةُ لم يُكمل "البراهين الأحمدية" ولم يقدم ثالث مئة دليل على أفضلية القرآن الكريم على الرغم من وعده بذلك.

### "البراهين الأحمدية" والشيخ جراغ علي الحيدرآبادي

تكتب في هذه الأيام جرائد معادية لنا مثل "زميندار" و"إحسان" وغيرها أن شيخا باسم جراغ علي الحيدر آبادي كان يكتب هذه المقالات ويرسلها إلى المسيح الموعود الغٰيْلَةُ، وما دامت سلسلة المقالات جارية من قبل الشيخ المذكور استمر المسيح الموعود الغٰيْلَةُ في تأليف الكتاب، وعندما امتنع الشيخ عن إرسال المقالات له الغٰيْلَةُ انقطع تأليف الكتاب. مع أنه من غير المعقول تماما ما كان يحدث للشيخ جراغ علي إذ كلما خطرت بياله نكتة جميلة كان يرسلها إلى المسيح الموعود الغٰيْلَةُ مكتوبة، أما الكلام العادي من قبيل القيل والقال فكان يحتفظ به عنده. من المعلوم أن الشيخ جراغ علي صاحب تأليفات، فليقارن بين كتبه وبين البراهين الأحمدية ليعلم هل هناك أدنى مماثلة بينها. فما السبب في أنه يقدر على كتابة مقالات جميلة إلى هذا الحد لغيره ولكن عندما يريد أن ينشر مقالا باسمه لا يصل إلى ذلك المستوى؟

السؤال الأول هو: ما الذي أجبره على أن يكتب المقالات للمسيح الموعود الغٰيْلَةُ؟ وثانيا: إذا كان يكتب له الغٰيْلَةُ في كل الأحوال كان من المفروض أن يحتفظ بالمادة الجميلة عنده ويعطي غيره شيئا عاديا. كما يعرف الجميع عن الشاعر "ذوق" أنه كان ينظم الأبيات للشاعر "ظفر"， و"مجموعة أشعار ذوق" و"مجموعة أبيات ظفر" متوفرتان اليوم وقراءهما تبيّن بكل جلاء أن الفصاحة والبلاغة الموجودة في كلام

"ذوق" لا توجد في كلام "ظفر". وهذا يوحي بكل وضوح أن "ذوق" إذا أعطى "ظفر" شيئاً كان يعطيه من لفاظاته ولم يعطه شيئاً ذا مستوى عالٍ مع أن "ظفر" كان ملكاً.

باختصار، كل إنسان حتى ذي العقل البسيط أيضاً يستطيع أن يفهم أنه إذا كان المولوي جراغ دين يرسل المقالات إلى المسيح الموعود العليل، فقد كان عليه أن يحفظ بنكبات المعرفة الدقيقة عنده، ويكتب لل المسيح الموعود العليل أموراً بسيطة. ولكن كتب المولوي جراغ دين موجودة وكتب المسيح الموعود العليل أيضاً موجودة، فلينظر المرء بقراءتهما معاً هل هناك مجال للمقارنة بينهما. لقد جمع المولوي جراغ دين في كتبه مقتبسات من الكتاب المقدس فقط، بينما قدم المسيح الموعود العليل معارف القرآن الكريم التي لم تخطر ببال أيٍ مسلم في ١٣٠٠ عام، ولا يوجد واحد بالمائة أو جزء من الألف منها أيضاً في كتب غيره.

### المشكلة في فهم الكتاب الإلهامي

إن موضوع خطابي اليوم هو أن المواقيع الصعبة توجد في كل كتاب إلهامي، فتتشاء الشبهات حولها في قلوب الناس ولا تنحل بسهولة أو يبدأ النقاش بينهم حولها. فيقول أحدهم إنها تعني كذا ويقول آخر إنها تعني كذا ولا يكون الأمر واضحًا مثل أمر **﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** أما الذي يعرف اللغة العربية وهو ملِمٌ بالإسلام فiderك معنى هذا التعبير فوراً. ولا ينشأ نزاع أن المراد

**﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** هو الصوم وليس الصلاة، أو ليس المراد هو الصوم بل الحجّ. ولكن يمكن أن يكون هناك اختلاف في كيفية الصلاة وفي مستوى الخشوع والحضور بين الناس، كما يمكن أن يكون هناك فرق في المعرفة. ولكن لا يمكن الاختلاف في المعنى أن المراد منه هو الالتزام بالصلاحة، بل كلما تفوه أحد بتعبيـر: **﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** أو قرأه أحد في القرآن الكريم سيدرك فوراً أن معناه هو الالتزام بالصلاحة. أما المسائل

الصعبه فيفهمها البعض ولا يفهمها البعض الآخر. وهناك حاجة إلى أن يشرحها لهم العارفون، لأن عامة الناس إنما أنهم لا يتأملون فيها بأنفسهم أو أن قلوبهم لا تكون مهيئة لجذب فضل الله تعالى نتيجة إثم من الآثم. هذه المضامين الصعبه تكون على نوعين بوجه عام. الأول: المضامين العلمية المبنية على فلسفة دقيقة. خذوا مثلاً التوحيد، فكل واحد يستطيع أن يفهم من هذه المسألة أن الله واحد، أما دقائقها الأخرى مثل: كيف يؤثر التوحيد على كل فعل من أفعال الإنسان، فهي بحاجة إلى عارف وإلى عالم لشرحها لآخرين إذ لا يقدر كل واحد على أن يستخرج هذه الدقائق، إلا أنه سيفهم حتماً أن القرآن الكريم لا يقول بإله آخر. والنوع الثاني هو أن هذه المشاكل تنشأ عن مفاهيم لا تكون علمية ولكنها تكون قد ذُكرت بلغة التشبيه والاستعارة.

### نتيجة اعتبار الاستعارات حقيقة

كلما يكون الكلام بالاستعارات، وإن لم يكن دقيقاً، فإن عامة الناس يستنتجون لعدم فهمهم لغة الاستعارات معانٍ غير حقيقة. فمثلاً حدث في زمن رسول الله ﷺ أنه أمر زيد بن حارثة قائداً على الجيش للحرب في الشام، وقال: إذا قُتل زيد فليتولّ جعفر بن أبي طالب القيادة، وإذا قُتل جعفر فليتولّها عبد الله بن رواحة، فحدث كما قال النبي ﷺ بالضبط وقتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ﷺ، فتولّ خالد بن الوليد قيادة الجيش وعاد بهسلام وأمان. عندما وصل هذا الخبر إلى المدينة بدأت النساء اللاتي قُتل أزواجهن، والآباء الذين قُتل أولادهم بالبكاء بقدر ما تسمح به الشريعة. فقال رسول الله ﷺ -علي سبيل العزاء وليس لتجتمع النساء ويبدأن بالبكاء: لا بواكي لجعفر. أرى أنه لم يكن المطلوب بهذا القول فقط أن يبكي أحد على جعفر، بل كان المراد منه أن أخانا أيضاً قُتل في الحرب ولا نبكي عليه، فلتتصبروا أنتم أيضاً، لأن من أقارب جعفر

كان رسول الله ﷺ وأيضاً عليّ رضي الله عنه، وما كان لهما أن يبكيا بسبب علو مكانتهما. فلعل رسول الله قال ما مفاده: لا يبكي جعفر، من منطلق أن أخي جعفر أيضاً قُتل وما بكى عليه. فلما سمع الأنصار قوله ﷺ هذا، قالوا لنسائهم - لأنهم كانوا حريصين دائماً على أن يعملا بكل ما يقوله النبي ﷺ - اتركن البكاء والعويل هنا وادهبن إلى بيت جعفر رضي الله عنه وابكين هنالك. فاجتمعت النساء في بيت جعفر رضي الله عنه وبكين بشدة. ولما سمع رسول الله أصوات البكاء سأله عمّا يجري. قال الأنصار: لقد قلت يا رسول الله أنه لا يبكي جعفر فأرسلنا نساءنا إلى بيته ليبكين، فهذا هو صوت بكائهن. قال ﷺ: لم أقصد ذلك، فاذهبوه وامنوهن. فذهب أحدهم ومنعهن، فقلن: من أنت لتمعننا؟ لقد قال رسول الله ﷺ متأسفاً: لا يبكي جعفر، فكيف تمنعنا؟ عاد الأنصاري مع هذا الجواب إلى رسول الله ﷺ لأن بعض الناس يحبون أن يذكروا كل صغيرة وكبيرة عن الآخرين، فقال: إنهم لا يطعنون. قال: "فاحث في أفواهِهِنَّ التُّرَابَ". كان النبي ﷺ يقصد من ذلك أن اتركهن وشأنهن وسيسكتن تلقائياً بعد شيء من البكاء. ولكن الرجل أخذ التراب في قماش وبدأ يحثوه على رؤوسهن. فقلن: ماذا تفعل يا جاهل؟ قال: لقد أمرني رسول الله: "فاحث في أفواهِهِنَّ التُّرَابَ"، فلا بد لي من فعل ذلك. ولما علمت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، رجرته وقالت: لم تفهم قصد النبي ﷺ، إذ كان يريد من قوله هذا أن اتركهن وشأنهن وسيسكتن بأنفسهم بعد شيء من البكاء، ولم يقصد ﷺ أن تihil التراب على رؤوسهن وفي أفواههن. إذن، كان كلام النبي ﷺ المذكور كان من باب الاستعارة، ولكن الرجل بدأ بإلقاء التراب عليهن عملياً. إذن، بعض الناس لا يحاولون أن يفهموا الاستعارة، وأخذنون منها أحياناً معنى حرفياً ينافي الحقيقة، وهكذا ينقلب الموضوع رأساً على عقب.

## الاستدلال الخاطئ من الخيط الأبيض والخيط الأسود

ضررت لكم مثلاً من كلام المجتمع العربي، والآن أضرب مثلاً من المجتمع البنجائي. لقد جاء في القرآن الكريم عن وقت السحور في شهر رمضان: ﴿وَكُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذه استعارة والمراد منها هو أن استمروا في الأكل والشرب ما لم ينبلج الفجر. ولكن كثيراً من الفلاحين كانوا يحتفظون فعلاً بخيط أبيض وخيط أسود عندهم، وما دام الخيط لا يُرى جيداً إلا بعد فترة من انبلاج الصبح لذا يستمرون في الأكل والشرب إلى طلوع النهار. فهذه نتيجة عدم فهم الاستعارة. وما يكون بصر بعض الناس ضعيفاً نسبياً، لذا يمكن أن يثبتوا من هذه الآية جواز الأكل والشرب إلى ما بعد طلوع النهار أيضاً لأنهم لن يعرفوا الفرق المذكور إلا في ضوء الشمس. كان أخونا الدكتور مير محمد إسماعيل يدرس في لاهور وكان يسكن في بيت أحد الأحمديين. وذات يوم لم يوقظه أهل البيت زاعمين أنه لا يزال صغيراً، ولكن السيد محمد إسماعيل كان مولعاً بالصيام، كما هي عادة الأطفال الصغار، فاستيقظ عند نهاية وقت السحور وكان الضوء منتشرًا، ومن جانب آخر خطر بيال صاحب البيت أن يُطعمه لئلا ينزعج. فلما أراد محمد إسماعيل أن يفتح الباب قال له صاحب البيت: لا تفتح وإنما سيتراء الصورة، وسأناولك الطعام دون فتح الباب.

## الاستعارات في نبوءات الأنبياء

باختصار، يستنبط الناس من الاستعارات معاني بحيث يحملونها محمل الحقيقة فيتغير المعنى إلى حد كبير. هذه المشكلة يواجهها الناس بشأن الكتب الإلهامية بوجه خاص، إذ يقول الناس بأنه كتاب الله ولن نسمح باستنباط معنى آخر من آية آية من آياته. توجد الاستعارات في نبوءات الأنبياء أيضاً، بل الحق أن كل شخص يستخدم الاستعارات كل يوم. ولكن عندما يجدون الاستعارة في كلام الأنبياء

يقولون: لن نسمح باستنباط معنى آخر منه وإنما سيثبت أن الأنبياء أيضاً يكذبون، والعياذ بالله. بل دعك من كلام الله وكلام الأنبياء، يختار الناس موقفاً قاسياً جداً بشأن كلام الصلحاء أيضاً ويحملون الاستعارات في كلامهم محمل الحقيقة بدلاً من حملها محمل الاستعارة.

### طُرْفة

لقد ألف أخوناشيخ يعقوب علي عرفاني حكاية بعنوان: "سلك مرواريد" وأورد فيها قصة امرأة كانت تجادل كثيراً وتفحص المشايخ.قرأ أحد أفراد الجماعة في مدينة "كاكهغره" هذا التأليف، وذات مرة سأله الإخوة - في أيام الجلسة في عهد المسيح الموعود عليه السلام أو في عهد الخليفة الأول عليه السلام: هل ستذهب للاشتراك في الجلسة؟ قال: هذه المرة أريد السفر إلى جهة أخرى. سأله: إلى أين ذهابك؟ لم يكشف الأمر في بداية الأمر، ثم قال بعد إصرار السائلين: أريد السفر إلى مدينة "سهازنبور" لأن امرأة صالحة وخبيرة تسكن هنالك وهي مذكورة في كتاب "سلك مرواريد" (كانشيخ يعقوب علي عرفاني قد قال في كتابه أنها تسكن في سهازنبور) أو أنا مشتاق إلى لقائهما. قالوا: يا صاحبنا، تلك حكاية محضة كتبهاشيخ يعقوب علي وذكر فيها امرأة افتراضية فقط ولا نعلم هل هناك امرأة بهذه الصفات تسكن في سهازنبور في الحقيقة أم لا. قال: هل تحسبونشيخ يعقوب علي كاذباً، وهو أحد أصحاب المسيح الموعود عليه السلام؟ قالوا: الأمر لا يمت لكونه كاذباً بأدنى صلة بل تلك حكاية وتدل الأمور في الحكايات على هذا النحو. قال هؤلاء الإخوة إن ذلك الرجل لم يصدق كلامنا بداية، ولما أكدنا له مراراً وتكراراً قال: هل الأمر هكذا؟ دعوني أصل إلى قاديان، سأقول للمسيح الموعود عليه السلام أن يطرد شخصاً كاذباً مثله من الجماعة فوراً ولا يُقيمه في الجماعة ولا دقيقه واحدة. لقد أعيني جمع النقود للسفر إلى سهازنبور وعلمتُ الآن أن القصة كلها كذب وزور. فقد

تعذر على هذا المسكين الفهم أنه ليست هناك امرأة من النوع المذكور بل هذه حكاية افتراضية أُلْفِت لتشويق الناس لقراءة الحكايات ليطّلعوا على معتقدات الأحمدية بهذه الطريقة.

### عقلية الذين لا يفهمون الاستعارات

باختصار، المشكلة بشأن الكتب الدينية هي أنه كلما وردت فيها استعارة هبّت فتة من الناس وقالوا: لن نسمح لكم بخطو خطوة واحدة إلى الأمام ما لم تقبلوا الأمر حرفيًا بالكلمات التي وردت في القرآن الكريم. فمثلاً إذا ورد ذكر أخبار من لبٍ في الجنة لا يوقنون بوجودها ما لم يقولوا بأنّ لدى الله جواميس كما لدى الناس في محافظات باكستانية مثل مونتموري، ولا هور وشি�خوبوره. وإذا جاء ذكر الموز لا يقتنعون ما لم يقولوا بوجود الموز كما في مومباي. وإذا ذُكرت الخمر فقد يقبلون أن الخمر في الجنة أكثر نقاء ولكن لن يقبلوا أنه يمكن أن يكون المراد من الخمر شيء آخر. وإذا ذُكرت الحوز والعلمان ثارت شهوّهم ثورة لا مثيل لها.

في عهد الخليفة الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سافرث ذات مرة إلى لكتهناو لزيارة مدينة "مدرس"، وصادف ذلك انعقاد جلسة ندوة العلماء. فذهبث لمشاهدتها وقائعاًها. كان هناك أستاذ هو المولوي عبد الكريم، وكان خطابه عن محاسن الصلاة. كان عدد الحضور قليلاً ولكن معظمهم كانوا مسلمين من طراز المشايخ. كان ضمن الحضور محام مسلم جالس بجانبي. بدأ المولوي المذكور بإلقاء المحاضرة وقال: يجب على الناس أن يتزموا بالصلاحة. وأكبر فائدة منها هي أن الإنسان يدخل الجنة بسببيها. وما هي الجنة يا تُرى؟ ثم بدأ يصف كيفية الجنة بكلمات لا يمكنني بيانها، وسأكتفي ببيان جزء وجيزة جداً منها. قال: ستكون فيها صور جميلة جداً، وإذا شغف المرء بالنظر حباً في صورة معينة سوف تتحول إلى امرأة جميلة فوراً، ومن ثم تبدأ العلاقات بين الرجل والمرأة ولن تنتهي هذه العلاقات كعدم زوال الجنة.

إذن، هذا العيب في فهم المحاضر كان عائداً إلى أنه قرأ من القرآن الكريم بعض كلمات تتحدث عن الحور واستنتاج منها أن ما يحدث في هذه الدنيا سيحدث تماماً في الجنة أيضاً. الحامي الذي كان جالساً بجانبي قال: من حسن الصدفة أن موعد محاضرته كان ليلاً، فإن كانت محاضرته في النهار وحضرها عدد أكبر من المستمعين لواجهنا خزياناً كبيراً. باختصار، يواجه الناس في معاملتهم مع الكتب الإلهامية مشكلة بوجه خاص، وهي أن الناس يقولون بأنه كتاب الله فيجب حمل التشبيه والاستعارة المستخدمة فيه محمل الحقيقة ولا يمكن أن يكون لها معنى آخر بأي حال.

### صعوبة فهم المضامين العلمية لدى عامة الناس

كذلك يصعب كثيراً على عامة الناس فهم المضامين السامية الواردة في الكتب الإلهامية، وهذا الأمر عدة أسباب. الأول: إن ترتيب الكتب الإلهامية يكون مختلفاً عن الكتب العادية. ففي الكتب العادية تُبيَّن أولاً مسائل الوضوء مثلاً ثم تُذكر مسائل العبادات، ثم تُذكر في باب مسائل النكاح، وفي باب آخر يأتي ذكر الطلاق والخلع، وفي باب آخر تُذكر أشياء أخرى. وحيثما تُذكر المسائل من هذا النوع تُذكر معاً. ولكن الأمر لا يكون كذلك في الكتب الإلهامية، بل يكون ترتيبها غريباً و مختلفاً تماماً عن الكتب الدينية لدرجة أن يقول الجهلاء إنه لا ترتيب فيها أصلاً.

### حكمة اختلاف الترتيب في الكتب الإلهامية

السؤال الذي ينشأ هنا هو: لماذا جُعل ترتيب الكتب الإلهامية مختلفاً عن الكتب الدينية العادية؟ وجوابه أن في ذلك حِكماً كثيرة.

(١) هذا الترتيب يهدف إلى إنشاء الرغبة والمتعة في الكلام كله. ولكن لو كان ترتيب الكتاب الإلهامي كترتيب كتاب "القدوري" مثلاً حيث ذُكرت مسائل الوضوء والنكاح، لبدأ الناس العمل بتلك المسائل بالذات بحسب أذواقهم، ولما قرأوا بقية

القرآن الكريم. ولكن الله تعالى قد نشر المسائل كلها بأسلوب لا يستطيع المرء أن ينال علمها الكامل ما لم يقرأ القرآن كله.

(ب) لقد اختار الله تعالى هذا الترتيب لخلق عادة التأمل والتدبر أيضاً في الناس. فلو ذُكرت في القرآن المسائل مثل الكتب العادية لما انتقل ذهن الناس إلى مفاهيم دقيقة أيضاً لتلك المسائل ولقراء الناس بنظرة سطحية وحرموا من التأمل والتدبر، ولكن الله تعالى قد نثرها في القرآن كله وجعلها متداخلة فيما بينها كي يضطر الإنسان للتأمل والتدبر لاستخراجها، فيتبين له أن القرآن بحر.

(ج) لقد وضع هذا الترتيب لسبب آخر أيضاً وهو خلق خشية الله تعالى، لأنه كان ضرورياً لخلق خشية الله. فمثلاً لو ذُكرت المسائل ببساطة أن توضأوا هكذا، وتضمضوا هكذا واعبدوا هكذا وصلوا ركعات كذا وكذا، لما نشأت خشية الله. كما أن كافة مسائل العبادة وما شابها مذكورة في "القدوري" و"المداية" وغيرها أيضاً ولكن لا تنشأ خشية الله بقراءتها. ولكن حين يقرأ المرء المسائل نفسها في القرآن الكريم يرخر قلبه بخشية الله، لأن القرآن الكريم يبيّنها خاضعة لخشية الله وليس منفصلاً عنها. والحق أن الهدف الحقيقي من مسائل الصلاة والصوم والحج والزكاة هو الحصول على التقوى. فالقرآن الكريم يقدم التقوى ليكون الإنسان جاهزاً لل موضوع سلفاً إذا طُلب منه أن يتوضأ، ويكون مستعداً للصلاحة سلفاً إذا قيل له أن يصلّي. لو كان في القرآن باب منفصل لبيان الصلاة لما نشأت بقراءته خشية الله. إذن، ما دامت الكتب الإلحادية تقدم الإصلاح لذا فهي تحمل الترتيب السطحي وترتّب ترتيباً جديداً يحرك العواطف، أي يذكر الكتاب الإلحادي تغيرات تنشأ في القلب. فلا يذكر الصلاة بعد الوضوء بل يوجه الإنسان نتيجة الوضوء إلى الروحانية والطهارة وقرب الله تعالى، لأنه بسبب الوضوء تنشأ عواطف الروحانية. ثم عندما يأتي الأمر إلى بيان مسألة الصلاة لن يشرع الله تعالى في بيان مسائل الصلاة بل سيوجه

الإنسان إلى نفسه مستغلاً العواطف التي تنشأ في القلب نتيجة ذكر السجود والركوع وغيرهما، ليأخذ الإنسان من العواطف التي تنشأ في نفسه تأثيراً يقربه من الله تعالى.

### مثالان للحالات القلبية

باختصار، إن ترتيب القرآن الكريم ليس مبنياً على الظاهر، بل على موجات العواطف القلبية، وهذه الموجات تكون مختلفة. أضرب على ذلك مثالين اثنين، أحدهما حسن والآخر سيء. يُروى أن إمام مسجد هم ذات يوم إلى إمامية الصلاة، ورأى أن المقتدين ميسورو الحال، فذهب وله في الصلاة إلى أنهم لو أعطوني بعض المدايا لتكدست عندي أموال كثيرة. وإذا اجتمعت عندي أموال سأشتري بها سلعة تجارية وسأقوم بتجارة واسعة النطاق، وسأذهب بأشيائي إلى دلهي تارة وإلى كالكوتا تارة أخرى. باختصار، ظل يفكر على هذا النحو، ثم رسم خطة تجارية بين الهند وبخاري. فكان في الظاهر يركع ويسجد، ولكنه كان في وادٍ ظاهرياً وأفكاره في وادٍ آخر تماماً. كان ضمن مقتديه رجل صالح فطّرأت عليه حالة الكشف وأخبر بكل ما كان يدور في خلد الإمام من الأفكار، فقطع الرجل الصالح صلاته وتحى عن المصلى. عندما أنهى الشيخ الصلاة سخط من الرجل الصالح وقال: ألا تعلم مسألة أنه يجب أداء الصلاة خلف الإمام؟ قال: أنا أعرف المسألة ولكن صحتي ضعيفة، وقد ذهبتُ معك إلى دلهي، ومن دلهي إلى بخاري، وتعبرتُ بذلك كثيراً، ولأنني ما كنت قادراً على احتمال عناء السفر الطويل لذا انفصلت عنك. فلزم الإمام الصمت نادماً.

إذن، هذه كانت أفكار سخيفة نشأت في قلبه ولكن ترتيبها كان بحسب عواطفه القلبية. والمبأً نفسه ينطبق على الأفكار الحسنة، أي التي تنشأ بالأسلوب نفسه. لعلكم جربتم أكثر من مرة أنكم تسجدون وتقرأون: "سبحان رب الأعلى" ويكون قلبكم أيضاً حاضراً حينذاك، يتراءى الإمام

عينيك مشهد سبوحية الله تعالى. ففي هذا الوقت يخرج من لسانكم "سبحان ربى الأعلى" للمرة الثانية والثالثة ولكن قلبكم يبقى معلقاً بـ "سبحان ربى الأعلى" الذي تفوهتم به أول مرة. أو تقولون "الحمد لله" ويكون قلبكم حاضراً، عندها تمر من الله تعالى أمام أعينكم واحدة بعد أخرى تحت حمده بِسْمِ اللَّهِ، وتغرقون في ذكر تلك المنن. وفي هذه الحال إذا صلّيتم وراء أحد ستسجدون وراءه تارة وترکعون تارة أخرى وتقولون بـ لسانكم "سبحان ربى العظيم" وما شابه، ويكون الحمد مستولياً على قلوبكم. إذن، ترد على القلوب بعض الكيفيات الروحانية، وهي الصلاة الحقيقية. صحيح أن الإنسان في ذلك الوقت يتفوّه ببعض الكلمات ولكن عواطفه تكون سائرة على طريق روحي معين. إذن، إن ترتيب القرآن الكريم مبني على الكيفيات التي ترد على المؤمن. لا يذكر القرآن الكريم الصوم بعد الصلاة لأنّه يعلم ما هي الأفكار التي ستنشأ في الإنسان بعد قراءته تعليمه هذا. في حين القرآن الكريم الأفكار التي يمكن أن تنشأ في قلب الإنسان. إذن، إن ترتيب الكتب الدينية ولا سيما ترتيب القرآن الكريم ليس مبنياً على العلاقة الظاهرة بل هو مبني على العواطف التي تنشأ عند قراءته. ما دام الله العالم بالغيب ويعلم نوعية العواطف التي يمكن أن تنتج عن آية كذا أو حكم كذا، لذا أسس الترتيب على العواطف التي تنشأ في قلب المؤمن بدلاً من التوجّه إلى الترتيب الظاهري. ولكن هذا يسفر حتماً عن نتيجة أن الذين لا يقرأون القرآن بعواطف الحب والود يبدو لهم هذا الكتاب غير متع، فيقولون: ما هذا؟ كان ذكر موسى جاريا آنفاً فلماذا بدأ بذكر نوح فجأة ثم ذُكرت وقائع شعيب - عليهم السلام. أو كان الحديث جارياً عن الربا ثم ذُكرت إلى جانبه الصلاة فجأة. فتبعدوا لهم هذه الأمور بلا ترابط داخلي تماماً فلا يقدرون على استيعاب العلاقة بينها. ولكن الموضوع نفسه عندما يبلغ عالِماً يستمتع بسماعه أيما استمتاع.

## مبدأ الاستفادة من علوم القرآن

وإذا قلتم: ما الحل إذن؟ مع أنه ليس لهذا السؤال علاقة مع الموضوع ولكن لما قلت إن الإنسان ينجرف أحياناً مع تيار العواطف لهذا سأبين أنا أيضاً حلّين أو ثلاثة حلول تحت تأثير العواطف.

**الحل الأول:** يجب على الإنسان أن يقرأ الكلام كله مراتاً وتكراراً، دون أن يختار منه جزءاً معيناً للقراءة.

**الحل الثاني:** ويجب أن يقرأه حين يكون قلبه زاخراً بعواطف الحب والإخلاص. والذين تكون عاطفة الحب عندهم كاملة كل حين، يكفيهم أن يحددوا وقتاً في الصباح أو المساء للتلاؤمة. أما الذين لا تكون عاطفة الحب عندهم كاملة على هذا النحو فليتلوه حين تكون عواطف الحب في قلوبهم ثائرة، سواء أثارت ظهراً أو في وقت آخر.

**الحل الثالث:** يجب أن يقرأ القرآن الكريم بيقين أن فيه كنزاً غير محدود. والذي يقرؤه واعضاً في الحسبان أن معارفه ومفاهيمه مقتصرة على ما يخبره به الشيخ، أو ما هو مكتوب في الكتب السابقة، يبقى هذا الكتاب مغلقاً عليه. أما الذي يؤمن أن فيه كنزاً فينجح في الحصول على معارفه وعلومه.

قبل عام ونصف تقربياً جاءني شخص وقال: أريد أن أسألك شيئاً. كنت مستعجلاً فقلت: هل السؤال وجيزة أم يتضمن التفصيل؟ قال: أريد دليلاً على صدق المرزا المحترم. قلت: الأدلة على صدق المرزا المحترم موجودة في القرآن كله. قال: أخبرني عن آية بهذا الشأن. قلت: إذا قرأتُ عليك آية فقد تقول بأنها لا تعنى كذا بل تعنى كذا وكذا. لذا اقرأ أنت آية آية من القرآن الكريم وسأثبت منها صدقه. فقرأ فوراً آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فبيّنتُ معناها بإيجاز وقلت له إن صدق المسيح الموعود العليّ ثابت من هذه الآية

أيضاً. قللتُ: أخبرني كم من أنس يذهبون إلى المساجد في هذه الأيام. قال: قليل جداً. ثم قلت: كم عدد المسلمين الذين يعرفون حقيقة الصلاة؟ قال: إن عددهم قليل جداً. قلت: كم عدد الملتزمين بالصلوات الخمس؟ قال: أقل من الفئة السابقة أيضاً. قللتُ: إن الله تعالى يقول في هذه الآية إن بعض الناس يقولون بأنهم مؤمنون مع أئمهم ليسوا بمؤمنين. أنت تعرف بنفسك أن هذه الآية التي نزلت في زمان محمد رسول الله ﷺ تُظهر صدق مضمونها اليوم أيضاً. فإذا ظهرت للعيان اليوم أيضاً مساوئ كانت موجودة في زمان محمد رسول الله ﷺ أليس ضروري أن يأتي مصلح لإزالتها؟ وردت هذه الآية في القرآن الكريم لتؤكد على أنه ما دام الأشرار موجودين في العالم فأرسلنا محمداً ﷺ رسولاً. وإذا كانت هناك حاجة إلى القرآن الكريم لإصلاحهم، وكانت هناك حاجة إلى محمد رسول الله ﷺ، ثم ما دام الناس مثلهم موجودين في العصر الراهن، وأنت تعرف بنفسك أن مضمون هذه الآية ملحوظ بوضوح من أعمال الناس، فكان ضروري أن توجد في العصر الراهن أيضاً أسباب للإصلاح كما وُجدت في زمان محمد رسول الله ﷺ، فلهم الصبر.

باختصار، لقد ذُكرت في القرآن الكريم مفاهيم لو تأمل فيها الإنسان لوجد أن كنوزها لا تنفد. أما الذين يحسبونه كتاباً مغلقاً، ويزعمون أنه لا يمكن استخراج المعرف الجديدة منه فلا ينكشف عليهم الأمر فعلاً. كما لو مررت بغاية ورأيت آلاف الأشجار فقد لا تتأملون في أي منها، أما إذا جاء المسؤول عن قسم الغابات لمعايتها فسيستخرج عشرات الأمور الجديدة، كذلك الذي يقرأ القرآن الكريم واضعاً في الحسبان أنه كنز لا ينفد فسيستفيد منه، والذي لا يقرؤه بهذه النية يُحرم.

### استخدام التشبيه والاستعارة في كل لغة

المشكلة الثانية بشأن مفاهيم الكتب الإلهامية، كما قلت من قبل، هي التشبيه والاستعارة. إنماما يُستخدمان في كل لغة في العالم. كذلك في كل كتاب علمي راقٍ

تُستخدم التشبيهات والأمثال، كما تُستخدم الاستعارات في كل بلد. ففي بلادنا مثلاً تعبير معناه الحرفى هو: جلست العين. ولكن لا يتساءل أحد: هل للعين رجال؟ أو هل جلست على العرش أو على الكرسي، لأن كل شخص يعرف جيداً أن المراد من "جلوس العين" هو أنها ضاعت أو فقئت. كذلك هناك عشرات بل مئات من التعبيرات المستخدمة في الأردية، وتدل على كمال اللغة.

إذن، التشبيه والاستعارة شيء ضروري لا مندوحة منه. وأن المواقع تتحسن بما لذلك تستخدمها الكتب الإلهامية أيضاً، وبذلك تشهد أن استخدام التشبيه والاستعارة ضروري جداً.

### مشاكل الناس بشأن الكتب الإلهامية

ولكن كما قلْتُ إنه ما دامت الكتب الإلهامية مهمة جداً فقد يصر الناس على كل كلمة منها فيرتكب الواقعون في الخطأ بسبب التشبيه والاستعارة الإفراط والتغريط. فمن الناس من يهمل التشبيه والاستعارة كلياً ويحملها محمل الحقيقة. فإذا ورد ذكر يد الله قالوا: إن يد الله من الجلد مثل يدنا تماماً، وهذا أصواب أيضاً. وإذا قيل لهم إن المراد من يد الله هو قوته وقدرته قالوا: إنكم تأتون بالتأويلات، فما دام الله تعالى قد استخدم كلمة اليد فلا يتحقق لكم أن تقولوها. وإذا جاء ذكر عين الله قالوا: إن لها مقلة أيضاً. وإذا أخذ من ذلك معنى آخر قالوا: هذا تأويل، وإن استنتاج معان على هذا النحو إساءة إلى الله تعالى. وإذا وردت عن الله كلمات: ﴿استوئى على العرش﴾ (الأعراف: ٥٥)

قالوا: لن يتحقق صدق القرآن الكريم ما لم نعتقد بجلوس الله على عرش من الرخام، وإذا جاءت في الأحاديث بعض الكلمات مثل أن الله تعالى سيضع قدمه في جهنم، أو وجدوا في القرآن: ﴿يَوْمَ يُكْسَفُ عَنْ سَاقِ﴾<sup>١</sup> لا يهدأون ما لم يقولوا

بأن الله سيكون لابسا سروالا، ويرفعه عن ساقه، والعياذ بالله. فقد تعشروا لعدم فهمهم التشبيه والاستعارة وقالوا بتجمّس الله تعالى، ولم يفكروا في الحكمة وراء استخدام هذه الكلمات.

### في ثورة العشق .. يزول الحرج

لا شك أن الإنسان يتفوّه أحياناً منجرفاً مع تيار العواطف بكلمات يبدو منها ظاهرياً أن الله تعالى أيضاً جسداً، ولكن هذه الحالة تكون مؤقتة تطأ على الإنسان عند اندفاع العواطف. يقول الرومي صاحب المثنوي ما معناه: كان موسى العليّ ذات مرة مارّا بفلاة فرأى راعي أغنام كان يقول متلذذاً: يا إلهي لو وجدت لسقينك حليب الشاة الطازج، واستخرجت من رأسك القمل، وغسلتُك جيداً، وإذا وخذت قدمك شوكه أخرجتُها. فلما سمع موسى هذا الكلام منه ضربه بعصاه وقال: يا أيها الغبي أنت تسيء إلى الله تعالى! فتلقي موسى العليّ إهاماً فوراً قال الله له فيه ما معناه: يا موسى إن هذا الشخص لا يعرف عن أي كتاب لي ولا عن الإلهام، ولا يدري عن عظمتي شيئاً، فكان يتحدث إلى مشغوفاً بعاطفة الحب، وهل كان يضرك بشيء إن استمر في الحديث معي على هذا التحول؟ ففي الدنيا أناس يقيسون الله تعالى على عامة الناس، وعندما يثور حبهم يقولون: لو وجدنا الله تعالى لخدمناه، مع أن الله تعالى أرفع وأسمى من الخدمة. باختصار، هذه الحالة تنم عن جيشان العواطف ولا يمكن الاستدلال منها أن قائلها يقول إن الله تعالى جسماً. ولكن هناك بعض المثقفين أيضاً الذين يتمسكون بالكلمات ويقولون بأن المراد من يد الله هو اليد المادية، والمراد من عينه هو العين المادية.

### تجاوز الحدود من قبل أناس ذوي طبائع فلسفية

هذا، وهناك أناس آخرون لا يوجد فيهم حماس الحب، بل تكون الفلسفه ثائرة فيهم. فحين يسمعون شخصاً يقول إن الله عيناً، ويقول غيره: ليس له عين بل المراد

منها كذا وكذا، كما ليس المراد من يد الله هو اليد المادية بل المراد هو قوته وقدرته، فيفهمون من ذلك أن القرآن الكريم كله استعارات. وحين يقال لهم إن القرآن يأمر بأداء الصلاة يقولون: ليس المراد من ذلك أداء الصلاة بل المراد هو إنشاء الحب لله. يأمر القرآن الكريم بالصيام، فيقولون: هذا لا يعني أن نجوع بل المراد هو ألا تأكلوا الحرام. وعندما يذكر لهم الحج يقولون: ليس المراد منه الذهاب إلى مكة دونما سبب بل الهدف من هذا الأمر هو أن يذهب الإنسان حيثما اقتضت الحاجة القومية اجتماعاً، سواء أذهب المرء إلى مدينة عليغره أو إلى مكان آخر. قد توسع بعض الناس في الاستعارات لدرجة أن قرأت تفسيراً وصف فيه القرآن كله استعارات ومجازات. فمثلاً إذا ورد في آية اسم موسى أخذ منه معنى آخر وإذا جاء اسم آدم أخذ منه معنى آخر تماماً. الإنسان من هذا القبيل يصبح سوفسطائياً كلياً، ويكون مثلك كمثل الذي ذهب إلى مملكة وقال له: أيها الملك الكريم، كل شيء هنا وهم، فأوقفه الملك في الباحة وأطلق عليه فيلاً هائجاً ووضع سلماً أيضاً على سبيل الحذر ليتسلقه لإنقاذ نفسه إذا هجم عليه الفيل. فلما هاجمه الفيل هرع الرجل ليتسلق السلم. فقال له الملك: أين تذهب يا رجل، إذ ليس هناك فيل بل هذا وهم كله؟ كان الرجل شاطراً جداً فقال: من الذي يهرب أيها الملك الكريم؟ ليس هذا إلا وهمك فحسب. إذن، إن بعض الناس يتمادون في الاستعارة بحيث لا يتركون كلاماً إلا ويحملونه محمل الاستعارة. إنهم يرون أن المراد من اسم الله هو القوة، ومن الملائكة الأخلاق، ومن الجنة والجحيم التقدم أو الزوال القومي. ويرون العادات كلها لغواً، والعياذ بالله وُضعت لتعليق الناس.

### حالة المسيحيين الدينية

في بعض الأقوام يلاحظ كلاً الأمرين في آن معاً، أي يقول أفرادها عن بعض الأمور إنها استعارة ويقولون عن بعضها الآخر إنها ليست استعارة. وهناك بعض

الأقوام التي إذا كانت مصلحتهم تكمن في الاستعارة اعتبرت الكلام استعارة وإذا كانت مصلحتهم في حمل الكلام على الحقيقة حملوه على الحقيقة. المسيحيون يتصرفون على هذا النحو، أي يختارون ما يرون فيه مصلحتهم. فمثلاً قال المسيح اللَّهُمَّ إِنَّهُ أَنْتَ الْعَزِيزُ إنه ابن الله، ولكن قوله هذا كان مبنياً على الاستعارة، ولكن المسيحيون حملوه محمل الحقيقة وقالوا إن عيسى ابن الله حقيقة. ولكن عندما أمر المسيح بالصيام وعبادة الله قالوا إنها استعارة. أي حملوا كلامه ما رأوا فيه مصلحتهم. يُروى أنه مات زوج سيدة، فأخذت تبكي وتنوح وقالت إظهاراً لمسكتها وعدم حيلتها أن زوجي كان قد أقرض فلاناً مبلغاً كذا وكذا، فمن سيستلمه منه الآن؟ كان هناك شخص جالساً قريباً منها، فقال: أنا سأتولى هذا الأمر. ثم قالت: له أرض وأملاك كذا وكذا في مكان كيت وكيت، من سيتولى أمرها الآن؟ قال الرجل مرة أخرى: أنا سأتولى أمرها. ثم قالت: كان على زوجي ديناً مئة روبية لفلان، فمن سيدفعه الآن؟ قال الرجل الذي تكلم سابقاً: هل علي أنا وحدي أن أتكلف مسؤولية كل شيء؟ فليتكلم أحد من الأقارب غيري أيضاً. فهكذا جعل المسيحيون دينهم؛ فحين يقول عن عيسى اللَّهُمَّ إِنَّهُ أَنْتَ الْعَزِيزُ إنه ابن الله يأخذون الكلام على حرفيته، وحين يقول إنه لا سبب لإخراج الجنّ إلا الصوم قالوا هذه استعارة.

### ضرورة الاستعارات

السؤال الذي ينشأ هنا هو: ما دامت هناك أخطار إلى هذا الحد في الاستعارات فلماذا استخدمتها الكتب الإلهامية؟ طلما المشاكل تنشأ إما بتحديد الاستعارات أو بتوسيع نطاقها، فأي ضير كان إن لم تُستخدم الاستعارات؟  
والجواب هو أن هناك أكثر من حاجة إلى استخدام الاستعارة.

**الأولى:** إنها تفيد الإيجاز. الإيجاز الذي يفيده التشبيه والاستعارة لا يمكن بأي طريقة أخرى. فالتشبيه والاستعارة تُحصر المضامين الطويلة جداً في جملة واحدة.

فمثلاً ورد في القرآن الكريم: ﴿فَالِّقُ الْإِصْبَاح﴾ لقد استخدمت كلمة "الإِصْبَاح" بصيغة الجمع، واستخدم معها "فالِق"، ويبدو في الظاهر أنَّهما كلمتان منفصلتان، ولكن لو تأملنا في المضمون المذكور هنا لوجدنا أنَّه طويل جداً. فقد قيل هنا إنَّ هناك عديداً من الظلمات، والإِزالتها هناك وسائل. والعروة الأخيرة لهذه السلسلة هي ذات الله تعالى. عندما تتهيأ هذه العروة تزول الظلمة وينفلق الصبح. نرى في الدنيا أنَّ الناس يمرضون ويعالجهم الأطباء. ولكن هل يُشفى جميع المرضى على أيديهم؟ بل الحق أنَّه على الرغم من كل نوع من العلاج يأتي على بعض المرضى وقت حين يقول الطبيب إنَّه لا يمكن فعل شيء له. والمبدأ نفسه ينطبق على كل مهنة. خذوا المحامين أو المهندسين مثلاً، إنَّهم يصلون أحياناً إلى مكان يجدون فيه الطريق مسدوداً أمامهم ولا يبقى أمامهم مجال إلا أنَّ ينصرهم الله من الغيب. ففي هذه الحالة لا يمكن أن يكشف الغمة إلا الله. هذا ما ذُكر في الآية المذكورة ﴿فَالِّقُ الْإِصْبَاح﴾. أما لو تم الاكتفاء بالقول إنَّ الله تعالى يزيل المشاكل، لما شمل مضموننا يشمله التعبير: "فالِقُ الْإِصْبَاح" كما ينشأ بكيفية الليل والصبح. فهذه الاستعارة بيّنت مضموناً طويلاً في كلمات وجيبة جداً.

**الثانية:** الاستعارة تؤدي إلى سعة الآفاق. يقول الله تعالى في القرآن عن اليهود إنَّا جعلناهم قردة وخنازير. لو قال القرآن إنَّا جعلناهم عديمي الحياة لما شملت هذه الكلمات الجزء الواحد من الألف أيضاً مقارنة مع ما تشمله الكلمات "قردة وخنازير" لأنَّ للقردة والخنازير عشرات الصفات وليس صفة واحدة. فمثلاً قلة الحياة حَالَة، والقدرة حَالَة، والخنزير يكون وسخاً جداً، كما يكون اليهود أيضاً وسخين. ذات مرة سافرت في باخرة وركبها بعض اليهود أيضاً وكانوا وسخين لدرجةٍ كأنَّهم كتّاسون. ولكن عندما وصلت السفينة إلى مومباي، رأيت بعض الناس لا يلبسون لباساً فاخراً. فقلت في نفسي مستغرباً: من أين جاء هؤلاء الناس؟ ثم تبيّن لاحقاً أنَّهم اليهود أنفسهم الذين كانوا معنا في السفر كلَّه.

لقد استخدم الله تعالى كلمة "قردة وختنائزير" للبيان أن فيهم كافة الصفات التي توجد في القرد والختنائزير. لو أكتفى الله بالقول إن اليهود وسخون وفساق لما أدّت هذه الكلمات مضموناً تؤديها الكلمات: "قردة وختنائزير". باختصار، قد وُسّع نطاق المضمون كثيراً باستخدام كلمات "قردة وختنائزير"، لدرجة أنّ هناك بعض الصفات للقرد والختنائزير التي اكتُشفت اليوم، هي موجودة في اليهود أيضاً. فمثلاً في القرد عادة التقليد، وهذه العادة بالغة ذروتها في اليهود أيضاً. فقال عليه السلام عن اليهود إنهم ليسوا فساقاً فقط بل هم مقلدون جداً أيضاً. كذلك القرد يخاف الماء، واليهود أيضاً يعيشون في البر دائمًا ولا يسافرون في البحر عموماً. هذا، وهناك أكثر من عشر صفات توجد في اليهود وقد ذكرها الله تعالى كلها في كلمة قردة وختنائزير. لو لم يستخدم الله كلمة قردة وختنائزير وذكر صفاتهم منفصلاً وكانت هناك حاجة إلى سورة كاملة لهذا الغرض. أما الخنزير في فيها أيضاً عيوب كثيرة؛ منها مثلاً أن الخنزير يمشي على خط مستقيم دائماً ولا يغير الطريق، لدرجة أنه يهاجم أيضاً على خط مستقيم. وهذا العيب يوجد في اليهود أيضاً فلا يغيرون شعب حياتهم. يكون الخنزير وسخا، كذلك هو حال اليهود. هذا، وتوجد في الخنزير بعض الأمراض وهي توجد في اليهود بكثرة، ولكن لا أريد ذكرها.

**الثالثة:** هناك حاجة إلى التشبيه والاستعارة من أجل التبعيد؛ أي إن الهدف من التشبيه والاستعارة هو إعلاء شأن المضمون وتوسيع الآفاق. فمثلاً إن رؤية يوسف عليه السلام أبويه وإخوته في المنام بصورة الشمس والقمر والكواكب كانت استعارة. لو تم الاكتفاء بقول الآباء والأخوة فقط لما أدّت هذه الكلمات مفهوماً يكمن في الشمس والقمر والكواكب، لأنّ الشمس والقمر والكواكب تشمل مفهوماً واسعاً جداً. فمثلاً قد أخبر الله تعالى يوسفَ أنه مع أن إخوتك يعادونك حالياً وحالتهم العملية ليست جيدة، ولكن الله تعالى سيهدي العالم بواسطة أولادهم كما تحدى النجوم. هذا كان مضموناً واسعاً وما كان أداوه بكلمة الإخوة ممكناً، إلا أنه تم أداوه بكلمة الكواكب.

**الرابعة:** الاستعارة ضرورية لتقريب المضمون أيضاً، أي يكون المضمون أحياناً واسعاً لدرجة أنّ الإنسان لا يقدر على فهمه ما لم يقرّب إلى الأذهان بطريقة معينة. فمثلاً عندما نقول إن الله تعالى يحب كثيراً، يسأل الطفل: كم يحب الله؟ فلو قلنا له: هو يحب أكثر من الأمم، لفهم فوراً، مع أنه لا مجال للمقارنة بين حب الأمم وحب الله تعالى. لذلك قالت بعض الأديان إن الله أَمْ وَأَبْ لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يدرك حب الله ما لم يُذكر على سبيل الاستعارة. إذن، الاستعارة والتشبيه شيء مهم جداً، وهو يشكلان جزءاً من الكلام ككلمات أخرى تماماً ولا يمكن إهمالهما بأي حال. حيثما كان المضمون واسعاً واستحال أداؤه بكلمات وجيبة فسوف تُستخدم الاستعارة لا محالة، بل الأحرف أيضاً نوع من الاستعارة. فمثلاً عندما نقول: الفرس، فهذه تشبيه واستعارة اقتُرِح في كلام الإنسان، وإنما لو تم شرح كلمة الفرس لكان مشكلة كبيرة. يُروى أنه كان هناك شخص ضرير لم يسبق له أكل الأرز المطبوخ بالحليب. وذات يوم دعاه شخص للطعام، وأخبره تلميذه أن صاحب البيت طبخ الأرز بالحليب. سأله الضرير، ما نوعية هذا الطعام؟ قال له تلميذه: إنه طعام حلو وأبيض اللون. ولما لم يكن الرجل الضرير يعرف الألوان أيضاً فسأل التلميذ: كيف هو اللون الأبيض؟ لَوْيَ التلميذ يده مثل عنق "مالك الحزين"، ولما تلمّسها الضرير بيده قال غاضباً: لن أَلِي هذه الدعوة، لأنّ هذا الطعام المطبوخ بالحليب سيعمل بحلقي ويقتلني لأنّه معوج. هذه طرفة ولكن الحق أنه لو لم يكن المراد من "مالك الحزين" طائراً علينا ومن الفرس دابة معينة، والمراد من الحمار دابة كذا وكذا، فقد يزعم الناس الفرس حماراً والبقرة فرساً. إذن، الاستعارة جزء مهم في كلام الإنسان، ولا يمكن إهمالها بأي حال.

## استحالة أداء بعض المفاهيم بغير الاستعارة

الحق أنه من المستحيل بيان المضمنون بغير استخدام الاستعارة على ما يرام. فمثلاً لو صدر من أحد حمقٌ لوصف بأنه "حمار". وإذا كان هناك شخص شجاع لوصفناه بـ "الأسد". ولو لم نستخدم كلمة الأسد، وببساطةٍ سَمِّيناه شجاعاً، فإن الذي لا يقدر على فهم الاستعارة لن يُدرك من كلمة الشجاع مفهومها سيدركه من كلمة الأسد. أما إذا استخدم المرء الاستعارة بصورة خاطئة فهذا أمر آخر. فمثلاً تُطلق كلمة "حمار" على من يقوم بعمل في غير محله دائمًا. فمثلاً لو أردنا إزاحة الدواب الأخرى من الطريق في أثناء مشيتها عليه، سوف تنزاح جانبًا، أما إذا حاولنا إزاحة الحمار لاعتراض الطريق وسدّه. إذن، لو أطلقنا على أحد كلمة "الأحمق" فلن يستنتج منها أنه يقوم بأعمال في غير محلها، أما إذا أطلقنا عليه كلمة "الحمار" فسيفهم السامع فوراً أنه يقوم بأعمال في غير محلها. كذلك يُستخدم الحمار لحمل الأنفال أيضاً. فقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم في ذم علماء اليهود مثل الحمار الذي يحمل كتاباً. فالذين يدركون أن من أهداف إطلاق كلمة الحمار على أحد الإشارة إلى أنه سيء الأعمال، سيفهمون فوراً أن الذي أطلق عليه هذه الكلمة ليس سيء الأعمال فقط بل يقوم بها في غير محلها. ولكن إطلاق كلمة الأحمق أو الغبي فقط لا يؤدي هذا المفهوم. كذلك المفهوم الذي يترشح من إطلاق الاسم "الأسد" على أحد، لا يترشح منه أنه شجاع فقط، لأن من مزايا الأسد أنه لا يهاجم دون سبب، ويغض الطرف عن الضعيف. لو استلقى المرء أمام الأسد لما هاجمه إلا إذا كان معتاداً على الاصطياد. لقد لوحظت هذه الميزة في الأسد لدرجة أن بعض الأطفال الصغار كانوا مستلقيين فجاء أسدٌ إلى هناك صدفة، فبدأ يلعقهم بدلاً من الهجوم عليهم. كذلك الأسد لا يخاف فقط. فهذه مزايا توجد في الأسد. فلو أطلقنا على أحد كلمة "الشجاع" فقط، فهي توحى بالشجاعة والبسالة فيه، ولكن لن يتبيّن منها أن صاحبها لا يهاجم

دون سبب ويغض الطرف عن الضعيف، ولا يوجد فيه الخوف والذعر. ثالثا: توجد في الأسد هيبةٌ. وهذه الصفة أيضاً خاصة بالأَسَد، إذ قد خلق الله فيه هيبة؛ فلا يخاف المرء هجومه فقط بل يخاف منظره أيضاً.

باختصار، الاستعارة توسيع الموضوع، والدليل على ذلك أن الأَحَلَام تكون مبنية على الاستعارات في تسعين بالمائة من الحالات. فمثلاً يرى المرء في المنام أنه يأكل البازنجان ويكون المراد أنه سيواجه حزناً. ويرى أحياناً أن قريبه الفلاي مات، ويكون المراد من ذلك أن صاحب المنام سينال عمراً طويلاً. ويرى أنه يذبح ابنه ويكون المراد من ذلك أنه ينذره لخدمة الدين. ويرى أنه يذبح ماعزاً ويكون المراد منه موت أحد أولاده. لا أريد الخوض الآن في نقاش فيما إذا كانت الرؤيا من الله تعالى أو نتيجة حالة ذهنية. وإذا كانت نتيجة حالة ذهنية، هذا يعني أن الأذهان كلها قررت أنه لا مندوحة من الاستعارة. إذن، إن شهادة البشر وشهادة الله تعالى متفقة على أنه لا مناص من الاستعارة. أما الأَخْطَار فَأَفْرُّ بِهَا. أَفْرُّ أَنَّ مُسِيَّحِينَ ضَلَّوْا نَتْيَاجَةَ عَدْمِ فَهْمِهِمِ الْاسْتِعَارَاتِ فَقْطًا؛ فَتَارَةً اتَّخَذُوا عِيسَى الْعَلِيَّاً إِلَهًا وَتَارَةً أُخْرَى حَسِبُوا الشَّرِيعَةَ لَعْنَةً. أما إذا كانت هناك وسيلة لإِزَالَةِ تلك الأَخْطَار فَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يَزِيلُهَا سَيُعَدُّ أَفْضَلَ كَلَامًا. (لا أتحدث هنا عن كلام الإنسان بل أتحدث عن الكتب الإلهامية)

### وسائل إزالة سوء الفهم

لقد استُخدِّمت الاستعارات في الكتب الإلهامية حتماً، ولكن ظل الأنبياء يأتون فيما بعد لإِزَالَةِ الأَخْطَار الناتجة عن سوء فهمها. وكلما أخطأ الناس في فهمها أزيل سوء فهمهم بواسطة الأنبياء، لكن لم تكن الشهادة الداخلية موجودة لفهمها. فمثلاً في الإنجيل أطلق ابن الله على المسيح *الْعَلِيَّاً*، ولكن لا توجد فيه شهادة داخلية لفهم هذه الاستعارة، لأن الله تعالى كان يعلم أن هذا التعليم مؤقت، وإذا أخطأ الناس فهمه سُتُّرَلَ شريعة كاملة. كما أن الحكومات عندما تصنع جسوراً مؤقتة تصنعها

بمواد تفيد لفترة وجيزة ولا تستخدم في بنائها مواداً قوية ومتينة. كذلك لما كانت التعاليم السابقة مؤقتة وكان الله تعالى قد قرر نسخها وإنزال تعليم كامل فلم يضع في تلك الكتب شهادة داخلية بل ظل يزيل الأخطار بالشهادة الخارجية. لذا لما انقطعت الشهادة الخارجية نُسخت الكتب الإلهامية السابقة. ولكن ما دام القرآن الكريم هداية أبدية لذا قدر الله تعالى لإزالة هذا النوع من الأخطار أمرین: أولهما إرسال المبعوثين. والثاني: شهادة داخلية، لكيلا تنشأ في المسلمين أخطاء تُضلهم جميعاً. ولما لم تكن مع الكتب السابقة هذه الأسباب لحمايتها لذا تعذر الناس من بعض مضمونها ولم يقدروا على فهم بعضها. فمثلاً هناك عدة آيات في الكتاب المقدس تقول ماذا يجب عليكم فعله إذا كانت في الثوب ضربة برص.<sup>١</sup>

ولكن إصابة الثوب البرص أمر يفوق فهم الإنسان، ولا يعلمه الأطباء أيضاً، ولكن في سفر اللاويين في الكتاب المقدس ذُكرت أنواع برص الأقمشة وعلاجها أيضاً. فلا بد أن تكون هذه استعارة. فمثلاً يمكن أن يكون المراد من القماش هو القلب ومن البرص قذارته، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَتَبَّأْبَكَ فَطَهَرَ﴾<sup>٢</sup>. وما دامت الشهادة الداخلية غير موجودة في الكتاب المقدس، وانقطعت سلسلة الأنبياء أيضاً، لذا يقرأ الإنسان هذه الأشياء فيه ويضحك.

لقد كلفت مؤخراً أستاذة ألمانية لتعليم بناتي، وكان إمامها بالإنجليزية قليلاً، فخطر بيالي أنه إذا كانت لا تعرف الإنجليزية فلنتعلم منها الألمانية. فظلت تعلم إلى فترة وجيزة، وذات يوم جاءني شخص وبلغته الدعوة فقالت الأستاذة: في كل كتاب توجد أمور الهدایة، وتوجد أمور قيمة في التوراة أيضاً فما الحاجة إلى الإيمان بالقرآن؟ قلت: لا اعتراض على وجود الهدایة بل الاعتراض هو على وجود

<sup>١</sup> اللاويين ١٣: ٤٧.

<sup>٢</sup> المدثر: ٥.

بعض الأمور اللاحقة فيها. قللت: هل يمكن أن يصاب القماش بالبرص. قالت: لا. قلت: هذا مذكور في الكتاب المقدس. فطلبت الكتاب المقدس وفتحت الفصل الذي فيه هذا الكلام ووضعته أمامها. فطلت الأستاذة تقرأه مرة بعد أخرى ناكسة رأسها إلى فترة طويلة وتفكير في الموضوع ثم قالت لي: هذا الأمر ي فوق عقلي، سأكتب إلى قسيس عن هذا الأمر وسأخبرك حين يأتي الجواب. قلت: لا يقدر القسيس أيضا على شرحه، ولكنها كتبت إلى قسيس فجاء الجواب منه بعد شهرين، ولم يكتبه القسيس بنفسه بل أملأه على إحدى صديقات الأستاذة المذكورة. وقال في الجواب: إذا أُعجبت بالإسلام حقا فاقبليه وإن فإن الديانية القومية هي الأفضل دائما، وأن الأمور من هذا النوع التي وردت في الكتاب المقدس ليست لإفهام الجميع.

إذن، الحق أن هذه كانت استعارة، ولكن ما دامت الشهادة الداخلية ليست موجودة وانقطعت أيضا سلسلة الأنبياء الذين كانوا يأتون لشرحها، فتعذر على الناس استيعاب هذه الأمور. ولكن القرآن الكريم يقدم لفهم الاستعارات الواردة فيه كلتا الشهادتين؛ أي الداخلية والخارجية. والفرق بين الكتب السابقة والقرآن الكريم - وإن كان التشبيه والاستعارات موجودا فيها كلها - هو أنه إذا أساء أحد الفهم لشيء في الكتب السابقة فإن تصحيحه لم يكن ممكنا من خلال تلك الكتب، أما لو أساء أحد فهم شيء ورد في القرآن الكريم لأمكن تصحيحه من القرآن نفسه. لذلك لا يمكن لأحد أن يحمل الاستعارات الواردة في القرآن الكريم محمل الحقيقة ولا أن يحمل الحقيقة محمل الاستعارة. أعترف أنه من الممكن أن يضل في وقت من الأوقات بعض مئة ألف من المسلمين نتيجة سوء الفهم، ولكن لا يمكن أن يضل جميعهم، مع أن المسيحيين ضلوا جميعا.

## القرآن الكريم بنفسه يشرح الاستعارات الواردة فيه

الادعاء الذي قدمته أن القرآن الكريم يشرح بنفسه الاستعارات الواردة فيه قدمه

القرآن بنفسه فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ فَيَتَبَعَّدُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ أَبْيَعَةُ الْفِتْنَةِ وَأَبْيَعَةُ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِحُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٨) أي أن بعض المضامين المذكورة في القرآن مُحْكَمَة، أي لم تُستخدم فيها الاستعارة، وهناك بعض الآيات التي استُخدمت فيها الاستعارات؛ بمعنى أنه توجد أيضاً كلمات متتشابهة، فقد أطلق على الإنسان مثلاً: "قد" أو "خنزير". فالذين يريدون الاعوجاج يتمسكون بآيات فيها استعارات ويحملونها محمل الحقيقة. فإن قيل عن اليهود إن الله جعلهم قردة، قالوا: إنهم جعلوا قردة حقيقة بمسخ شكلهم البشري. وإذا ورد أحجم جعلوا خنازير، قالوا: إنهم صاروا خنازير في الواقع. وإذا ذُكر استواء الله على العرش، قالوا: إن له ركبتين في الحقيقة، وهو جالس على عرش مادي، ويفعلون ذلك ﴿أَبْيَعَةُ الْفِتْنَةِ وَأَبْيَعَةُ تَأْوِيلِهِ﴾، ويفعلون ذلك لصرف المعنى عن الحقيقة. من معانٍ التأويل صرف الكلام سواء لإبعاد المعنى عن الحقيقة أو صرفه إلى الحقيقة. أما ﴿وَأَبْيَعَةُ تَأْوِيلِهِ﴾ فمعنى هنا صرفه عن الحقيقة. أي يُبعدون الناس عن المعنى الحقيقي بحمل الاستعارة على الحقيقة، مع أن الكلام يكون مبنياً على الاستعارة. ولكونه استعارة فإن الله وحده قادر على بيان مفهومه، لكونه عالم الغيب، وأن لكم أن تفهموه بأنفسكم.

وإذا قلت: كيف نعرف مفهوم الاستعارات؟ فقال الله تعالى: ﴿وَالرَّاسِحُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي قد يبيّننا مفهومها في القرآن الكريم، وعندما يطلع العالمون على كلام النوعين من الآيات، أي التي فيها الاستعارات وكذلك المبنية على الحقيقة، يقولون: ﴿كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي أن الآية المحتوية على الاستعارة من الله وكذلك التي تُحلّها،

لا يمكن أن يكون بينهما اختلاف؛ فمثلاً إذا قلنا زيدٌ حمارٌ، ثم قلنا إن زيداً نسخ كتاباً، فإن سألاً أحد حاملاً هذه الاستعارة محمل الحقيقة: هل زيد دابة؟ فلا بد له أن يكذب الجملة الثانية التي تنسب إليه نسخ الكتاب. ولكن لو قلنا إن كلتا الجملتين صحيحة فلا بد من اعتبار الاستعارة استعارةً والحقيقة حقيقةً. يقول الله تعالى: ﴿الرَّاسُحُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رِبِّنَا﴾ أي يا من تحملون الاستعارة محمل الحقيقة ألا تعلمون أنه إذا حسبتم الاستعارة حقيقة فسوف تبطل بعض الآيات القرآنية ولن ثبت صحتها ما لم تُحصر الاستعارة في حدود الاستعارة، مع أن كلاً الأمرين من الله وصادق. وإذا كان كلاً الأمرين صحيحاً فلا بد من الاعتراف أن أحدهما حقيقة والآخر استعارة. ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. أي لا يستفيد إلا العقلاء.

### معجزة عيسى عليه السلام لإحياء الموتى

يمكن تقديم عدة أمثلة بهذا الشأن وأوضحتها إحياء الموتى. في القرآن الكريم<sup>١</sup> أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ومن ناحية ثانية ورد فيه أن روح الميت لا تعود إلى هذه الدنيا<sup>٢</sup>. وإذا استبطننا من إحياء الموتى أنه عليه السلام كان يحيي الموتى الحقيقيين، فلا بد من تكذيب إحدى هاتين الآيتين، والعياذ بالله. أما لو استبطننا أن المراد من الموتى هم الموتى الروحانيون لثبت صدق كلتا الآيتين. لذلك ففي آية قال الله تعالى لعيسى عليه السلام أن أحى الموتى، وقال في آية أخرى إن الموتى لا يعودون. وهكذا تمت الاستفادة من الاستعارة وزال الخطر أيضاً. كان الهدف من استخدام التعبير "إحياء الموتى" هو التوسيع في المضمون، فقد تحقق هذا الهدف أيضاً، حيث أزال الخطر المحتمل أيضاً أن يتخذ المسلمون البسطاء عيسى عليه السلام إلهاً.

١ انظر الآية (٥٠) من سورة آل عمران. (المترجم)

٢ انظر الآية ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمَنْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء ٩٥) والآية ١٠١ من سورة "المؤمنون". (المترجم)

## قول رسول الله ﷺ عن المجاز والاستعارة

الأحاديث أيضاً تؤيد هذا المعنى. فقد ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ سمع بعض الناس يتنازعون عن المحكمات والمتضادات ويقولون كلاماً غير لائق بسبب عدم فهمهم الفرق بين الاستعارة والحقيقة، فقال: لقد هلك من كان قبلكم نتيجة لهذا الاختلاف. ولقد نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً.<sup>١</sup> فإذا وجدت آية لا يصدق ظاهرها آية آخر فيجب تغيير تفسيرها والتفريق بين مضمون الآيتين. فلا تأخذوا أبداً من آية معنى يكذب آية أخرى. وإن لم تفهموا معناها فاسألو عالماً من علماء القرآن ليخبركم بمعناها. لقد بين رسول الله ﷺ أنه لا خلاف بين آيات القرآن الكريم، فإذا فهمتم الاستعارة فاجعلوها تابعة للآيات المحكمات وإلا فاذهبو إلى أحد من أهل العلم واسألوه ليحل مشكلة تواجهونها.

فبحسب هذا المبدأ الذي بيّنه القرآن والحديث، ترى أن بعض الأمور المنافية للعقل والSense توجد في الكتب الأخرى، ولكن القرآن الكريم منزه عنها، لأن حل الاستعارات المستخدمة موجود فيه.

## مثال الاستعارات المستخدمة في القرآن

يمكن أن نقدم عشرات الأمور من القرآن الكريم بهذا الشأن، ولكنني ما دمت لست بمعرض تفسير القرآن لذا سأذكر أمراً واحداً على سبيل المثال، وهو ما ذكر ضمن الآيات التي استهله بـها خطابي اليوم. يقول الله تعالى في هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَأْوِوْدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَّنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ \* وَوَرَثَ سُلَيْمَانُ دَأْوِوْدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا (أي عُلِّمْتُ أنا وأبِي) مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُتِينَا مِنْ

<sup>١</sup> أقرب نص وجدناه بهذا المعنى هو: عَنْ عَمْرُو بْنِ شَعِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ حَدَّهُ قَالَ: سَمِعَ الْيَهُودُ قَوْمًا يَتَدَارُّونَ فَقَالَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ إِلَهًا: ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِيَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضَهُ بَعْضًا. مسند أحمد. (المترجم)

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ \* وَحُشِرَ لِسْلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرْ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِّدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ \* وَتَفَقَّدَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْمُهْدُهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِيْنَ \* لَا عَدِيْنَهُ عَذَابًا شَدِيْدًا أَوْ لَأَذْبَخَنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* فَمَكَثَ عَيْرَ بَعِيْدٍ فَقَالَ أَحْطَثُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ وَجْهْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّا يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوْتِيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ \* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ \* أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُنْرِجُ الْحَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَلَمُ مَا تُحْكُمُونَ وَمَا تُعْلَمُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَادِيْنَ \* ادْهَبْ بِكَتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ ثَوَّلْ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَا دَأَيْرِجُونَ ﴿١﴾

وقد ورد مضمون مماثل في سورة سباء أيضا حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَأْوَدَ مِنَا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْيَيْ مَعَهُ وَالْطَّيْرَ وَأَنَا لَهُ الْحَدِيدَ \* أَنِ اعْمَلَ سَابِعَاتٍ وَفَدِيرْ فِي السَّرَّدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ويقول ﷺ في سورة الأنبياء: ﴿وَسَحَرْنَا مَعَ دَأْوَدَ الْجِبَالَ يُسَيْحَنَ وَالْطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ \* وَعَلَمْنَا صَنْعَةَ لَبُوْسٍ لَكُمْ لِتُخْصِنُكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ وفي سورة ص: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَأْوَدَ ذَا الْأَيْدِيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِنَّا سَحَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَيْحَنَ بِالْعَشِيْرِ وَالْإِسْرَاقِ \* وَالْطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ \* وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْحِطَابِ﴾

يتبيّن من هذه الآيات أن الجن والطير والجibal أيضاً كانوا تحت سيطرة داود وسليمان عليهما السلام، وكما يعلمان لغة النمل، وكان عندهما هدّه يعمل لهم أعمالاً عظيمة.

### أقوال المفسرين الغربية

إن الذين لم يحاولوا قراءة المتشابهات في ضوء المحكمات يقولون إن داود وسليمان عليهما السلام كانوا يسيطران على الجبال والطيور والحيوانات الأخرى، وكانت كل هذه الأشياء تشتعل في ذكر الله مع داود عليه السلام. فكلما قال "سبحان الله" قالت الجبال والطيور والحيوانات "سبحان الله، سبحان الله" تلقائياً. كما من عادة الوعاظ الكشميريين أنهم كلما أرادوا قليلاً من الاستراحة أثناء إلقائهم المحاضرة، قالوا للحضور: صلوا على محمد صلوات الله عليه. كذلك كان داود عليه السلام يفعل؛ أي كلما تعب في أثناء ذكر الله قال لجبل هملايا: صل صلاة إبراهيمية، فكان يبدأ بها. وإذا استراح داود قال للجبل: أسكّت الآن وسأصلّي صلاة إبراهيمية بنفسي. يقول البعض إن قول الجبال: "سبحان الله" ليس بأمر عظيم، بل هي ترکع وتسجد أيضاً. فكلما سجد داود عليه السلام خرت الجبال والطيور والدواب كلها سجّداً وإذا رکع رکعت معه. والبعض لم يطمئنوا بهذا التأويل أيضاً فقالوا: الحق أنه حيّثما ذهب داود عليه السلام ذهب معه الجبال. كان داود عليه السلام في الشام ومع ذلك كانت جبال مثل "شوالك" وجبال الألب تتجلّى معه حثّما ذهب. كذلك كانت الطيور أيضاً تسبّح معه. في تلك الأيام ما كانت العصافير تغدر، ولا تطلق الشياه أصواتها المعتادة، بل كانت تقول: "سبحان الله، سبحان الله". ولا تسأّلوا كيف تحولت الشاة إلى طير، لأن هذا ما كُتب في التفاسير. فكان ذلك الزمن زماناً غريباً. كذلك كانت الله تعالى منة أخرى على سليمان عليه السلام إذ سلم إليه الجن، فكانت تعمل بحسبما يأمرها. كلما مشى سليمان كانت الطيور تظله بأجنحتها. يقول المفسرون أيضاً إن داود كان بطبعه ميلاً إلى الشك كثيراً. فكان إذا خرج من البيت قفل أبوابه على أزواجه. ذات مرة

عاد إلى بيته ورأى شاباً قوياً يتجول في بيته فانزعج منه كثيراً وقال: ألا تستحيي. ثم سأله: كيف دخلت البيت وكانت أبوابه كلها مغلقة؟ قال: أنا لست بحاجة إلى أي باب. فسأله داود: هل أنت ملك الموت؟ قال: نعم. فيقول المفسرون إنه أرْهق روحه. وعندما حان دفنه اجتمعت الطيور كلها وأظللته بأجنحتها.

يقولون أيضاً: إن سليمان العليّة كان يعرف منطق الطير. سأله أحد: هل كان يعرف منطق الدواب أيضاً أم لا؟ يقول المفسرون في الرد: كان يعلم منطق الدواب أيضاً ولكن لم تذكر بهذا الشأن إلا الطيور على سبيل الإيجاز. ويقولون أيضاً: شحّت الأمطار ذات عام فذهب الناس إلى سليمان العليّة وقالوا: تعالَ نصلي صلاة الاستسقاء. قال سليمان: لا تقلّقوا سوف ينزل المطر، وذلك لأنّ نملة كانت واقفة خارج مسكنها وتدعوا الله: يا ربّ أنزل المطر ولا سumont. وذات مرة مرّ بوادي النمل فأمرت نملة صاحبها بدخول مساكنها. لم يكتف المفسرون في بحوثهم بهذا الحد بل بحثوا عن قبائل النمل أيضاً، وقالوا إن للنمل أيضاً أقواماً وقبائل كما في الناس فئات عرقية مثل المغول والراجبوت والبشتون وغيرها. لعله ينفعكم العلم أن اسم إحدى قبائل النمل هو "بني الشيشان" كما يقول المفسرون. ويقولون أيضاً إن رئيسة قبيلة النمل تلك كانت عرجاء وقامتها بقدر الحروف. لقد اضطرب المفسرون إلى تلقيق هذين الحادثين نتيجة عدم فهمهم الاستعارة والتشبّه مع أن القصة كانت واضحة تمام الوضوح. وسألناه تلك الأحداث واحدة بعد الأخرى، وأذكر أولاً قصة داود العليّة.

### المراد من تسخير الجبال

يقول الله تعالى إننا سخّرنا لداود الجبال التي كانت تسبّح. فلتنظر؛ هل من حاجة إلى قصص مثلها؟ إذا كان الله تعالى قد قال عن داود العليّة أنه سخر الجبال له، فيقول الله تعالى عنا أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَحَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِإِمْرِهِ وَلِتَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* وَسَحَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

جِمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿الجاثية: ١٣-١٤﴾ أي يا أيها المؤمنون بِمُحَمَّد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ويَا أيها الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ؛ قد سخّرنا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ الْبَحَارَ لِتَجْرِي فِيهَا السُّفُنَ وَلِتَبْتَغُوا فَضْلَ اللَّهِ. وَلَمْ نَسْخِرْ الْبَحَارَ فَقْطًا بَلْ قَدْ سخّرْنَا لَكُمْ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِلْمُتَفَكِّرِينَ. هذه الآية تشرح جيداً آية جاءت عن سيدنا داود الْكَلِيلُ، لأنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيْنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يُوجَدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ أَكَانَ جَبَالًا أَوْ بَحَارًا كُلُّهُ مَسْخَرٌ لِلْإِنْسَانِ. فَمَنْ الْغَرِيبُ حَقًا أَنْ تَكُونَ الْجَبَالُ مَسْخَرَةً لِي أَيْضًا وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَتَحَرَّكُ مَعِي وَلَا حَجَرٌ وَاحِدٌ مِنْ الْهَمَلَاءِ يَبْيَنُ مَشْيَهُ مَعَ داود الْكَلِيلُ الْجَبَالُ كُلُّهُ. وَإِذَا حَدَثَتْ كُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ مَعَ داود الْكَلِيلُ فَيُبَيِّنُ أَنَّ تَحْدُثُ مَعَنِّا أَيْضًا. وَإِنْ لَمْ تَحْدُثْ مَعَنِّا فَبَيْنَ كُلِّ جَلَاءٍ أَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ مَعَ داود الْكَلِيلُ أَيْضًا.

### معنى تسبّح الجبال والطيور

أَمَا التسبّحُ، فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ إِنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْجَبَالَ وَالْطَّيُورَ كَانَتْ تَسْبَحُ مَعَ داود الْكَلِيلُ، فَهَلْ تَسْبَحُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْآنَ أَيْضًا؟ فَقَدْ رَدَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْجَمَعَةِ حِيثُ قَالَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ تَسْبَحُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ أَيْضًا، بَلْ يَسْبَحُ كُلُّ شَيْءٍ مُوْجَدٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَهَذَا السَّرَّاجُ الْمُوْجَدُ هُنَا وَمَكَبِّرُ الصَّوْتِ وَالْأَشْجَارُ وَأُوراقُهَا أَيْضًا تَسْبَحُ اللَّهُ تَعَالَى، بَلْ إِنَّ الْمَوْزَ وَقَشْرَهُ الَّذِي نَرْمِيهُ أَيْضًا يَسْبَحُ. كَمَا يَسْبَحُ الْخَبْزُ وَالصَّحْنُ، وَعِنْدَمَا تَشْرِيُونَ الشَّايَ فَتَسْبَحُ شَفَّاتَكُمْ وَالشَّايَ، وَالسَّكَرُ وَالْفَنْجَانُ، وَكَذَلِكَ الْمَنَازِلُ وَسَقْوَفُهَا وَجَدَرَاهَا وَأَبْوَابُهَا وَالْفَرْشُ الَّتِي تَسْتَلِقُونَ عَلَيْهَا، وَالرَّدَاءُ عَلَى الْفَرَاشِ وَالْوَسَادَةِ وَاللَّحَافِ أَيْضًا يَسْبَحُونَ. فَمَا دَامَ كُلُّ شَيْءٍ يَسْبَحُ، فَلِمَاذَا يُؤْخَذُ مَعْنِي آخَرٍ إِذَا جَاءَتِ الْكَلِمَاتُ نَفْسَهَا بِحَقِّ داود الْكَلِيلُ؟ فَكَلَّا الْأَمْرَيْنِ الْمُذَكُورَيْنِ بِحَقِّ داود الْكَلِيلُ مَذْكُورَانِ بِحَقِّنَا أَيْضًا إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ سَخَّرَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ، وَيَقُولُ أَيْضًا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسْبَحُ. لَقَدْ قِيلَ بِحَقِّ داود الْكَلِيلُ أَنَّ الْجَبَالَ وَالْطَّيُورَ فَقْطًا تَسْبَحُ، أَمَا بِحَقِّنَا فَقَدْ قِيلَ إِنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

والأرضين يُستحب. والسبب في ذلك أن المراد من التسبيح هو أن كل شيء يثبت أن الله تعالى منزه عن كل عيب ونقية. ولما كان مقدراً أن يزيل الإسلام عيوب العالم كله لذا أخبر المسلمين أن كل ما في السماوات والأرض يسبّح. أما داود عليه السلام فكان مقدراً له أن يزيل عيوب الجبال والطيور فقط ولم يكن مبعوثاً إلى العالم كله بل كان مبعوثاً إلى مكان محدد لذا سبّحت الجبال والطيور فقط في زمانه. أما محمد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم فكان مبعوثاً للعالم كله، لذا قال صلوات الله عليه وآله وسالم أيضاً: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً". (صحيح البخاري، كتاب الصلاة) فليست هناك أية قطعة من الأرض إلا وتسبيح. لذا حينما نذهب ستكون الأرض كلها مسجداً لنا. إن مضمون "يسبح لله" قد جعل بحق داود عليه السلام مقتضراً على الجبال فقط، لأن النبي صلوات الله عليه وآله وسالم كان مبعوثاً إلى كل ما في السماوات والأرض، بينما كان داود عليه السلام مبعوثاً إلى الجبال فقط.

أما الاستدلال من أوبي معه أن الجبال كانت تشتراك مع داود عليه السلام في تسبيحه، فجوابه أن ببركة محمد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم تشتراك كل ذرة من العالم في التسبيح. قد يقول قائل: أين أفضلية داود عليه السلام إذن؟ فليكن معلوماً أنه لا ميزة له في تسخير الجبال له، لأنني أثبتت من القرآن الكريم أن الله قد سحر للإنسان كل ما في السماوات والأرض، غير أن الذي يجعله الله تعالى ملكاً في بلد، فإنه يعطيه فيه عظمة أكبر من عامة الناس. صحيح أن كل ما في السماوات والأرض كان مسخراً لداود عليه السلام كما هو مسخر لعامة الناس. لكن كان داود عليه السلام حائزاً على ميزة إضافية وهي أن الله تعالى جعله ملكاً أيضاً. مع أن ما سحره له كان نفسه الذي جعل لنا وإن كان هناك فرق في عظمة هذا التسخير.

### يراد بالجبال زعماء القوم أيضاً

والآن أبين من خلال اللغة أن للجبال معنى آخر أيضاً، فقد ورد معنى الجبل:

"سيد القوم".<sup>١</sup>

<sup>١</sup> انظر لسان العرب.

إذن، إن معنى: **﴿وَسَحَرْنَا مَعَ دَاؤِدَ الْجِبَالَ﴾** هو أن داود عليه السلام كان الأول من ملوك اليهود الذي فتح القبائل المجاورة وخضعت له تلك القبائل. ولم يسبق داود عليه السلام ملك حكم أقوااماً أخرى أيضاً بالإضافة إلى قومه. وكان داود عليه السلام أول ملك أطاعه الملوك المجاوروون له. وإن قال قائل إنه قد وردت في القرآن بهذا الشأن كلمة: **﴿يُسَيِّحُ﴾** فكيف تستنبع منها معنى الطاعة؟ فجوابه: ما دامت الجبال مذكورة لذا جاءت كلمة **﴿يُسَيِّحُ﴾**، وإنما لها معنى - نظراً إلى زعماء القوم - إلا أن تلك الأقوام صارت مطيعة له.

### لم يذكر في القرآن تسبيح الطيور

أما "الطيير" فلم يذكر تسبيحها في القرآن الكريم ولم يذكر أيضاً أنها كانت تستريح مع داود عليه السلام. الحق أن الناس أخطأوا بهذا الشأن لعدم فهمهم قاعدة بسيطة من قواعد اللغة العربية وظنوا أن الطير أيضاً كانت تسبح مع الجبال، بينما يقول القرآن الكريم: **﴿وَسَحَرْنَا مَعَ دَاؤِدَ الْجِبَالَ يُسَيِّحُ وَالْطَّيْرُ﴾**، فقد جاءت كلمة "الطيير" هنا منصوبة، والفعل الذي نصبها هو: "سَحَرْنَا"، والمعنى هو أننا سحرنا لداود عليه السلام الجبال التي كانت تسبح، كذلك سحرنا الطير، ولكن لم يذكر التسبيح هنا. ولا يمكن الاستنتاج هنا إلا أنه كان يعلم استخدام الطير كما يستخدم الحمام الزاجل لإيصال الرسائل. إذن، ما ورد في القرآن الكريم هو: "سَحَرْنَا الطَّيْرَ" ولم يرد: ويسبح الطير. ويقول الله تعالى في آية أخرى: **﴿إِنَّا سَحَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَيِّحُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالْطَّيْرَ مَحْشُوَرَةً﴾**. وفي هذه الآية أيضاً إن الفعل الذي نصب الطير هو "سَحَرْ" فأستغربُ من أين استنبع المفسرون معنى تسبيح الطير.

وجاء في آية ثالثة: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاؤِدَ مِنَا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوَيْ مَعَهُ وَالْطَّيْرُ﴾**؛ أي قلنا للجبال أن تردد على تسبيح داود بالتسبيح، وآتيناه الطير أيضاً. إذن، فقد قيل هنا "آتينا الطير" وما قيل إن الطير كانت تسبح. إذن، الفعل الذي نصب الطير إنما هو "سَحَرْ" أو "آتَى". ومعنى العبارة أننا أعطينا داود الطير أيضاً. ولكنني أقول: ولو

استنتمجتم هنا معنى التسبيح أيضاً فأيُّ غرابة في تسبيح الطيور ما دام كل ما في الأرض والسماء يسبّح. إنني أستغرب دائماً من العلماء المعاصرین أنه إذا وردت آية بحق داود أو سليمان أو عيسى عليهم السلام يستنتجون منها معنىًّا وإذا جاءت آية مثلها بحق محمد رسول الله ﷺ يستنتجون منها معنى آخر. فلما قال الله تعالى عن داود عليه السلام بأن الجبال كانت تسبّح معه، قالوا: كانت الجبال تقول سبحان الله، سبحان الله فعلاً، وإذا قال الله تعالى بحق محمد رسول الله بأننا سخرنا له الأرض والسماء قالوا: المراد هنا هو التشبيه. كذلك إذا قيل بحق محمد رسول الله ﷺ إنه أحى الأموات قال المشايخ: المراد هنا هم الأموات الروحانيون، ولكن إذا وردت الكلمات نفسها بحق عيسى عليه السلام فلا يهدّأون ما لم يجعلوا الناس يقبلون أن عيسى أحى الناس بالنفح في مناخيرهم.

### ذكر الجنة

والآن أتناول الجنة بالذكر. ومن حُسن الصدف أنه يجلس أمامي الآن شخص يُعرف بقابض الجنة، ويجلس في يسارِي شخص يحاول باستمرار السيطرة على الجنّ. وأرجو أن يعفوا عنِّي إن قلت شيئاً يخالف طبعهما.

يتبيّن من القرآن الكريم أن هناك حلقاً يُسمى حنّا، سواءً أكان حلقاً جيداً أو سيئاً، ولا يسع أحد إنكاره. ليس السؤال هنا: هل يوجد مخلوق يسمى حنّا أم لا. بل السؤال قيد البحث هو عن الجنّ الذين كانوا مع سليمان، فالذِي ذُكر في قصة سليمان عليه السلام أنه كان هناك جيشاً متكوناً من الجنّ وكانوا يأتون له بالأخبار وكانوا يشتراكون معه في الحروب حتى ديسَت النمل أيضاً تحت أقدام الجنّ. إذن، النقاش هنا هو عن الجنّ الذين كانوا حاضرين دائماً والجيوش المتكونة منهم كانت تتحرك بيناً ويساراً دائماً.

### مجيء الجنّ إلى رسول الله ﷺ

يجب أن نرى أولاً وقبل كل شيء هل ورد ذكر الجنّ في القرآن الكريم بشأن سليمان عليه السلام فقط أو ورد عن نبي آخر أيضاً أنه جاءه الجنّ؟ فحين نقرأ القرآن

الكريم من هذا المنطلق نجد في سورة الأحقاف الآيات: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوهَا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذَرِينَ \* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ \* يَا قَوْمَنَا أَحِبُّيْوَا دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِهِ يَعْفُرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُحِلُّ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠-٣٢)

أي إذا حضر الجن مجلسه قالوا لبعضهم، اسكتوا لنسمع القرآن الكريم جيدا. وعندما انتهت التلاوة عادوا إلى قومهم وشرعوا في نشر الإسلام وقالوا: يا قومنا سمعنا... يتبيّن من ذلك أن موسى كان نبيا صادقا وكل ما قاله كان من عند الله؛ فهذا الكتاب يدعوا إلى الحق وبهدي إلى الصراط المستقيم...

يتبيّن من ذلك أن هؤلاء الجن كانوا قد آمنوا بالتوراة والقرآن ورسول الله ﷺ. إذن، لم يكن سليمان عليه السلام وحده رحمة الله آمن به الجن، بل يثبت من القرآن الكريم أنهم آمنوا بموسى عليه السلام ورسول الله عليه السلام أيضا. ولكن الأسف كل الأسف على الذين يسردون عن حسنة سليمان قصصا غريبة ويقولون إن سليمان كان يجلس على سجادة وكان يطلب من أربع من الجن أن يمسكوها من جوانبها الأربع و كانوا يطيرون به ليتنزه في السماوات. ولكن الجن الذين آمنوا في زمن رسول الله عليه السلام لا يخبر المشايخ عنهم مطلقا بأئمهم نصروه عليه السلام على هذا النحو مع أنه عليه السلام كان يسافر متكتبا صعوبات كبيرة. وفي كثير من الأحيان ما كان أصحابه عليه السلام يجدون المطاييا فكانوا يأتون النبي عليه السلام باكين طالبين أن يدبر لهم المطاييا وهم جاهزون للخروج معه. وقد سافر الصحابة عدة مرات أسفارا طويلة حفاةً، ولكن ما لانت قلوب هؤلاء الجنّة، قساة القلوب، ولم يساعدوه فقط على الرغم من مشاهدة معاناة وآلام تكبّدوها، أما في وقت سليمان عليه السلام فكان الجن يحملون الجيش كله ويوصلونه إلى مكان آخر، وأما في زمن النبي عليه السلام فلم يفعلوا شيئا حتى ليحملوا بضعة من المهاجرين ليوصلوا لهم إلى ميدان الحرب.

## دليل الذين لا يحملون هذه الكلمات محملاً الاستعارة

يقول بعض الناس إن الجنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ وموسى عليهما السلام كيان غير الإنسان، ولكن بقي أن نرى هل يقبل القرآن الكريم هذا المعنى؟ فإذا كانت هذه الكلمة استعارة فلا بد أن يكون القرآن الكريم قد حلّها في آية من آياته الأخرى. وفي حال عدم قبولها استعارة ستصطدم آياتان وسيحدث الخلاف في القرآن الكريم. لذا يجب أن نرى هل يحدث الخلاف في القرآن الكريم في حال عدم قبولها استعارة أم في حال قبولها استعارة. إن الذين لا يحملونها محملاً الاستعارة يقولون: إن شأن هذه الكلمة شأن الكلمة "الشيطان" الواردة في القرآن. فكما أن المراد من الشيطان كيان يختلف عن الناس، كذلك الجنّ كيان يختلف عن الناس، بينما يقول المفسرون بالإجماع عن: ﴿وَإِذَا حَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ إن المراد من الشيطان هنا هم اليهود وزعماؤهم الكبار. إذن، إذا أمكن أن يكون الإنسان شيطاناً فلماذا لا يمكن له أن يكون جنّاً؟

كذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوَحِّي بَعْضُهُمُ إِلَى بَعْضٍ رُّحْرُفَ الْقُوْلَ عُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣) في هذه الآية بين الله تعالى بصرامة أن هناك شياطين الإنس. فإذا أمكن وجود شياطين الإنس فلماذا لا يمكن وجود شياطين الجنّ؟ أي كما يمكن أن يكون من الناس من يسمون شياطين، كذلك يمكن أن يكون فيهم من يسمون جنّة. فتبين من القرآن الكريم نفسه أن الجنّ ما كانوا تحت سيطرة سليمان عليهما السلام فقط بل آمن الجنّ بموسى عليهما السلام وبالنبي ﷺ أيضاً.

**لقد بُعثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النَّاسِ لَا إِلَى الْجِنِّ**

والآن نرى إلى من بُعثَ النبي ﷺ؟ يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ (النساء: ٨٠) وقد بين عجلك في هذه الآية بكل صراحة أننا أرسلنا

محمدًا رسول الله ﷺ إلى الإنسان، ولو كان هناك خلق غريب آخر غير الإنسان يسمى جنًّا وآمنوا به ﷺ لوجب أن يقال: "وأرسلناك للناس والجنّ". ولكن الله تعالى لم يقل ذلك بل قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فلما كان النبي ﷺ قد بُعث إلى الناس فتبين بخلافه أنه كلما قيل بأن الجن آمنوا به كان المراد هم جنّ الإنسان حصرًا.

لقد ورد في القرآن الكريم عن موسى عليه السلام أيضًا: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِإِتْخَادِكُمُ الْعِجْلَ﴾ (البقرة: ٥٥) والحقيقة الثابتة هي أن الذين عبدوا العجل كانوا بني إسرائيل لا الجن، مع أنه ثابت من القرآن أن الجن آمنوا به. فثبت بكل وضوح أن المراد من هؤلاء الجن كانوا جنّ الإنسان، وليس الجن المزعومون بحسب أفكار عامة الناس. كذلك جاء في حديث عن جابر بن عبد الله قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... بُعْثُتُ إِلَى النَّاسِ كَفَّةً وَكَانَ النَّيْتُ يُبَعْثُ إِلَى قَوْمِهِ حَاصَّةً. (سنن النسائي) هنا يقول النبي ﷺ على وجه القطعية إنه لم يكن من الأنبياء السابقين نبي إلا وقد بُعث إلى قومه فقط ولكن المسلمين يقولون بأن سليمان عليه السلام كان مبعوثاً إلى الجن والطيور. إذا كان سليمان عليه السلام قد بُعث إلى الجن والطيور فعلاً فهذا يعني أنه كان أعلى من رسول الله ﷺ درجةً، والعياذ بالله لأنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الناس فقط.

### بعض الأدلة على كون الجن أنسا

ثم إذا كان الجن غير الإنسان فكيف صاروا مخاطبين؟ يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسَنِ﴾ (الأنعام: ١٢٩) أي عندما يُجمع الناس كلهم يوم القيمة سنقول مخاطبين الجن: يا حزب الجن، إنكم سيطرتم على معظم الناس.

لقد تعينا في البحث عن الجن بينما يقول القرآن الكريم بأن الجن مسيطرون على معظم الناس، مع أننا عندما نبحث عن الجن لا نجدهم. يردد الناس أورادًا ويقومون

بالمجاهدات وعندما يختل ذهنهم وحواسهم يقولون: ها قد جاء الجنُّ، مع أن أذهانهم تكون قد اختلت، ولا يأتي الجنُّ إلى أي إنسان مطلقاً حين تكون أذهانهم بخير وعلى ما يرام.

يقول الله تعالى في الآية المذكورة آنفاً: "قد استكثرتم من الإنس"، أي أن لهم علاقات مع معظم الناس، وسيقول الناس أيضاً إننا استفدنا منهم كثيراً. والآن تجولوا في حارتكم وقريتكم واسألوا الناس: هل يستفيد من الجن خمسون بالمائة أو واحد وخمسون بالمائة منهم؟ لن تجدوا شخصاً واحداً من المائة يقول إنه يستفيد من الجن وإن له علاقات مع الجن. فتبين بجلاء أنه ليس المراد من الجن هنا خلق سوى الإنسان، بل المراد هم جن الإنس، وعلاقات الصدقة بين جن الإنس تلاحظ بكثرة.

### الدليل من القرآن على أن الجن حزب من الناس

ثم هناك دليل أقوى من ذلك أيضاً وهو أن الله تعالى سيقول يوم القيمة لأهل النار: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَمَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ (الأنعام: ١٣١)، قولوا الآن بالله عليكم! ما دام الله تعالى يقول إن بعض الجن أيضاً منوا بمحمد رسول الله، ويقول من ناحية أخرى إن رسولنا أيضاً كان منهم، أفلأ يثبت من ذلك بصرامة أن هؤلاء الجن كانوا أناساً وما كانوا كياناً غير مرئي؟ ثم لا ينتهي الأمر هنا بل - بعد القول السابق - يقول الله تعالى: ﴿وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام: ١٣١) أي أن موسى وسليمان عليهم السلام ورسول الله ﷺ كانوا يُذرون الجن أيضاً، ويُخْفَفُونَهم الله ويوم الآخرة، فثبتت من ذلك بجلاء أن هؤلاء الجن كانوا جن الإنس، كما هناك شياطين الإنس، وهم ليسوا خلقاً من نوع آخر.

### لماذا لم ينصر الجن المؤمنون رسول الله ﷺ

والآن اسمعوا أيضاً: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّزُوهُ وَتُؤْفِرُوهُ﴾ (الفتح: ٩-١٠) أي قد أرسلناك يا رسولنا

شاهدنا على صفاتنا، ومبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين... فما دام الجنّ أيضاً آمنوا برسول الله ﷺ فهل لأحد أن يُثبت أنهم نصروا رسول الله ﷺ مرة؟ يأتي الجنّ - كما يُشاع بين الناس - بالأعذاب لشيخ بسيط وعادي، ولكنهم لا يأتون لرسول الله ﷺ حتى بكسرة خبز، وكان ﷺ كثيراً ما يضطر لتحمل الفاقة عدة وجبات. ذات مرة شاهد الصحابة آثار الضعف على وجهه الكريم وظنوا أنه ﷺ جائع، فذبح صحابي شاة وأطعمه ﷺ وبعض الصحابة. ولكن الجنّ لم يسعفوه بأية مناسبة كهذه. أرى أن هؤلاء الجنّ كانوا قساة القلوب جداً إذ لم يطعموا النبي ﷺ الذي آمنوا به خبراً أيضاً، ولكنهم يطعمون المشايخ المعاصرين تفاحاً وأعذاباً! فكيف صاروا مؤمنين إذن؟ بل كانوا كفاراً شديدي الكفر! الحق أن الفكرة القائلة بأن الجنّ خلقٌ مغایر للناس فكرة خاطئة تماماً.

الجنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ كانوا أناساً، وظلوا ينصرونه كما نصره الناس الآخرون. ولو اعترفنا بكونهم خلقاً غريباً لكان من واجب القائلين بذلك أن يرددوا على سؤال: لماذا لم ينصروا رسول الله ﷺ فقط مع أنهم كانوا قد آمنوا به، وأن القرآن الكريم أمرهم أن ينصروا رسول الله ﷺ؟

### الإنسان هو المخلوق الوحيد المكلف بالإيمان بالشريعة

ثم هناك دليل أقوى مما سبق أيضاً. يقول الله تعالى في سورة الأحزاب كقانون ثابت: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّهَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٣) أي عرضنا الشريعة والكلام على الخلق في السماوات والأرض وقلنا: هل من أحد يؤمن به ويعمل به؟ فقال الخلق السماوي كلهم بصوت واحد: لسنا قادرين على حمل عبء هذه الأمانة مطلقاً. ثم عرضنا الأمر على الأرضين وقلنا لأهلها: هل تحملون هذا العبء؟ قالوا: كلاً. ثم عرضناه على

الجبال، فرفضوا أيضاً، مع أن الناس يقولون عادة إن الجن يسكنون الجبال.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمِلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

أي خاف الجميع ولم يتشجع أحد لحمل هذه المسؤولية، فتقديم الإنسان وحده وقال: كُلِّفْنِي بالشريعة وسأعمل بها، وكان الإنسان ظلوماً لنفسه وجهولاً لأنَّه كان مشغوفاً بحبنا وغير مبال بالعواقب. ولم يبال بـكِبر العباء بل تقدم لحمله بكل شوق. انظروا الآن؛ يقول الله تعالى هنا بكل وضوح إن حامل الشريعة هو الإنسان وحده، وما من أحد مكْلَف بالشريعة سواه. فما دام الله كَلَّفَ الإنسان وحده بالشريعة فالسؤال هو: إذا كان الجن غير الإنسان فمن أين جاؤوا ولماذا آمنوا برسول الله ﷺ وبالقرآن الكريم؟ ولو قُبِلَ أئْمَنْ كيان غير الإنسان لبُطُلَ كلام الله تعالى لأنَّه يقول إن المخلوقات كلها سوى الإنسان رفضت العمل بهذه الشريعة. فما دام ثابتاً من القرآن الكريم أن الجن آمنوا برسول الله ﷺ فتبين بـجَلَاء أن المراد من الجن هنا هم جِنَّ الإنس فقط، وليس المراد خلق غير الإنسان، ولا أُعْتَرِفُ بالجنّ الذين يتلبّسون الناس.

يجلس أمامي الآن شخص كتب إلى سيدنا المسيح الموعود ﷺ أن الجن يأتون إلى أخيه وهم جاهزون للإيمان بـكُم. فرَدَ المسيح الموعود ﷺ عليه أن بلَّغَ هؤلاء الجن لماذا تقدُّون امرأة، بل اذهبوا بالحربي إلى الشيخ محمد حسين البطالوي أو الشيخ ثناء الله وأذوهما إن كنتم فاعلين. ماذا تجرون من إِيذاء امرأة مسكينة؟ لا شك أنه سيكون أنساً كثيرون يعتقدون سلفاً، نتيجة تأثير الثقافة الإنجليزية، أنه لا وجود لمثل هؤلاء الجن، ولكن لا ينشأ أمام المؤمن سؤال: ماذا يقول عقله؟ بل السؤال أمامه هو: ماذا يقول القرآن؟ فإذا كان القرآن يقول إن الجن من النوع المذكور آنفاً موجودون فستقول: آمناً وصدقنا. أما إذا ثبت من القرآن أنه ما من مخلوق اسمه الجن سوى الإنسان فلا بد لنا من قبول ذلك.

## يُطلق الجنّ على الأقوام المتكبرة والزعماء أيضًا

الحق أن بعض الأقوام تكون متكبرة جداً، ويظنون أنفسهم أعلى درجة من غيرهم. ولكن الله يأتي بصناديدهم أيضاً على باب أبيائه، لذا يسمى هؤلاء الناس حِجّاً. لقد رُوي أن شخصاً جاهلاً اسمه "بِيرَا" كان يسكن هنا في زمن المسيح الموعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلو أعطاه أحد بضع مليمات صبّ على طبيخه نصف زجاجة من زيت الكريوسين وأكله. وكان يجهل حتى أبسط الأمور الدينية، فسألَه الخليفة الأول ذات مرة: ما دينُك؟ لزم الرجل الصمت ولكنَه جاء بعد يوم أو يومين ببطاقة وطلب من حضرته أن يكتب إلى عمدة القرية. سأله حضرته: ماذا تريدين أن أكتب؟ قال: لقد سألتني عن ديني، وأريد أن أعرف من عمدة القرية خطياً ما هو ديني. كان الخليفة الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلح عليه دائماً أن يصلّي الصلاة، ولكنَه كان يقول: لا أعرف الصلاة، ولا أعلم شيئاً سوى القول: سبحان الله، سبحان الله. وذات يوم قال الخليفة الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الشخص "بِيرَا": إذا صليت خمس صلوات جماعة في يوم سأعطيك روبيتين جائزة، فبدأ بالصلاحة من صلاة العشاء في اليوم ذاته وكان عدد الصلوات الخمس سيكتمل عند صلاة المغرب في اليوم التالي. ولما كان عدد الضيوف القادمين قليلاً نسبياً فكان طعامه أيضاً يُجهَّز في بيته. عندما أُعدَ الطعام عند المغرب، نادته الخادمة من داخل البيت: يا "بِيرَا" تعال وخذ الطعام. وكان الرجل حينذاك في الصلاة وكانت صلاته الخامسة. ولكن الخادمة التي نادته لم تعرف أنه في الصلاة فطلت تناديَه، فقال الرجل بصوت عالٍ أثناء الصلاة: انتظري، سأأتي بعد أن أكمل التحيات.

ذات مرة أرسلَه المسيح الموعود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مدينة بطالة لأمر ما، ولقيه هنالك الشيخ محمد حسين البطالوي الذي كان يسعى جاهداً ليمنع الناس من الذهاب إلى قاديان. ولكنه لم يجد أحداً في ذلك اليوم فأمسك بالسيد "بِيرَا" وقال له: يا

"بيرا" لماذا أنت جالس في قاديان؟ قال بيرا: يا شيخ، لست إنساناً مثقفاً، غير أنني أعرف شيئاً واحداً وهو أن حضرة المرزا جالس في قاديان والناس يأتونه من أماكن بعيدة متجلشمين عناء السفر في عربات تجرها الأحصنة. أما أنت فتسكن في بطاله حيث يستطيع الناس الوصول إليك بسهولة ولكن لا يأتيك أحد، بل تأتي إلى محطة القطار كل يوم لتمعن الناس من الذهاب إلى قاديان، ولعل أحذityك قد تمرقت في هذا السبيل، ولكن الناس لا ينصلون لك. فلا بد أن هناك أمراً ما حتى ينجذب الناس تلقائياً إلى حضرة المرزا وعلى أقدام الشوق، بينما لا يتوجه إليك أحد.

إذن، الجن هم أناس لا يكادون يذعنون لأحد ولا يطيعون أحداً، ولكن عندما يقابلون الأنبياء تتغير حالتهم فجأة. خذوا مثلاً سيدنا عمر رض الذي ما كان مستعداً في البداية لسماع أي شيء عن الإسلام، لدرجة أنه تحمس ذات مرة وسل سيفه وخرج من بيته بنية قتل النبي صل، ولكنه عندما جاء إلى النبي صل سقط على قدميه. إذن، بعض الناس يملكون طبائع نارية ولكنهم عندما يقابلون الأنبياء تبرد طبائعهم فوراً. فأصحاب الطبائع من هذا القبيل يسمون جنا في اللغة العربية. كذلك يسمى كبار الناس جنا لأنهم يقون خافين عن أعين الناس بوجه عام، ويسكنون في بيوت كبيرة وفارهة ولا يقدر الناس الوصول إلى بابهم بسهولة.

### ما المراد من النملة؟

والآن أتناول ذكر النملة وما هي. ليكن معلوماً أنه قد جاء في القرآن الكريم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمَلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمَلُ اذْهُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٩).

والآن نرى ما المراد من النملة؟

أول ما يتبين أن المراد من النملة ليس النملة (الحشرة المعروفة عندنا) هو أن سياق الكلام بأن الله تعالى عَلِم سليمان صل منطق الطير، ولكن الدليل الذي

قدِّم على ذلك هو أنه عندما تكلمت النملة فِهِم سليمان كلامها. بينما لما كان الادعاء أن سليمان كان يعرف منطق الطير فكان من المفروض أن يقدم دليلاً أن بُلْبُل تكلم بمناسبة كذا وقال سليمان إن البُلْبُل يقول كذا وكذا، ولكن الناس يقولون: عندما تكلمت النملة فِهِم سليمان كلامها مع أن النملة ليست طيراً. فإذا قلنا إن المراد من النملة هي الحشرة المعروفة يصبح هذا الدليل غير معقول، لأن ما ي قوله القرآن الكريم هو إن سليمان كان يعرف منطق الطير وكان يفهمه، ولكن النملة هي التي تكلمت وفهم سليمان كلامها. إذن، أول ما يجدر بالتدبر هو: ما هي النملة؟ والأمر الآخر الجدير بالتأمل هو أن الفعل الوارد هنا هو: "حَطَمَ" ومعناه الكسرُ والهجوم بغضب. ولكن الناس يتزججونه بوجه عام: لثلا يدوسكم سليمان وجيشه. وهذا ليس بالمعنى الصحيح لكلمة "حطم". الحطم في العربية يعني الكسرُ، والهجوم بغضب وتوهُّد. (انظر لسان العرب)

وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم أحد أسماء نار جهنم: **«الْحَطَمَةُ»**، لأنها تحرق. ولا يعني ذلك أن للنار أقداماً وستدوس أهل الجحيم تحت أقدامها. إذن، معنى: **«لَا يَحْطِمُنَّكُمْ»** هو: لثلا يكسركم سليمان وجيشه أو يهاجمكم بغضب ويدمركم. السؤال الآن هو: هل يليق بسليمان **الْحَطَمَةُ** -الذي كان نبياً عظيم الشأن ويملك جيوشاً من الجن والإنس والطير- أن يصب حام غضبه فقط على النملة، الحشرة الضعيفة؟ هل يتوقع منه أن يعكف على الهجوم على النمل؟ لقد قلت آنفاً إن **«لَا يَحْطِمُنَّكُمْ»** لا يعني الدَّوس تحت الأقدام بل معناه هو كسرُ الشوكة والقوه، والهجوم، لذلك -في العربية- تُسمى السنة الشديدة (أي القحط) حاطوماً. (انظر لسان العرب) لأنها تكسر قوه الدولة. لو أخذنا هذا المعنى فيكون المراد أن النملة قالت لأخواتها أن ادخلن جحوركن لثلا يأتي سليمان وجيشه بالعاول ويحفروا جحورنا وينحرجو منها الغلال، وهكذا يكسرها قوتنا. هل لعاقل أن يقبل هذا المعنى؟

الدليل الثالث الواضح والبين جدا هو أن جميع الصيغ التي استخدمها الله تعالى هنا تُستخدم للعاقل؛ فمثلاً وردت كلمة "ادْخُلُوا"، بينما لخطاب النملة كان من المفروض أن تأتي "ادْخُلِي". كذلك ورد في "لا يحطمنكم" الضمير "كُم"، بينما للنملة كان من المفروض أن يأتي الضمير "كِ". إذن، إن كلمات القرآن الكريم توحى بجلاء أن المذكورين هنا كانوا أناساً، فاستُخدم بحقهم الضمير "كُم"، و"ادْخُلُوا" وما شابه. أما ما قيل: "ادْخُلُوا مساكنكم" فهذا الأسلوب ثابت في الأحاديث أيضاً.

من القانون الثابت أنه إذا مَرَ جيشٌ من مكان ودخل أهل المنطقة بيوقم وأغلقوا أبوابها فيكون معناه أنهم قبلوا هزيمتهم. فقد أعلن رسول الله ﷺ عند فتح مكة أنه لا تثريب على الذين دخلوا بيوقم وأغلقوا أبوابهم. وهذا ما قالت النملة أن ادخلوا بيوقم وأغلقوا أبوابها، وسيفهم سليمان عليه السلام أن هؤلاء لا يريدون مبارزته، أما لو بقينا في الخارج لأمكن أن يهاجمنا. فلما رأى سليمان عليه السلام هذا المشهد، ضحك وشكر الله على وصول خبر بِرَّه وتقواه إلى أبعد شاسعة، وهذا القوم الساكن بعيداً إلى هذا الحد يعرف أن سليمان لا يغزو ظلماً وطغياناً. وقالوا: لو أغلقنا أبوابنا لما هاجمنا ولن يتضرر شيء نملكة.

## البحث حول وادي النمل

أما العبارة "وادي النمل" فليكن معروفاً إنه قد ورد في "تاج العروس" وهو قاموس عربي معروف: "وادي النمل بين جبرين وعسقلان". وقد ورد في "تقويم البلدان، ص ٢٣٨" عن عسقلان ما معناه: كانت عسقلان من أكبر المدن على شاطئ البحر، وهي ميناء في فلسطين ملحقة بسيناء، وتقع على مسافة ١٢ ميلاً جانب الشمال. ويبدو أن جبرين مدينة تقع إلى الشمال في ولاية دمشق. إذن، وادي النمل يقع على شاطئ البحر مقابل أورشليم أو قريب منها في الطريق من دمشق إلى الحجاز، ولعله يبعد عن دمشق بجئة ميل تقريباً. في تلك المناطق كانت تسكن قبائل كثيرة من العرب ومدين إلى عهد سليمان عليه السلام. (تحديد المكان انظروا "خارطة فلسطين والشام"

بالعهد القديم والجديد، موسوعة نيلسن. أما "النملة" فقد ورد عنها في القاموس تحت "البرق": "والأبرقة من مياه نملة". أي أبرقه اسم واد، حيث توجد ينابيع قوم النملة. إذن، فقد وجدنا قوم النملة ووادي النمل أيضا، وتبين أن هذه المنطقة تقع في الشام قرب منطقة سليمان السُّلَيْمَانِيَّة. والغريب في الأمر أن الأسماء من هذا النوع كانت معروفة جدا في غابر الأزمان. فمثلا في أمريكا الجنوبيَّة كانت هناك أقوام بأسماء مثل: الذئب، الثعبان، العقرب وما شابهها. بل في بلادنا أيضا قوم اسمه "كادُّها" أي دُودة. كان في لا هور شخص معروف باسم نور الدين كادُّها. وكذلك هناك قوم اسمه يعني "الحشرات" أو "الديدان". وفي كشمير يسكن قوم اسمه في اللغة المحلية "هابت" ومعناه: الْدُّبُّ. كذلك كان في منطقة يسكنها سليمان السُّلَيْمَانِيَّة قوم اسمه "النملة".

### مسألة خلق الطير

والآن سأناقش مسألة "الطير". الأمر الأهم من بين الأمور الجديرة بالذكر هو مسألة "خلق الطير". وقد ألقىت عليها الضوء في خطابي في الجلسة السنوية قبل العام الماضي. ولكنني سأعيده بإيجاز لإكمال الموضوع. يقول الله تعالى في القرآن الكريم في ذكر المسيح الناصري السُّلَيْمَانِيَّة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالثَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْنِي قَدْ جَعَلْتُكُمْ بِأَيِّهِ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْنِي أَخْلَقْتُكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهِيَّةً الطَّيْرَ فَأَنْفَخْتُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩ - ٥٠) ويقول في آية: ﴿وَإِذْ عَلَمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالثَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطَّيْنِ كَهِيَّةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١١) ... أي أذكر حين كنت تقترح بِإِذْنِي خلقا - مثلما يخلق الطير - من أفراد ذوي خصلة طينية، ثم تنفس فيه ويسُبِّح قابلا للطيران بِإِذْنِي.

إذن، فقد جاء في كلتا الآيتين ذكر "الطير"، ويجب أن نرى هل هذه استعارة أو حقيقة؟ لوأخذنا هذا التعبير على حقيقته وأدَّى ذلك إلى بطلان آية أخرى لتبيَّن أنه استعارة. فحين نقرأ آيات أخرى من القرآن الكريم من هذا المنطلق نجد آية جاء

فيها: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ حَلَقُوا كَحَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْحَلْقُ عَلَيْهِمْ فُلِّ اللَّهِ حَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ﴾ (الرعد: ١٧)

انظروا الآن، يقول الله تعالى في هذه الآية بكل وضوح أن الذين يجعلون شركاء الله - والذين يزعم الناس عنهم أنهم أيضا يملكون صفة الخلق - فإن هذا الاعتقاد بحقهم تهمة بحثة، وأن الخلق الذي يقدر عليه الله تعالى لا يسع أحدا أن يخلق حلقا مثله. ولو قيلنا أن المسيح عليه السلام كان يخلق الطير فعلا بطلت آية سورة الرعد المذكورة آنفا. أما إذا كانت هذه الآية صادقة فلا بد من الاعتراف بالضرورة أن معنى خلق الطير الذي يفهمه الناس خاطئ تماما، ولا بد من القبول أن هذا التعبير استعارة، وإن تبدو هذه الآيات متعارضة فيما بينها. والآن بقي سؤال: ما هو تفسيره؟

### معنى "كمية الطير"

يجب أن يكون معلوما بشأن شرح ذلك أن الكلمات الواردة في القرآن الكريم هي: ﴿أَخْلَقْ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَمِيَّةً الطَّيْرِ﴾، أي أنا أيضا أفعل كما تخلق الطير أفراخها. ولكن الناس استنتجوا منه معنى خاطئا وزعموا أن المسيح كان يخلق الطير. كل إنسان يعلم أن الطير يجلس على البيض ويفقس بحرارة جسمه وترجع من البيض أفراخ. فيقول عيسى عليه السلام بأي أيضا أجعل تحت جناب صحيتي أناسا يكون ماء الإلهام موجودا في طينتهم، فأجعلهم تحت أجنبتي، وأخلق فيهم روحانية، فيبدأون بالطيران إلى الله في غضون أيام قلائل.

انظروا الآن كم أصبح مضمون القرآن الكريم ساميا وكيف صار معناه رفيع المستوى! أين منه المعنى القائل بأنه عليه السلام كان يخلق الحفافيش وما شابهها! علما أن المسيح عليه السلام لم يقل في أي مكان في القرآن الكريم: إني أخلق الطير، بل قال: ﴿كَمِيَّةً الطَّيْرِ﴾، أي كما يفقس الطير البيض كذلك أربى الناس، والذين توجد فيهم قدرة على التقدم يبدأون بالطيران. من المعلوم أن الطير يفقس بيضه إلى أربعين يوما على أكثر تقدير، بل تخرج الأفراخ منها أحيانا في مدة أقل من ذلك. ولعل

المسيح الموعود الظاهر أُعلن بناء على ذلك أن الذي ينكر معجزاتي فليمكث عندي إلى أربعين يوما، وسيريه الله تعالى معجزة حتما. فمن كان ذو فطرة سليمة يتسبّع بصبغة النبي سريعا، ولكن كما أن البيضة ذات القشر القاسي تأخذ أربعين يوما لتفقس، كذلك لو مكث شخص ذو قلب قاس أيضا في صحبةنبي إلى أربعين يوما لرأى معجزة ما. لذلك نصح القرآن الكريم قائلا: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبية: ١١٩) أي يا أيها الذين فيكم ميل إلى الحسنة، ما زلت مثل البيض ولم تصبحوا طيرا، فأتوا تحت أجححة صادق ستتصبحون طيورا في غضون أيام قلائل.

### طُرْفة

تحضرني طرفة عن التعبير: ﴿تَشَابَهَ الْخُلُقُ﴾. يُروى أن المسيح الموعود الظاهر قال لشيخ ناصحا إياه في ضوء هذه الآية: أين الطيور التي خلقها عيسى الظاهر? كان حضرته الظاهر يقصد من ذلك أنه قد يخطر ببال الشيخ أنه إذا خلق عيسى الظاهر أيضا طيورا وخلق الله أيضا طيورا، فهذا يعني التشابه في الخلق، وهذا الأمر يخالف القرآن الكريم. فقال الشيخ: لقد اخترط كلا النوعين من الطيور مع بعضها.

### التأمل من منطلق ترتيب المضمون

والآن أبين أن الآية نفسها تدحض المعنى الذي يستنتجها عامة الناس. يقول المسيح الظاهر بحسب الآية: ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيِّهِ مِنْ رَبِّكُمْ أَيِّ أَحْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةُ الطَّيْرِ فَأَنْعَنْجُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْبِيَ الْمُؤْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخَلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٥٠) أمعنا النظر في ترتيب الآية، ثم فكروا هل ينطبق هنا معنى خلق الطير بأي حال؟ من الواضح تماما أنه ما من كلمة من كلمات القرآن الكريم تخلو من الترتيب. فلو افترضنا جدلا أن المراد هنا هو خلق الطير حسرا، فلا بد من التأمل هل يوجد في الآية أي ترتيب بعد قبول هذا المعنى؟ يقول بعض الناس إنه لا ترتيب في هذه الآية، ولكنني سأثبت أن الترتيب موجود. والدليل على ذلك

أن هذه الآية وردت في مكаниن، في سورة آل عمران وفي سورة المائدة. والترتيب في كلا المكانين **هُوَ هُوَ**. إذن، إن الاحتفاظ بالترتيب نفسه في كلا المكانين يدل على هدف معين. إننا نعتقد بالترتيب في كل آية من آيات القرآن الكريم. أما الذين لا يقولون بالترتيب فلا بد لهم أيضاً أن يقبلوا الترتيب في هذه الآية في كل الأحوال وإن لم يقبلوه في آيات أخرى، لأنه قد ورد ذكر "خلق الطير" أولاً، ثم ذكر "الأكمه" ثم "الأبرص" ثم "إحياء الموتى". لم ترد الكلمات المذكورة بهذا الترتيب في آية واحدة بل في كليهما. ونلاحظ أنه **يُهَمَّ** في الترتيب بأمرتين اثنين عادة، فتارة يُذكر الأمر الأصغر أولاً ثم يُذكر أكبر منه ثم الأكبر. وتارة أخرى يُذكر الأمر الأكبر ثم الذي دونه ثم الذي دونه ثم الأدنى. وفي كلا الترتيبين **يُهَمَّ** بفائدة المخاطب، أي يُذكر الموضوع بأسلوب يسهل عليه فهمه.

والآن نلاحظ أنه إذا قبلنا معنى يستتجه معارضونا فلا يتراء أي ترتيب فيه، لأنه إذا قيل إن الأمر الأكبر ذكر في الآية أولاً ثم الأدنى فالأدنى، سيكون المعنى أن الأمر الأكبر هو خلق الطير، وإعطاء العميان عيوناً أدنى منه، وشفاء المجنومين أدنى من إعطاء العميان عيوناً، وإحياء الموتى هو الأدنى، مع أن كل شخص يعرف أن إحياء الموتى هو الأكبر. إذن، هذا الترتيب ليس صحيحاً. أما إذا قبلنا أنه قد ذُكر الأمر الأدنى أولاً ثم الأكبر فالأكبر، فهذا يعني أن الأسهل في العالم هو خلق الطير، وإعطاء العميان عيوناً أصعب منه، وشفاء المجنوم أكثر صعوبة منه، والأصعب هو إحياء الموتى. ففي هذه الحالة يكون الأسهل هو خلق الطير. وإذا كان ذلك صحيحاً فليخلق لنا المشايخ بضعة من الطير فحسب.

والمشكلة الثانية التي تظهر للعيان في حال أخذ هذا المعنى هي أن الله تعالى عَدَ إحياء الموتى أدنى، وعد الخلق أكبر في آية أخرى، فيقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ حَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٨٠-٧٩) أي من عادة الإنسان أن يخوض في القيل والقال

بشأنه وينسى خلقه ويقول: من يحيي العظام وهي رميم؟ يقول الله تعالى: إنكم تنكرن إحياء الموتى لأنكم لا تفهمون كيف تعود العظام الرميم إلى حالتها الأصلية، مع أن الذي خلقكم أول مرة لا يصعب عليه الخلق مرة ثانية. فقال عليه السلام: قل هؤلاء الناس إنه سيحيي العظام وهي رميم مَن خلقها أول مرة، وهو بكل خلق علیم. يتبيّن من هاتين الآيتين أن الله تعالى عَدَ إحياء الموتى أدنى وعدَ الخلق أكبر. ولكن في حال قبول الترتيب المذكور يضطر المرء إلى القبول بأن الخلق أدنى وإحياء الموتى أكبر.

بالإضافة إلى ذلك، في حال قبول الترتيب المذكور يُعد شفاء الجنومين أصعب من خلق الطير، مع أن بعض الجنومين يُشفون بحقن الأطباء زيت نبتة شولوغرا (Chaulmoogra) في أجسام المرضى وطلي أجسادهم بزيتها. فكان من المفروض أن يبدأ خلق العصافير والحمام قبل شفاء هؤلاء الجنومين، مع أنه ما من أحد يقدر على خلقها. قد يقال إن هذا الترتيب يفيد المخاطب، ولكن هذا أيضا ليس صحيحا؛ لأنه إذا كان المسيح عليه السلام يخلق عصفوراً أمام يهودي فهل سيتأثر اليهودي بذلك أكثر أم بشفائه الجنوم والأعمى؟ فكان من المفروض أن يقدّم ذِكر ما كان أكثر تأثيرا، ولكنه مذكور فيما بعد.

### معنى خلق الطير وإحياء الموتى بحسب الترتيب القرآني

باختصار، المعنى الذي يأخذه المشايخ المعارضون لنا يتبيّن خطأه أيا كان ترتيب الآية. ولكن لا يقع أي اعتراض على الترتيب بأخذ المعنى الذي نذهب إليه. نحن نستنتج من خلق الطير معنى خلق الناس الروحانيين. والحق أنه إذا سُئل سائل: ماذا فعل المسيح الموعود عليه السلام؟ ورُدَّ عليه أنه خلق في العالم جماعة نشيطة، يقول الناس عادة: هذا ليس بأمر ذي بال، لأن خلق أناس روحانيين هو الأقل درجة في رأي عامة الناس، لذلك قُدِّم ذكره. ثم ذُكر شفاء الأكماء. لما كان ذلك شيء مادي ويراه كل واحد لذلك ذُكر فيما بعد. وما دام شفاء الأبرص أكبر من شفاء الأكماء لذا ذُكر الأبرص بعد الأكماء. ومعنى إحياء الموتى هو أن يُشرف أحد على الموت

تماماً ثم يُحيي نتيجة الدعاء. صحيح أن مرض المجنوم والأبرص يكون شديد الوطأة ولكن تكون القوة قائمة، ولكن الذي انقطع نبضه ثم عاد إلى الحياة بداعي النبي أو صالح فيكون ذلك معجزة عظيمة. ففي حال قبول المعنى الذي ذهبنا إليه يثبت الترتيب الحالي صحيحاً تماماً ولا يقع عليه أي اعتراض أبداً.

### الهدهد لم يكن طيراً بل كان إنساناً

كذلك ذُكر الطير للمرة الثانية في سوانح سيدنا سليمان عليه السلام، حيث نقل الله تعالى قول سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ وليس المراد من الطير في هذه الآية الطيور من كل الأنواع، لأن:

١- لما غاب الهدهد عن مكانه غضب سليمان عليه السلام بشدة وقال: ﴿لَا عَذَّبْنَاهُ عَذَّابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما دام الهدهد غائباً فسأعاقبه بعقوبة شديدة أو لأذبحنه وإلا فليقدم دليلاً على غيابه. قولوا الآن بالله عليكم: هل يتبيّن من القرآن الكريم أن الطيور عاقلة بحيث لو صدر منها خطأ لوجب على الإنسان أن يسلّ سيفه في وجهها ويقول لها: قدّمي عذرك وإنما قطعت عنقك؟ أو هل رأيتم يوماً جاركم يمسك هدهداً ويضربه بالعصا، ويقول له: لماذا أكلت حبوي؟ وإذا رأيتم أحداً يفعل ذلك، ألا تحسّبونه مجرّداً؟ والذين ينسبون هذا الأمر إلى سليمان عليه السلام، أي أنه قال عن الهدهد كذا وكذا، فإنّهم يصدرون الفتوى نفسها بمحنة عليه السلام. بل يقول سليمان عليه السلام: ﴿لَا عَذَّبْنَاهُ عَذَّابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي فليقدم دليلاً واضحاً ومنطقياً. وهذا يعني أن الهدهد كان مطلاعاً على الأدلة أيضاً مثل سocrates وأبقراط وأفلاطون، فكان سليمان عليه السلام يتوقّع أن يقدم الهدهد أدلة.

٢- يقول القرآن الكريم: ﴿وَحُشِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ﴾، ولكن ذهب وهله إلى الهدهد فقط، فقال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهُدَ﴾. من المعلوم أن الذي تكون قامته أقصر من خمسة أقدام لا يصلح للتجنيد في الجيش، ولكن سليمان

اللَّهُمَّ إِنَّا بَدَأْنَا بِتَجْنِيدِ غَرِيبٍ إِذْ كَانَ الْمَهْدُدُ أَيْضًا فِي جَيْشِهِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ جَيْشُهُ مِنَ الْمَهْدُدِ مُوْجَوْدًا عِنْدَ سَلِيمَانَ اللَّهُمَّ لَكَانَ الْكَلَامُ بِهَذَا الشَّأْنِ فِي مَحْلِهِ. وَلَكِنَّ مَا يُقَالُ هُوَ إِنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ هَدْهُدٌ وَاحِدٌ فَقَطُّ. وَالْسُّؤَالُ هُوَ: أَيْةٌ مُهِمَّةٌ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْجُزَهَا هَدْهُدٌ وَاحِدٌ؟ وَمَاذَا كَانَ الْمَهْدُدُ مِنْ اصْطَحَابٍ طَيْرٍ وَاحِدٍ؟

٣- يقول القرآن الكريم إن المهدد أخبر بأمور كذا وكذا بعد عودته، والمعجزة التي ذكرت إنما هي أن سليمان كان يعلم منطق الطير. الحق أنه كان من المفروض أن تُذكر هنا معجزة سليمان اللَّهُمَّ ولكن ما ذُكر هو معجزة المهدد وهي أكبر من معجزة سليمان! وأضف إلى ذلك أن معرفة منطق الطير ليس خاصاً بسليمان اللَّهُمَّ، بل الحق أن جميع الصيادين يفهمون منطق الطير.

٤- الأمر الآخر هو أن المهدد ليس من فئة الطيور سريعة الطيران والتي تقوم بأسفار طويلة إلى هذا الحد. بل المهدد يموت حيث يولد. ولكن القرآن الكريم يقول - كما يُفهم - بأن المهدد طار من الشام وظل يطير إلى ثمان مئة ميل إلى أن وصل إلى ملك مملكة سباء وجاء بالخبر من هنالك. هذا يعني أن المهدد كان أسرع طيراناً من الطائرات الموجودة حالياً. صاحب المعجزة كان المهدد وليس سليمان، بينما كان المطلوب هو البيان أن سليمان اللَّهُمَّ أَظْهِرْ مَعْجِزَةً.

٥- كذلك تُذكر معجزة ثانية للهدد أنه كان مطلاً على أسرار دقيقة للشرك والتوحيد، وكان عارفاً بالمسائل التي لا يعرفها حتى المشايخ المعاصرون. فما أجمل فكرة التوحيد التي بينها المهدد إذ قال: ﴿وَجَدْنَاهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ثم انظروا إلى غيرته الدينية! المشايخ المعاصرون لا يتصدرون للوثنية وإن كانت تمارس في جوارهم، ولكن المهدد يسعى في كل حدب وصوب ويخبر سليمان اللَّهُمَّ أن الشرك يمارس في مكان كذا، والوثنية تمارس في مكان كذا.

٦- ثم كان المهدد عارفاً بأمور السياسة أيضاً إذ يقول: ﴿وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أن ملكرة سبأ تحلى بكافة صفات إدارة المثلث وعندها لوازم الحكومة كلها. وكأنه عاد بعد أن فحص كنوزها وفروع الدولة كلها وقدم تقريراً أنها تملك كل ما تكون الحكومة بحاجة إليه.

٧- كان المهدد مطلاً على الشيطان ونشاطاته أيضاً لأنه قال ما مفاده: أعرف أنه إذا نشأت العلاقة بين الإنسان والشيطان تتطرق الأفكار السيئة إلى الأذهان. بل كان مطلاً على نتائج تلك الأفكار أيضاً إذ يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّيِّئِ﴾ أي إن هذه الأفكار تؤدي إلى الصدأ على قلب الإنسان فيبتعد عن سبيل قرب الله تعالى. إذن، كان هذا المهدد عالماً كبيراً! لو عثر على هدهد مثله اليوم فينبغي تعينيه مفتياً.

٨- بقي الآن أمر واحد وهو أنه كان عارفاً بحقيقة عرش الحكومة أيضاً معرفة جيدة، إذ يقول لسليمان إن ملكرة سبأ تملك عرشاً لا تملكه أنت، فكأنه يطمعه ويحرضه على الهجوم عليها.

### لَمْ يَكُلُّ بِالشَّرِيعَةِ إِلَّا إِنْسَانٌ

إذن، كل الأمور المذكورة آنفاً توحّي بأن المهدد لم يكن طيراً، لأنه قد ورد في القرآن الكريم بكل جلاءً أن الأمانة - التي لم يستطع الملائكة تحملها ولم يستعد لتحملها أي شيء في السماوات والأرض - قد حملها الإنسان الذي كان عارفاً بأسرار شريعتنا. الملائكة يفهمون شيئاً واحداً فقط وهو الحسنة، ولكن الإنسان يعلم السيئة والحسنة كلتيهما ويستوعب الظروف كلها جيداً. يقول المفسرون إن المهدد كان حيواناً مع أن الآية التي ورد فيها: ﴿حَمَّلَهَا إِنْسَانٌ﴾ موجودة، ويتبيّن منها بوضوح تام أنه ما من مخلوق يحمل أسرار الشريعة إلا الإنسان. فلما كان المهدد عارفاً بأسرار الشريعة فلا بد أنه كان إنساناً لا طيراً.

## أنواع الطير المختلفة

والآن نرى هل توجد في القرآن الكريم إشارة إلى الطير أم لا؟ فحين نقرأ القرآن نجد أن الطيور عدة أنواع. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَبَابٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ لَا أُمُّمٌ أَمْتَالُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٩) هنا نرى أن الله تعالى قد وضع للطير شرطاً: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي الطيور التي تطير بجناحين، فيتبين من ذلك أن هناك طير لا يطير بأجنحة.

ثم نجد آية أوضح منها أيضاً وتبين منها بخلافه أن الطير اسم لشيء آخر في الحقيقة. يقول الله تعالى في سورة النور: ﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعَ لَهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور: ٤٢) أي ألا تعلم أن كل من في السماوات والأرضين من ذوي العقول يسبحون الله تعالى. والطير من هؤلاء ذوي العقول يعبدون الله صافين. وكل واحد من هذه الأحزاب يعرف طريق صلاته وتسبيحه، والله تعالى أعلم بكافة أعمال ذوي العقول هؤلاء. فهنا توجد ثلث أدلة على أنه ليس المراد من الطير هنا هم الطيور المعروفة.

الأول: ﴿يُسَيِّعَ لَهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لماذا أخرج الله "الطير" من هذه الجملة وذكره على حدة؟ ولتكن معلوماً أن كلمة "من" تُستخدم لدى ذوي العقول دائماً ولا تُستخدم لغير ذوي العقول. فلماذا أخرج الله "الطير" فقط من الجملة؟ ولماذا لم يذكر الجنّ والمخلوقات الأخرى على حدة؟ ألا يثبت من ذلك بخلافه أن الطير المذكور في الآية كيان منفصل؟

ثم يقول تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، مع أنه لم يذكر في القرآن الكريم كله أن الطير أيضاً تصلّي الصلاة ولكن الله يقول إنها لا تسبح فقط بل تعرف الصلاة أيضاً وتصلّي صافاتٍ. وقال تعالى في الآخر: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والمعلوم

أن صيغة "يفعلون" تُستخدم لذوي العقول. هلرأيتم مرة طيور تصلّى صافات؟ الطيور من هذا النوع في العالم كله هم المسلمون دون غيرهم. إن استخدام الكلمة: "مَنْ" وإيراد ﴿كُلُّ قَدْ عِلِّمَ صَلَاتَةً وَتَسْبِيحةً﴾، وذِكر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يوحّي بجلاء أن المذكورين هنا هم أنس، ولا سيما المؤمنون الذين يصلّون جماعة.

### لماذا أطلق "الطير" على المؤمنين

السؤال الآن هو: إذا كان المراد من الطير هنا هم المؤمنون فلماذا أطلق عليهم "الطير"؟ الجواب هو أن نتيجة أعمال الإنسان تُسمى في العربية "طيراً"، وهذا مذكور في آية أخرى في القرآن الكريم، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَإِذَا جَاءَكُمُ الْحُسْنَةَ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْيِرُوا بِمُوْسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٢) أي عندما تصيبهم فرحة وتحلّ بهم فترة من السعادة يقولون: هذا حُّنّنا. وإذا أصابهم إيذاء قالوا: هذه نتيجة نحوسة موسى وأصحابه. ولكن الله تعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي إن طائرهم (أي عملهم الذي يكسبونه) مسجل عند الله. يقولون إن العذاب حلّ بنا بسبب موسى وأصحابه، ولكن الله تعالى يقول إن طائركم موجود عندنا. لا تبدو في هذين الأمرين علاقة ظاهرياً، لذا يقول أصحاب المعاجم أن معنى الطير هو أعمال الإنسان أيضاً. فيقول الإمام الراغب: "وكل إنسان أزلمناه طائره في عنقه" أي عمله الذي طار عنه من خير وشر". (المفردات في غريب القرآن) وجاء في أقرب الموارد: "عمله الذي قُلِّدَه وطار عنه من خير أو شر".

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلَّ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل: ٤٨) أي عندما جاء صالح إلى قوم ثود قالوا إننا قد دُمرنا بسبب نحوسة أعمالك السيئة وأعمال أصحابك. كما يقول الناس اليوم بأن الطاعون والأوبئة الأخرى أتت بسبب نحوسة حضرة المرازا. يقول الله تعالى إن نبيّهم رد عليهم قائلاً: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلَّ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

ثم يقول الله تعالى في سورة يس بعد ذكر ثلاثة رسل: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنْرُجْمَنَّكُمْ وَلَيَمْسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذِكْرُهُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (يس: ٢٠ - ١٩)، أي حين جاءهم الرسل المصلحون قالوا إننا نتحمل مصائب جمّة بسببكم أنتم، ونحسب مجئكم نحسنة... فقال الرسل: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي حينما كتم سهلةكم مغبة سوء أعمالكم، ولا يمكن أن نضركم شيئاً. وهل تقولون ذلك لأننا نذّركم بأعمال حسنة؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ لذا ستواجهون مغبة أعمالكم حتماً. انظروا الآن، فقد استخدمت الكلمة "طائر" في هذه الآية أيضاً وجاءت بمعنى القوة العملية ونتيجة الأعمال. والآن لنرى ما هي حقيقة استخدام هذه الكلمة، وما نسبتها مع الإنسان؟ فحين نتأمل في هذا السؤال، نجد في سورة الإسراء آية تقربنا إلى الموضوع قيد البحث حيث يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرٍ فِي عُنْقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا \* افْرُأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا \* مِنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْرُ وَازْرَهُ وَرْزُ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٤ - ١٦)

لقد بين الله تعالى في هذه الآية معنى جيلاً لكلمة "طائر"، وقال إن طائر كل شخص مربوط بعنقه. ولنر ما معنى ذلك. فلما أخبرنا الله تعالى أن هذا الطير ملزّم بعنق كل إنسان مع أنه من المعروف أنه لا يوجد طائر مادي مربوط بعنق أحد. فتبين بجلاء أن المراد من الطائر هنا هو شيء آخر غير الطير العادي المعروف، وهو ليس إلا أن الله تعالى أطلق "الطائر" على قوة الإنسان العملية ونتيجة عمله. أي الأعمال التي يكسبها الإنسان تأخذ صورة الطائر رويداً رويداً. فإذا كسب الإنسان أعمالاً صالحة تطير بصاحبها إلى سماء الروحانية، كما تطير الطائرة بالمسافرين في جو السماء. ولو كانت أعماله سيئة لكان الطائر ضعيفاً، وبالتالي سيهبط الإنسان إلى الأسفل بدلاً من الطيران إلى الأعلى. إذن، يبين القرآن الكريم مضموناً أننا ألمّنا

كلَّ شخص طائره، فإذا كسبَ أعمالاً صالحة طار به طائره إلى الأعلى، وإنَّه فسيُهبطُ إلى الدرك الأسفل. كذلك بينَ سيدنا رسول الله ﷺ الموضوع نفسه كما يلي: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يجسنه. معنى ذلك أنَّ الإنسان يملك قوة على الطيران، وقد أُعطيَ أجنحةً لهذا الغرض. وقد يُبيِّنَ الموضوع نفسه في: ﴿كُلَّ إِنْسَانٍ أَرْمَنَاهُ طَائِرٌ فِي عُنْقِهِ﴾ بمعنى أنه عندما يولد مولود يُخلق معه طائره أيضاً. ولكن بعض الوالدين يخنقونه، أما الذين يجتنبون هذا الوضع يجدون فرصة الطيران. وبسبب الأعمال الصالحة يظل طائرهم (أي سعادتهم الفطرية) في تقدُّم. فيقول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنِحَةٌ مَئْنَى وَثُلَاثَ وَرْبَاعٌ﴾ (فاطر: ٢) ثم يذكر عَجَلَ الناس ويقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَزَّةَ فَلَلَّهِ الْعَزَّةُ جَمِيعًا إِنَّهُ يَصْعُدُ الْكَلْمَ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوُّرُ﴾ (فاطر: ١١) أي قد علمتم أننا خلقنا عدة أجنحة لتقدم الملائكة، ولكن أيها الناس اعلموا أن فرص التقدم متاحة لكم أيضاً، بل تستطيعون أن تسبقو الملائكة أيضاً إذا شئتم. فمن أراد منكم أن ينال العزة فليعلم أن العزة كلها بيد الله، وإليه تصلُّد الأرواح الصادقة والطيبة، و﴿الْكَلْمُ الطَّيِّبُ﴾، أي من تيسَّ له كلام الله نال التقدُّم. ولكن لا يقتصر الأمر على الكلام وحده بل: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي هو بحاجة إلى سند الأعمال الصالحة. إذن: ﴿الْكَلْمُ الطَّيِّبُ﴾ طائر، ولكنه لا يستطيع أن يطير وحده بل يصعد بمساعدة الأعمال الصالحة. كذلك يصبح له جناحان، ويساعدُهُما يغدو قادرًا على الطيران إلى سماء الروحانية.

والآن نرى أن في الطائر مزيتين، إحداهما أنه يطير عاليًا في الجو، وثانيةهما أن عشه يكون عاليًا دائمًا. والطيور التي تعيش في الأعشاش تبنيها على أغصان الأشجار، أما التي تعيش بغير عش فهنيء أيضًا تحظى على الأشجار ولا تختم على الأرض. وقد قيل في القرآن الكريم إن المؤمنين يتحلون بجاتين المزيتين نفسهما. يقول

الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ إِمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (المجادلة: ١٢) أي اسعوا أيها المؤمنون لتلبية نداء النبي أو خليفته إذ ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، إذن فقد ورد ذكر ميزة الطيران في المؤمنين أيضاً.

وميزة الطير الثانية هي أنه يصنع عشه عالياً دائماً. ووجود هذه الميزة نفسها مذكور في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَابِلِ \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ بِحَارَّةٍ وَلَا بَيْعٍ عَنْ دِيْكَرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيَّاتِهِ الرِّزْكَةَ﴾ (النور: ٣٧-٣٨). أي هنا النور ملحوظ في بيوت...، ولكن لا نقصد هنا البيوت بل المراد هو رفع الرجال الذين لا تلهيهم بحرارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

باختصار، فقد ذكر أن مزيتَي الطيور موجودتان في المؤمنين أيضاً، وقيل إن العمل الصالح يطير بالمؤمن إلى الله تعالى. وقد جاء في الأحاديث أيضاً أنه عندما يموت مؤمن يرفع الملائكة روحه إلى السماء ويقولون: افتحوا الأبواب، فها قد جاءت روح مؤمن. وعندما يموت كافر لا تُرفع روحه بل تُرمى في الحضيض.

باختصار، إن المراد من الطير هي الأرواح ذات المراتب العليا والمستعدة دائماً للصعود على قمم عالية من أجل الدين ولا تبالي بالمشاكل ولا تهاب المصائب والمصاعب بل تكون دائمة الاستعداد لتقديم كل نوع من التضحيات. ذات مرة قال صحابي للنبي ﷺ في غزوة بدر: مُرنا يا رسول الله، فتحن مستعدون لأنّ نخوض البحر بخيولنا ولن نتردد في ذلك أدنى تردد وسنعمل بأمرك دون أن نفكّر لماذا تأمرنا بذلك. فبإطلاق كلمة الطير على المؤمنين ذكر الله تعالى المواهب التي توجد في المؤمنين وقال بأنّهم يختارون حياة علياً ولا يختارون حياة أدنى، ويطيرون إلى الأعلى بدلاً من الجثوم في الأسفل.

## البحث عن الهدهد من منطلق التاريخ

والآن بقي سؤال: لماذا ورد في القرآن الكريم اسم "الهدهد"؟ لقد أجبت عليه من الناحية العقلية ولكنني أبين الآن ما المراد من الهدهد؟

عندما نقرأ كتب بني إسرائيل للبحث عن الهدهد ونتأمل هل ذُكر فيها أيّ هدهدٍ أم لا؟ نجد أن اسم "هُدَد" كان شائعاً بكثرة في اليهود في زمان سيدنا سليمان العليّة، ثم تحول من العربية إلى العربية وصار "هُدَهَد". كما يقال في العربية: "إِبْرَاهِيم" ولكن عندما تحول هذا الاسم إلى العربية صار "إِبْرَاهِيم". كذلك يقال في العربية "يَسُوع" وفي العربية "عِيسَى". يقال في العربية "مُوسَى" وفي العربية يُلفظ الاسم نفسه "مُوسَى". فمثلاً إذا طُلب من عربي أن يلفظ "لَكَهْنُؤ" لن يقدر على لفظها بشكل صحيح بل سيلفظ "لَكَهْنَأْ". فقد قيل في العربية "هُدَد" ولكن ما دام القرآن الكريم بالعربية فتحول الاسم نفسه إلى "هُدَهَد".

الحق أنه يتبيّن من إمعان النظر في التاريخ أن "هُدَد" كان اسماً لكثير من الملوك الأدوميين، ومعناه: "الضجة الكبيرة". ومعنى "الهُدُّ، والهُدَد" في العربية هو "الصوت الغليظ". (لسان العرب)

يبدو أن الناس كانوا يسمون الولد ذا الصوت الغليظ هُدَد أو هُدَهَد. كان هذا الاسم للملك الأدومي الثالث الذي هزم مَدِين. كذلك كان الاسم نفسه للملك الأخير. كما كان اسم أحد أبناء إسماعيل العليّة هَدَد.<sup>١</sup> ورد في (الكتاب المقدس، سِفِر الملوك الأول، الأصحاح ١١، العبارة ١٤) أن اسم أمير في عائلة أدولم كان "هَدَد" هكذا ورد الاسم في أشهر الترجمات العربية الذي هرب إلى مصر خشية مجزرة يوآب. وورد في الموسوعة اليهودية أنه - في العهد القديم - إذا ورد هذا الاسم

<sup>١</sup> انظر أخبار الأيام الأولى ١: ٣٠، وورد فيه هذا الاسم بالحاء (حدد) وليس بالهاء. (المترجم)

ووْهَدْهُ دونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فَعْلٌ أَوْ لِفْظٌ كَسْفَةٌ، فَمَعْنَاهُ: شَخْصٌ مِنْ عَائِلَةٍ أَدْوَمِيَّةٍ. إِذْنٌ، إِنْ هُدَدْ هُوَ اسْمٌ عَبْرِيٌّ وَقَدْ تَحُولَ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَى هُدَدْ. وَحِينَ يَكُونُ الْمُفَسِّرُونَ مُوَلِّعِينَ بِجَعْلِ تَفَاسِيرِهِمْ شِيَقَةً فَإِنَّهُمْ يَوْرُدُونَ فِي تَفَاسِيرِهِمْ أَحِيَا نَا قَصَصاً سَخِيفَةً أَيْضَا. وَمَثَلُ ذَلِكَ أَنْ كَلْمَةً "ضَبْ" اسْمٌ سَحْلِيَّةٌ مَعِينَةٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ "ضَبْ" اسْمَ رَئِيسٍ قَبْلِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ أَيْضَا - كَمَا هُنَاكَ اسْمٌ مَعْرُوفٌ فِي الْهَنْدُوسِ هُوَ "طَوْطَرَام" (أَيْ السَّيْدُ بِيَغَاء) - جَاءَ هَذَا الرَّئِيسُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ مَرَةٍ وَأَنْشَدَ قَصِيَّةً فِي مَدْحَهُ ﷺ. وَلَكِنْ فِي كِتَابِ الْوَعْظِ تُقْلَلُ هَذَا الْحَادِثُ كَفْصَةً أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ ذَاهِبًا فِي طَرِيقَهِ فَأَنْشَدَ الضَّبْ - الْحَيْوَانَ - قَصِيَّةً فِي مَدْحَهُ. إِذْنٌ، إِنَّ الَّذِينَ اخْتَرُعوا قَصَصَ أَنْ حَيْوَانَ الضَّبْ أَنْشَدَ قَصِيَّةً فِي مَدْحَهُ النَّبِيِّ ﷺ هُلْ يَصُعبُ عَلَيْهِمْ تَحْوِيلُ الْإِنْسَانِ الْمُسْمَى "هُدَدْ" إِلَى طَيْرٍ؟

بِالْخَتْصَارِ، لَقَدْ اسْتُخْدِمَتِ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْمَجازُ فِي عَدَدٍ آيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَلَكِنْ مَا دَامَ الْقُرْآنُ شَرِيعَةً دَائِمَةً، لَذَا وَضَعَ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ آيَاتٍ مُحَكَّمَةً أَيْضَا لَا تَسْمَحُ بِأَنْ يُسْتَنْبَطَ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى. وَإِذَا حُصِرَتِ الْإِسْتِعَارَةُ فِي حَدُودِ الْإِسْتِعَارَةِ اسْتَقَامَ مَعْنَاهَا، وَلَكِنْ إِذَا أُلْبِسَتِ الْإِسْتِعَارَةُ مَعْنَى الْحَقِيقَةِ سَيَحْدُثُ تَعَارُضٌ بَيْنَ آيَيْتَيْنِ.

بِالْخَتْصَارِ، إِنَّهَا لِمَعْجَزَةٍ عَظِيمَةٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحِيثُ لَا يَكُونُ لِكِتَابٍ إِلَهَامِيَّةً أُخْرَى أَنْ تَبَارِزَهُ فِيهَا أَبْدًا. مِنَ الْمُؤْسَفِ حَقًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَعَشُّوْرُوا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حِيَازَتِهِمْ كِتَابًا عَظِيمًا مِثْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَخْتَرُوهُ قَصَصًا عَجِيْبَةً وَغَرِيبَةً. فَالَّذِينَ يَقْصُونُ قَصَصَ النَّمَلَةِ يَقُولُونَ بِشَأْنِهِ أَنْ سَلِيمَانَ التَّكَلِّلَةَ سَأَلَ النَّمَلَةَ الَّتِي لَقِيَتْهُ: هَلْ رَأَيْتِ شَخْصًا أَكْبَرَ مِنِّي؟ قَالَتْ: لَا، يَبْدُو جَيْدًا أَنْ تَجْلِسَ أَنْتَ عَلَى الْعَرْشِ وَأَجْلِسَ أَنَا عَلَى الْأَرْضِ، فَأَوْلَا يَجِبُ أَنْ تُحْلِسَنِي بِجَانِبِكَ ثُمَّ سَأْرِدَ عَلَى سُؤَالِكَ. فَأَجْلَسَهَا سَلِيمَانُ عَلَى الْعَرْشِ، فَقَالَتْ: لَا زَلْتُ فِي مَكَانٍ مُنْخَفِضٍ، فَارْفَعْنِي أَكْثَرَ، فَرَفَعَهَا سَلِيمَانُ عَلَى يَدِيهِ. ثُمَّ قَالَتْ: لَسْتَ أَنْتَ بِأَكْبَرِ، بَلْ أَنَا أَكْبَرُ لِكُونِي جَالِسَةً عَلَى يَدِ سَلِيمَانَ.

بِالْخَتْصَارِ، كِتَابٌ هَؤُلَاءِ طَرَائِفَ عَجِيْبَةٍ تَشِيرُ ضَحْكَ السَّامِعِ.

لا شك في أن الاستعارات استُخدمت في الكتب السابقة أيضاً، ولكن حل تلك الاستعارات لم يكن موجوداً في تلك الكتب نفسها. ومقابل ذلك توجد في القرآن الكريم أيضاً استعارات، ولكنه قدّم معها حلّها أيضاً بحيث إذا تعّرّ أحد فيقدر العالم بالقرآن الكريم على شرح الموضوع له.

باختصار، إن القرآن الكريم حائز على عظمة لم تحصل لأي كتاب في العالم. وإذا كان أحد يدّعى أن كتابه الديني أيضاً حائز على هذه الأفضلية فأنا أتحداه أن بيّارزني. فيليبارزني أحد من أتباع الفيدات إن استطاع، وإذا كان أحد يتّبع التوراة فيليبارزني، وإذا كان أحد من أتباع الإنجيل فيليبارزني، وليعرض على استعارة وردت في القرآن الكريم أحسبها أنا أيضاً استعارة، وإن لم أستطع أن أقدم حلّها من القرآن الكريم نفسه فله أن يكذّبني في إعلاني هذا، وأما إذا قدمت حلّها فلا بد له من الاعتراف بأنه ليس في العالم كتاب سوى القرآن الكريم يتحلى بهذه المزية الفريدة.

لقد بيّنت إلى الآن ثمانية أو عشرة أمور فقط عن أفضلية القرآن الكريم، ولكنني أرى أنه يمكن تقديم ثلاثة دليل أو أكثر تثبت أفضلية القرآن الكريم، ولا يمكن أن تقاومها حتى الكتب الإلهامية ودونها مؤلفات البشر، ولكن بيانها ليس بوسعي... لقد كثرت الأشغال إلى درجة كبيرة، وإن صحتي أيضاً معتلة، وبالنظر إلى هذا الوضع يبدو إتمام هذا الأمر مستحيل في بادئ الرأي.

والآن أنفي خطابي وأوجه أنظاركم إليها الإخوة إلى أنكم حضرتم الجلسة وسمعتم الخطابات وانتهت الجلسة. ويجب أن تكون هناك فائدة من الجيء إلى هنا وسماع الخطابات، وإلا فالعودة إلى البيوت صفر اليدين ليست إلا إضاعة الأوقات والأموال. فاستفيدوا من الجلسة السنوية. وبالنظر إلى الموضوع الذي بيّنته هذه المرة حاولوا أن تكونوا طيوراً وتنشأ فيكم كمالات المهدد. إذا كان شخص من أمة سليمان اسمه هُدُد يستطيع أن يُنشئ في نفسه كمالات إلى درجة أنه يطلع على أسرار التوحيد الدقيقة، ويطلع على أمور السياسة بحيث يكون سليمان الثانية في الشام ولكن المهدد يأتي إليه

بأخبار اليمن ويقول: يجب القضاء على الشرك المنتشر هنالك، مع أن سليمان كان مبعوثاً إلى قوم معين فقط، فكم سيكون مخجلاً للقوم الذين أمرهم الله تعالى أن ينشروا دعوته في العالم كله، إن لم يكن في قلوبهم مواساة لدينهم! لعل الله تعالى سرد هذه القصة ليخجل المسلمين بقراءتها، وأخبر أن مثل أمة سليمان عليه السلام مقابل أمة سيدنا محمد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه هو كمثل المهدد مقابل الصقر. فما دام المهدد قادراً إلى إراعة الكلمات فلا يخفى على أحد كمالات يجب أن يخلقها الصقور في أنفسهم.

فيما صدور محمد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، أنشئوا في أنفسكم القوة وحماس الإخلاص. طيروا إلى السماء لأن إلهمكم موجود في الأعلى. لا تنتظروا إلى الأسفل ولا تتوجهوا إلى سفاسف الأمور لأن الله تعالى يريد أن يجعلكم طيوراً. كم من أمور بسيطة تجعلكم عرضة للابتلاء! فيحدث نزاع على شيء بسيط مثل: لماذا لم أُعطِ هذا المنصب أو ذلك، ويتعرّض أحد على عدم تعيينه سكريباً للجنة معينة. هذا يعني أن نظرة مثل هؤلاء الناس متوجهة إلى الأسفل دائماً مع أن الله تعالى يريد أن يجعلكم "طيوراً". يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرَمْنَاهُ طَائِرٌ فِي عُفْقِهِ﴾. والآن قولوا بالله عليكم، إذا كان شيء مربوطاً في عنق المرء فهل يمكن أن يتوجه عنقه إلى الأسفل؟ بل سينظر هذا الشخص إلى الأعلى دائماً. إذن، فقد أشار الله تعالى في هذا الآية إلى أن تجعلوا نظركم متوجهة إلى الأعلى لأنكم مسلمون، والمسلم لا يضاهيه أحد في العالم. فاستفيدوا من وعظي هذا ونصيحتي، وعندما تعودون إلى بيوتكم عودوا إليها بنية وعزيمة أنكم لن تصبحوا فئراناً وسحالي بل ستكونون "طيوراً" تطير في الأجواء وستحاولون سماع صوت ربكم.

### التضرع في حضرة الله

والآن أدعوا الله تعالى، وادعوا أنتم أيضاً لأنفسكم ولأقاربكم، لأن الدعاء من هذا النوع يكون جاماً. وادعوا لعامة الأحمدية ليتقىموا روحانياً، ولغير الأحمدية ليهتدوا،

ولأهل مدنكم ولأقاربكم ولجيرانكم، ولأهل وطنكم. وادعوا خاصة للجماعة أن يخلق الله في أفرادها التقوى الحقيقة والورع والتقدس إذ لا معنى لحياتنا إن لم نكن نموذجا عمليا للإسلام. فادعوا الله تعالى أن يخلق في قلوبنا حبا يفتر مقابلة كل حب آخر، ولا يتراءى لنا إلا ذلك الحب في كل مكان. وإذا أحببنا أزواجاً فليكن لوجه الله، وإذا أحببنا أبوينا فلوجه الله، وإذا أحببنا أنفسنا وأموالنا فابتغاً لوجه الله. فليكن مثلنا كمثل سيدنا عليٰ عليه السلام الذي عندما سأله ابنه الإمام الحسن ذات مرة: هل تحبني؟ قال عليه السلام: نعم. ثم سأله: هل تحب الله عَزَّوجَلَّ أيضاً؟ قال: نعم. فرد الإمام الحسن عليه السلام على ذلك: أليس هذا شركا إذ تشركني في حب الله؟ فقال عليٰ عليه السلام: يا بُنَيَّ! هذا ليس شركا، لأنه إذا جاء حبُك مقابل حب الله فسأضرب بحبك عرض الحائط.

فادعوا الله تعالى أن يرزقنا حبه، وإذا كان في قلوبنا حب أحد سواه فليكن ابتغاً لوجه الله وليس مستقلا عنه. وفقنا الله لكسب الأعمال الصالحة، وجنّبنا الدناءة والخسّة وهبوط العزيمة، ووسع أفكارنا وبارك في مساعدينا وتضحياتنا، ووفقنا لنستمر في العمل ليل نهار لنشر الإسلام دون أن نفكّر أننا فعلنا شيئاً. ووفقنا بفضله لإندر زينة الحياة، وأخرج من قلوبنا الطمع ونزعة الظلم وسوء الظن بإخواننا والبحث عن عيوبهم والقدح فيهم. جنّبنا الله كل عيب وفساد، وخلق فينا الرحمة ورزقنا علم القرآن، ووفقنا لتلاؤه وفهمه والعمل به، وأنشأ في قلوبنا حب كلامه ليصبح كلامه غذاء روحنا. أدعوا الله تعالى أن يخلق في قلوبنا نوراً وفي أعيننا نوراً وفي آذاننا نوراً وفي أذهاننا نوراً وفي أيدينا نوراً وفي أقدامنا نوراً، ول يكن بين أيدينا نور وخلفنا نور، وعن يميننا نور وعن يسارنا نور، وفي داخلنا نور وفي خارجنا نور حتى نصبح نوراً كاملاً. جنّبنا الله الظلم والظلمة، وبؤأنا في ملاذه، وأنقذنا من هجمات جميع الأعداء، وفتح علينا أبواب فضله، وزكي قلوبنا ليقع عليها ظلّ محمد رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصبح عباده عَبْدَهُ الذين يقول عنهم: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠-٣١).

ثم ادعوا للدعاة العاملين في خارج البلاد أن يبارك الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في مساعيهم التي يبذلونها لحماية الجماعة وتقديمها، ويبارك في أعمالهم القليلة، ويوضع في لسانهم تأثيراً وفي قلوبهم عزيمةً، وأن تمحو في قلوبهم كيفيات حب الله تعالى، وأن تكون حياتهم مقبولة عند الله.

ثم ادعوا الله تعالى أن يطهّر أجيالنا القادمة وألا تنتقل إليهم عيوب توجد فينا، بل يرثوا ما فينا من المزايا والحسنات. آمين، ثم آمين.

بعد الخطاب أَمَ حضرته دعاء جماعياً طويلاً وانتهت هذه الجلسة المباركة.

